

نفحات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

دار
القرآن

معركة الله (١)

تمت طباعة هذا الكتاب في شهر ربيع الأول سنة ١٤٢٥ هـ
بمطبعة دار القرآن في مكة المكرمة

نِجَافَاتُ الْقُرْآنِ

أَسْلُوبٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

العلم و المعرفة في القرآن

الجزء الثاني

مِمَّا حَرَّاهُ اللَّهُ الْعَظِيمُ الشَّيْخُ
نَاصِرُ مَكَّاهُ الشَّيْخُ
بِمُسَاعَدَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْفَضَلَاءِ

مكارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -

نقحات القرآن / مكارم الشيرازي: بمساعدة مجموعة من الفضلاء - قم: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ۱۴۳۶ ق. - ۱۳۸۴.

ISBN: 964-8139-75-X (دوره)

ج ۱۰

ISBN: 964-8139-91-۱ (ج ۲)

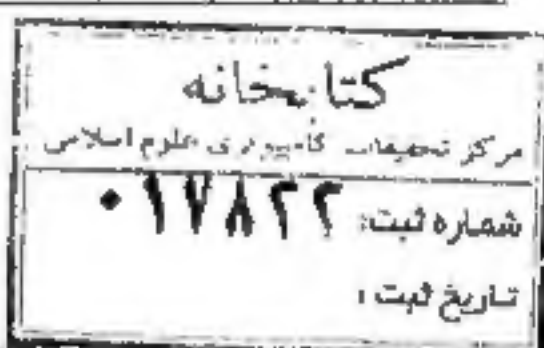
کتابنامه

۱. تفاسیر شیعه - قرن ۱۴ الف. مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ب. عنوان

۲۹۷ / ۱۷۹

BP ۹۸ / م ۷ ۱۳۸۴



نقحات القرآن / الجزء الثاني

المؤلف: سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مد ظله) بمساعدة مجموعة من الفضلاء
الكمية: ۲۰۰۰ نسخة

الطبعة: الأولى (الأصحیح الثاني)

تاريخ النشر: ۱۳۸۴ ش - ۱۴۳۶ هـ

عدد الصفحات: ۳۸۴ صفحة

حجم الغلاف: كبير

المطبعة: سليمانزاده

النشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)

رقمك: ۹۶۴-۸۱۳۹-۹۱-۱

رقمك الدورة: X- ۹۶۴-۸۱۳۹-۷۵



ایران - قم - شارع شهدا - فرع ۲۲

تلفکس: ۷۷۳۳۴۷۸-۲۵۱-۰۰۹۸

www.amiralmomeninpub.com

سعر الدورة: ۳۵۰۰۰ تومان



الأهداء:

إلى الذين أحبوا القرآن
إلى الذين يريدون أن ينهلوا المزيد من معين
الحياة الصافي
إلى الذين يتوقون إلى معرفة القرآن وفهمه
أكثر فأكثر.



مركز تحفة العلوم الإسلامية

بمساعدة العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني

محمد جعفر الإمامي

عبد الرسول الحسني

المرحوم محمد الأسدي

حسين الطوسي

سيد شمس الدين الروحاني

محمد محمدي الاشتهاردي

البحث عن عظمة الله ومعرفته في القرآن الكريم

أسئلة مهمة ومصيرية:

الكل يريد أن يعرف أجوبة هذه الأسئلة:

من أين جئنا؟

أين نحن؟

والى أين نذهب؟

وبالطبع فتحة سؤال مهم آخر إلى جانب هذه الأسئلة الثلاثة وهو:

«لماذا جئنا؟» هل كان لمجيئنا غاية؟ وإن كانت له غاية فما هي؟

وما هي الوسائل المتوفرة لدينا من أجل الوصول إلى هذه الغاية؟

من هو العبدىء الأصلي لهذا العالم، ومن أين تنبع عالم الخلقة؟

وأخيراً، هل هناك طريق لمعرفة هذا العبدىء الكبير؟

هذه هي أهم أسئلة البشر.

❦❦❦

إن الذين لا يرون ضرورة في العثور على أجوبة هذه الأسئلة هم الفرقى في الحياة المادية

اليومية إلى درجة أنهم لا يفكرون في شيء سوى «النوم والأكل واللذة الجنسية»، فهم

كالأنعام لا علم لهم «بالعالم الإلهي».

أو أنهم سعوا وحاولوا العثور على جواب هذه الأسئلة لكنهم لم يصلوا إلى شيء، فينسوا

وكفوا عن البحث.

وإنطلاقاً من أن «السؤال» هو الدافع «للحركة» دائماً، الحركة نحو الإجابة، وأن الأسئلة كلما كانت متنوعة وعميقة كانت الحركة أوسع وأكثر تجذراً، لهذا يجب أن تستقبل الأسئلة المهمة بصدور واسعة، ولا نخش كثرة الأسئلة وأهميتها، بل نستقبلها بكل رحابة صدر.

ويمكن أن تكون محصلة عمر الإنسان ليست في الحقيقة شيئاً سوى العثور على أجوبة الأسئلة، وأن نتيجة جهود كل علماء العالم والفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بلا استثناء هي الأجابة عن بعض هذه الأسئلة.

يحاول علماء الفلك أن يشرحوا كيفية ظهور السماوات والنظام الذي يحكمها، وعلماء الجيولوجيا يجيبون على الأسئلة ذات العلاقة بظهور الأرض وتركيبها، وعلماء الأنثروبولوجيا والتحليل النفسي وكل الذين يدرسون العلوم الإنسانية والاجتماعية يريدون أن يعثروا على أجوبة الأسئلة المتعلقة بهذا الموجود العجيب المسمى بـ «الإنسان».

ويريد الفلاسفة بمساعيهم المتواصلة أن يطلعوا على حقيقة المبدى، ومصير العالم - إلى الحد الذي يستطيع عقل البشر أن يصل إليه - أو الإجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بهذا المجال على الأقل.

نستنتج مما ذكرناه أنه إن كان البحث حول «العالم الموجود» ومبدأ هذا العالم الكبير الذي نعيش فيه من أقدم البحوث وأرسخ الأسئلة الإنسانية، فليس ذلك أمراً عجيباً. ولهذا نرى من واجبنا السعي بقدر استطاعتنا للعثور على جواب هذه الأسئلة:

من هو مبدىء عالم الوجود؟ وكيف يمكن معرفته؟

دوافع البحث عن عظمة الله



١ - الدافع العقلي

٢ - الدافع العاطفي

٣ - الدافع الفطري



مرکز تحقیقات کتاب ویراستاری و اسناد

١ - الدافع العقلي

تمهيد:

قلنا إنه لا توجد حركة بدون حافظ أو دافع، وبالطبع فلا يمكن للحركة في طريق معرفة مبدئ عالم الوجود أن تكون بلا حافظ. ومن هنا يذكر الفلاسفة والعلماء ثلاثة دوافع أساسية للبحث عن الله، وجميعها أشار إليها القرآن الكريم إشارات واضحة.



مركز تحقيقات علوم إسلامي

١ - الدافع العقلي.

٢ - الدافع العاطفي.

٣ - الدافع الفطري.

وللبعض من هذه الحوافز فروع خاصة بها.

لنبتدأ أولاً بـ «الدافع العقلي» ونأمل خاشعين في الآيات الكريمة أدناه:

١ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

(الأنفال / ٢٤)

٢ - «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

(آل عمران / ١٦٤)

٣ - «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

(الحديد / ٢٥)

بِالْقِسْطِ».

٤ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَعْلَمْ غَيْرُكُمْ أَنَّ الشُّكْرَ لِلَّهِ وَالطَّيِّبَاتِ وَلِيُحَرِّمَ عَلَيْكُمْ

(الأعراف / ١٥٧)

الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ».

٥ - «قَالَ هَلْ يُسْمِعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ... فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ»
(الشعراء / ٧٢، ٧٣، ٧٧)

٦ - «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» (فصلت / ١٣)
٧ - «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِرَبِّ مَتْنًى وَقُرَادًى ثُمَّ تَتَمَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»
(سبا / ٤٦)



جمع الآيات وتفسيرها

التحقيق من مسؤوليات الإنسان الأساسية:

الإنسان يحب الكمال، ويعتبر هذا الحب مفاداً عند كل الناس، يبقى أن كل إنسان يرى كماله في شيء معين، فيذهب نحوه، والبعض يذهبون وراء السراب يحسبونه ماءً ويلهثون حذق القيم الروحية والكمالات الخيالية ويتصورونها واقعاً.

قد يسمى هذا المبدأ أحياناً بـ **«ضرورة جهة المنفعة ودفع الضرر»** التي يجد الإنسان نفسه على ضوئها بأنه ملزم أن يكون له تعامل حاد مع كل موضوع يتعلق بمصيره (بلحاظ النفع والضرر).

لكن إطلاق تعبير «ضرورة» على هذا الحب بعد تعبيراً غير صحيح. فالمريرة عادة تطلق على أمور تؤثر في أفعال البشر أو باقي الأحياء بدون تدخل التفكير، ومن هنا تستعمل بالنسبة للحيوانات أيضاً.

وعلى هذا الأساس فمن الأفضل أن نستخدم تعبير **(الترغبات السامية)** التي استعملها البعض لمثل هذه الموارد.

وعلى كل حال، فالحب للكمال ولعمل نحو المصالح المعنوية والمادية ودفع كل أنواع الضرر يجبر الإنسان على التحقيق حتى في مواضيع الاحتمال، وكلما كان هذا الاحتمال أقوى، وذلك النفع والضرر أعظم، كان التحقيق والبحث أكثر ضرورة.

من المستحيل أن يحتمل شخص تأثير أمر مهم في مصيره، ولا يرى من واجبه التحقيق حوله.

وقضية الإيمان بالله والبحث عن الدين تعتبر من هذه القصايا بلا شك، لأن هاتك في محتوى الدين كلام عن القصايا المصيرية، وعن القصايا التي يرتبط حير وشر الإنسان بها ارتباطاً وثيقاً.

البعض يذكر مثلاً من أجل إيضاح هذا الموضوع، فيقول لنعرض أننا نحدد إسماً واقفاً على مفترق طريقين ونسمعه يقول بقطع ونقص: إن البقاء هنا خطر، واختيار هذا الطريق (إشارة إلى أحد الطريقين) هو الآخر خطر، وطريق الثاني هو طريق النجاة، ثم يذكر فرائن وشواهد لكل ما قاله، فما من شك أن أي عابر سبيل يرى نفسه ملزماً بالتحقيق ويعتقد أن اللامسالة نحاء هذه الأقوال مخالفة لحكم العقل، ويحاط هذه المقدمة بستقل إلى تفسير الآيات.



إن أول آية من الآيات المعينة بالبحث تعتبر دعوة رسول الله إلى الإسلام دعوة إلى العيش والحياة الحقيقية، وتدل هذه الدعوة على أن بالإمكان جمع كل محتوى الإسلام في مفهوم «الحياة»، الحياة التي تشمل الحياة المصوية وتشمل الحياة المادية، الحياة الشاملة والجامعة.

مع أن البعض فسر معنى الحياة هنا بأنه بخصوص «القرآن» أو «الإيمان» أو «الجهاد»^١، لكن مثلاً لا شك فيه أن الحياة مفهوم واسع يشمل كل هذه العناصر المذكورة وكل ما هو مؤثر في حياة الإنسان المعنوية والمادية.

وعلى كل حال، إذا دعانا شخص بمثل هذه الدعوة فهل يمكن أن ننص الطرف عن

١ ذكرت هذه الاحتمالات عن المفسرين في تفسير الكبير، ج ١٥ ص ١٤٧ وتفسير الميزان، ج ٩، ص ٤٣، و تفسير روح المعاني، ج ٨ ص ١٦٩، وتفسير القرطبي، ج ٤ ص ٢٨٢٥.

دعوته ولا نرى من مسؤوليتنا حتى التحقيق في هذه الدعوة؟.

هنا يريد القرآن بهذا التعبير أن يوجد حافظ لحركة نحو التحقيق حول الدين لدى كل من له القابلية على هذه الحركة.

يقول الراغب في كتاب «المفردات»: إن حقيقة «الاستجابة» هي السعي والقابلية على استلام الجواب، ولأن هذا الموضوع ينتهي عادةً بالجواب فقد فسروه بمعنى «الأجابة»^١.



الآية الثانية تعدُّ بعثة الرسول من أعظم نعم الإلهية التي منحها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، ثم تذكر في تفسير هذه لعمدة ثلاثة برامج مهتة للرسول - تلاوة الآيات الإلهية. «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ»، والتركة والتربية: «وَيُزَكِّيهِمْ»، وتحليم الكتاب والحكمة «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ».

ونتيجة كل هذه البرامج هي النجاة من «الضلال المبين» - «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لُفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»

إن كل هذه التعبيرات هي من أجل حياة محمّرات الحركة نحو الأسلام لدى الناس، أو على الأقل من أجل أن يرى كل إنسان مرمماً بالتحقيق حول الإسلام لأنه من الممكن أن يكون أكبر فزع وضرر للإنسان كاماً في حد التحقيق.

«المِنَّة»: من مادة «من» وهي في الأصل كما يعتقد بعض بمعنى القطع، لهذا فإن «أجر» غير ممنون» بمعنى الثواب الذي لا ينقطع أبداً، وكذلك يقال لتويع من الأصماغ والترشحات ذات الطعم الحلو والتي تشاهد كقطرات الصغيرة مستقرة على أوراق الأشجار تشبه قطرات الندى، يقال لها «المن».

ولكن يعتقد الراغب أن «المن» في الأصل بمعنى النجى الذي يزنون به، والذي أطلق

١. ولكن يجب الالتفات إلى أن «الإجابة» تكون فعلاً متدياً بدون حرف الجر، هي حين أن «الاستجابة» تذكر غالباً مع حرف اللام

فيما بعد على النعم الكبيرة الثقيلة .

وحينما تستخدم هذه المفردة في قاموس الإلهي فتعني « منح النعم » وحين تستخدم في قاموس البشر فتعني عالياً التحدث بالنعمة التي يجزلها الإنسان لغيره . من هنا كان معناها الأول إيجابياً والثاني سلبياً ومذموماً .



الآية الثالثة تشير إلى هدف مهم آخر من أهداف بعثة الأنبياء ، وهو مسألة « العدالة الاجتماعية » ، فتقول : « إنا جهزنا الرسل بثلاثة أشياء :
أولاً : البراهين الواضحة التي تشمل « المعجزات » ، و« البراهين العقلية » « لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات » .

ثانياً : الكتاب السماوي الذي يبين المعارف ويشرح للناس مسؤولياتهم و« ثانياً » : الميزان . وهو الوسيلة التي بواسطتها توزن الأشياء ، والمحب أن بعض المفسرين قد فسروا الميزان بالمعنى الذي ذكرناه ، في حين أن أغلب المفسرين يعتقدون أن المراد من الميزان هي الوسيلة التي بواسطتها يقام العدل فيشخص بواسطتها الحق من الباطل ، الريادة من النقصان ، الخير من الشر ، القيم الحقة والقيمة الباطلة والشريرة ، وبإمكاننا أن نفسر الميزان بالقوانين الإلهية .

صحيح أن هذه الأمور مذكورة في نص الكتب السماوية ، ولكن ذكرها بشكل مستقل جاء بسبب أهميتها .

وعلى كل حال ، هل من الممكن أن يسمع إنسان بأن شخصاً يدعي الدعوة إلى وجود مثل هذه الحقائق المصيرية ولا يرى أن من واجب التحقيق في هذه الدعوة ؟ .

يقول الفخر الرازي : الناس ثلاثة أنواع نوع في مقام « النفس المطمئنة » وهم المعيون بالآية . « أنزلنا معهم الكتاب » ، النوع الثاني في مقام « النفس اللوامة » وهم أصحاب اليمين الذين يحتاجون إلى معيار قياسي من أجل لمعرفة والأخلاق ، ليكونوا في أمان من الأخطاء

والتفريط، وهم المقصودون بتعبير «الميزان»، النوع الثالث هم أصحاب «النفس الأمارة» الذين تعيهم الآية. «انزلنا الحديد» أي هم مستحقون للعقاب والجزاء^١.

✽✽✽

في الآية الرابعة إشارة إلى الأبعاد المخفية لمحنة الأنبياء وبالأخصصوص السياسية والاجتماعية وتزول الأديان السماوية، وفيها ذكر لبعض أوصاف رسول الله ﷺ فقد جاءت لترعيب الناس في اتباعه، منها: «يَأْمُرُهُم بِالْفُرُوبِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» لا شك أن هذه أمور مصيرية وذات علاقة وثيقة بمسألة تكامل الإنسان وحيره وشره، بل مجرد احتمالها يكفي لدفعه نحو التحقيق

«الإِصْر» على وزن مصر، يعني في الأصل الربط والاعلاق وحبس الشيء بقوة وعموه، ثم أطلعت على الحمل الثقيل والأعمال الشاقة ^{لبي} لعوى الإنسان عن النشاط، ولهذا سُميت الجبال والمسامير التي تربط بها الأعمدة ^{بإصرار}، ولهذا أيضاً سمي العهد والوعد والدين بالإِصر^٢.

يمكن الاستنباط من التعابير التي وردت في كلمات أرباب اللغة والمفسرين أن معنى كلمة «إِصْر» الجسم الثقيل الذي يُربط بقدم سجين لكي لا يستطيع أن يتحرك، وإن ذكره إلى جانب الأغلال وهي الأطواق والسلاسل لي تقيدها الأعناق يناسب هذا المعنى، ثم أطلعت هذه المفردة على معنى آخر يتناسب وأصل الكلمة

مع إن الكثير من المفسرين فسروا «الإِصْر» و«الأغلال» في هذه الآية بمعنى التكاليف الشاقة أو الامتحانات العسيرة والمعقدة التي حلت بالأمم السابقة، لكن الطاهر أن لهاتين المفردتين مفهوماً أوسع وأشمل يستوعب كل أنواع قيود الأسر والحمل الثقيل الذي يسببه

١ التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢٤٦

٢ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٨٨؛ التفسير الكبير، ج ١٥، ص ٢٥؛ تفسير روح المعاني، ج ٩، ص ٧٢ ومفردات الرغب، مادة (إِصْر) وكتاب العين، ج ٧، ص ١٤٧

«الجهل» و«الشهوات» و«الذنوب» و«الاستبداد» و«الاستعمار» وما شاكل، وهي أمور ترتفع وتزول تحت ظل وجود رسول الله وتعييماته التحررية.

XXXXXXXX

الاية الخامسة كلام ورد عن لسان محطه لأوثان إبراهيم عليه السلام عندما خاطب الوثنيين موبحاً إياهم على عملهم القبيح هذا (عبادة الأصنام)، وقال من أجل إيقاص عقولهم حيث كانوا يغطون في سبات عجيب:

«هَلْ يَسْتَعْمِلُكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْقُضُكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۚ» فلا بد للعبادة أن تكون إما من أجل الربح والمكافأة والمفعة أو من أجل دفع الضرر والعقاب وبالطبع لم يكن لديهم أجوبة إيجابية على هذه التساؤلات سوى الإعتصام باتباع وتقليد السلف والقول: «هَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ»

تدل هذه التعابير جيداً بأن حافر النفع والضرر ليس النفع والضرر المادي فحسب فالنفع والضرر المعنوي أفضل وأرفع منه (ويمكن أن يكون حافراً للحركة باتجاه معرفة الله).

XXXXXXXX

حول نزول آيات سورة فصلت وهي الاية السادسة في بحثنا هذا، نقرأ أن «أبا جهل» سأل «الوليد بن المغيرة» وهو من رجال عرب الجاهلية المعروفين وهو من أهل النظر والمشورة يرجع إليه عند المعصلات ما هذا الذي يقوله «محمد»؟ أهو كهانة أم سحر؟ أهو تكهن؟ فقال «الوليد»: يحب أن أذهب إليه بعسي وأنحقق، وعندما جاء إلى النبي ﷺ قرأ له بعضاً من آيات سورة فصلت إلى أن جاء إلى الآية التي وردت في بحثنا: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ».

فارتجف «الوليد» لسماع هذه الآيات وقصر يده ووقف شعر رأسه، فتهض من مكانه وعاد إلى بيته وأغلق الباب على نفسه، حتى ظن اكابر قبريش أنه يعمل نحو الدين

الإسلامي، وعندما جاءوا إليه وسألوه عن شأنه، قال، ما صيوت (أي لم أسلم) واني على دين قومي وآبائي ولكني سمعت كلاماً صعباً نقشتم منه الجلود، فلا هو بالشعر ولا بالحطب ولا بالكهانة، ولما قيل له: إذن ما تقول فيه؟ قل، قولوا هو سحر، فإنه آخذ بقلوب الناس^١.
أولا يمكن لمثل هذه التهديدات لواردة في الايات القرآنية وبقيّة المصادر الدينية أن تكون حافزاً على التحرك نحو التحقيق (بالسبب لمن لم يؤمنوا لحد الآن).



في الآية السابعة من البحث، أمر الرسول ﷺ أن يحاطب جميع معارصيه ويعطهم بمسألة واحدة «قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْ تَكْفُرُوا بِمَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»^٢.
كل تعابير هذه الآية تعابير مدروسة.

«إِنَّمَا» من أجل الحصر
والتعبير بـ «الموعظة» يستخدم في المواضع التي يحكم فيها العقل بشيء، ولكن لكون الإنسان عاقلاً عنه هناك شخص حريص آخر يوقظه ويعظه
والتعبير بـ «القيام» دليل على الاستعداد بكامل لتفديد الأهداف الجديدة
والتعبير بـ «مثنى» و«فرادي» إشارة إلى اشطاطات اجتماعية والعردية والجهود الشاملة في هذا السبيل «لا شك أن الإنسان يفكر بشكل أعمق عند انفراده ولكنه يفكر بشكل أكمل حين يكون ضمن الجماعة، لأن الأفكار ستتحقق مع بعضها، والجمع بين هذين (التفكير على انفراد وضمن الجماعة) هو أفضل الطرق»^٣

١ بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٢٦١ وتفسير أخرى (الأصم في الحديث مفصل وقد قلناه بتلخيص، لاحظوا تفصيله في التفسير الأمثل ديل الآية ١٣ من سورة فصلت

٢ قال بعض المفسرين «مثنى» إشارة إلى الباطنة التي لها تأثير كبير في كشف الحق، هي حين أن «فرادي» إشارة إلى القراءة في الوحدة، واحتمل بعض آخر أن «مثنى» إشارة إلى التفكير الذي يقوم به الإنسان خلال النهار ضمن الجماعة و«فرادي» التفكير الذي يحصل في الليل وعند الانفراد (تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٣ و ٩٢)

ثم التعبير بـ «التفكير» الذي ينبع من الصميم ويهدي الإنسان إلى البراهين العملية الواضحة .

والتعبير بـ «لكم» هو الآخر ممتزج بمسألة الانذار والإلتهام إلى العذاب الشديد وفيه إشارة إلى أن الموضوع هنا هو نفعكم وضرركم فقط ، ولا هدف للنبي ﷺ سوى هذا .
أفلا يجب والحال هذه أن يأخذوا دعوته مأخذ الجد ويكروا فيها ويعثروا على الحق ثم يتبعوه ؟

النتيجة:

إن الآيات أعلاه وآيات مشابهة أخرى تكشف الغاب جيداً عن الحافز العقلي للبحث والتقصي في طريق «معرفة الله» وتدل على أنه لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يتقاعس ويسكت أراء الدعوات العظيمة لأنبياء الله ورسلم على صعيد الدعوة إلى الله ذات العلاقة الوثيقة بمصير الجميع ، وهذا هو العاقل الأول للتحقيقات الدنيوية



توضيحات

١ - الدوافع العقلية لفهم الدين في الروايات الإسلامية

١ - ورد في حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أن أحد أصحابه سأله عن الضعفاء (المستضعفين) فكتب له الإمام في جواب . «الضعيف من لم ترفع إليه حجة ، ولم يعرف الاختلاف ، فإذا عرف الاختلاف فليس بمستضعف»^١ .

٢ - وجلوه هاي توخالي دنيا ار دور روي نفس هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله : «من عرف اختلاف الناس فليس بمستضعف»^٢ .

١. أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٠٦. (باب المستضعف). ح ١١.

٢ المصدر السابق، ح ١٠

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان حين يطلع على وجود الاختلاف سوف يرغبه عقله على التحقيق والمطالعة (النظر)، وعندها لا يُعتبر مستصعباً.

وبالطبع فالقصد من «المستضعف» هنا هو «المستضعف فكرياً» الذي نسميه أحياناً بـ «الجاهل القاصر».

٣ - جاء في حديث آخر عن النبي الأكرم ﷺ: «أربعة تلزم كل ذي حنئ وعقل من أمتي، قيل: يا رسول الله ما هن؟ قال: إستماع العلم وحفظه وبشره والعمل به»^١.
وبهذا يعتبر النبي ﷺ الاستماع والتحقيق من آثار وعلامات العقل والدراية

٢ - المعاندون للمحققين

كان دائماً في مقابل الأحرار الذين يرون التحقيق في الحق واجبه العقلي، هناك جماعة يخشون رؤية الحق كالخفافيش، وحتى لو أرفع صوت مبادئ الحق ودوى في آذانهم سدوا آذانهم لكيلا يسموا صوته.

يقول القرآن عن جماعة من قوم نوح عليه السلام على كنان هذا النبي العظيم عندما أشكاهم إلى الله: «وإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا وَخَافُوا فِيَّ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا» (نوح / ٧).

ولم يكن حال المشركين بأقل من هؤلاء، بل كأنهم ورثوا قوم نوح المعاندين الذين تحدث عنهم القرآن: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» (فصلت / ٢٦).

إن هذه الجماعة التي لها أنماع ومقلدون في كل عصر وزمان لا يسمحون لأنفسهم بالتحقيق في ما يجري أبداً، إنهم جهنة حتمية يخشون نور الشمس كأنهم الخفافيش، يلجأون إلى الظلمة دائماً، ويعتفرون بالجهنم، إنهم أكثر حرماناً من الجميع لأنهم أعداء تفصيحهم الشمس.

١ تحف العقول، مواقف النبي، ص ٤٠

٢ - الدافع العاطفي

تمهيد:

ثمة مثل معروف يقول: «إنَّ الناس عبيد الأحسان». ورد نفس هذا المعنى تقريباً في حديث عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «الإنسان عبد الاحسان»^١.

وورد عنه عليه السلام: «بالاحسان تملك القلوب»^٢. وفي حديث آخر عنه أيضاً: «والأفضل علي من يشئت تكن أميره»^٣. وجدور كل هذه المعاني في حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنَّ الله جعل قلوب عباده على حب من أحسن إليها وبعض من أساء إليها»^٤. والحلاصة هي أنَّ هالك حقيقة تقول: إنَّ نبي يسدي خدمة لشخص أو ينعم عليه بعمّة فسيكون عطفه هذا عليه مطلقاً من حبه له ويكون هذا الآخر محباً لمن اسدى إليه الخدمة والنعمة، يحب أن يتعرف عليه تماماً ويشكره، وكلما كانت هذه النعمة أهم وأوسع، كان توجهه العواطف نحو «المنعم» و«معرفة» أكثر. ولهذا جعل علماء علم الكلام (المفكرين) مسألة «شكر المنعم» - ومنذ القدم - إحدى الدوافع على التحقيق حول الدين ومعرفة الله.

١. غرر الحكم.

٢. المصدر السابق.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٤٢١.

٤. تحف العقول، ص ٣٧ (قسم من كلمات النبي صلى الله عليه وآله وسلم).

- ولكن يجب الانتباه إلى أن «شكر المنعم» هو قرار عاطفي قبل أن يكون قراراً عقلياً .
 نحتم هذه الإشارة ببيت شعر لأبي لفتوح البستي الشاعر العربي المعروف
 أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطلما استعبد الإنسان إحساناً
 بعد هذه الإشارة تنتقل إلى القرآن وتأمل حاشعين في الآيات أدناه
- ١ - ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .
 (النحل / ٧٨)
- ٢ - ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتُسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .
 (النحل / ١٤)
- ٣ - ﴿فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَاشْكُرُوا لِنِعْمَتِ اللَّهِ إِنَّ كُفْرَ إِثْمِهِ يَفْعَلُونَ﴾ .
 (النحل / ١٤٤)



جمع الآيات وتفسيرها

شكر المنعم سلم إلى معرفة الله:

تحدث الآية الأولى عن أهمية النعم الإلهية لتحرك في الناس روح الشكر وتدعوهم
 عن هذا الطريق إلى معرفة «المنعم» ، إن الحديث عن النعمة وسيلة للمعرفة، فقد تحدث
 القرآن عن «العين» و«الأذن» و«العقل» بقوله ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا
 تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾

فعن طريق السمع تتعرفون على العلوم البقية وعلوم الآخرين
 وعن طريق البصر ومشاهدة أسرار الطبيعة وعجائب الخلقة تتعرفون على العلوم
 التجريبية ، وعن طريق العقل تتعرفون على العلوم العقلية والتحاليل المنطقية .

ومع أن هذه المواضيع الثلاثة مطبوعة على بعضها في هذه الآية بالواو ولا تعني
 بالضرورة الترتيب ، إلا أنه ليس من المستبعد أن يكون هذا هو الترتيب الطبيعي لها ، لأن

الإنسان عندما يولد لا يمتلك القدرة على النظر والمشاهدة إلى فترة من الزمن بعد ولادته، ولأنه معتاد على الظلام فهو يخاف من النور ويفمض عينيه لمدة من الزمن، في حين أن الأذن نسمع الأصوات من أول لحظة، ومن الواضح أن القدرة العقلية والتمييز والشعور تبدأ بالعمل والنشاط لدى الإنسان بعد لسمع وبصر، خاصة وأن «الفرد» كما يصرح أرباب اللغة بمعنى «العقل الناضج العميق» ولا يمر مرحلة عادية من العقل، وطبعاً فإن مثل هذا الشيء يظهر بعد ذلك.

فضلاً عن أن الآية المذكورة يمكن أن تكون إشارة إلى حقيقة أن الوصول إلى «الكليات العقلية» يأتي بعد العلم بـ «الجزئيات» عن طريق الحس، وعلى كل حال، فالآية تصرح أن الهدف من إسداء هذه النعم هو نحر بك روح لشكر لدى البشر، والذي يدعوهم بالسيحة إلى محبة الخالق ومعرفة الله وإطاعة أوامره.

وبالطبع فإن هذا لا يتناقض مع كون بعض العلوم الإنسانية علوماً فطرية لأن المعلومات الفطرية عند الولادة موحودة في طبيعتها الإنسان على شكل الاستعداد والعابدية، وليس لها طابع الفعلية، ثم تشر بعد ذلك.



الآية الثانية تشير إلى ثلاث نعم إلهية أخرى تتعلق جميعها بتسخير البحار وتعتبرها دافعاً نحو الاستفادة من فضل الله وشكره، ومن هذه النعم:

١- **لؤلؤ:** اللحوم التي تستخرج من البحر ولمسماة بـ «لؤلؤاً طرياً»، وهو اللحم الذي لم يبذل الإنسان جهداً في تربيته أبداً، وإنما ربه يد القدرة الإلهية في أعماق البحار ووضعت في متناول أيدي الإنسان مجاباً، فيعتبر نعمة كبيرة، خاصة في عصر وزمان كانت تكثر فيه اللحوم الفاسدة وكان الناس يضطرون إلى الاحتفاظ باللحوم إلى فترة معينة عن طريق تمليحها أو شيها وتجفيفها تحت أشعة الشمس، وكانت هذه اللحوم تسبب الكثير من الأمراض والتسمم للمسافرين، في حين كانوا يستخدمون اللحوم الطازجة بكل سهولة في سفراتهم البحرية أو الساحلية.

ثانياً: ثم تشير الآية إلى المواد المستعملة لزيينة لمستخرجة من أعماق البحار والمستخدمه من قبل البشر وتقول: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾. أي أن الله وفر لكم أكثر المواد العدائية ضرورة بالإضافة إلى الحاسحات ذات الطابع التجميلي الصرف.

ثالثاً: وفي المرحلة الأخيرة تشير الآية إلى وحدة أخرى من بركات البحار التي كان لها دور مؤثر جداً في حياة البشر حتى في يومنا هذا، وهي استخدام البحر كطريق كبير وواسع ومتصل لحمل ونقل أنواع الأمتعة التي يحتاجها الناس في السفر. ومع الأحد بنظر الاعتبار أن حوالي ٧٥ بالمائة من وجه الأرض مطبوع بالبحار التي تصل إلى كل نقاط العالم، وأن قسماً كبيراً من البضائع والمواد الضرورية تنقل عن هذا الطريق، وأن قسماً كبيراً من الأسفار يتم من خلال هذا الطريق، ومن هنا تتضح أهمية هذا الموضوع

يقول عز وجل: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾

ثم يصف في النهاية: ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وبهذا جعل الالتفات إلى هذه النعم أيضاً وسيلة لإحياء روح الشكر وبالتالي اكتساب المعرفة بالله، وإلّا فما حاجة الله إلى شكرنا؟ كل هذه ذرائع إلى معرفة ذاته وصفاته والحركة نحو هذا الكمال المطلق.

والجدير بالذكر أن «مواجر» هي جمع «ماجرة» من مادة «مجر» (على وزن فخر)، وهذه المادة كما يستفاد من محصلة كلمات أرباب اللغة والمفسرين بمعنى الشق والحرق، كشق «أمواج الماء» بصدر السفينة، أو شق «أمواج الرياح» بواسطة الوجه والأنف والتقدم نحو الأمام، أو شق الأرض لأجل الزراعة.

ولأن هذه الأمور غالباً ما تكون مصحوبة بصوت فقد أطلقت هذه المفردة على صوت هبوب الرياح الشديدة أيضاً^١، إن كل حياة الإنسان ولعالم تعثرها موانع يجب على

١. لفسر الكبير، ج ٢٠، ص ٧ وقد جاء معنى هذا المعنى في تفسير روح المعاني والقرطبي تديلاً للآية المنظورة في بحثنا.

الإنسان كشفها واجتيازها كي يشق طريقة بالتقدم والتطور، وهذه من النقاط المهمة والحساسة.

وبالضمن فلقد علمنا أن «المواخر» تعني السفن والمراكب، ولذلك فقد فسر ابن عباس «المواخر» بالسفن التي في حالة حركة «الجارية»^١ حيث إن قيمة السفينة تكمن في كونها متحركة.



أما الآية الثالثة والأخيرة والتي حاطت مشركي مكة أو المؤمنين، وهي احتمال قوي أن الآية عمت بخطابها الاثنين معاً، فقد مرت بقولها: «فَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ».

والملمت للطرح هنا أن الآية ذكرت في آخرها: «وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِِنسَاء تَقْبِذُونَ» فالبعض قال: إن هذه القصيدة شرطية وذلك لأن هؤلاء لا يعبدون الله أصلاً فكيف يشكرون نعمته، فيكون الأمر «سالباً بانتفاء الموضوع»^٢.

وأيضاً يرد احتمال حول هذه المسألة وهو أن جزء القصيدة الشرطية هي عبارة «فَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» والذي ورد مسبقاً حيث يصح بأن هذه الأرقام في حالة كونها حلالاً طيباً عندما أكون عبداً ومطيعاً لله سبحانه وتعالى، لأن كل النعم خلقها الله سبحانه وتعالى من أجل المؤمنين، ومثل ذلك مثل المزارع يدي يسقي الورد ماءً، فهو إنما يعمل ذلك من أجل أن يحصل على الورد لا أن يحني الأشواك بالرغم من أن الأشواك لا تحلو من فوائد، وقد ذكروا تفسيراً ثالثاً وهو أن الآية تعاطب لوتيين، أنكم إذا أردتم العبادة فاعبدوا من هو ولي نعمتكم، لماذا تعبدون الأصنام التي لا دور بها مطلقاً^٣.

١. تفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٧، وكذلك ورد هذا المعنى في تفسير روح المعاني وتفسير القرطبي وذلك في تفسير الآية في هذا البحث هنا.

٢. تفسير الكشاف، ج ٢، ص ٦٤٠، وثمة تفسير آخر ورد كاحتمال من الاحتمالات في تفسير الميران وروح المعاني تفصيلاً للآيات المنظورة في البحث

وليس من المستبعد الجمع بين هذه التفاسير لأن المخاطب حسب الظاهر هم جميع المؤمنين والكافرين، بالرغم من أن الآيات السابقة واللاحقة تدل على أن الكلام موجه إلى المؤمنين أكثر مما هو موجه إلى الكفار وعلى كل حال، فالعلاقة بين «العمة» و«الشكر» و«العبادة» ثم «معرفة المعبود» و«ولي النعمة» تتضح بجلالة من هذه الآية.

وبهذا نتوصل إلى الحافظ الثاني لمعرفة عقه وهو مسألة شكر المسم



شكر المنعم في الروايات الإسلامية:

١ - جاء في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام «لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب ألا يحسن شكرًا لعمه»^١.
إن التعبير بـ «الواجب» في هذا الحديث هو في الحقيقة نفس تلك الوظيفة التي تنبع من عواطف الإنسان.

٢ - نقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال «كان رسول الله ﷺ عند عائشة ليأتها، فقالت: يا رسول الله لم تنصب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر»^٢
فقال: يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً»^٣

٣ - يقول الإمام الرابع علي بن الحسين عليه السلام في أحد أدعية الصحيفة السجادية: «والحمد لله الذي لو حيس من عباده معرفة حمده على ما أهلاهم من منته المتابعة وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرفوا في منته فلم يحمدوه وتوسعوا في رزقه فلم يشكروه ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيمية فكانوا كما وصف في محكم

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٩٠

٢. إشارة إلى دليل الآية الأولى من سورة الفتح من التعبير الامثل.

٣. أصول الكافي، ج ٢، باب الشكر، ح ٦

كتابه إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً»^١

٢ - جاء في كلام آخر من نهج البلاغة «... ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة

لرجعوا إلى الطريق وحاقوا عذاب الحريق ولكن القلوب غليظة والبصائر مدخولة»^٢

تتضح من هذه الروايات العلاقة الروحية بين «شكر النعمة» و«معرفة الله وإطاعة أوامره».



١ الصحيفة السجادية، الدعاء الأول.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥.



تجربہ نامہ

٣- الدافع الفطري

تمهيد:

عندما نتحدث عن الفطرة فالمقصود هو نفس تلك الاحساسات الداخلية والإدراكية التي لا تحتاج إلى أي استدلال عقلي .
عندما نشاهد منظرًا طبيعيًا جميلًا جدًا أو زهرة ذات لون ورائحة طيبة نحسُّ بقوة جذب تدفعنا نحوها ، وبسمى هذا الاحساس بالميل نحو الجمال وحبه ولا نرى أي حاجة هنا للبرهنة على إثبات قولنا هذا.

أجل ، إن الميل للجمال يعد من الرغبات المتعالية لروح الإنسانية
إن الاندفاع نحو الدين وخاصة معرفة الله هو أيضاً من هذه الاحساسات الفطرية والداخلية ، بل هو من أقوى الدوافع في أعماق طبيعة وروح جميع البشر
ولهذا السبب لا نشاهد قوماً أو أمة لا في الحاضر ولا في الماضي التاريخي لم تكن تمتلك نوعاً من العقائد الدينية تتحكم في فكرها وروحها . وهذه علامة على أصالة هذا الاحساس العميق .

وإطلاقاً من أن التوحيد الفطري يُطرح في محال براهين معرفة الله كبرهان مستقل مع كل آياته ، لا نرى داعياً للبحث المسهب حول هذا الموضوع ، فكتفي بذكر نقطة واحدة ونؤجل المزيد من البحث حول هذا الموضوع في محله إن شاء الله
عندما يذكر القرآن قصص نهضة الأنبياء أعظام فإنه يؤكد في عدة مواضع على هذه النقطة وهي أن الرسالة الأصلية للأنبياء تتمثل بارادة تار الشرك والوثنية (وليس إثبات وجود الله ، لأن هذا الموضوع مخبئاً في أعماق فطرة كل إنسان) .

وبتعبير آخر: إنهم لم يكونوا يصدد غرس «بنور عبادة الله» في قلوب الناس، بل كانوا في صدد سقاية العرسة الجديدة الموجودة واستئصال الأشواك والأدغال الزائدة المصرة التي قد تقتل أو تُدبِل هذه البتات بصورة تامة في بعض الأحيان.

وردت جملة: «أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» و «أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» في كلام الكثير من الأنبياء في القرآن الكريم، وهي عبارات تفيد نفى الأصنام وليس اثبات وجود الله.

كما جاء في دعوة رسول الإسلام ﷺ: «أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ» (هود / ٢).

ودعوة نوح عليه السلام: «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» (هود / ٢٦).
ودعوة يوسف عليه السلام: «... أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (يوسف / ١٠).

ودعوة السبي هود عليه السلام: «... أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (الاحقاف / ٢١).

وفصلاً عن هذا فإننا نمتلك في أعماق نفوسنا إحاسيس فطرية أصيلة أخرى، منها ما نراه في هوسنا في الرعبة الشديدة للعلم والمعرفة والاطلاع.

فهل من الممكن أن نشاهد هذا النظام العجيب في هذا العالم العتامي، ولا تكون لنا رغبة في معرفة مصدر هذا النظام؟

أليس من العراة أن يفصي أحد العلماء مدة عشرين سنة من أجل التعرف على حياة النمل، ويثابر عالم آخر عشرات السنين لمعرفة عادات أوضاع بعض الطيور أو الأشجار أو أسماك البحار يدون أن يكون لديه دافع لحب تعلم؟ هل يمكن أنهم لا يريدون معرفة مصدر هذا البحر اللامتناهي الذي يشمل الأشياء من لأزل إلى الأبد؟!

نعم، هذه دوافع تدعونا إلى «معرفة الله»، العقل يدعونا إلى هذا الطريق، العواطف تجذبنا نحو هذا الاتجاه، والمطرة تدفعنا إلى هذه الجهة.

كانت هذه خلاصة للمحفزات والدوافع لواقعية والحقيقية لظهور الدين ومعرفة الله.

توضيحات

التبريرات المنعقدة:

هناك إصرار عجيب من قبل بعض علماء الاجتماع والنفس الماديين في الغرب والشرق على أن مصدر ظهور الدين والعقيدة لتوحيده مغلول للجهل أو الخوف أو عوامل أخرى من هذا القبيل.

بالطبع إن هذا الأمر ليس عجيباً في نظر البعض، لأنهم كما يبدو قد اتخذوا قرارهم باتفاق مسبق، ويعتبرون من المسلمات أن ليس ثمة شيء غير عالم المادة، لهذا يرون أنفسهم ملزمين بأن يفسروا كل ظاهرة على أساس العوامل المادية.

من ناحية أخرى يعلم أن وجود العقائد الدينية ما يمتد ليرل أركان المادية، وإذا أضفنا إلى هذا المعنى الصراعات الشيعة بين الكنيسة وعلماء العلوم الطبيعية في القرون الوسطى، يمكن الاستنتاج أن مثل هذه التماسير المادية للدين والاعتقاد بالله جزء من العداء الذي تكبه المدارس المادية للدين.

مع أن البحث في كل هذه النظريات بشكل مفصل يحتاج إلى أحاديث طويلة يُخرجنا الدخول فيها عن كنه بحثنا التفسيري، ولكن يبدو من الضروري الإشارة إليها هنا بشكل مختصر، لكننا نكرر أن كل هذه التماسير قائمة على أساس أحكام مسبقة وهي أن بسلم بعدم وجود عالم وراء الطبيعة، وبأن عالم الوجود يتلخص في نفس عالم الطبيعة هذا.

ويمكن تحديد هذه النظريات - أو بعبارة أدق هذه العرضيات - بشكل عام في خمس فرضيات:

١ - نظرية الجهل

يقول أحد علماء الاجتماع المعروفين «مع أن العلم والنفس كشف الكثير من الأسباب الخفية، إلا أن الكثير من هذه الأسباب ما تزال بعيدة من نطاق العلم وباقية في لغيرف

الأسرار، وضرورة التوصل إلى هذه الأسباب دعت إلى ظهور الدين»^١.

ويضيف أحد الفلاسفة الماديين أن الإنسان عندما يستر إلى الأحداث من زاوية تاريخية فسيكتسب العلم واندن عدوين لا يقبلان الصلح أو ذلك لسبب واضح جداً، فالذي يعتقد بحركة العالم بلحاظ قانون اعمية لا يستطيع أن يسمح ولو للحظة واحدة بأن يدخل عقله تصور يقول: إنَّ بإمكان موجود حلق شوايع والعثرات في واقع الأحداث^٢.

وبعارة أبسط إنهم يريدون الادعاء أنَّ جهل الإنسان بالعلل الطبيعية كان السبب في تصوره لوحود قوة وراء الطبيعة أوجدت هذا عالم وما انعكت تديره. ولهذا فكلما اتضحت الأسباب والعلل الطبيعية ترلزل الاعتقاد بدين وعبادة الله

إنَّ الخطأ الأساسي لاتباع «فرضية الجهل» سبع من:

أولاً: إنهم ظنوا أنَّ الإيمان بوجود الله يعني إنكار قانون العلية، وإننا على مفترق طريقين: إما التسليم للعلل الطبيعية أو لوجود الله، فهي حصص أنَّ الإيمان بقانون العلية والكشف عن العلل الطبيعية من وجهة نظر الفلسفة لإلهيين بعد أحد أفضل طرق معرفه الله

إننا لا نبحث عن وجود الله وسط الموصى والحوادث العامة والمهمة، أبداً، بل نبحث عن وجوده في وسط الأنوار والنظم المعروفة لعالم الوجود، لأنَّ وجود هذه النظم علامة واضحة على وجود مصدر علم وقدرة في عدم الوجود

ثانياً: لماذا تراهم يفعلون عن هذه النقطة، وهي أنَّ الإنسان ومنذ أقدم العصور ولحد الآن يرى دائماً نظاماً خاصاً يحكم العالم؟ لماذا لا يمكن تبرير ارتباط وجوده بالعلل التي لا شعور لها، وكان يعتبره دوماً علامة على وجود الله، وكل ما في الأمر أنَّ هذا النظام كان معروفاً في العاصي بدرجة أقل، وكلما تطور علم البشر، إكتشفت منه دقائق وطرائف

١ جامعة شامسي، ساموئيل كنيك، ص ٢٠٧ علم الاجتماع عند ساموئيل كنيك

٢ الدنيا التي أراها، ص ٥٨ - وكم هو مصححك قول «دوغست كوت» إنَّ العلم عزل أبا الكائنات من وظيفته وساقه إلى مكان مرور (أي باكتشاف العلل الطبيعية لم يبق ثمة محل للإيمان بالله) (الدولق مع المادية، ص ٧٦).

جديدة وأتضح علم وقدرة خالق عالم الوجود أكثر -

ومن هنا فإننا نعتقد أن «الإيمان بوجود الله» و«الدين» يتقدم إلى الأمام بتقديم «العلوم». وكل اكتشاف جديد لأسرار ونظم هذا العالم إنما هو خطوة جديدة لمعرفة الله بصورة أفضل، فلم يكن بإمكان السابقين أبداً أن يعرفوا الله بالشكل الذي نعرفه اليوم، تتطور العلوم لم يكن على ما هو عليه الآن.



٢ - نظرية الخوف

ذكر المؤرخ العربي المعروف «ول ديورانت» في تاريخه ضمن بحث بعنوان مساهمات الدين عن الحكيم الروماني «لوكرتيوس» بأن «الخوف هو الأم الأولى للآلهة، ومن بين أنواع الخوف هو الخوف من الموت الذي يحتل مكانة أهم بين بقية أنواع الخوف... ولهذا لم يكن باستطاعة الإنسان البدائي أن يصدق بأن الموت ظاهرة طبيعية ولذا كان يتصور له سبباً ما ورائياً على الدوام»^١

ويكرر «راسل» نفس هذا الكلام بصياغة أخرى في قوله -

«أتصور أن مصدر الدين هو الخوف والرهبة قبل كل شيء، الخوف من الكوارث الطبيعية، الخوف من الحروب وما شاكل، وخوف من الأعمال غير اللائقة التي يرتكبها الإنسان أثناء غلبة الشهوات عليه»^٢.

ويتضح بطلان هذه الفرضية من حيث إن تباعها كأنهم قد تعاقدوا جميعهم بشكل ضمنى على الاتفاق بأنه ليس ثمة جدور ما ورائية للدين والاعتقاد بعبادة الله، ولا بد من البحث عن سبب له في الطبيعة، سبب يعود إلى نوع من الطن والخيال، ولهذا فهم دائماً يرون الأمور الفرعية وينسون المسألة الأصلية.

١. قصة الحضارة، لـ «ول ديورانت»، ج ١، ص ٨٩.

٢. العالم الذي نعرفه، ص ٥٤.

صحيح أن الإيمان بالله يمنح الإنسان طمأنينة واقتداراً روحياً، وصحيح أنه يمدّه بالشجاعة قبال الموت والحوادث العنيفة، **بني درجة أنه في بعض الأحيان يكون مستعداً لكل ألوان التضحية والفداء**، لكن لماذا نسي ما هو أمام أعين البشر دائماً أي النظام الذي يحكم الأرض والسماء والنباتات والأحياء ووجود الإنسان ذاته؟!

وبعبارة أخرى فإن الإنسان مهما كان جاهلاً بعلم التشريح والفلسفة وما شابه، لكنه حينما ينظر إلى بقاء عينه وأذنه وقلبه ويد ورجله يراه بناءً عجيبيًا ودقيقاً، وهذا لا يمكن تفسيره أبداً بعوامل اللاشعور والصدفة، فموجود من الزهور، زهور العسل، بزوغ الشمس والقمر وسيرهما المنتظم وبقيّة الطواهر الأخرى لا يمكن تفسير كل هذه الظواهر بالصدفة واللاشعور.

هذا هو الشيء الذي كان موجوداً ولا يزال دائماً أمام أعين الإنسان وهو السبب الأصلي في ظهور الإيمان بوجود الله، لماذا يستجأهون هذه الحقائق اليه ويتشبهون بمسألة الحوف والجهل؟ لا شيء غير خوفهم من **سوء العقائد الدينية؟** لماذا تركوا الطريق الأصلي السليم وسلوكوا الطريق المنحرف؟ والسبب هو أن **لأحكام المسيحية** حالت بينهم وبين معرفه الحقيقة؟!

٣- نظرية العامل الاقتصادي

إن أتباع هذه النظرية يعتقدون بأن لقوة التي تحرك التاريخ هو شكل وسائل الانتاج، ويعتبرون جميع الظواهر الاجتماعية سواء ثقافية منها أو العلمية أو الفلسفية أو السياسية وحتى الدين وليدة هذا العامل!

ولأصحاب هذا الرأي تبريرات عجيبة من أجل الربط بين ظهور الأديان والمسائل الاقتصادية، منها قولهم: إن الطبقة الحاكمة في المجتمعات البشرية قد أوجدت الدين من أجل القضاء على مقاومة الشعوب المستعمرة وسخديرها، ويلفتون الأنظار إلى عبارة «لبنين» المعروفة التي أوردها في كتابه **«الاشتراكية والدين»** والتي يقول فيها: **«الدين أفيون الشعوب»**!

ولهم في هذا الموضوع كلام كثير هو في لعاب تكرار للمكررات.
ومن حسن الحظ أن أتباع هذه النظرية (الاشتراكيون) قد أجهلوا على إشكالاتهم بأنفسهم من خلال عباراتهم المتناقضة، فهم عندما يواجهون الإسلام وكيف كان سبباً في حركة ونهوض أمة متخلفة، وكيف استطاع أن يهيئ سلطة المستعمرين من أمثال سلاطين ساسان وقياصرة الروم وفراعنة مصر و«تياهة» اليمن، يضطرون إلى استثناء الإسلام على الأقل من هذا المقطع التاريخي.

وفوق كل هذا، عندما يشاهدون ليوم الحركات والنهضات الإسلامية التي تنطلق صد المستعمرين (خاصة في العصر الحاضر) بوجه حكيم الشرق والغرب وانتفاضة الشعب الفلسطيني صد الكيان الصهيوني، فليس أمامهم سبيل سوى أن يشكوا في تحليلاتهم، بعض النظر عن الدين يعيشون حصاراً في حصار ولا يستطيعون أن يبصروا حتى نور الشمس الساطع.

وعلى كل حال، مع الأخذ بنظر الاعتبار للتاريخ المعاصر والقديم لا سيما الحاص بالإسلام، يتضح جيداً أن الدين وحلاً لهم ليس مادة معدرة وأصوناً أبداً، فضلاً عن أنه السبب في ظهور أقوى الحركات الاجتماعية وأكثرها مثاراً للإعجاب، والقضايا الاقتصادية تشكل بدورها جزءاً من حياة الإنسان، وحصر الإنسان في الزاوية الاقتصادية يعتبر أكبر خطأ في معرفة الإنسان ومعرفة موارعه ومبوله المتعاليه.

٤ - النظرية الجنسية

والآن تعالوا واستمعوا للسيد «غورريد» الذي يريد أن يقيم جسراً بين «ظهور الدين» و«الغريزة الجنسية» ويعتبر الدين وليداً للغريزة الجنسية!

إنه يحاول أن يربط هذا الموضوع في فرصته باحدى القبائل الوهمية (للأب في هذه القبيلة الخيالية نساء كثيرات، أما الأولاد الشباب فيعانون الحرمان، وأخيراً تار الأولاد وقتلوا الأب وأكلوا لحمه، ثم ندموا على فعلتهم، لقد غضوا النظر عن نساء القبيلة وعمدوا

إلى إدانته وتقييع عملهم) ومن هنا شأ بينهم نوع من الحظر وبعبارة «تأهو» أي (حظر الزواج من المحارم).

ويضيف: يوجد في القبائل المتوحشة نِوم شيء باسم «التوتوم» وهو الأب أو كبير العشيرة بالنسبة لأعضاء القبيلة، ويعتبر حاميهم وولي نعمتهم إنهم يحترمون «التوتوم» ويتصورون أن عندهم أن ينسبوا به ويقلدوه (هذا الاعتقاد بالتوتوم نابع من نفس الاعتقاد بالقبيلة الوهمية أيضاً) يعتقد فرويد أن الإيمان بالتأهو والتوتوم هو سبب لظهور العقائد الدينية، ووفقاً لما ذكرنا أعلاه فإن له علاقة بالقضية الجنسية^{١١}.

وفصلاً عن أن فرضية فرويد الجنسية قائمة على أساس أسطورة (الأسطورة القبلية الوهمية)، فإن تحليلاته تشبه إلى حد كبير الأساطير والحرافات، وهذا ناتج من أنه ينظر إلى روح وحسم الإنسان الذي يحصل بهاداً وميولاً متنوعة من زاوية واحدة وبعد واحد. صحيح أن للإنسان غريزة جنسية، لكن من المسلم به أن وجود الإنسان لا يهصر في المريزة الجنسية، فحسمه يقع تحت تأثير خرائز مختلفة، وأروحه ميول متعالية مختلفة، «فالنظر من بعد واحد» خطأ لم يقع فيه فرويد فحسب بل إن الاشتراكيين الذين يحصرون وجود الإنسان في البعد الاقتصادي قد وقعوا فيه بشكل آخر، وكلا النظريتين خطأ تاحطاً فاحشاً في معرفة الإنسان.

كان الأجدد بفرويد ويدل الاعتماد على لأوهام أن ينظر إلى هذه الحقيقة وهي أن الإنسان منذ فجر حياته وحتى اليوم تبصر نظاماً حاكماً على العالم المترامي وعلى وجوده هو لا يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية غير العاقبة وغير العالمة، وكان هذا هو المطلق في ظهور الاعتقاد بالله، فلماذا يرفضون نهجاً بهذا الوضوح ويسلكون طريق الجهل والضللال^{١٢}؟

٥ - نظرية الحاجات الأخلاقية

يقول «أنشتاين» في بحث بعنوان «الدين والعلوم»: بقليل من الدقة يتضح أن الأحاسيس والانفعالات التي أدت إلى ظهور لدين مختلفة ومتباينة جداً.. وبعد أن يشير إلى نظرية الخوف بصيف.

إن النزعة الاجتماعية لدى البشر هي أيضاً من أسباب ظهور الدين، فالفرد يرى أن أباه وأمه، أصدقاءه وأقاربه، قادته وعظماءه، يموتون، ويرحلون من حوله واحداً واحداً، إنز فالرغبة في الهداية والمحبة وأن يكون محبوباً في مجتمعه وأن يكون له أمل في شخص ما معتمداً عليه، تمهد الأرضية في نفسه لقبول الاعتقاد بالله.

وبهذا فهو يريد أن يفترض دافعاً أخلاقياً واجتماعياً لظهور الدين.

وهنا أيضاً نلاحظ أن الذين طرحوا هذه الفرضية قد خلطوا بين «الأمر» و«الدافع». في حين أننا نعلم أن ليس كل أثر هو دافع بالضرورة، فممكن أن نضرب على كثر أثناء حمرنا لشر عميق، وهذا هو «أثر»، والحال أنه لا شك في أن المحرك والدافع الأساسي لحمر ما الشر شيء آخر وهو الحصول على الماء وليس اكتشاف كبر ما.

وعليه فصحيح أن بإمكان الدين تسكين ومعالجة آمال وآلام الإنسان الروحية، وأن الإيمان بالله يخلصه من الاحساس بالوحدة عند فقد الأحياء والأصدقاء وبملا الفراغ الناتج من فقدانهم، ولكن هذا أثر وليس دافعاً.

الحافز الأصلي للدين والذي يبدو منطقياً جداً هو في الدرجة الأولى ما أشرنا إليه سابقاً، فحينما يرى الإنسان نفسه وجهاً لوجه أمام نظام في عالم كلما تأمل فيه أكثر تعرف على عمقه وتعقيد، وعظمته أكثر، فهو لا يستطيع أبداً أن يعتبر ظهور ولو «وردة» واحدة بكل ما لها من ظرافة وبناء عجيب. أو ظهور «عين» واحدة بكل ما فيها من نظام ظريف ودقيق ومعقد، لا يستطيع أن يعتبر ذلك وليداً لنظيمة غير العاقلة والمصادفات العمياء الصماء، ومن هنا يبحث الإنسان عن مبدى لهذا النظام

وبالطبع فهناك أمور أخرى تدعم هذا المعنى أشرنا إليها سابقاً.

والعجيب أن «انشتاين» نفسه الذي اقترح مثل هذه الفرضية تراجع عن كلامه في مكان آخر وأعرب عن عقيدته في موجد عالم الوجود وإيمانه الراسخ بذلك المبدأ الكبير بشكل ملفت للنظر، يدل على أنه يكر الاعتدال الممنهج بالخرافات ولا ينكر التوحيد الخالص من أي خرافة.

إنه يقول: «ثمة وراثة هذه الأوهام معنى وفعلي لوجود الله لم يتوصل إليه سوى القليل من الناس» ثم يصرح بعقيدته وعقيدة كبار العلماء بسوع من الإيمان الديني الذي يسميه «الأحاسيس الديني بالخلق» أو «الوجود» ويدعو في مكان آخر به «الحيرة اللديدة من نظام الكائنات العجيب الدقيق».

والأطع من ذلك أنه يقول: «إن هذا الإيمان الديني سراح درب البحوث في حياة العلماء»^١.

طبعاً الكلام هنا كثير وإذا أردنا أن نترك العنان للقلم حسب التعبير الدارج فسوف نخرج عن شكل البحث في التفسير الموضوعي.

لهذا نعود إلى أصل الحديث مرة أخرى، ونهي هذا البحث، وتلفت النظر إلى أنه يجب البحث عن دافع ظهور الأديان في مطالعة عالم الخلق أولاً (الحافظ العقلي والمطقي)، ثم في الحاذية الذاتية العنيفة (الحافظ النظري)، ثم في التوجه نحو ذلك المبدأ الكبير بسبب التمتع بنعمه اللامتناهية (الحافظ العاطفي)^٢.



١ الدنيا التي أعرفها، ص ٥٦ و ٦١

٢ من أجل مزيد من المعلومات في هذا المجال يراجع كتاب «الحافظ في ظهور الأديان»

براهين معرفة الله:



- ١ - برهان النظم
- ٢ - برهان التغير والحركة (يبحث في مجلد ٣)
- ٣ - برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقر) (يبحث في مجلد ٣)
- ٤ - برهان العلة والمعلول (يبحث في مجلد ٣)
- ٥ - برهان الصديقين (يبحث في مجلد ٣)
- ٦ - الطريق الباطني لمعرفة الله (الفطرة) (يبحث في مجلد ٣)



تجربہ نامہ

١- برهان النظم

التمهيد:

إنَّ أوسع برهان اعتمد عليه القرآن الكريم في آياته وسوره في إثبات «معرفة الله» هو «برهان النظم» بشكل غطى هذا البرهان على كافة البراهين التي وردت في القرآن الكريم. وهذا يدل على أنَّ أفضل وأوضح طريق لمعرفة الله وتزجيده من كافة ألوان الشرك من وجهة نظر هذا الكتاب السماوي العظيم هو البحث في نظام الخلق وأسرار الوجود وآيات الافاق والأنفس.

مميزات برهان النظم:

- ١- إنَّ برهان النظم يقنع العلماء كما يقنع عامة الناس، أي أنَّ كل فئة تستطيع الاستفادة والانتفاع منه حسب قابليتها، وذلك لأنَّ الناس مختلفون في إدراك أسرار الحلقة.
- ٢- ليس في برهان النظم الجفاف الموجود في الاستدلالات الفلسفية، بل على العكس فيه لطف خاص يمنح الإنسان حبَّ الاطلاع على ذلك العبدى الكبير، ويوجد فيه نوعاً من الاندفاع والشوق نحوه، ويخلق لديه حالة من الخضوع الممزوج بالحبِّ ومعرفة الله، ويتميز آخر فهو يروي عقل الإنسان كما يروي عواطفه وأخلاقه.
- وأخيراً فإنَّ برهان النظم وبسبب دراسته لأنواع نعم الإلهية ضمن دراسة نظم هذا العالم فهو يؤكد على مسألة شكر المنعم، وهذا بعدد ذاته حافز آخر من حوافز التوحيد.

٣- إن برهان النظم برهان في حال تطور (متجدد)، وبتعبير آخر هو برهان لا متناه، بالمقدمة الكبرى وإن كانت ثابتة، لكن صفاتها تمثل أعصانا متحركة ومورقة وذات براعم نامية لهذا البرهان، لأن أي اكتشاف من الاكتشافات العلمية حول أسرار الخلقة إما يشكل مصداقاً وصغرى جديدة لهد البرهان، فهو لهذا جديد دائماً، وفي كل يوم يأخذ شكلاً آخرًا، وهو متطور ومتقدم إلى جانب تطور العلم والمعارف البشرية.

٤- إن برهان النظم يدعو الإنسان إلى سلوك الآفاق والأنفس، وهذا السلوك المملوء بالبركة يزيد من مستوى معرفة الإنسان في كل يوم ويحمل تمكيره مردهرًا، خاصة وأن أسس برهان النظم مختلطة بحياة الإنسان وهو يواجهها في كل خطوة من خطواته، وليس كالبعض الآخر من البراهين التوحيدية التي تقع على هامش قصايا الحياة وخارجها

٥- برهان النظم هو البرهان الوحيد الذي يستطيع إخضاع الفلاسفة التجريبيين الذين ينكرون الاستدلالات العقلية المحصورة، ويستخدم حرية العلم التي يستخدمونها في إثبات «المادية» ضدهم، وهو بهذا الحائط ذو قاعدية عالية

ولهذا ليس من العجيب أن يضع القرآن الكريم الفاسية العظمى من مباحثه التوحيدية على أساسه، لكن من العجيب أن بعض المحققين المتأثرين بشدة ببراہین أخرى (البراهين الفلسفية المحصورة) يتجاهلون الأهمية القصوى لهذا البرهان وكأنهم لا علم لهم بمميزاته وآثاره العميقة.

أسس برهان النظم:

يرتكز هذا البرهان في شكله الأول على ركبتين أساسيتين، بحسب ما هو مصطلح بشكل صغرى وكبرى

١- هنالك نظام دقيق ومحسوب يحكم عالم الوجود.

٢- أيما وجدنا نظاماً دقيقاً ومحسوباً فمن غير الممكن أن يكون وليد الحوادث التصادفية، بل لابد أن يصدر عن عدم وقدرة عظيمين.

والنتيجة هي أن هناك مبدأ علم وقدرة عظيم وراء نظام عالم الخلقة (سواء أطلقنا عليه اسم الله أو وصعنا له اسماً آخر) لأن التسمية لا تؤثر في مثل هذه البحوث.

العلاقة بين النظام والعلم :

قبل كل شيء يجب إثبات المقدمة الثانية المسماة بكبرى القياس، ومن أجل هذا لا بد من تعريف مختصر لـ «النظام».

يمكن القول: أن أي منظمة أو موجود يعمل وفق برنامج معين ويعطي نتائج معينة، هو موجود منظم، وعلى هذا الأساس فإن «الحساب» و«البرنامج» و«الهدف» تشكل العناصر الأصلية الثلاثة للنظام، فمثلاً الساعة سمودج لـ «الموجود المنظم»، ذلك أن أجزائها مصنوعة وفق حساب دقيق، ثم هناك برنامج لتركيبها، والهدف منها هو التشخيص الدقيق للوقت.

ولأجل التوصل إلى هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) يمكن الاستعانة بهذه أدلة:

١ - الوجدان: مع أننا لم نر أبدأ الكثير من العلماء للكيمياء والمخترعين والعنانين المهرة، ولم يبق منهم سوى الآثار، إلا أننا حين ننظر إلى تلك الآثار والكتب والصاعات واللوحات النقيسة والأبسية البديعة، نعرف بدون الحاجة إلى دليل يحفلهم ودوقهم وعلمهم ومهارتهم الصاعية والفنية.

٢ - من أجل إثبات هذه العلاقة يمكن - بالإضافة إلى الوجدان - الاستعانة بالدليل المنطقي، فمسألة أحداث بداية منظمة وإظهارها إلى الوجود يجب أن يكون هناك اختيار في سبع مراحل على الأقل.

فلو تصورنا بداية عظيمة وجسيمية ومحكمة، وجب أن يمارس عملية الاختيار والانتخاب بشكل محسوب على عدة أصعدة «أولها» نوعية المواد المستخدمة، و«ثانيها» مقدار وكمية المواد، و«ثالثها» جودة المواد، و«رابعها» الأشكال والأحجام المختلفة، و«خامسها» إيجاد الاتساجام بين الأجزاء، و«سادسها» إيجاد التناسب بينها، و«سابعها»

من حيث وضع كل من الأجزاء في مكانه المناسب

وهذه الاختيارات السبعة يجب أن تتم كل واحدة منها وفقاً للعلم والاطلاع والحساب، وأحياناً الحسابات الدقيقة جداً، ومن هنا عندما يرى مثل هذه البياضة نتيقن أن صانعها بلا شك كان يملك العلم والمعرفة والاطلاع الواسع.

٣ - يمكن إثبات هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) عن طريق آخر (عن طريق البرهان الرياضي).

إن «حساب الاحتمالات» الذي أصبح اليوم فرعاً علمياً مستقلاً في الجامعات ذو فاعلية جيدة جداً في مجال العلاقة بين النظام والعلم، وهو نفس الشيء الذي ندركه بصورة إجمالية في حياتنا، لكن حساب الاحتمالات بعكسه في شكل رياضي واضح.

إننا لا نصدق أبداً أن إنساناً مهماً يستطيع عن طريق الصدفة أن يؤلف كتاباً في مجال «الفلسفة» مثلاً أو «الآداب والشعر» أو «الطب»، بمعنى أن نعطيه آلة طابعة فيبدأ بدون أن يعرف الحروف بالضغط على أزرار الآلة ليصبح كتاباً.

وليس من المستحيل كتابة كتاب علمي عن طريق الصدفة فحسب، بل لا يمكن كتابة حتى رسالة قصيرة أيضاً.

لأنه لو افترضنا أن حروف الآلة الطابعة ثلاثون حرفاً فقط، (وهي بالطبع أكثر بكثير، لأن بعض الحروف صور متعددة، فمثلاً حرف الباء الأولية والباء الوسطية والباء النهائية والباء المفردة بشكل أربع صور مخففة لحرف الباء) يقول حساب الاحتمالات هنا: إن الظهور التصادفي لكلمة «من» المكونة من حرفين هو احتمال واحد من تسعمائة احتمال $(\frac{1}{900} = \frac{1}{30} \times \frac{1}{30})$.

وا احتمال ظهور كلمة مكونة من ثلاثة أحرف هو احتمال واحد من ٢٧ ألف احتمال، وحين نصل إلى كلمة مكونة من خمسة أحرف سوف نجتاز حدود ٢١ مليون!!.

والآن إذا كانت الحروف الموجودة في رسالة قصيرة هي مائة حرف فإن مجموعة احتمالات هذه الأحرف هي العدد ٣٠ مرفوعاً إلى الأس ١٠٠ بحيث أن رسالتنا المعينة

تشكل احتمالاً واحداً من هذا العدد الهائل من الاحتمالات، أي عدداً كسرياً بسيطاً واحداً ومقامه العدد ٣ إلى يمينه مائة صفر.

إنّ مقام هذا الكسر من الضخامة بحيث لا يمكن حسابه، ولا شيء في هذا العالم يصل إلى ضخامة هذا العدد.

ولأجل إيضاح هذه الحقيقة يكفي أن نعلم أننا لو قطرنا جميع المحيطات على الكرة الأرضية قطرة قطرة وحسبنا عددها لكان عددها أقل من عدد على يمينه واحد وعشرون صفراً فقط.

وعلى هذا الحساب لو حسبنا كتاباً مكوناً من ألف صفحة فإنّ عدد الاحتمالات سيتضخم إلى درجة أنّ الاحتمال التصادفي لعدد الكسري (البسط) يتساوى مع الصفر أي أنّه مستحيل.

وبهذا الدليل، إذا ادّعى شخص مثلاً: أنّ «ابن سينا» مؤلف كتاب «القانون» في الطب كان أمياً تماماً، وأنّ «المتنبي» لم يكن له ذوق شعري مطلقاً، وأنّ «أنتشتاين» لم يكن يفقه شيئاً من الرياضيات وأنّ بنياني الأبنية التاريخية الشهيرة لم يكن لهم أدنى اطلاع في فن العمارة، وأنّ جميع الآثار التي تركوها ظهرت بمحض الصدفة والحركات غير المقصودة لأيديهم على الأوراق أو على المواد الإنشائية، فلا شك أنّ من يقول مثل هذا الكلام إن لم يكن يمزح فهو مجنون.

وخلاصة القول أنّ علاقة النظام بالعدم واضحة إلى درجة أنّ الكثير من العلوم والمعارف البشرية قائمة على النظام، فمثلاً جزء مهم من تاريخ الحضارة البشرية كتب من خلال مطالعة ودراسة الآثار الجذابة للسلف التي حلّموها بعد رحيلهم.

والعلماء - بمطالعة الآثار التي يعثرون عليها بواسطة الحفريات أو التي يكتشفونها في قبور ومعابد الأقوام الغابرة - يتوصلون إلى مستوى ثقافتهم وحضارتهم ونوعية عقائدهم. في حين إذا أنكرنا علاقة النظام والعلم، بهارت كل هذه الاستنباطات.

الآن وقد اتّصحت تماماً العلاقة بين النظام والعلم، وبعبارة ثبّتت كبرى البرهان، نتطرق

إلى مصاديقها في عالم الوجود التي اعتمد عليها القرآن الكريم .
واللطيف أن آيات القرآن لا تتحدث مطلقاً عن كبرى برهان النظام ، أي «علاقة النظام والعلم» . لأنها كانت واضحة ووحداً إلى حد أنه لم تكن ثمة حاجة لبيانها ، وكما قلنا فإن الإنسان إذا أنكر هذه العلاقة يجب عليه إنكار الكثير من الحقائق الموجودة في حياته ، وما من شك في أن منكري هذه العلاقة يشبهون **«السفسطائيين»** الذين ينكرون الحقائق أثناء حديثهم ، ولكنهم في حياتهم اليومية يقبلون جميع الحقائق مثل الآخرين ، فمثلاً لو تمرضوا براحمون الطبيب واستعملون الدواء ويفقدون إرشادات الطبيب حرفاً بحرف ، أي أنهم يعترفون رسمياً بوجود **«الطبيب»** و**«الدواء»** و**«علم الطب»** و**«الصيدلة»** ومئات الأمور الأخرى الدائرة في هذا الفلك .

إن منكري «علاقة النظام والعلم» أيضاً يدورهم يستتجون علمياً وعملياً من أي أثر علمي وصناعي وأدبي وفني ، و**«جود مبدئي»** و**«أع مدي ذوق وفن»** ، ولا يعتمدون أبداً على الاحتمالات المجنونة .

الآن وقد أصبحنا علاقة النظام والعلم تماماً ، وتثبت كبرى البرهان حسب الاصطلاح المنطقي ، نخرج على مصاديقها في القرآن الكريم والتي اعتمد عليها .
ونعتقد أن من الضروري ذكر هذه النقطة وهي : أن الفلاسفة الماديين الذين حاربوا برهان النظم (انكار وجود النظام في العالم أو إنكار علاقة النظام والعلم) وعلى رأسهم **«دافيد هيوم»** لم يتحفظوا بسوى مجموعة من الوسائس التي لا قيمة لها ، الوسائس التي لم يكونوا يقبلونها في حياتهم أبداً .

١ - آياته في خلق الإنسان

في البداية نمنع خاشعين في الآيات الكريمة أدناه.

١ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَشِيرُونَ﴾. (الروم / ٢٠)

٢ - ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ طِفْلِ أَحْشَاجٍ يُنْبِتُهُ فَجَعَلْنَاهُ سَبِيحًا بَصِيرًا﴾.

(الإنسان / ٢)

٣ - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ • ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قَرَارٍ مُكِينٍ﴾

(المؤمنون / ١٢ و ١٣)

٤ - ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ • الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ

خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ • ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ • ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ

رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة / ٦ - ٩)

٥ - ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ ذَاتِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^١

(الجنات / ٤)

❦❦❦

شرح المفردات:

«بَشَرٌ»: من أصل (بَشَرَة) بمعنى ظاهر جسد الإنسان، ولكن يستفاد من «مقاييس اللغة»

أن أصلها هو ظهور شيء ذي حسن وجمال، بدا فإن حالة «البشر» (على وزن اليُسْر)

بمعنى المرح والانبساط، وإطلاقاً من أن هذه الحالة خاصة بالإنسان، كانت مفردة «البشر»

١. هنالك في هذا المجال آيات متعددة أخرى أيضاً، صرف عن ذكرها لتقارب مضمونها مع ما ذكرناه من

الآيات. من جعلتها آيات سورة النجم ٤٥-٤٦، غافر، ٦٧، طه، ١١، الكهف، ٣٧-٣٨، النحل، ٤، الانعام، ٢

اسماً للموع الإنسانى^١. وهذه المفردة تطلق على الرجل والمرأة والمرد والمشي والجمع^٢ «سلالة»: (على وزن عَصَاة) بمعنى انشيء المأخوذ من شيء آخر، فيكون خلاصته وعصارتها، وهي في الأصل من (سَلَّ) على وزن (خَلَّ) بمعنى سحب وجزَّ برفق وتستخدم لسحب السيف من القراب أيضاً ثم أطلقت على عصارة وحلاصة الأشياء^٣، وحيثما نقرأ في الآيات المذكورة أن الله خلق الإنسان من سلالة من طين، فمبنى ذلك من العصارة المصطفاة من الطين، وقال البعض: إن المراد من هذا هو أن آدم مخلوق من عصارة كل الأثرية الموجودة على الأرض (وبهذا فقد استخلص آثار لجميع في وجوده) وإطلاق «السليل» على «الابن» من باب أنه ناتج من عصارة وجود الأب والأم

«النطفة»: في الأصل بمعنى «الماء الصافي»، واعتبرها بعض أهل اللغة بمعنى «الماء القليل»، وبما أن الماء الذي يمثل المبدأ في ظهور الإنسان قليل ومصطفى وعصارة من كل الجسم فقد أطلقت هذه المفردة عليه، ويقال للسوائل الجارية «ناطف» أيضاً.

«أمشاج»: جمع «مشج» (على وزن تشج) بمعنى الشيء المخلوط، والبعض اعتبرها جمعاً لـ «مشج». ولأن ماء الرجل والمرأة يختلطان عند انعقاد نطفة الإنسان فقد أطلقت هذه المفردة عليه

جاء في «لسان العرب» أن هذه المادة في الأصل بمعنى اللوسين المختلفين الذين يمتزجان مع بعضهما (ثم أطلقت على الأشياء المحسنة التي تخلط مع بعضها).

خلق الإنسان من (نطفة أمشاج)، يمكن أن تكون إشارة إلى المواد المختلفة التي تشكل النطفة، أو القابليات المتنوعة التي تجتمع في النطفة عن طريق عامل الوراثة وغيره من العوامل، أو أنه إشارة إلى كل هذه الامتزاجات



١. مقاييس اللغة، لسان العرب والتحقيق في كلمات القرآن الكريم

٢. لسان العرب، ومجمع البحرين.

٣. مفردات الرغب، مجمع البحرين، ولسان العرب.

جمع الآيات وتفسيرها

آيات الأنفس الأولى:

للقرآن الكريم عبارات متنوعة حول بداية ظهور الإنسان، يقول في أول آية بهذا الخصوص:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾.

ويقول في الآية الرابعة: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾.

ويقول في الآية الثالثة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾.

ويقول في الآية ١١ من سورة الصافات: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾.

ويقول في الآية ٢٦ من سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ

مُشْتَوٍ﴾.

وجاء في الآية ١٤ من سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾.

«الصلصال»: في الأصل بمعنى لوي الصوت في الجسم اليابس، ولهذا سمي الطين

اليابس الذي يصدر منه صوت عند ارتطام جسم آخر به بالصلصال، وحين يحتر على النار

يقال له «الفخار».

«الفخار»: مأخوذ من مادة «فخر» أي المحور كثيراً، ولأن الأشخاص الفخوريين أساس

كثيرو الصبيح والكلام وفارغون، فقد أطلق هذا الاسم على الكور وكل فخار فارغ

الجوف، بل أطلق على كل أنواع الفخار^١

يستفاد من مجموع الآيات أعلاه أن الإنسان كان تراباً في البداية، وقد امتزج هذا

التراب بالماء واستحال إلى الطين، وقد أخذ هذا الطين بعد مضي فترة شكل الوحل ثم

استخلصت من عصارته المادة الأصلية لآدم ثم جُمِعَتْ، وساجتيازها المراحل المهمة

تكوّن آدم.

لكن في آيات أخرى من القرآن كالأية الثانية المعية، يعتبر خلقة الإنسان من نطفة

١. مفردات الراغب؛ ومجمع البحرين؛ ولسان العرب

محتلطة: «مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ».

وفي الآية الثالثة يعتبرها أولاً من «عصارة الطين»، ثم من «نطفة في الرحم»: «مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَوَارِيرِ فَكَيْنٍ».

واضح أنَّ المراد من هذه الآيات هو خلق الإنسان في المراحل والأجيال اللاحقة، وبهذا فإنَّ جدنا الأول مخلوق من تراب، وأولاده وعقبه من نطفة أمشاج.

وثقة احتمال في تفسير الآية أعلاه هو بما أنَّ المواد المكوِّنة للنطفة مأخوذة جميعها من التراب (لأنَّ غذاءاً إتماً من المواد الحيوانية أو النباتية وتعلم أنَّ جميع هذه المواد نحصل عليها من التراب)، لهذا فلم يكن الإنسان الأول من التراب محسوب، بل إنَّ جميع الناس في المراحل اللاحقة ينشأون من التراب أيضاً^١



وعلى كل حال، فهذه حقاً من العجائب والكبرياء في عالم الوجود وغرائب عالم الحلقة أن يولد - من مادة ميتة وبلا روح ولا قيمة لها كالتراب - موجود حي وعاقل ودو قدر وقيمة كالإنسان، فهذه من الآيات البينات لذلك المُبدى الكبير، وه إنَّ ذلك الخالق لجدير بالشكر والثناء لأنَّه خلق من الماء ولطين مثل هذا شكل الجذاب

وبشكل عام فإنَّ ظهور الحياة من موجود ميت ما يزال من ألعاز عالم الفكر والعرفة، فضمن أيَّ شروط وظروف يخرج موجود حي من موجود ميت كالتراب؟ يعتقد كل العلماء أنَّ الكرة الأرضية حين انفصلت عن الشمس كانت كدماً ناراً محترقة، ولم تكن عليها حياة مطلقاً، ثم بردت قليلاً قليلاً وهطلت عليها سيول الأمطار من العازات المصعوظة الموجودة حولها، فتكوَّنت البحار، بدون أن يكون فيها كائن حي، ثم ظهرت بوادر الحياة سواء النباتية أو الحيوانية وأخيراً خُلِقَ الإنسان!

إننا سواء اعتقدنا بالخلق المستقل للإنسان (كما هو ظاهر الآيات القرآنية)، أو اعتبرنا

١ ورد في تفسير الميراث، ج ١٦، ص ١٧٢ إشارة مقتضبة لهذا المعنى

الإنسان متكاملًا من أنواع الأحياء الأخرى (كما يقول أتباع داروين، ونظرية التكامل)، فمهما كان فإن جذور هذا الإنسان تعود إلى التراب، فهو منبتق ومخلوق منه، وإذا كان ظهور كائن حي أحادي الخلية ومجهري من التراب محيرًا لأفكار كل العلماء، فكيف بظهور الإنسان من التراب الميت الحالي من الروح؟

هذا يجب الاعتراف أننا بأزاء آية كبيرة من آيات الحق وعلامة معبرة من عطمة الله، آية من العالم الصغير هي نموذج متكامل للعالم الكبير.

يقول كاتب «سر خلق الإنسان» «غريسي موريسن» في معرض إشارته إلى بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضية:

«وقعت حادثة عجيبة في بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضية كان لها أثر كبير على حياة الموجودات الأرضية، حيث أصبح لإحدى الخلايا خاصية عجيبة وهي أنها وبواسطة ضوء الشمس بدأت تحلل وتحرر بعض التركيبات الكيميائية وتوفر بهذا العمل المواد الغذائية لنفسها ولسائر الخلايا المشابهة، وقد اتخذت الخلايا المشطرة من إحدى هذه الخلايا البدائية على الأعذية التي وفرتها لهم أهم وأحدث جمل الحيوانات، في حين أن خلية أخرى بقيت على شكلها النباتي وكويت نباتات لعالم، وهي اليوم تغذي كل الأحياء الأرضية.

ثم يصيف: هل يمكن التصديق أنه وحسب الصدفة كانت إحدى الخلايا مشأً لحياة الحيوانات وحلية أخرى كانت أصلًا ومصدرًا لنباتات؟»
ووفق قول آخرين:

إن العلماء يقسمون موجودات عالم المادة إلى نوعين، العضوية (وهي الموجودات القابلة للفساد كأنواع النباتات وأجسام الحيوانات)، وللموجودات اللاعضوية (المعدنية) التي لا تقبل الفساد، ولهذا يقسمون كيمياء إلى قسمين «الكيمياء العضوية» و«اللاعضوية».

تشكل المواد العضوية جميع أطعمة الإنسان تقريباً، وهي مأخوذة كلها من التراب،

وحين تدخل جسم الإنسان تكون تراكيب كيميائية جديدة تناسب تغذية كل عضو من الأعضاء، وهذه نفس الحقيقة التي يبيها القرآن بعبارة: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أو ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^١.

صحيح أن للإنسان علاوة على المادة التريية روحاً إلهية، ولكن لا شك أن الروح تكون مظهراً للأعمال والأفعال المختلفة بالتنسيق مع الجسم وعليه فإن هذه المادة الترابية تستطيع بالتنسيق مع الروح أن تقدم أنواع تفلييات والأدواق والابتكارات والأعمال التي يمار فيها العقل.

مع أن الإنسان صار موضوعاً لعلوم مختلفة، وهالك عالم خاص حول كل جانب من جوانبه يمارس دراساته وأبحاثه، إلا أن الإنسان ما يزال موجوداً مجهولاً، ويلزم من الوقت سبي طويلة لكي يحل العلماء بجهودهم المتواصلة هذا اللغز الكبير في عالم الوجود وينبروا رواياه، وربما لم يستطيعوا بهذا أن يقوموا بذلك.

يمكن لكل عضو من أعضاء جسم الإنسان أن يكون لوحده موضوعاً لحساب الاحتمالات العيس، الأذن، القلب، العروق، الجهاز التنفسي، الكلى، المعدة، الكبد، وأحيراً الجهاز العصبي المعقد، وبعملية رياضية بسيطة يتضح أن أي عقل لا يوافق على أنها خلقت صدفة.

نعم، إنه من أجل التوصل إلى بنية وموع معينة وفلسفة كل واحد من الأعضاء فقد درس آلاف العلماء والعقول المفكرة وكتبت مئات أو آلاف الكتب حولها.

هل يصدق أحد أنه من أجل معرفة كل واحد من هذه الأعضاء تدرم كل هذه العلوم والعقول والذكاء والدراية، بينما لا يدرم صعبها علماً وعقلاً على الإطلاق؟! كيف يمكن أن يكون فهم أسلوب عمل إحدى المعامل متطلباً لسبين من المطالعة، بينما تكون صناعة هذا المعمل قد حصلت على يد العوامل غير العاقبة؟ أي عمل يصدق هذا؟!

هنا لا يعتبر ظهور الإنسان من المادة البسيطة (التراب) ومن سلالة من طين ومن الحمأ

١ مقتبس من إيجار القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة ص ٢٣ و ٢٤.

المسنون إحدى أعمال الخلق العظيمة والآيات الكبيرة على وجود الله فحسب، بل إن كل واحدة من خلايا الجسم بإمكانها أن تكون مرة عاكسة لعظمة الله ووجوده.

للتعقيد والدقة في نظام الخلق:

يقولون: إن للبحار العلاتي نظام معقد، هذا عندما يكون بناؤه متكوناً من أجزاء وتشكيلات مختلفة ذات ارتباطات متعددة ومتنوعة، ويقوم بأعمال متباينة مهمة، فمثلاً الحاسبة الإلكترونية التي تستطيع فصلاً عن أعمال الحساب الأصلية أن تحل أنواع المعادلات الجبرية والقضايا الهندسية وتؤدي مختلف الحسابات الرياضية بسرعة أو نحفظها في حافظتها، تعتبر ذات نظام معقد.

يقول العلماء: إن حلف عشاء شبكية لعين يوجد تسعون ألف حزمة عصبية تربط بين خلايا الشبكة وسلسلة الأعصاب (بالطبع لكل عين من عيني الإنسان تسعون ألف حزمة) وهذا نظام عجيب ومعقد جداً، وبأخذ هذه النقطة بنظر الاعتبار يعود إلى أصل البصيرة: في عالم الحيلة وعلاوة على قضية النظرة والدقة، تمت أنظمة معقدة غاية التعقيد، تبهر الإنسان وتحيره، وحسب تعبير بعض العلماء فإن في مدينة جسم الإنسان العظيمة أبية تكون أكبر باطحات السحاب في العالم إلى جانبها مثل كوخ طيبي. وكمودح نأخذ بناء الحلية وهي من بين الأنظمة المعقدة في العالم، والذي اكتشفت اليوم أسرار عظيمة منه.

وكذلك فإن الإنسان وبشكل معدل في جسمه «عشرة ملايين مليار» وحدة حية صغيرة تسمى «الخلية».

كان أول من اكتشف الخلية ووضع لها تسمية، عالم يدعى «هوك» في القرن السابع عشر الميلادي، وطبعاً فإنه لم يكن يعلم يومذاك ما في بناء هذه الوحدة الصغيرة من تعقيد يبعث على الحيرة، ولكن العلماء الذين جاؤوا بعده واصلوا مساعيه وتوصلوا إلى أسرار تسرد فيما يلي جانباً من شهاداتهم:

١ - يمكن تشبيه خلية مجهرية واحدة بمدينة فيها آلاف التأسيسات مجهزة بمنشآت ومعامل لتبديل المواد الغذائية إلى المواد التي يحتاجها الجسم، بحيث لا يمكن أن نقيس أعظم وأحدث الظواهر الصناعية للبشر بها.

٢ - تتكون هذه المدينة الصغيرة والصاحبة من ثلاثة أقسام:

(أ) جدار الخلية وهو بمثابة سور المدينة

(ب) القسم الأوسط للخلية (السايتو بلازم).

(ج) النواة أو مركز القيادة

إن السور المصنوع حول الخلية من اللطافة والظرافة بحيث لو وضعنا ٥٠٠ ألف من هذه الجدران إلى جانب بعضها من الصب أن تسوي سمك ورقة اعتيادية ومع هذا فهو حساس ومعكم قبال هجوم الموامل الخارجية إلى درجة أن سور الصين المعروف ليس شيئاً يذكر بالقياس إليه

وهذا السد الرقيق مصنوع بدوره من ثلاثة جدران أو من ثلاث طبقات اصطلاحاً، بتشكيل طرفاه من الأنسجة البروتينية وأسفله مليء بالدهنيات وهذه الدهنيات لا تسمح لشيء أبداً بالدخول داخل المدينة إلا بمفتاح رمزي، وهذا المفتاح الرمزي هو: أن المواد التي يريد الدخول إلى المدينة يجب أن تتمكن من إدابة دهون الجدار فيها والسفوذ إلى الداخل، وهذا دليل يثبت أنها صديقة وليست من الأعداء، وبهذا فإن هذه المدينة محروسة بشدة من كل جانب بدون حاجة إلى حارس.

٣ - يوجد في داخل هذه المدينة (الخلية) قناب كثيرة تمتد من الجدران إلى أطراف «النواة»، أي حصص قيادة الخلية، تأخذ المواد الغذائية وتحينها إلى بروتينات واللطيف أن ٢٣ نوعاً خاصاً من الأحماض تدخل هذه الخلية، والبروتين يتكون من تركيب عدة أنواع منها.

٤ - النواة الأصلية بمفردها تمثل ناطحة سحاب مكونة من آلاف الطبقات بحيث تكون ناطحات السحاب المعروفة في نيويورك مرئاً متواضعا إلى جانبها.

للنواة الأصلية في الخلية وهي مقر القيادة تشكيلات معقدة. عشاء النواة، العصارة الداخلية، والحزمات الرقيقة حولها التي تتولى كل منها مهمة خاصة.

«العجيب أن في نواة الخلية وحداث صغيرة جداً وظريقة تسمى «الجينات» يصل عددها طبقاً لدراسات العلماء إلى حدود ٢٥ ألف جين

ليست «الجينات» هي الكل في الكل في أعمال الخلايا وحسب، بل إنها تسلك بكل نشاطات الجسم، ومن أهمها التحكم بالأمور الوراثية ونقل الصفات والخصائص إلى الخلايا اللاحقة، أي أن انتقال كل الصفات الوراثية عد البشر وسائر الحيوانات يتم عن طريق الجينات.

ولأن العمل الأساسي للجين يقع على عاتق الحامض الخاص في النواة، لذا يمكن تسميته بالعقل الألكتروني أو كامبيوتر الجين.

والأعجب من هذا، أن نفس هذه الجينات متكررة في أجزاء أخرى تصل طبقاتها من ٢٠ إلى ٥٠ ألف حسب ما يعتمد العلماء.

ومختصر الكلام أن هذه المدينة العظيمة بذلك المسور العجيب وآلاف المفايد والبوابات، وآلاف المعامل والمحارن وشبكة الأنابيب ومركز القيادة بتأسيساته الكثيرة وارتباطاته المتعددة والنشاطات الحياتية المتنوعة في تلك الحدود الصغيرة، من أعقد وأدهش مدن العالم، إذ إننا لو أردنا أن نصنع مؤسسات تقوم بنفس لأعمال (ولا نستطيع ذلك أبداً)، وجب علينا اقتطاع عشرات الآلاف من الهكتارات من الأرض لوضعها تحت اختيار هذه المؤسسات والأهية المختلفة والأجهزة المعقدة لتكون جاهزة لمثل هذا البرنامج، لكن المدهش أن نظام الخلق قد ضُبط كل هذا في مساحة تعادل ١٥ مليون مليمتر^١.

أجل، في خلق الإنسان آلاف آلاف من الآيات والعلامات الإلهية: «الْعَظَمَةُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».



١ من كتب فسيحة الحيوان، فسيحة الوراثة، والسفر إلى أعماق وجود الإنسان



تجربہ نامہ

٢ - آياته في نمو الجنين

تمهيد:

طلت تحولات نمو الجنين في جن أمه وليسين طويلة خافية عن أعين العلماء، إلى أن رفعت يد العلم النقاب عن هذا العالم المملوء بالأسرار، وأظهرت أن النظمه عندما تستقر في محلها من الرحم وتبدأ سيرها التكاملي، تبدأ تطوي من المراحل المختلفة والمتنوعة حتى تصبح على هيئة إنسان كامل، والمحجب أن القرآن الكريم أكد عدة مرات على قضية نمو الحبيب في آياته المختلفة وفي ذلك العصر والزمان الذي لم يكن فيه علوم ولا اكتشافات، تارة لإثبات التوحيد وتارة لإثبات المعاد

مع إن «علم الأجنة» ما زال في مرحلة الأوسى، ومعلوماتنا عن هذا العالم القامض ما تزال قليلة جداً، ولكن حتى هذا الممدار الذي كشف العلم البشري النقاب عنه، قد وضع دينا من العجائب والغرائب مقابل أعين العلماء.

بهذه الإشارة نتأمل خاشعين في الآيات نكرمة التالية:

١ - «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ • ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ • ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (المؤمنون / ١٢-١٤)

٢ - «أَلَمْ يَلِكْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْسَى • ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى • فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى» (القيامة / ٣٧-٣٩)

٣ - «وَأَوَّلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ» (يس / ٧٧)

٤ - «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحْذَرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا».

(الكهف / ٣٧)

٥ - «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلَ أَمَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»^١.

(عامر / ٦٧)



شرح المفردات:

«العلقة»: من مادة (عَلَقَ) (علني ورن شفق) وهي في الأصل بمعنى العلاقة والارتباط بشيء، ولهذا جاءت كلمة «عَلَقِي» بمعنى «دم المتحتر» و«الديدان المصاحصة للدماء»، وقد سميت «العلقة» بهذا الاسم لأنها إحدى مراحل تكوين الجنين في رحم الأم، فهي شبه قطعة الدم المتحتر^٢

جاء في «مقاييس اللغة» أن أصل مفهوم هذه الممردة هو ارتباط وتعلق شيء بموجود أعلى منه ثم اتسع مفهومها بعد ذلك^٣

«المضغة»: من مادة (مَضَغَ) بمعنى مصغ طعام وبمعنى قطعة اللحم التي يمسضها الإنسان لمرة واحدة شرط أن تكون غير مصبوحة، وإطلاق هذا المصطلح على إحدى مراحل الجنين التي تأتي بعد مرحلة «العلقة» جاء من باب تشابهها مع مثل هذا اللحم، ففي ذلك الجنين يصبح الجنين على شكل قطعة حمراء فيها الكثير من العروق ذات اللون الأخضر، ويقال أحياناً «قلب الإنسان مضغة من جسده»، كل هذه التعابير تعود إلى أصل واحد^٤.

١. توجد على هذا الصعيد آيات أخرى في القرآن الكريم مكتفي بذكر رقمها وسورتها لضرب معناها من الآيات المذكورة أعلاه، فاطر، ١١١ والجمع، ٥

٢. مقررات الراغب

٣. وفي كتب اللغة الأخرى تعابير تشبه هذا التعبير كما في لسان العرب ومجمع البحرين.

٤. مقاييس اللغة؛ مقررات الراغب؛ مجمع البحرين؛ لسان العرب وصحاح اللغة

«المنّي»: في الأصل من مادة (نمى) (على وزن نَمِيَ) بمعنى التقدير والقياس، وبما أن في ماء النطفة مقياس إنسان أو حيوان ما، فقد ضلقت هذه المفردة عليه، ولهذا أيضاً يسمي الموت بـ«المشيّة» فهي الأهل المقدر للإنسان والحيوان.

وإطلاق مفردة «المنّي» على الآمال جاء بسبب أن الإنسان يُصوّر ويُحدّد آماله في قلبه، ولأن الكثير من الآمال لا تطابق الواقع تأتي مفردة «الأمنية» أحياناً بمعنى الكذب.



جمع الآيات وتفسيرها

عالم الجنين الضامض:

كما اشربنا سابقاً فإن القرآن الكريم أكد مراراً على مسألة المراحل التكاملية لنمو الجنين في رحم الأم، ودعا الناس كافة إلى مطالعتها بدقة، واعتبرها إحدى الطرق للوصول إلى معرفة الله، وكذلك إحدى طرق إثبات إمكانية المعاد.
إن الآيات الأولى المعصية بالبحث وبقرينة العبارة الأخيرة منها «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» تشير إلى قضية التوحيد، وبالرغم من أن الآيات اللاحقة من نفس سورة «المؤمنون» هذه تدلّ على أنها تشير إلى قضية المعاد أيضاً ويهدا تكون هذه الآيات قد تعرضت إلى مسألة معرفة الله وتوحيد به بالاضافة إلى معاد.

وقد تحدثت في البداية عن خلق الإنسان من «سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ» ثم من «نُطْقَةٍ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ»، وبعد ذكر هاتين المرحلتين تنتقل إلى ذكر خمس مراحل أخرى:

- ١ - مرحلة «العَلَقَة» حيث تتبدل النطفة إلى دم متحتر في داخله الكثير من العروق.
- ٢ - مرحلة «المضغة» حيث يصبح هذا الدم المتحتر على شكل قطعة من اللحم.
- ٣ - مرحلة «العظام» حيث تتبدل كل الخلايا اللحمية إلى خلايا عظمية.
- ٤ - يأتي دور مرحلة تغذية العظام باللحم حيث تعطي العضلات كل العظام: «كَتَسُونَا الْعِظَامَ لَحْمًا».

٥ - هنا تتغير لهجة القرآن وتحررنا عن تحول وخلق مهم وجديد للجنين . فيقول بتعبير فيه أسرار وخفايا. «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ».

وعندما تنتهي هذه المراحل السبع يصف لقرآن هذه الحلقة الصحية أحمل وصف بعبارة: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»، وهي عبارة لم تأت في أي آية أخرى من القرآن ولم تستخدم في مجال أي موجود آخر.

ذكر المفسرون تفاسير متنوعة في المرد من العبارة العامة «الخلق الآخر». ويبدو أن أسسها وأقربها إلى القصد هو بوع الجس مرحلة الحياة الإنسانية، حيث يظهر فيه الحس ويبدأ بالحركة، ويضع قدماً في عدم الحيوانات والبشر، يميز القرآن عن هذه الطفرة الكبيرة والصحية بكلمة «الإنشاء» في إشارة إلى الطريق الطويل الذي يقطعه الإنسان خلال هذه المدة القصيرة.

نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسيرهم عبارة «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» قوله: «هو نفخ الروح فيه»^١.

صحيح أن الجنين كان حي منذ لحظاته الأولى مسؤوليته وحتى فطره معينة لا يمتلك أي إحساس وحركة في بطن الأم، ويكون في الحقيقة أشبه بالنبات منه بالحيوان أو الإنسان، ولكن بعد مصي عدة أشهر تبعث فيه لروح إنسانية، ومن هنا جاء في الروايات الإسلامية أن الجنين لا يستحق قبل بلوغه هذه المرحلة الدية الكاملة أبداً، أما إذا بلغ هذه المرحلة كانت ديته نفس الدية الكاملة للإنسان^٢.

التعبير بـ «أحسن الخالقين» بالرغم من أنه لا حال غير الله إنما هو لأجل أن مفردة «الخلق» ليست فقط بمعنى الإيجاد بعد العدم وحسب، بل لها معان أخرى منها: «التقدير» و«الصناعة» و«إعطاء الأشكال الجديدة للأشياء الموجودة في العالم»، ولا شك أن الإنسان يستطيع بما منحه الله من قوى أن يوحد تعبيرات كثيرة على مواد هذا العالم

١ تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٤١، ح ٥٦ و ٥٧.

٢، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٤١، ح ٥٦ و ٥٧.

المختلفة ، فيصنع من الحديد والفولاذ مصانع والمعامل أو يبني من المواد الإنشائية بناءً عظيمًا بأحجام مختلفة .

إذن فللخلق مفهوم واسع يشمل كل هذه الأمور .

ولهذا ورد في القرآن الكريم عن لسان النبي عيسى عليه قومه : « إِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ رَبِّهِ » .
(آل عمران / ٤٩)

وبالطبع فإن الخالق الحقيقي أي ذلك الذي يوجد المادة والصورة وإليه تعود كل قدرات وخواص الأشياء هو الله فقط ، ومهمة غيره من الخالقين وهم الخالقون المجازيون ، هي تغيير الأشكال وتصميم المواد .



نشير الآية الثانية من الايات المطبورة إلى مرحلة بدايه ظهور الإنسان أولاً ، أي عندما كان قطرة ماء حقيق اسمه المبي ، ثم تذكر مرحلة لعلقة سقط من بين مراحل نمو الحين ولا تذكر المراحل الأخرى إلا تحت عنوان « فَنُفِثَ لِسَوَى » وهو تعبير شامل جداً ، وتشدد خاصة على قصية ولاده الجسم « المذكور » وه « مؤث » وهي من أعقد المظاهر المتعلقة بعلم الأجنة « فَيَجْعَلُ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى »

« سَوَى » من مادة (تسوية) بمعنى التنظيم والتسوية ، ويعتقد البعض أنها إشارة إلى خلق الروح الذي جاء في الآية السابقة بشكل آخر

ويرى البعض أن كلمة « النخلق » إشارة إلى خلق الروح ، وكلمة « سَوَى » إشارة إلى تنظيم وتعديل أعضاء الجسم الإنساني ، وفسرها البعض بالتعديل والتكميل .

لكن الظاهر أن تعبيرات الآية شاملة وواسعة بحيث تستوعب كل ألوان الخلق والتنظيم والتعديل والتكامل التي تطرأ على العنفة حتى ساعة وضع الحمل^١

يقول الراغب في كتاب المفردات فقال « التسوية » لصيانة الشيء من الإفراط والتفريط من حيث المقدار والتنوعية .

١. تفاسير القرطبي ، روح المعاني ، في ظلال القرآن ، المبرر والكبير ، في التقيب على الآية المعية .

في الآية الثالثة يؤكد على نقطة جديدة، أخرى ويقول بعد الإشارة إلى خلق الإنسان من النطفة «خصيم مبین».

وقد وردت تفاسير متعددة لهذا التعبير فقالوا تارة إنها إشارة إلى مرحلتي «الضعف» و«القوة» لدى الإنسان، حيث كان يوماً ما نطفة حقيرة ويصبح لاحقاً قوياً ومقتدراً إلى درجة قيامه بالخصومة والصجيج اراء كل شخص حتى اراء الله ١.

وقالوا تارة إنها إشارة إلى ملكة الطق ونهم والشعور لدى الإنسان، فهذه النطفة الحقيرة يصل بها الأمر إلى عدم الاقتصار على الطق فقط، بل إلى التمتع بالقُدرة على الاستدلال المنطقي بأنواعه والاعتدال العقلي، ونحن نعلم أن ظاهرة النطق والبيان والمنطق والاستدلال من أهم طواهر الوجود الإنساني.

وقيل أحياناً إن هذا التعبير إشارة إلى النزاع العجيب الذي يحصل بين الخلايا الذكرية (الحيامن) من أجل التسلط والانتعاد بالخلية الأنثوية (البهضة)، لأن نطفة الذكر عندما تدخل الرحم تتحرك آلاف الحيامن بسرعة كبيرة لتصل إلى نطفة الأنثى وتتحدا معها. وأول حيم يصل إليها ويختلج إلى داخلها يسد الطريق على بقية الحيامن، لأن غشاء مقاوماً سيحيط بالبهيضة ويمنع من نفوذ بقية الحيامن إليها، وبهذا فإن البقية سيهزمون في هذا الصراع العجيب ويمتصهم الدم، ولهذا يشير لقرآن الكريم بعد ذكر مرحلة النطفة إلى قضية «خصيم مبین» ١.

﴿٨٧﴾

في الآية الرابعة أيضاً يرد ذكر الحلقة من التراب ثم النطفة وبعد ذلك مرحلة التسوية والتنظيم، وفي الآية الخامسة وهي آخر الآيات يصيب القرآن إلى كل هذا مرحلة «الولادة» وخروج الجنين من بطن الأم على شكل طفل وليد، «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً». وكما نعرف فإن أهم عجائب الجنين هي نهاية عمره، بالولادة، أية عوامل تؤدي إلى

إصدار الأوامر للجنين بالخروج في لحظة معينة أو نقله عن شكله العادي (في الحالة العادية يكون رأس الجنين إلى الأعلى ووجهه إلى ظهر الأم) وترسل رأسه إلى الأسفل لتسهيل عملية ولادته ١٢.

في البداية يُفترق كس الماء الذي كان الجنين يسبح فيه، وتخرج المياه ويستعد الجنين لدخول الدنيا لوحده.

يصيب الأم ألم شديد، تصعب كل عضلات بطنها وظهرها وجانبيها على الحبل، وتدفعه إلى الخارج

إن التفاعلات الكيميائية والتغيرات المبريانية التي تحصل للجسم أثناء الولادة على درجة من العراة والمجب بحيث تحكي جميعها عن علم وقدره غير متناهين أوجدا هذه البرامج لمثل هذا الهدف المهم.

وبهذا نستنتج بوضوح من الآيات المذكورة أن النظام المعقد والمدهل لنمو الجنين يُعد من الآيات والعلامات المهمة التي تحر عن وجود العلم والقدرة اللامتناهية لموحدده، ومن جانب آخر على قدرته على قصبة المعاد والعبئة بعد الموت، ذلك أن الجنين يتخذ كل حين حياة ومعاداً حديداً، ولذلك كان هذا النمو دليلاً على التوحيد بقدر ما هو دليل على المعاد.



توضيحات

١ - صورة في الماء

هنالك مثل رائج ومشهور عندما يراد التذكير بعدم ثبات شيء معين فيقولون «إنه كالصورة في الماء» لأنها تبعثر بأقل حركة أو نسيم، لكن العجيب أن الله الكبير يجعل كل الصور المختلفة للإنسان والكثير من الأحياء لأحرى صوراً في الماء ويودع كل هذه الصور في قطره من ماء النطفة، من يرسم الصور في الماء سوى الله الكبير؟

٢- في ظلمات ثلاث

والأغرب من ذلك حسب قول لقرآن، هو أن هذه الخلق التي يوجدها الله واحدة تلو الأخرى في ماء الطغفة ليخرجها خلال فترة قصيرة على هيئة إنسان كامل يقوم بها عز وجل جميعاً في محل مظلم لا تصل إليه يد أحد، كما يقول القرآن: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ (الزمر / ٦).

إن الظلمات الثلاث كما يرى الكثير من المفسرين وكما أشارت بعض الروايات هي: ظلمة بطن الأم، ثم ظلمة الرحم، وبعد ذلك ظلمة «المسيجة» (الكبس الحاصل الذي يحتوي الجنين) التي تكون على شكل ثلاث ستائر سميكة حول الجنين^١ يحتاج الرسامون والمخاضون انهم أن ينفذوا صورهم أمام النور والضيء الكامل، لكن ذلك المخلق الكبير يرسم صورة على الماء في ذلك المنزل المظلم بحيث يمتن ويظهر الجميع ويجديهم للمشاهدة.

٣- مقر الأمن والأمان

يقول القرآن بصراحة: «إِنَّا جَعَلْنَا طَافَةَ لِنَاسٍ فِي مَقَرِّ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ. ثُمَّ جَعَلْنَا نُطْفَةَ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ» (المؤمنون / ١٣).

والحقيقة إن أكثر نقاط الجسم صوماً هي تلك التي تستقر فيها الطغفة والجنين بحيث تكون محمية من كل جانب، فمن ناحية هديك العمود الفقري والأضلاع، ومن ناحية أخرى هالك العظم القوي المسمى بالحوص. ومن ناحية ثالثة الأعطية والمصلات المتعددة التي تحتويها البطن، بالإضافة إلى أن أيدي الأم تتحول بشكل لا شعوري أثناء وقوع بعض الحوادث الخطيرة إلى درع مقابل البطن!

١ تفسير مجمع البيان؛ تفسير الميزان؛ التفسير الكبير وتفسير آخر (روى المرحوم الطبرسي في مجمع البيان نفس هذا المعنى ضمن حديث عن الإمام الباقر عليه السلام).

والأغرب من كل هذا أن الجنين يقع في داخل كيس مملوء بماء لرج بحيث يكون معلقاً في داخل ذلك الكيس وفي حالة تامة من فقدان الوزن، أي لا يواجه أي ضغط من أي جانب، ذلك أن بنية الجنين وخاصة في بداياته تكون رقيقة جداً بحيث يمكن لأقل ضغط عليه أن يسهقه.

ولهذا الكيس بما يحتويه من ماء حاصية تدبيرة على مواجهة الضربات، وهو تماماً كاللواح المرنة التي توضع لأفضل انسيارات، حيث بإمكانها امتصاص وإبطال مفعول أية ضربة توجه إليه نتيجة الحركات السريعة للأم.

والأغرب أنه يحفظ درجة الحرارة بالنسبة للجنين ضمن الحدود المعتدلة، ولا يسمح للحرارة والبرودة المفاجئة التي تهاجم بطن الأم أن تترك آثارها بسهولة على الجنين.

فهو يمكن العنبر على مقر أكثر أمناً من هذا، ومن أجل تعبير القرآن حين يسمي مقر النطفة «مقر المكين» ١٢

٤ - خصيم هين

هذه أيضاً إحدى عجائب الجنين، سواء فسرها بما يسمي قدره الإنسان على الكلام والاستدلال والاحتجاج، كما قال بعض المفسرين، أو فسرها كونها المسابقة والسراع الذي يحصل بين الحيامن أثناء الحركة باتجاه نبويصه (نطفة الأنثى) في رحم الأم، والذي ينتهي بنجاح أحد الحيامن في اتحاده بالويصة، أما بقية الذين انهزموا في هذه الخصومة فإنهم يمتنون ويجذبهم الدم، أو اعتبرها إشارة إلى كلاً من التفسيرين وعلى كل حال، فهذه من النقاط المظيفة والتدبيرة للجنين، إذ يظهر من موجود مسحط وحقيق ظاهراً إلى ظاهرة سامية وقيمة جداً.

٥ - تغذية الجنين

تغذية الجنين بدورها إحدى العجائب، لأن نمو ولرشد السريع للجنين يستلزم مواداً

غذائية كاملة ونظيفة ومصفاة من ناحية، ومن ناحية أخرى يحتاج إلى الأوكسجين والماء بالمقدار الكافي الذي يحب أن يصل الجيب بشكل مستمر، وقد جعل الله هذه المهمة على عاتق جهاز اسمه «الحبل السري» الذي خفيه منذ الانحطاط الأولى إلى جانب الجيب، والذي يرتبط من أحد طرفه بقلب الأم عن طريق شريابين ووريد واحد، ومن طرفه الآخر بالجنين عن طريق عقدة السرة.

يحتص هذا الجهاز كل المواد الغذائية والماء والأكسجين اللازم بواسطة نظام الدورة الدموية للأم، ثم يقل هذه المواد بعد تصفيتها ثانية إلى الجنين، ثم يقوم باستقطاب الفضلات والزوائد والكاربونات وما شاكل ويهداها إلى دم الأم.

إذن فالحبل السري يلعب دور الجذب والدفع بالإضافة إلى كونه مصفى بحيث يستطيع الإنسان من خلال محرد مطالعته للبناء لمذهل لهذا الحبل السري أن يصل إلى عظمة الخالق.

اللطيف أنه ورد حديث عن أحد المعصومين عليه السلام يقول فيه ما مضاه. إن الجيب يستفيد من السيم الذي تستشفه الأم^١

لم تمض سوى سنوات على اكتشاف لعشاء بأن ربي الجيب لا تقومان بنشاطهما النفسي وأنه يسبح في ماء الرحم وأنه بحاجة إلى الأوكسجين؟ ولم تمض سوى سنوات على معرفتهم أن الأوكسجين الذي تستشفه الأم يدخل إلى دمها وينتقل إلى الحبل السري فينتفع منه الجنين عن طريق سرته؟

على أية حال، لم يمض زمن طويل على ذلك لكن المين البصيرة للإمام عليه السلام رأت هذه الحقيقة منذ مئات السنين فقال: إن لجيب يستفيد من هذا السيم، هل هناك تعبير مقابل الهواء الملوّث الذي تنفسه أفصل من كلمة سسيم لدى استخدمة الإمام للإشارة إلى الأوكسجين؟^٢

١. (فتيس من كتاب أولي دانشكاه، ج ١، ص ٢٥٣) (بافارسية)

٦ - مصير الجنين من حيث الجنس

لم يتمكن أحد من الإجابة عن السؤال القائل: كيف ويتأثر أية عوامل يصير الجنين ذكراً أو أنثى؟ أي أن العلم لم يعثر لحد الآن على جواب له، فمن الجائز أن تكون بعض المواد الغذائية أو الأدوية مؤثرة في هذا المجال لكن المسلم به هو أن تأثيرها ليس مصيرياً وجازماً.

ومع هذا فالعجيب مشاهدة تعادل سببي دائم بين هذين الجنسين (الرجل والمرأة) في المجتمعات البشرية، وإن كان ثقة اختلاف فأنه ليس بالاختلاف الملفت للنظر تصوروا يوماً يحتل فيه هذا التعادل فتكون نسبة الرجال إلى النساء عشرة إلى واحد مثلاً، أو على العكس يكون عدد النساء عشرة أضعاف الرجال، أية مفاصد عظيمة سوف تظهر؟ وكيف سيضطرب نظام المجتمعات البشرية؟ وهل أن المجتمع الذي يكون فيه مقابل كل رجل عشر ساء أو مقابل كل امرأة عشرة رجال يستطيع أن يوفر لنفسه حياة هادئة؟ لكن الذي خلق الإنسان لحياة سامة، أوجد هذا التوازن العجيب والعامض فيها، أجل إن الله تعالى ووفقاً لمشيئته وحكمته يهب لمن يشاء ذكراً ويهب لمن يشاء إناثاً: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ (الشورى / ٤٩) لكن هذه المشيئة والإرادة محسوبة.

٧ - تغيرات سريعة ومبهجة

من العجائب الأخرى في الجنين، أن النطمة الأصدية للإنسان تكون في بدايتها مجرد موجود أحادي الخلية، ينمو ويكثر بواسطة لانشطار على شكل متوالية هندسية، تحدث هذه الكثرة وهذه التحولات بصورة سريعة جداً وكما قال القرآن: ﴿خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقِهِ﴾ ولو استمر هذا النمو على هذه السرعة بعد الولادة لكانت للإنسان خلال مدة قصيرة قامته بطول الجبال! ولضاق به وجه الأرض، ولكن نفس الذي منح الجنين السرعة في سيره التكاملي سوف يحفف منها عند وصول الإنسان إلى مرحلة معينة ثم يوقفها بالتدريج!

٨- نظرة الرحم المستقبلية!!

ما هي العوامل التي تجعل من الخلايا نتاجاً عن حلية واحدة بأحد أنواعاً مستبينة : خلايا عصبونية ، عظمية ، عضلية ، خلدية ، وغيرها ؟ هل هو الرحم الذي قدّر مستقبل هذا الموجود فمنح الخلايا أشكالها كلّاً في محبتها ؟ إن كان له مثل هذا الذهن والقدرة والابداع فمن وهبه هذا الذهن والقدرة والابداع ؟!

يقول العالم المعروف «الكسيس كاريل» في كتاب «الإنسان ذلك المجهول» : «كأن كل جزء من الجسم على معرفة بالاحتياجات لحاية والمستقبلية لكل الجسم ، وهو يعير نفسه وفقاً لهذه الإحتياجات ، للزمان والمكان معهما أخرى عند الأنسجة ، لأنّها (الأنسجة) تدرك جيداً البعيد كإدراكها للقريب والمستقبل كإدراكها للحال ، فمثلاً تصبح الأنسجة اللينة للأعضاء الحسنة للمرأة في نهاية فترة الحمل أليس وأكثر قدرة على الاتساع ، وهذا التعير يُسهّل عبور الحين في الأنام اللاحقة عند الولادة وفي نفس الوقت تردد خلايا الثدي ويكر هذا العصور بل إنه يمارس نشأته وينتج اللبن استعداداً لتعذية الولد حتى قبل الولادة .

إنّ وضع وسلوك العضلات على طول فترة نمو الجنين في رحم الأم ، يكون وكأنّها تعلم المستقبل مسبقاً ، فيراعى استجمام الأعضاء في لحظتين زمنيّتين متعاقبتين أو في سقتين مكانيتين مختلفتين»^١

مهما سمينا هذا الموضوع فإنّه لن يتغير ، بكنه على أية حال يحير بوضوح عن وجود مبدأ كبير للعلم والقدرة فيما وراءه .

٩- كسا للعظام

قرأنا في تفسير الآية ١٤ من سورة المؤمنون أنّ للقرآن تعبيراً خاصاً عن قصية ظهور العضلات يقول فيه : «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا» ، إن اختيار كلمة «كَسَوْنَا» إحدى معجرات القرآن العلمية ، فقد ثبت اليوم أنّ العظام تظهر قبل الأنسجة اللحمية^٢

١. الإنسان ذلك المجهول ، ص ١٩٠ .

٢ [عجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة ، ص ٢٩]

١٠ - خروج الجنين

كما قرأنا في تفسير الآية ٥ من سورة الحج . فإن الله ينسب إخراج الجنين من الرحم إلى نفسه: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ إن هذا التعبير يكشف عن أهمية عملية الولادة التي توصل إليها العلماء في عصرنا الحاضر .

ما هو العامل الذي ينظم زمان الولادة؟ وما هي الظروف اللازمة لإصدار الأوامر للجنين بالخروج؟ وكيف تُعدُّ جميع أعضاء الجسم لهذا التحول المهم؟ وضمن أية عوامل ينقلب جسم الجنين تدريجياً ليخرج رأسه إلى الدنيا أولاً؟ هل تراه يعلم أن ولادته ابتداءً برجليه غير ممكنة أو أنها مستعصية جداً؟ من يصدر لأوامر لكل عضلات جسم الأم بتسليط أشد الضغوط على الجنين من أجل الخروج؟

وتظهر أهمية هذا الموضوع عندما يفتل هذا النظام بادرأ ويضطر الأطباء إلى عملية «فتح البطن» «الولادة القيصرية» ، وربما كان وجود مثل هؤلاء الأشخاص القلة ، إداراً للجميع لكي يفكروا بأهمية هذا الموضوع.

بالطبع يمكن في بعض الحالات التنبؤ بزمان ولادته على وجه التقريب ، ولكن في بعض الحالات تحصل الولادة قبل الموعد وأحياناً بعده وهكذا فإن عملية الولادة بكل ما يتعلق بها من أمور محسوبة ، إن هي إلا آية أخرى من آياته تبارك وتعالى .

١١ - للتفريسه الحذلة في لحظة الولادة

ذكرنا أن أحداً لا يستطيع نفس لحظة الولادة بصورة دقيقة ، وما يتنبأ به الأطباء عموماً أو خصوصاً لإخبار الناس فإنه ذو طابع تخميني فقط ، كما تقول الآية -
﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^١ .
(الرعد / ٨)

١ «تغيص» من مادة «غيص» على وزن فاعل بمعنى انتفخ أو احتوائه ، ثم جاءت بمعنى النقصان

ظاهر الآية أن هذا من العلوم الإلهية الخاصة، وهو العلم بخصائص الجنين من كل الجوانب قبل ولادته، فهو عز وجل لا يعلم بالجنين من حيث جنسه فقط وإنما يعلم بكل قابلياته وأذواقه وصفاته الظاهرة والباطنة، كما أن لحظة ولادته لا يعلمها إلا الله، ومن أجل أن لا نتصور أن الزيادة والنقصان تأتيا بدون حساب أو مبرر، بل إن ساعتها وثانيتها ولحظتها محسوبة جميعاً، فقد أضاف قائلاً: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِإِحْدَارٍ﴾.

المثير هو ظهور تغيرات عجيبة على نظام حياة الوليد في لحظة ولادته وهي تغيرات ضرورية جداً لتكييفه مع المحيط لحديد، وسوف نشير إلى اثنين منها فقط:

(/) تغير نظام دوران الدم، فعملية دوران الدم في الجنين دوران بسيط، لأنه لا يتحرك الدم الملوّث نحو الرئتين من أجل التنفسية، إذ لا تنفس هناك، ولهذا كان إثنان من أجراء قلبه (الطين الأيمن والأيسر) الذي يحمل أحدهما مسؤولية إيصال الدم إلى الأعضاء والثاني يتحمل مسؤولية إيصال الدم إلى الرئتين للتنفسية، على اتصال مع بعضهما، ولكن بمجرد أن يولد الجنين تغلق البوابه بينهما وينقسم الدم إلى قسمين، قسم يُرسل إلى كل خلايا الجسم لتغذيتها والقسم الآخر إلى الرئتين لتنفسيته.

أجل، ما دام الجنين في بطن الأم فإنه يحصل على ما يحتاج من الأوكسجين من دم الأم، لكن عليه أن يكتفي ذاتياً بعد الولادة ويحصل على الأوكسجين بواسطة الرئة والتنفس، الرئة التي كانت قد جُلِّقت وأُعدت مسبقاً بشكل تام في رحم الأم، سوف تمارس عملها فجأة بأمر إلهي واحد، وهذا من العجائب حقاً.

(ب) إنسداد عقدة السرة وجفافها وسقوطها (عادة ما يقطعون عقدة السرة التي تعتبر طريق تغذية الجنين بواسطة الحبل السري من دم الأم، ولكن حتى لو لم يقطعوها فإنها تنبسط وتسقط تدريجياً).

وكذلك بمعنى الفساد، وهذا قسر البعض كلمة ترمض في الآية أعلاه بمعنى نقصان الجسم والبعض بمعنى الولادة قبل الموعد وهو المعنى المشهور بين المعربين، وهو المروي في حديث عن الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليه السلام، كما أن ذيل الآية يدل على ذلك.

أي كما أن طريق الحصول على الأوكسجين يتغير عند الولادة، فإن طريق التغذية يتغير أيضاً ويشكل مفاجيء، ويبدأ الدم والسمعة والأمعاء التي اكتملت في الفترة الجنينية ولكنها لم تكن تعمل، فتبدأ بالعمل فجأة، وهذه واحدة أخرى من العجائب المهمة في خلقة الإنسان.

١٢ - بكاء الأطفال

غالباً ما يكثر الأطفال الرضع من البكاء، من الممكن أن يكون هذا البكاء دلالة على آلامهم، فهم لا يمتلكون لساناً غير لسان البكاء للافصاح عن الألم، أو أنه بسبب الجوع والعطش، أو بسبب الانزعاج إزاء ظروف الحياة الجديدة سواء كانت حراً أو برداً أو ضوءاً شديداً أو ما شابه، لكن من الممكن أن يبكي الأطفال بدون هذه الظروف أيضاً، وهذا البكاء رمز حياتهم وبقائها.

فهم في ذلك الحين بحاجة شديدة إلى الرياضة والحركة والحال أن ليس بإمكانهم الرياضة، الرياضة الوحيدة القادرة على تحريك كل وجودهم بما فيه الأيدي والأرجل والفص الصدري والبطن وإدارة الدم بسرعة في كل العروق لتعديده كافة الخلايا بصورة متواصلة، هي «رياضة البكاء» التي تعتبر بالنسبة للطفل رياضة كاملة، ومن هنا إذا لم يبكي الوليد فيُحتمل أن يتعرض لأضرار جمة أو تتعرض حياته كلها إلى الخطر.

وفضلاً عن هذا فإن هنالك رطوبة عالية في مخ الأطفال إذا بقيت هناك يمكن أن تؤدي إلى أمراض وأوجاع شديدة، أو تسبب لعمى، والبكاء يعمل على خروج الرطوبة الزائدة من أعينهم على شكل دموع، فيضمن ذلك صحتهم.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديثه المعروف بـ «توحيد المنفصل» بعد الإشارة إلى هذا الأمر: «أفليس قد جاز أن يكون الطفل يتنعم بالبكاء ووالده لا يعرف أن ذلك فهاهنا دلتان ليسكتاه ويتوغيان في الأمور مرضاته لئلا يبكي، وهما لا يعلمان أن البكاء أصلح له وأجمل عائقة...»^١

وفي نفس الرواية، يشير الإمام عليه السلام إلى جريان الماء من أفواه الأطفال الذي يكتل مهمة دموع أعين الأطفال، ويقول: «فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم في صفرهم لما لهم في ذلك من الصحة في كبرهم»^١.

١٣- الليقة التدريجية للعقل والعوامل عند الأطفال

لو كان للطفل عمل منذ البداية فلا شك أنه كان يتألم بشدة، لأنه سوف يشعر آنذاك بالضعف والمذلة. فهو لا يستطيع المشي ولا لأكل ولا القيام بأبسط الحركات، يجب أن يلفوه بقماش ويصعوه في المهد ويغطوه بغطاء ويشطفوه ويحمطوه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام لإشارة إلى هذا الموضوع في حديثه المسمى بـ «توحيد الفضل» «فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالدين في الاشتغال بالولد من المصلحة...»^٢

بالإضافة إلى أن الانتقال إلى عالم جديد بكل شيء ومجهول كان سيسبب له من الوحشة والاضطراب ما قد يضر بذكوره وأعضائه، لكن تلك القدرة الألهية التي خلقت الإنسان للتكامل قدّرت فيه كل هذه الأمور.

كذلك لو كانت حواسه متكاملة، وفتح عيونه فجأة وشاهد مشاهد جديدة واستمعت أذنه إلى الأصوات والأنعام الجديدة، لما كان في وسعه تحملها. فكان التدريب في تلقي برامج الحياة الجديدة هو الأسلوب الأمثل.

الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (البقره / ٧٨)

وفقاً لهذه الآية فإن الإنسان لا يمتلك أي علم في البداية ولا يتمتع حتى بالسمع والبصر، ثم وهبه الله القدرة على السماع والبصر والتفكير. ربما كان ذكر السمع قبل ذكر الأبصار

١. بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٥ و ٦٦

٢. المصدر السابق، ص ٦٤

إشارة إلى أن النشاط السمي عند الوليد يبدأ أولاً، وبعد فترة تكتسب الأعين قدرتها على الابصار، بل إن البعض يعتقد وكما أسلفنا أن للأذن في عالم الجنين مقداراً من القابلية على السماع، فهي تسمع أنغام قلب الأم وتعناد عليها

١٤ - هذا الطفل بعد قبل ولادته

لا يستطيع وليد الإنسان والكثير من الحيوانات في بداية ولادته أن يأكل الأطعمة البجافة والثقيلة، ولهذا فقد هيأت يد لحائق المقتدرة غذاءً خاصاً في الثدي الأم اسمه «اللبن»، والحقيقة أن نفس دماء جسم الأم التي كان لطفل ينفع منها في الفترة الجنينية تتحول إلى لبن ضمن عملية تعير واسعة وسريعة، فتعذيه حتى الفترة اللازمة

بتعير شكل الثدي الأم بصورة تفريجة خلال فترة الحمل، ويكبر شيئاً فشيئاً نتيجة الافرازات التي يقذف بها الحمل السري إلى دم الأم ليأمرها بالاستعداد الكامل، وهكذا يهيئ الثدي نفسه لوظيفية المستقبلية الثقيلة

إن الأمايب الموجودة في الثدي والممتلئة حتى قمة الثدي (الحلمة)، تتشعب وتزداد وتفرز إفرازات بسيطة، وعند ولادة الطفل تعلن عن استعدادها التام.

العجيب أن ترشح اللبن من خلايا الثدي ليس دائماً وإلا لخرج اللبن بصورة متواصلة إلى الخارج، بل إنه بمجرد ملامسة شعتي الوليد لثدي الأم وبذنه بالامتصاص تتجه الحوافز العصبية عن طريق الأعصاب إلى النخاع ومن نخاع إلى الهايبوثالموس فتؤدي إلى نوعين من الافراز، يصب أحدهما في الأثناء عن طريق الدم فيصطط على الأنسجة المحيطة بأمايب اللبن ليندفع اللبن باتجاه الحلمة، وتنتهي هذه الأعمال خلال ٣٠ ثانية، والأعجب أن اللبن لا يتحرك في ذلك الثدي الذي يرضع منه الطفل فقط، بل ويحدث هذا في الثدي الآخر أيضاً فيكون مستعداً، ولذا يؤكد الأطباء على إرضاع الوليد من كلا الثديين

اللبن غذاء كامل، وخاصة لبن الأم الذي يعتبر غذاءً أكمل بالسبة لوليدها ولا يستطيع شيء في العالم أن يحل محله.

يحتوي الحليب على أنواع الفيتامينات كـ P, D, B, A وفيتامينات أخرى، وقد اكتشف فيه العلماء ٢٢ مادة مختلفة، علاوة على أنواع الأنزيمات^١، والكثير من الأدوية الضرورية تنتقل عن طريق لبن الأم إلى وليدها، ومن هنا فإن الأطفال المحرومين من لبن الأم يصابون بمختلف الأعراض.

يبدو أن لبن الأم لا يهدي جسم لطفل فحسب، بل إنه يروي عواطفه وروحه أيضاً، ولهذا قد يصاب المحرومون من لبن الأم بمشاكل ونواقص عاطفية بعض الأحيان.

وعلى هذا الأساس يقول القرآن الكريم: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُرْمِ الرُّضَاعَةَ﴾. (البقرة / ٢٣٣)

إن عجائب وعرائب اللبن أكثر من أن يحتويها هذا المختصر، وإذا أردنا أن نترك العنان للقلم لمثل هذه الأبحاث نكون قد خرجنا عن بحثنا التفسيري.



١ من أجل مزيد من الاطلاع تراجع قائمة معارف القرن العشرين مادة (لبن)، والجامعة الأولى (أوليس دانسگاه)، ج ٦، وإعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، وقد وردت إشارات كثيرة حول هذا المص في حديث توحيد المفصل (بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٢).

٣ - آياته هي عالم الحياة

تمهيد:

إن ظاهرة الحياة هي أعقد ظواهر هذا العالم حسب ما نعلم، ظاهرة حَيَّرَتْ عقول كل العلماء، وقد مضت آلاف السنين والعلماء يفكرون فيها، لكن هذا اللغز لم يُحلَّ لحد الآن. ما هو السبب الذي أدَّى إلى أن تصنع الموجَّهات الحاملة وطفرة عحية، أقدامها في مرتبة الحياة والعيش فتكون لها تغذية ونمو وتناسل؟ من الممكن أن يصنع الإنسان جهازاً بالمع التعميد (كالمقول الالكترونية المتطورة جداً) بعد قرون من التجارب، وهذا بدوره شاهد على سعة اطلاع ومعرفة من صممه، ولكن هذا الجهاز الدقيق والمعقد للغاية لا ينمو أبداً، ولا يدلوي أو يرسم كسوره وعيوبه، ولا يتناسل بصورة مبدئية مطلقاً.

أما الكائنات الحية، فإنها فضلاً عن بنائها الدقيق والمعقد والمذهل إلى أقصى الحدود، فإنها تستطيع القيام بهذه الأعمال وأعمال أخرى كثيرة، والقليل من المطالعة حول وضعها يشكل آية واضحة ودليلاً يثبت على العلم والقدرة اللامتناهية لحاقتها. يُكثر القرآن من الاستناد إلى موضوع الحياة والموت في آياته المختلفة ضمن قضية إثبات وجود الله، ونفي الشرك بأنواعه، ويؤكد عليه كثيراً، ولحق أنه كذلك. بعد هذه الإشارة نقرأ خاشعين الآيات الكريمة أدناه:

١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ قَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ لَحَى مِنَ النَّيِّ وَمُخْرِجُ النَّيِّ مِنَ الْحَى ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.
(الانعام / ٩٥)

٢- ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾
(البقرة / ٢٨)

٣- ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. (يونس / ٥٦)

٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.
(المؤمنون / ٨٠)

٥- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.
(التوبة / ١١٦)

٦- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾. (الدخان / ٨)

٧- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.
(البقرة / ٢٥٨)

٨- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾. (ق / ٤٣)

٩- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ
مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. (الروم / ٤٠)

١٠- ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بُغْدًا مَّوْتَهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ﴾. (النحل / ٦٥)



شرح المفردات:

«الحياة»: يقول الراغب في المفردات: تستخدم الحياة في معانٍ مختلفة: الحياة النباتية،

الحياة الحسية (حياة الحيوانات)، الحياة العقلية (حياة البشر)، الحياة بمعنى زوال العم
والهم والحزن، الحياة الأخروية الخالدة، والحياة المذكورة كونهما إحدى الصفات الإلهية،

ويأتي لكل واحدة منها بشاهد من الآيات القرآنية

ولكن في «مقاييس اللغة» يذكر بهذه المفردة معيان أساسيان، أحدهما الحياة مقابل

الموت، والآخر «الحياة» وهو ما يقابله الوقاحة والصلافة.

غير أن البعض يعتقد يرجوع المعيين إلى 'صل واحد'، لأن الذي يتمتع بالحياة والخجل إنما يصد نفسه عن الصعف والعجز وينحرك باتجاه الخير والظهاره، وإن كان الشعب العظيم يسمى بـ «الحية» فذلك لشدة تحركها لتي تعتبر من برر آثار الحياة والعيش، وتسمى القبيلة بـ «الحي» بلحاظ امتلاكها حياة اجتماعية وجماعية^١

وبالطبع فإن لهذه المفردة معاني كنائية كثيرة من حملتها «الإيمان» في مقابل الكفر، و«الطراوة» في مقابل الدبول، و«الحركة» في حال اسكون، ويطلق على التحية اسم «التحية» من باب أن فيها طلباً للسلامة والحياة

«الموت» هو بالصبط القطعة المقابلة للحياة، نهما كانت له أنواع مختلفة يقابل كل منها نوعاً من أنواع الحياة، منها «الموت النهائي» كما في قول القرآن حول المطر «أَخْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا».

و«الموت الحيواني» و«الموت العلاني» أي الجهل و«الموت» بمعنى العم والحر كما يقول القرآن الكريم «وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمُنْتَبِذٍ» (إبراهيم / ١٧)

و«الموت» بمعنى النوم، كما قالوا «النوم موت خفيف» مثلما أن الموت يوم ثقيل واعتبر البعض «الموت» بمعنى الانحلال سدرجي للكائن الحي، و«الموتة» حالة شبيهة بالجنون، وكأن العقل والعلم يموتان في تلك الحالة.

كما أن البعض فرق بين «الميت» و«الماتت» وقالوا الميت هو الميت أمّا «الماتت» فهو الموجود في حالة الانحلال والانهيار نحو الموت

ولهذه المفردة معاني كنائية كثيرة منها «الكفر»، و«النوم»، و«الخوف»، وسميت الأرض الموت بالموات لافتقاده حياة اسباتية، والقابلية على الفرس والزراعة، وأمّا بعد أن تُهَيَّأ للفرس والزرع فيسمونها «مهيأة».

ورد في قواميس اللغة أن أصل هذه المفردة هو دهاب القوة، والذي يعتبر موت الكائنات الحية من مصاديقه البارزة.

١ التحقيق في كلمات القرآن الكريم: معجمات العرب، مجمع البحرين، وكتب اللغة الأخرى

جمع الآيات وتفسيرها

خلق الحياة آية الخلق:

جرى الاستناد في الآيات العشر أعلاه وعدد آخر من الآيات القرآنية إلى قضية الحياة والموت بعنوان إحدى الآيات الإلهية الكبيرة وعلامات الدات المقدسة للخالق، كان التأكيد في أغلبها على حياة وموت الإنسان، وفي بعضها على الحياة والموت بشكل عام أي عند جميع الأحياء، وفي البعض أكدت على حياة وموت النباتات.

في الآية الأولى المخصصة للبحث، ورد كلام عن خلق النواة والحيّة بواسطة القدرة الإلهية، وعن استخراج الكائن الحي من الكائن الميت وبالعكس الكائن الميت من الحي، بحيث شمل الحياة والموت بالمعنى الواسع لمكلمة في النباتات والحيوانات والبشر.

الملفت للنظر أن بذور النباتات ذات جذور صلب ومحكم، والنواة أكثر إحكاماً منه، إذ ليس فلقها بالأمر الممكن بسهولة، ومع هذا فالقلفة الخارجية من داخل الحبة والنواة بحيث لا يمكن وصف رقنها ولطافتها، أما كيف يمكن لتلك القلفة اللطيفة أن تعلق تلك القلعة والحصى المحصين فتخرج من خلال حدرائه وتستمر في طريقها؟ فليس ذلك سوى القدرة الإلهية الفريدة، وكأن عبارة: «إِنَّ اللَّهَ قَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى» إشارة دقيقة إلى هذا المعنى.

وحول كيفية إخراج الله تعالى الميت من الحي والحي من الميت، ذكر الكثير من المفسرين الماصين الأمثلة عليها، بحروج ندجاجة من البيضة، والشجر والنبات من الحبة والنواة، والإنسان من الطعة، في حين صار من المسلم به لدى العلماء اليوم أن الكائنات الحية تظهر دائماً من الكائنات الحية، أي أن في داخل حبة ونواة النباتات والأشجار فصلاً عن الكمية المعينة من المواد الغذائية، توجد حلقة حية هي في الحقيقة نبات وشجرة مجهرية صغيرة جداً وإذا استقرت في المحيط المناسب فوفى تستفيد من هذه المواد الغذائية فتتنامو وتكبر، وكذلك بالنسبة إلى نطفة الإنسان والحيوان فإن الخلايا الحية كثيرة، وهي المصدر لتكاثر وتناسل الإنسان والحيوان.

أجاب بعض المفسرين المعاصرين (كأسرعي ومؤلف تفسير المنار) الذين التفتوا إلى

هذا الإشكال بأن هذه الخلايا الخاصة مع أنها تسمى في عرف علماء العلوم الطبيعية بالكائنات الحية ، ولكنها لا تجدر بهذه التسمية في العرف العام للباس واللغة ، لأنَّ أيّاً من آثار الحياة والعيش لا تظهر عليها^١.

والأفضل أن نقول إنَّ المراد بخروج الكائن الحي من الميت لا يعدو أحد المعنيين التاليين:

الأول: هو بالرغم من أنَّ الكائنات الحية في الظروف الحالية تخرج دائماً من البذور والحبوب والطف الحية ، ولكن لا شك أنَّ الأمر لم يكن كذلك في البداية ، لأنَّ الكرة الأرضية عندما انفصلت عن الشمس كانت عبارة عن كتلة من نار ، ولم يكن عليها أي كائن حي ، ثم ظهرت أول الكائنات الحية من الكائنات غير الحية ضمن ظروف لا علم لنا بها اليوم وبأمر الله بعد سلسلة من القوانين البالغة في التعقيد ،

والمرضية القاتلة - إنَّ من الممكن للحياة أن تكون قد انتقلت من الكواكب الأخرى إلى الكرة الأرضية بواسطة القطع والأجرام السماوية والتي يُصّر البعض عليها ، لا نستطيع أن نحل لنا أية مشكله ، لأنَّ الإشكال يصدق على تلك الكواكب أيضاً ، فهي ولا شك كانت في البداية كتلاً محترقة ، ولا يستطيع أي كائن حي أن يتحمل تلك الظروف ،

الثاني: هو أنَّ البذور والحبوب والطف الأولى لم تكن إلا موجودات صغيرة جداً لكنها نمت وتطورت عن طريق تعديتها على المواد معدنية غير الحية وهي في الحقيقة تجذب إليها الموجودات غير الحية وتحولها إلى حية ، وعليه فإنَّ آلاف الآلاف وملايين الملايين من الخلايا الحية قد ظهرت من الموجودات الميتة ، وعن هذا يقال إنَّ الله يخرج الميت من الحي ويخرج الحي من الميت .

وبعض قالوا : إنَّ المراد بهذا التعبير ولادة «الكافر» من «المؤمن» و«المؤمن» من «الكافر» ، أو ولادة الجنين السقط من الإنسان الحي ، وولادة الطفل الحي من الأم التي تموت فجأة ولا يرال الطفل حياً في بطنها

١. تفسير المراغي، ج ٧، ص ١٩٧ وتفسير السارح ج ٧، ص ٦٣١

ولكن ممّا لا شك فيه أنّ هذه الأقوال هي مصاديق للمفهوم الكلي للآية ولا تشمل كل مفهوم الآية، المفهوم الأصلي للآية هو أحد مفهومين المُشار إليهما. وعلى أية حال فالنعقيد الذي يحيط بقصية الحياة والموت من الدرجة بحيث أنّ العلماء لا يرالون عاجزين عن فهم أسرارهم، وإذ كان فهم أسرار إحدى الظواهر يحتاج إلى كل هذا العقل والتفكير والدكاء، فهل يمكن إيجاد هذه الظاهرة بدون الحاجة إلى أي عقل ودكاء؟! ولهذا يقول القرآن في نهاية نفس هذه الآية: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ فَاتَىٰ مُؤَفَّكُونَ﴾.



تقول الآية الثانية بلهجة الاستعظام الموبّح: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ وفي هذا إشارة إلى أنّ قصة الحياة والموت كافية لمعرفة الله وتصوير آخر فإن ظاهرة الحياة والموت هي عالم الحلقة من أهم الوثائق لإثبات وجود الله

إنّ الإنسان عندما يفتح عينيه وعرف نفسه فبأنّه بطالع هذه الوتعة الكبيره قبل كل شيء.

ويدرك الإنسان جيداً أنّ حياته ليست من عبده لأنّه كان يوماً في عداد الموجودات غير الحية، إذ، نعمة قدره وهبته الحياء، الحياة بكل أسرارها ورموزها، بكل دقائقها وتعقيداتها

اعتبر بعض المفسرين «الكفر» في هذه الآية بمعنى «كفران النعمة»، أي كفران نعمة الحياة والموت، هذا الموت الذي هو مقدّمه لحياه أخرى، ولكن الظاهر هو أنّ الكفر هنا بمعنى إنكار وجود الله أو إنكار بوحده من قبل المشركين

بالإضافة إلى أنّه حري التأكيد في هذه الآية على قصية المعاد، أي أنّ ظهور الحياة والموت تمثلاً دليلاً على التوحيد بالإضافة إلى كونهما دليلاً على إمكان المعاد.



الآية الثالثة تُعد ضمن آيات المعاد، ولكن كما قلنا فإن قصيدة الحياة والموت دليل على إثبات وجود الله وعلى إثبات المعاد، والتعبير بـ «هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» إشارة إلى أن الحياة والموت بيد الله فقط، ولا يمكن لأحد سوى الله لقادر المتعال أن يصنع مثل هذه الظاهرة المهمة والعجيبة إلى أقصى الحدود.



أما الآية الرابعة فقد وردت ضمن آيات التوحيد في سورة (المؤمنون)، وأكدت على قضيتين «قصيدة الحياة والموت»، و«قصيدة ذهب وإياب الليل والنهار» ولهذين شبه كبير فيما بينهما، الموت كالظلمة، والحياة كاسور ونصياء، وربما كان تقديم الليل على النهار من هذا الباب أيضاً، ذلك أن الموت كان قبل أن تكون الحياة وكان الإنسان سابقاً أجراً ميتة ثم أعم الله عليه فكساء ثوب الحياة، وسواء كان «اختلاف الليل والنهار» بمعنى ذهاب وإياب الليل والنهار (من مادة (خَلَفَ) على وزن جَرَفَ بمعنى أَسَوب في المجيء والحلول محل البعض)، أو من مادة (خِلَاف) بمعنى التناوب والاختلاف التدريجي في فصول السنة المختلفة، وأياً كان المصنف فهو يدل على النظام بدقيق الذي يحكمهما وما يرافقه من فصول أربعة ومن بركات ناتجة عنها، كما أن لفظة موت والحياة والنظام الذي يحكمها في المجموع الإنساني نتائج وآثاراً كثيرة لا يمكن بدونها تنظيم حياة الإنسان.

فإذا لم يمت أحد، كما كانت الأرض محلاً للحياة، وإن مات الجميع بسرعة خبثت الأرض أيضاً، ولكن خالق هذا العالم جعل فيه نظاماً دقيقاً بحيث لا تحلوا الأرض من أقوام يعيشون عليها ويتمكنون من الانتفاع من مواهب الحياة، وهذه هي سنة الله فقوم يأتون وقوم يذهبون.

ولهذا يقول تعالى في نهاية الآية «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أفلا تستفكرون في قدرة الخالق وربوبيته ووحدانيته؟ وإن من المستحيل ظهور هذا النظام البديع من غير علم ولا تدبير.



وفي الآية السادسة جاءت قضية الحياة والموت إلى جانب قضية الربوبية ، فهو الله سبحانه مالككم وربكم أنتم وآبائكم ، الأولين وهو خالق الموت والحياة .
ويشكل أساسي فإن قضية الموت والحياة إحدى فروع ربوبية الله سبحانه وتعالى ، «الربوبية» بمعنى الإصلاح والتنظيم والتربية . وهذه لا تحصل إلا عن طريق الحياة والموت ، الحياة تعطي الإنسان إمكانية للتكامل ، والموت أيضاً مقدمة لتكامل آخر وحياة جديدة في عالم أوسع .



تعكس الآية السابعة الحوار التاريخي بين النبي إبراهيم عليه السلام وجبار زمانه «نمرود» .
ويبدو أن هذا الحوار جاء بعد قصة تحطيم الأصنام وظهوره كبطل من الأبطال وشجاع صيته في كل مكان واضطر نمرود إلى إحصاره^١ .
إن أول سؤال سأل به هذا الرجل الأماني الذي أذهب عقله غرور السلطان للنبي إبراهيم عليه السلام هو : «من إلهي؟» .
فاعتمد إبراهيم قبل كل شيء في جوابه على طاهرة الحياة والموت المهمة وقال : «ربي الذي يحيي ويميت» .

فقال الجبار الطاغوتي نمرود مع علمه الأكيد بأهمية كلام إبراهيم ومن أجل استفعال من حوله وتقدير عقولهم : إنني أستطيع القيام بهذا أيضاً «أنا حيي وأميت» .
لم يذكر القرآن ما صعه نمرود من أجل إثبات ادعائه هذا ، ولكن الكثير من المفسرين قالوا : إنه أمر فوراً بإحصار إثنين من السجناء ، فأطلق سراح أحدهم وحكم على الآخر بالموت وقال : أرايت كيف أن الحياة والموت بيدي ؟
والفخر الرازي استبعد هذا المعنى في تفسيره وهو أن يكون الحضار في مجلس نمرود

١. ورد هذا المعنى وهو أن الحوار أعلاه حصل بعد تحطيم الأصنام من قبل إبراهيم في عدة تفسير منها تفسير

من البله والسذاجة بحيث لا يدركون الفرق بين عمل نمرود وبين الحياة والموت التي تحصل عن طريق الله .

ويقول: إن قصد نمرود هو قوله، أتراك تزعم أن الله يقوم بذلك من دون أية واسطة ؟ هذا غير صحيح، وإن كان ذلك يحصل عن طريق الاستفادة من عالم الأسباب، فإن ذلك بإمكاننا أيضاً^١.

ولكن يبدو أن الفخر الرازي نسي هذه النقطة، وهي، أن الجهلاء في كل عصر وزمان ليسوا قليلين، خاصة المتعلقين الذين يحيطون بحكام الجور والاستبداد والتجبر.

وقد ورد ما يشبه هذا المعنى في حياة موسى وفرعون حيث حاول فرعون استئصال وخداع أهل مصر بكلماته الركيكة المضحكة ودعاهم إلى عبادته .

إن تفسير الفخر الرازي يلائم جماعة من "ملاسفة يجتمعون مع بعضهم ويصطنعون مثل هذه السفسطات، أمثال لو كان العاقل ماعلاً مالمواسطة لكان كذا ولو كان بلا واسطة لكان كذا.

❦

الآية الثامنة تعتبر إيجاد الحياة والموت أمراً خاصاً بالله، شأنها شأن الآية الثالثة، وتعتبر عودة جميع الخلق إلى بارئهم عز وجل

❦

وفي الآية التاسعة يخاطب الله تعالى المشركين بلهجة حازمة فيقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَقُولُ مِنْ ذَلِكُمْ مَنْ شَيْءٌ، هَلْ بِإِمَاتِهِمْ إَحْيَاءُ شَيْءٍ أَوْ إِمَاتَتِهِ أَوْ رِزْقِهِ ؟ وَمَا دَامَتْ كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ خَاصَّةً بِاللَّهِ، فَمَا لَكُمْ تَشْرِكُونَ بِهِ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

❦

وأخيراً وفي الآية العاشرة والأخيرة يشرح الله قصية حياة النباتات ، وهو وجهٌ مشرق ، جميل وملهي بالأسرار من وجوه الحياة . ويعرض على البشر صورة الأراضي الميتة كيف يلبس هذه الصحارى اليابسة الفاقدة للحياة ببأسٍ لحياة يزده مطر واحدة أو عدة زخات ، فتتصاعد من كل جانب من جوابها أنعام الحياة فتتعالى ساحة العث والنشور في هذه البقعة

ويضيف في آخر الآية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ، يسمعون أنعام تسميد وتسبيح النباتات ويصمون بأذان قلوبهم لهسات التوحيد من كل نبات يخرج من الأرض ويردد ذكر « وحده لا شريك له » : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

❦❦❦

توضيحات

١ - لغز الحياة الكبير

كشف تطور العلم والمعرفة البشرية الثقافات عن الكثير من الحقائق ، وأوضح العديد من قضايا هذا العالم الكبير . ولكن كما أشرنا معنى الرعم من ذلك فما زالت هالك الكثير من الألغاز تواحه الإنسان . وأحد أهم هذه الألغاز هو لغز الحياة ، القضية التي لم يَمُط اللثام عن وجهها لحد الآن رغم جهود ومساعي آلاف لآلاف من العلماء والعقول المعكرة على مرّ التاريخ البشري ، وما زالت مستترة خلف ستار من الابهام .

واللطيف أن القرآن الكريم حاطب المشركين قبل أربعة عشر قرناً قائلًا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ لِّمَا كُنْتُمْ تَفْتَحُونَ مِنَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمْ الذُّبَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ .

المثير أن عجز البشر اليوم عن خلق الذبابة بعقدار عجزه قبل أربعة عشر قرناً ، وعجزه أراء هجوم الذباب والجراد وبقية الحشرات يصل إلى درجة عدم جدوى كل ما يستخدم من أجهزة التسميم والمكافحة الحديثة

قد يقال: إن الإنسان صنع أجهزة قيّمة أكثر أهميته من خلق الدباب كالسفن الفضائية والعقول الألكترونية المعقدة وأمثال ذلك.

ولكن هذا خطأ كبير وقباس باطل، إذ ليس سفينة فضائية أو العقل الألكتروني أي سمو أو تحول ذاتي ويستحيل أن ينجب مثيله، ولا يمكن من داخل نفسه ترميم ما يطرأ عليه من الأضرار، فهو لا يصلح قطعاته المتآكلة أبداً، ويحتاج إلى الهداية والقيادة من خارجه، والحال أن للذباب من هذه الوجوه أفصلية واضحة على تلك السفينة المصائية أو جهاز الكمبيوتر، ولكن كثرة الذباب أدّى إلى تصوّره من قبلنا كموجود حقير ولا أهمية له، ولو كانت هائلت ذبابة واحدة فقط في العالم لاتّضح أنك مدني ما سويته العلماء لها من الاهتمام.

وفصلاً عن هذا فإنا لا نحتاج أساساً إلى هذه المفاصلة، فالهدف هو إيصال أن بساء الكائن الحي حتى لو كان خلية واحدة والتي أشرنا إليها بإشارات واضحة في البحوث الماصية، على قدر من العموم والتعميد بحيث يدل على أن صانعه ذو علم وقدر غير متناهيين وذو اطلاع تام بقوانين الحياة المعقدة، وبعبارة أوضح أنه هو الذي وضع هذه القوانين.

كيف يمكن أن نحتاج معرفة ظاهرة كهذه، إلى كل هذا العقل والشعور ولا نحتاج صنعها إلى أي عقل أو شعور؟

وهذا هو الأمر الذي نحن في صدد إثباته في هذه البحوث، والذي يشكل هدف القرآن من الآيات المذكورة وآيات مشابهة أخرى.

نختم هذا الحديث بذكر نقطة، وهي أن الحياة والعيش رغم أنها من أبرز الظواهر، ولكن حقيقتها غير واضحة لحدّ الآن لأحد، إن ما نراه هو آثار الحياة التي تمثل (النمو والتحول والتعذية والتناسل، والاحساس والحركة والتعكير)، ولكن ما هي تلك الحقيقة التي تكون بمثابة المصدر لهذه الآثار؟ لا يعلم أحد بذلك لحد الآن، وما رالت العقول في حيرة من ذلك.

٢ - هل بإمكان الإنسان صناعة كائن حي؟

لا شك أن الكائنات الحية وجدت في لبداه من كائنات غير حية، سواء حدث هذا الأمر على الكرة الأرضية أو على الكواكب لسماوية الأخرى، ولكن تحت أي ظروف؟ ووفقاً لأي معادلة حدثت هذه الطفرة العظيمة؟ إن هذا الأمر يبقى مجهولاً لحد الآن ولم يتسن لأحد معرفته، طبعاً أن البعض من العلماء يأملون بأنهم سوف يكتشفون هذه المعادلة وهذه الظروف، ويقولون، لعننا في النتيجة نستطيع أن نصنع خلايا حية من مركبات غير حية.

لا أحد يعلم جدوى ومنطقية هذا الأمل؟ وهل سينتجق مثل هذا الأمل عملياً في نهاية المطاف أم لا؟ وعلى فرض أن الإنسان سيكتشف ظروف بداية الحياة ومعادلتها وسوف يستطيع صناعة خلايا حية في داخل المختبرات، ولكن يجب أن لا ننسى أن:

أولاً: إن هذا العمل حين يأتي عن طريق تقليد عالم الحلقة وتركيب المواد المختلفة مع بعضها لن يكون سوى ما يشبه الصناعات التجميعية التقليدية.

ثانياً: على فرض أن مشكلة صناعة الخلية الحية سوف تحل، ولكن تبقى هالك مشكلة الكائنات المعقدة متعددة الخلايا، كسمة البداية أو الحرارة أو الطائر أو الأسماك الكبيرة وأخيراً الإنسان، فمن الذي يستطيع أن يوجد مثل ما ذكرنا عن طريق الصناعة؟

يقول أحد العلماء وهو (الهرافسور هانز) سوف يصل الإنسان بعد ألف سنة إلى سر الحياة، ولكن هذا لا يعني أنه سيستطيع صناعة ذبابة أو حشرة أخرى أو حتى خلية حية.

ثالثاً: لنفترض أننا ضمناً مثل هذه الأهداف بمعونة الهبة الإلهية المسماة بالعقل، وتطورت العلوم وتقليد قوانين الطبيعة، لكن هذا لن يكون له أدنى تأثير على ما نحن بصدد الوصول إليه، لأنه إن كان بالإمكان إيجاد حية حية واحدة باستخدام كل هذه النماذج الموجودة والمواد الطبيعية الجاهزة يحتاج إلى كل هذا العلم والمعرفة، فما مقدار العلم والمعرفة اللازمة لخلق أنواع متعددة من الموحودات الحية بلا نموذج أو مواد سابقة؟ هل يمكن أن نعتبر للطبيعة الجامدة الماقدة للشعور والعقل دوراً في خلق هذه الموحودات؟

وألفت انتباهكم إلى عبارة ظريفة عن «غريسي موريس» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتاب «سر خلق الإنسان»، يقول:

«قال هيغل: أعطوني الهواء والماء والمواد لكيميائية والزمان وسوف أخلق بها إنساناً. لكن هيغل نسي أنه بحاجة إلى نقطة وحرثومة بحياة من أجل هذا المشروع أيضاً، إنه بعد أن يجمع الذرات اللامرئية ويرتبها إلى جانب بعضها ضمن نظام وترتيب خاص يخلقه الإنسان، عليه أن يمنح الروح لهذا القلب! وعنى فرض أنه وفق للقيام بكل هذه الأمور الحارقة للمادة، هنالك احتمال واحد فقط من بين ملايين الاحتمالات لخلق حيوان لم تشاهد عين الدهور شيئاً أغرب منه، والأعجب هو أن هيغل لن يقول بعد الموفقية في هذا الأمر أن هذا الموجود العجيب ظهر بحسب الصدفة والحدث، بل يقول: «إن ذكائتي ونهوضي هو الذي خلقه»^١.

تارة يتصور بعض السذج أن بالإمكان تبرير ظهور الحياة عن طريق الحوادث والصدف الكثيرة، والحال أننا لو أردنا وفي حساب الاحتمالات حساب عملية ظهور ذرة واحدة من البروتينات، وهي إحدى المواد المكونة للكائنات الحية - عن هذا الطريق، لما كفى عمر الكرة الأرضية لظهورها!

ولـ «جورج والد» أستاذ علم الأحياء في جامعة «هارفارد» كلام عن شروط ظهور الحياة واستحالة إمكان خلق الحياة بالصدفة و بذاتية، هذه خلاصته:

«من أجل تشكيل البروتين يجب التحام مئات أو آلاف الجزيئات «أحماض أمينية» بنسب مختلفة وبأشكال متنوعة على شكل سلسلة، وإن عدد أنواع البروتينات لا محدود حقاً، لأنه لا يمكن العثور على نوعين من الحيوانات يكون لهما نوع واحد من البروتينات، إذن فجزيئات المواد العضوية تشكل مجموعة عظيمة لا حدود لتنوعها وتعقيدها يسمت على الحمرة، ومن أجل صنع موجود حي واحد لا يحتاج إلى مقدار كافٍ ونسب معينة من أنواع البروتينات اللامتناهية فحسب، بل يجب تربيتها ترتيباً صحيحاً أيضاً، أي أن بنائها

له من الأهمية ما لتركيبها الكيميائي من الأهمية».

ثم يضيف: «إنَّ بناء البروتينات معقد حقاً، وإنَّ اعقد الأجهزة التي صنعها الإنسان (كالعقل الإلكتروني) هي بحكم الألوهية مقبل أبسط الكائنات الحية لكي الإنسان أن يفكر في هذه العظمة لتتصح له استحالة الحيلة الذاتية أو بالصدفة»^١

سُخِّمَ هذا الكلام بحديث قُتِمَ عن الإمام الصادق عليه السلام، وحديث رفيع المعاني عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، للإمام الصادق عليه السلام كلام مفصل قاله للمفضل في حديث التوحيد المعروف بـ«المفضل» حول خلقه لإنسان وعصائه المختلفة، يقول المفضل سيدي: «إنَّ قوماً يقولون أنه من صنع الطبيعة، فيجب الإمام عليه السلام:

«سلهم عن هذه الطبيعة أمي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال؟ أم ليست كذلك؟ فإنَّ أوجها لها العلم والقدرة، فما يمنعهم من إثبات الخالق؟ فإنَّ هذه صنعة، وإنَّ زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بعير علم ولا علم وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، عَلِمَ أن هذا الفعل للخالق الحكيم، وأنَّ الذي سوره طبيعة هو سنة في خلقه الجارية على ما أوجها عليه»^٢.

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهاثها، وما كان من مُراجها وسائمها وأصناف أسنانها وأجناسها، ومتبلدة أممها، وأكياسها، على إحداث بعوضة، ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها وتحرير عقولها في علم ذلك»^٣.



١. معرفة الحياة: شاحات حيات، ص ١١ (باعتباريه)

٢. بهار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٧.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦

٤ - آياته في خلق الروح

تمهيد:

الروح أيضاً من أعجب ظواهر عالم الوجود وأكثرها غموضاً، ومع أنها أقرب الأشياء إلينا إلا أننا بعيدون جداً عن معرفتها وتشخيصها

لم تتوقف جهود ومساعي العلماء والمفكرين من أجل معرفة الروح في أي زمن من الأزمان، واستطاعوا بفصل هذه الجهود أن يكشفوا للعلماء عن بعض الأسرار، ولكن الوجه والأسرار الخافية للروح لم تتغير لحد الآن. وما زالت هناك الكثير من الأسئلة حول هذا الموضوع بدون جواب.

ومن هنا كان خلق روح الإنسان من الآيات المهمة الدالة على علم وحكمة وتدبير الخالق.

وعلى هذا الصعيد سأمل حاشمين في الآيات الكريمة أدناه:

١ - ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا • قَالَهَا مَا تُغْوِرَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. (الشمس / ٧ و ٨)

٢ - ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(الاسراء / ٨٥)

٣ - ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ • فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقُولُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾

(الحجر / ٢٨ و ٢٩)

٤ - ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْتَ الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْتَ الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ

لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. (المؤمنون / ١٤)

هـ - ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
(الرمر / ٤٢)

﴿٤٢﴾

شرح للمفردات:

إن مفردة «الروح» تعني في الأصل النفس والصح، ويعتقد بعض أرباب اللغة أن «الروح» اشتقت في الأصل من «الريح» بمعنى الهواء والسيم والرياح، وبما أن روح الإنسان أي ذلك الجوهر المستقل المجرد ومصدر الحياة والتعكير هي جوهر لطيف تشبه من حيث تحركها ومفعولها للحياة النفس والسيم، فقد استعملت هذه المفردة للتعبير عنها، بالإضافة إلى أن علاقه الروح بالجسم لها ارتباط وثيق بالنفس، لهذا استعملت هذه الكلمة في خصوص روح الإنسان.

يعتقد البعض أن المعنى الأصلي لهذه المادة هو «ظهور وحركة شيء لطيف» سواء كان في عالم الجسم أو في عالم الروح والمعنى، ومن أجل هذا أطلق هذه الكلمة أيضاً على ظهور مقام النبوة وقضية الوحي وتعلي نور الحق.

«الروح»: (على وزن قوم) التي تعني السرور والفرح والراحة والنجاة من الغم والعن، وهي الأخرى مأخوذة من هذا المعنى، كذلك يطلق على اللطاف والرحمة الإلهية «روح الله».

مفردة «الرياح» تستخدم في كلام العرب لـ «الورد» من أجل راتحتها الطيبة المنعشة ونسيمها المعطر.

ومفردة «الرواح» بمعنى «طرف العروب» حيث تعود الحيوانات إلى حضائرها لتستريح.

وعلى كل حال، فإن مواضع استعمال هذه المفردة في القرآن الكريم متنوعة جداً، فتأتي حيناً بمعنى ملاك الوحي، وحيناً بمعنى الملاك الكبير من ملائكة الله الخُلص (أو

المخلوق الأفضل بين الملائكة)، وتأتي أحياناً لتدلل على القوة الإلهية المعنوية التي يسند الله المؤمنين بها، وجاءت تارة بمعنى الروح الإنسانية، وهذا ما أشرنا إليه في الآيات أعلاه^١

«النفس»: يقول الراغب في المفردات: انفس بمعنى لروح، وتأتي أحياناً بمعنى ذات الشيء، و«النفس» (على وزن قنص) بمعنى انهواء الذي يدخل ويخرج من وإلى جسم الإنسان عن طريق الفم.

وقد أطلقت مفردة «النفس» هذه على الدم أيضاً، لأن الدم إذا خرج من جسم الإنسان بمقادير كبيرة فارقته روحه، وربما أطلقت هذه لكلمة على كل وجود الإنسان.

على أية حال، فإن أحد المعاني المعروفة بنفس هو «الروح» التي ذكرت عدة مرات في القرآن الكريم.

١ - «النفس الامارة» التي تأمر الإنسان بالسوء «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ»

(يوسف / ٥٣)

٢ - «النفس اللوامة» التي ترتكب الذنوب بحسب الأحياء ثم تندم وتلوم نفسها «وَلَا تُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ».

٣ - «النفس المطمئنة» وهي النفس الواصلة إلى مرحلة الأطمئنان والراحة والطاعة التامة لأوامر الله والمشمولة بحماياته «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ إِنَّكِ عَلَىٰ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَارْحَبِي مَرْجُوتًا».

(الفجر / ٢٧)



جمع الآيات وتفسيرها

للروح لمعجوبة عالم للخلقة:

ورد في الآية الأولى من الآيات التي احترباها لبحثنا هذا قسمٌ يختص بالروح الأدمية ومخالفها.

١. مفردات الراغب، لسان العرب، مجمع البحرين، والتحقق في كلمات القرآن الكريم

ذلك الله الذي خلق الخلق ونظم القوى الروحية للإنسان ابتداءً من الحواس الظاهرية وهي مقدمة الإدراك الروحية وانتهاءً بقوه لتفكير، الحافظة، التخيل، الإدراك، الابتكار، الإرادة والتصميم. «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا».

وعلمته طرق الهداية بعد تنظيم هذه القوى «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»

مع أن القوى الروحية للإنسان متنوعة وكثيرة جداً، ولكن القرآن هنا وضع إصبعه من بين كل تلك القوى على مسألة «إلهام الفجور والتقوى» (إدراك الحسن والقيح)، لأن هذه المسألة لها تأثير كبير جداً في مصير الإنسان وسعادته وشقائه.

قلنا مراراً: إن القسّم يدل على الأهمية ولعظمة، أهمية القسّم به والمقسّم له، خاصة القسّم القرآني لحمل الناس على السريد من تنكّر في آيات «العظمة» الإلهية.

فضلاً عن أن «النفس» في هذه الآية ذكرت بصيغة التكرار، وهي في مثل هذه الموارد من أجل التأكيد على أهمية الموضوع أو كثرته^١.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾

تشير الآية الثانية إلى السؤال الذي طرح من قبل جماعة من المشركين أو أهل الكتاب، حيث وفدوا على الرسول الأكرم ﷺ وسأوه عدة أسئلة كان أحدها عن الروح كما قال القرآن: «وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ»

ثم يأمر القرآن الرسول الأكرم ﷺ: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي».

إن في هذا الجواب غير المستبين إشارة عميقة إلى مدى غموض ومجهولية هذه الظاهرة الكبيرة في عالم الوجود، ومن أجل أن لا يقول أحد لماذا لم تظهر واحدة من أسرار الروح؟ يصيغ الله في آخر الآية «وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

١. تفسير روح البيان، ج ١٠ - ص ١٤٤ و تفسير روح المعاني، ج ٣ - ص ١٤٢. وقد احتمل بعض المفسرين أن تكون «النفس» في الآية أعلاه إشارة إلى الروح والجسم كليهما، مع أن عبارة: «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» تناسب الروح أكثر. وكذلك الآية «وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا».

وليس من العجيب أن لا تطلعوا على أسرار الروح بهذا «العلم القليل» و«المعرفة المسيرة» (خصوصاً في ذلك الزمان وتلك البيئة).

روي عن ابن عباس في بعض الروايات أن قريش أرسلت بعض رؤوسها إلى علماء اليهود في المدينة وقالت لهم: إسألوهم عن محمد لأنهم من أهل الكتاب ولهم من العلم ما ليس لنا، فجاؤوا المدينة وسألوا علماء اليهود، فقال لليهود في جوابهم: «إسألوه عن ثلاثة أمور: قصة أصحاب الكهف، وادي القربين، وقصة الروح، فإن أجاب عن جميعها أو سكت عن جميعها فليس بنبي، أما إن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي»

فعادت رؤوس قريش إلى مكة وعرضت الأسئلة على الرسول ﷺ، فقدم لهم الرسول شرحاً وافياً حول دي القربين وأصحاب الكهف، ولكنه فيما يخص السؤال عن الروح اكتفى بذلك الجواب المعلق بأمر من الله^١. ومع أن هناك تفاسير مختلفة لمعنى الروح في الآية أعلاه في روايات المعصومين عليهم السلام وكلمات المفسرين، ولكن أغلب هذه التفاسير لا تتوافق مع بعضها ويمكن الجمع بينها. والروح الإنساني من جملة المفاهيم الداخلية في مدلول الآية المعنية^٢.



في الآية الثالثة كلام عن حوار الله مع الملائكة حول خلق البشر، حيث يقول عز وجل: **مُحَاطِباً الْمَلَائِكَةَ. «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ • فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»**

ثمة نقطتان نشيران الاهتمام في هذه الآية، الأولى: إضافة روح الإنسان إلى الله إذ يقول:

١ تفسير روح المعاني، ج ١٥، ص ٢٤١ «قال قريش لليهود: أعطونا شيئاً سأل هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح فسألوه فنرت: «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيت من العلم (إلا قليلاً)»
٢ وردت في تفسير الميرزا أقوال متعددة في هذا المجال منها أن المراد بالروح هي الروح الواردة في الآية الشريفة: «يوم يقوم الروح والملائكة صفاً» ومنها أن المراد بها جبرائيل وقال بعض المفسرين إنها تعني القرآن، وآخر التفاسير هو أن المراد بها الروح الإنسانية ثم يصح: إن المبادر من إطلاق الروح هو هذا

«من روعي»، وهذا دليل على منتهى عظمة وأهمية الروح الإنسانية، وهذا من قبيل الإضافة التشريفية حسب المصطلح، كـ «بيت الله» و«شهر الله» التي تشير إلى أهمية الكعبة وعظمة شهر رمضان المبارك، وإلا فإن كل مكان هو بيته وكل الأشهر أشهره.

والثانية أمر جميع الملائكة بالسجدة لآدم بعد نفخ الروح فيه، وهذا برهان آخر على عظمة مقام الإنسان، ذلك أن السجدة تمتد منتهى الحصوص، فكيف لو كانت من قبل كل الملائكة؟ وهذه خير علامة على المقام الرفيع لآدم

❦❦❦

في الآية الرابعة وبعد الإشارة إلى خلق لطفة وتطورات الحنين والأليسة المحلقة التي يكسوها الله هذه القطعة الصغيرة في مختلف المراحل، يُنمّر عز وجل لهجة الكلام ويقول:

«ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ».

إن التعبير بـ «الانشاء» (الايجاد) في هذه المرحلة وحللاً للمراحل السابقة التي عبّر عنها بالحلقة، إضافة إلى استخدام «ثم» التي تستعمل عادةً من أجل الفصل بدل جملة على أن الحلق في هذه المرحلة يختلف تدرجاً عن المراحل السالفة، وهذه علامة على أن المراد هو خلق الروح التي ترتبط بالجسم بعد تكامله.

والمثير أنه يعبر بـ «خلقاً آخر» وهو تعبير غامض ومُعلق، خلافاً للتعبيرات السابقة التي يتحدث فيها عن «الطفة» و«العلقة» و«المضغة» و«الغلام» و«الحم» وهي مفاهيم معروفة جميعاً، وهذا دليل آخر على اختلاف المرحلة الأخيرة عن المراحل الماضية.

ومن العجيب أن بعض المفسرين ذكروا تفسير لعبارة: «الخلق الآخر» لا تسجّم أبداً مع روح الآية، من جعلتها: أن المراد بالانشاء «خلق الآخر» هو ظهور الأسنان والشعر على الجسم^١ في حين أن هذا لا يتناسب أبداً مع تعابير الآية ولا شك أن ظهور الأسنان والشعر

١ روي هذا الاحتمال عن بعض المفسرين في تفسير روح المعاني، ج ١٨، ص ١٤٤ وتفسير القرطبي، ج ٧،

ليس له من الأهمية ما يوازي سائر تطورات الجين المختلفة .

في نهاية الآية وردت جملة عجيبة أخرى تشكل دلالة أخرى على الأهمية القصوى لخلق الإنسان في المرحلة الأخيرة أو في مجموع هذه المراحل ، يقول تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ فسبحان العليم الحكيم الذي أودع القابلية والجدارية في مثل هكذا موجود حقير .

«تبارك»: من مادة (تبرك) بمعنى صدر الباقية ، وبما أن اللباسة حين تضع صدرها على الأرض موضع من الثبات ، فقد جاءت هذه المفردة بمعنى «الثبات والدوام» ولأن كل نعمة كانت دائمة إزدادت أهميتها ، فقد سُميت هكذا نعم بالمباركة .
إن استخدام هذه المفردة في خصوص الله ، يشاره إلى عظمة وقُدسية وخلود ذاته المظهرة .



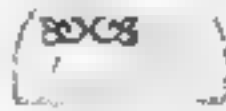
في الآية الخامسة والأخيرة من الآيات المعنية في بحثنا هذا يشير عر وجل إلى مسألة بقاء الروح . بتعبيره : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ .
ويلحظ أن كلمة «يتوفى» تعني القبرص ولاستلام الكامل ، و«الأنفس» هي الأرواح . يتصح أن الروح ينفصل كلياً عن الجسم عند الموت وبأمر الله ، ولكن عند النوم يحصل هذا الانفصال بشكل ناقص : ﴿ وَالَّذِي لَمْ تَعُثْ فِي مَتَابِعِهَا ﴾ .
ثم أشار إلى عدم عودة بعض الأرواح في حالة النوم وعودة البعض الآخر حتى أجل مسمى ، وأضاف : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^١ .

١ يقول الفخر الرازي في تفسيره وتعليقاً على هذه الآية : إن الله الحكيم جعل ارتباط الروح بالأدنية بالجسم على ثلاثة أقسام : تارة يقطع شعاع الروح على جميع لأجزاء الظاهرية والباطنية للجسم ، وهذه حالة اليقظة ، وتارة يسحب هذا الشعاع من الأجزاء الظاهرية ويغنى في الباطنية وهذه حالة النوم ، وتارة يقطع شعاعها عن الأجزاء الظاهرية والباطنية وتلك حالة الموت

يستفاد من هذه الآية وبكل سهولة أن لإنسان تركيب من الروح والجسم، وأن الروح جوهر غير مادي، وأن اليوم درجة ضعيفة من الموت ودليل على ضعف الارتباط بين الروح والجسد.

ويستفاد أيضاً أن الموت لا يعني الفناء والهلاك، بل هو نوع من البقاء واستمرار الحياة. والنتيجة هي أن الروح الإنسانية بكل مواها وقدراتها التي تجعلها من أعجب ظواهر عالم الوجود هي إحدى آيات الله لكبرى. كيف يمكن أن يكون خالق كل هذا العلم والقدرة والفكر والدكاء والذوق والإبتكار والإرادة والتصميم هي الطبيعة المأقدة للعقل والشعور ولكل أنواع العلم والفكر والدكاء والإبتكار؟!

بل على العكس، فهذه القطرات والروء الصغيرة علامة على وجود محيط كبير تسع جميعها منه، وهذه الأشعاعات الباهتة هي من تلك الشمس الكبيرة



توضيحات

١ - القوى الظاهرية والباطنية للروح

عدّ القدماء خمسة قوى ظاهرية وخمسة قوى باطنية للروح الأدمية، أمّا القوى الظاهرية فهي: حاسة النظر، السمع، الشم، ذوق، اللمس، وهي نوافذ روح الإنسان نحو عالم المحسوسات والروابط بين ذلك الجوهر المجرد وعالم المادة. إن كل واحدة من هذه القوى عالم واسع مليء بالأسرار، وكل واحدة من أدوات هذه القوى، أي العين والأذن واللسان ولعدد الشُعَب والأعصاب المورّعة في كافة أنحاء الجلد، آية من آيات الله تتضمن في داخلها عالماً من العلم والحكمة وقد عد الفلاسفة القدماء القوى الباطنية خمسة أيضاً.

١ - الحس المشترك.

٢ - الخيال، والذي يعتبر ذاكرة الحس المشترك.

- ٣ - القوة الواهمة التي تدرك مفاهيم من قبيل محبة والعداء
- ٤ - القوة الذاكرة التي تحفظ في داخلها الإدراكات الواهمة .
- ٥ - قوة التحيل التي تُصَرِّف المفاهيم والصور الجبرئية الموجودة في خزانة الخيال والذاكرة فترسم صوراً مختارة لا وجود لها في الخارج وكل واحدة من هذه القوى الخمس هي عام مليء بالأسرار بحد ذاتها .
- لكن علماء وفلاسفة اليوم لا يحددون القوى الظاهرية بتلك القوى الخمس المعروفة . ولا القوى الباطنية بتلك القوى الخمس لمذكورة ، إهم يضعون للنفس الإنسانية قوى كثيرة . ويعتبرون الروح الآدمية مخزناً عحيماً فيه أنواع القوى ومختلف الاذواق والقابليات والادراكات التي يختلف فيها أفراد البشر .

لقد وضع علم النفس والتحليل النفسي هذه اليوم على مناطق عامصة ومبهمة من روح الإنسان واكتشف فيما اكتشف فيها عالماً جديداً وسرياً باسم «الضمير الخفي» أو «ضمير اللاشعور» ووضع أمام أعين البشر المثلث المثلثي لهذا الموجود المجهول

❦❦❦

٢ - الروح - القاهرة الخفية في عالم الوجود

مع أن القرآن الكريم يشرح الكثير من الجبرئيات المتعلقة بالسماء والأرض والنباتات والحيوانات عند ذكره للآيات الإلهية سواء كانت آيات آفاق أو آيات أفسس ، لكنه حين يصل إلى قصة الروح لا يزيد على قوله . « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

أو إنه يقول : « وَتَنْفُسٌ وَمَا سَوَّاهَا » ويعبر عنها بإنشاء الحلق الآخر : « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » ، أو إنه ينسب الروح إلى نفسه فيقول . « وَتَفَخَّتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي »
إن كل هذه التعابير تحكي عن أن خلق الروح يختلف عن خلق بقية الموجودات ، وليس هذا إلا بسبب تعقيد قصة الروح وأسرارها العظيمة .

❦❦❦

٣- نشاطات الروح المختلفة

للإنسان مشاطات روحية وفكرية عديدة، سواء في الشعور أو في اللاشعور، بحيث يمكن لكل واحد من هذه النشاطات أن يكون موضوع بحث مستقل في كتب متعددة (وغالباً ما كان)، وقسم من هذه النشاطات على النحو التالي:

(أ) «التفكير» من أجل الوصول إلى امجهولات، أو بتعبير الفلاسفة حركة الفكر نحو المباديء، ثم حركته الأخرى من امياديء نحو الأهداف والمراد.

(ب) «الابتكار» من أجل حلّ مشاكل لحياة غير المتوقعة، ومواجهة الحوادث المختلفة، ورفع الاحتياجات المتنوعة والابداعات والاكتشافات والاختراعات.

(ج) «الذاكرة» لحفظ أنواع المعلومات التي يحصل عليها الإنسان عن طريق الحس أو التفكير وتبويبها وحزنها ثم استذكارها عند الحاجة.

(د) «التجربة وتحليل القضايا» من أجل معرفة علل وجدور الحوادث عن طريق فصل المعاهيم الذهنية عن بعضها، ثم تركيبها، ثم الوصول إلى علل ونتائج الحوادث.

(هـ) «التخيل» أي إيجاد صورة ذهنية قد لا تكون في بعض الأحيان موجودة في الخارج كمقدمة لفهم القضايا الجديدة.

(و) «الإرادة والتصميم» لأجل انقيام بالأعمال أو التوقف عنها أو تغييرها.

(ز) «الإدراكات النظرية والعقلية» وهي الأساس في الاستدلالات النظرية وغير البديهية.

(ح) العشق، الحب، المداوة وعشرات لفظواهر الروحانية الأخرى ذات التأثيرات الإيجابية أو السلبية في أفعال الإنسان.

وبالطبع فهذه القضايا ليست منفصلة عن بعضها، بل هي متمركزة جميعها في داخل روح الإنسان، إنها أمواج من هذا المحيط اللامت هي، وأنوار من هذه الشمس الساطعة، وهذا مايدل على أن الروح الآدمية أرفع آيات لله وأهم علاماته.

وفي قول القرآن الكريم إشارة إلى هذه الحقيقة، «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» (الذاريات / ٢١)

ولا نذهب بعيداً فإنّ الذاكرة الإنسانية التي تمثل أرشيفاً للمعلومات المختلفة على درجة من الغرابة والعجب بحيث لو أننا أردنا توظيف مئات الأشخاص لحفظ وطرانة وترتيب معلومات أحد الأشخاص لاستحال عليهم القيام بنشاط الذاكرة بهذه السرعة والدقة .

ولو سلّبت منا الذاكرة لساعة واحدة لما أمكننا الحياة، فلا يصلّ الطريق إلى منازلنا فحسب، بل سيصيبنا السيان حتى في أن نضع اللقمة في فمنا عند تناول الطعام، سيكون كل شيء بالنسبة لنا مجهولاً ووحشياً وعريباً ومُحيراً.

فقد أحد الشباب جرة من ذاكرته نتيجة حادث سير أصابه بضربة دماغية، وعندما حملوه إلى بيته أنكر بيته وقال: إن هذه هي لمرء الأولى التي أصح فيها قدمي هذا ابل حتى أمه كان يتصورها امرأة غريبة، وبدت اللوحة الفنية التي رسمها يديه مجهولة تماماً في عينيهِ، وكان يقول: إنها أول مرّة أراها.

إننا نحمل في أرشيف ذاكرتنا صوراً لآلاف الموجدات وآلاف آلاف البشر وآلاف آلاف المواد المختلفة وآلاف آلاف الحواطر وملتقطات وآلاف آلاف المعلومات المختلفة الأخرى، والعجيب أن استحصار إحدى الحواطر لا يحتاج أكثر من واحد بالآلف من الثانية من أجل أن يستطيع الإنسان الانتباه إلى خاطرة معينة من بين معلوماته المبهوة التي مصت عليها لحظة أو ستة أو خمسون سنة، خاصة وأن العلماء يشيرون إلى إحدى الأعمال المحيرة للذاكرة والتي يسمونها «معجزة الذاكرة» وهي بالترتيب الآتي

كثيراً ما ينسى الإنسان اسم شخص أو موضوع ثم يجهد ويحاول أن يتذكره ويعلم زلوف أرشيف ذاكرته واحداً بعد الآخر ولكن دون جدوى

حسناً، إن كان الإنسان يعلم ذلك الاسم أو الموضوع، فلماذا يبحث عنه؟ وإن لم يكن يعلمه فكيف يبحث عن شيء لا يعلمه؟ أفيمكن أن يبحث الإنسان عن صالة لا يعرف ما هي أو من هي؟

ومع هذا فيصدق على ذاكرة الإنسان أن تبحث عند النسيان عن صالة لا تعلم ما هي ؟
وفجأة تصل إلى الرف الذي يحمل ضالتها فتعثر عليها^١.

وهنا توجد نقطة دقيقة يكمن فيها الحل 'مدهل' لنقصية ، وهي ، في مثل هذه المواضع لا يبحث الإنسان عن ذات ذلك الاسم أو الموضوع الذي لا يعرف ما هو بل من أجل العثور عليه تراه يبحث عن مجموعة الحوادث التي يعلم بشكل إجمالي أنه اختزنها في ذهنه بمعية الاسم المطلوب (لأن الحوادث المحيطة تُخزن على شكل مجموعات مجموعات) ، فمثلاً هو يعلم أنه تعرف لأول مرة على الشخص المعني الذي سى اسمه في اليوم الغلاتي والمحل الغلاتي ، لذلك يطلب من أرشيف الذاكرة وبشكل هوري إضبارة ذلك اليوم وذلك المحل ويتصفحها بسرعة البرق ليحضر في طياتها على اسم ذلك الشخص .

ونختم هذا الكلام بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وَرَدَ فِي تَوْحِيدِ الْمَفْصَلِ ، يَقُولُ :
« تَأَمَّلْ يَا مَفْصَلُ هَذِهِ الْقُوَى الَّتِي فِي النَفْسِ وَتَوَقَّعْهَا مِنَ الْإِنْسَانِ ، أَعْنِي الْفِكْرَ وَالرَّهْمَ وَالْعَقْلَ وَالْحِفْظَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، أَفَرَأَيْتَ لَوْ تَقَاعَى الْإِنْسَانُ مِنْ هَذِهِ الْحَالَاتِ الْحِفْظُ وَحْدَهُ كَيْفَ كَانَتْ تَكُونُ حَالُهُ ؟ وَكَمْ مِنْ خَلَلٍ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ وَمَعَاشِهِ وَتِجَارَتِهِ إِذَا لَمْ يَحْفَظْ مَالَهُ وَمَا عَلَيْهِ وَمَا أَخَذَهُ وَمَا أُعْطِيَ ، وَمَا رَأَى وَمَا سَمِعَ ، وَمَا قَالُ وَمَا قِيلَ لَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ أَحْسَنِ إِلَيْهِ مِنْ أَسَاءَ بِهِ ، وَمَا نَفَعَهُ مِمَّا ضَرَّهُ ، ثُمَّ كَانَ لَا يَهْتَدِي لَطَرِيقٍ لَوْ سَلَكَ مَا لَا يَحْصُنُ ، وَلَا يَحْفَظُ عِلْمًا وَلَوْ دَرَسَهُ عَشْرَهُ ، وَلَا يَحْتَقِدُ دِيْنًا ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِتَجَرِبَةٍ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْتَسِبَ شَيْئًا عَلَى مَا مَضَى ، بَلْ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يَنْسَلِخَ مِنَ الْإِنْسَانِيَةِ أَصْلًا » .

ثم يضيف الإمام : « وَأَعْظَمُ مِنَ النِّعَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الْحِفْظِ النِّعَةُ فِي النِّسْيَانِ ، فَإِنَّهُ لَوْ لَا النِّسْيَانُ لَمَا سَلَ أَحَدٌ عَنْ عَصِيْبَةٍ وَلَا انْتَهَصَتْ لَهُ حَسْرَةٌ ، وَلَا مَاتَ لَهُ حَقْدٌ ، وَلَا اسْتَمْتَعَ بِشَيْءٍ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مَعَ تَذَكُّرِ الْآفَاتِ .. »^٢.

❦❦❦

١. الاقتباس من كتاب «حافضة» من سلسلة «جه من دانه» (بالفارسية).

٢. بحار الأنوار، ج ٣، ص ٨٠ و ٨١ (بشيء من التخصيص).

٤ - مقارنة عقل الإنسان بالعقول الالكترونية

في بعض الأحيان يقارن البعض من عديمي الاطلاع بقاء روح وفكر الإنسان وعقله ببقاء العقول الالكترونية ، والحال أن الفرق بينهما أكبر من الفرق بين الطائرة الناعية التي يلعب بها الأطفال وطائرة عملاقة حقيقية ! والسبب هو

إن نشاط العقول الالكترونية محدود بحدود حالتها فقط ، وحافظتها هي تلك التي يعطيها الإنسان بالمعلومات ، ولذلك ليس لها وراء حدود هذه الحافظة المحدودة أي نشاط على الإطلاق

وفصلاً عن أن العقول الالكترونية تعتقر لأي نوع من أنواع الابتكار والتفكير أزاء إحدى الحوادث الجديدة مهما كانت بسيطة ، كردّ العمل مقابل هبوب الرياح الشديدة مثلاً ماهيك عن الابتكار والإبداع في القضايا المهمة والمعقدة

ثم حتى لو افترضنا صعوبة المقارنة بينهما بأي عقل يصدق أن صناعة العقل الالكتروني الذي يُعد أعجوبة الصاعات البشرية ، قد تمت على يد إنسان أمي أو أعمى أو أصم أو مجنون ؟

أفيمكن للطبيعة العاقده للروح والعقل والتفكير والابتكار أن توجد الروح والعقل والابتكار ؟ ومن هنا نقول : إن في داخل روح لإنسان آلاف من آيات الخالق وعلاماته



٥ - أصالة واستقلال الروح

مع أنه لا يوجد بالنسبة لنا فرق في لبحوث متعلقة بآيات الله بين أن تكون روح وفكر الإنسان جوهرًا مستقلاً ومجرداً عن المادة ، أو مرتبطاً بها ومن آثارها (وهذا هو الجدل المعروف بين الفلاسفة الإلهيين والماديين) ، ولكن لا شك أنه متى ما ثبتت أصالة واستقلال الروح اكتسبت هذه الآيات الإلهية مريداً من التأثير والجدية .

يصر الماديون على أن الروح والفكر من الخواص «الفيزيوكيميائية» للخلايا الدماغية

والتي تزول تماماً بفناء الجسم. والحال أن للروح والفكر الآدمي ظواهر لا يمكن تفسيرها بالتفسير المادية أبداً.

فمثلاً يجد كل شخص حقيقة في داخله تسمى «الأنا». وهي واحدة ليست أكثر منذ بداية العمر حتى نهايته، «أنا» منذ لطفولة وحتى الآن شخص واحد لم أزد ولم أتغير. وسأبقى أما ذلك الشخص إلى آخر العمر، بالطبع درست وتعلمت القراءة والكتابة ولهذا فقد حصلت وعلى نسبة من التكامل، لكنني لم تحول إلى إنسان آخر، بل ما أزال ذلك الشخص السابق.

في حين إذا أخذنا الأجزاء المادية للجسم يرى أن جميع تلك الدرات في حال تغير وتبدل، وأن جميع خلايا الجسم تتغير كل سبعة أعوام مرة واحدة تقريباً، أي أن الشخص البالغ من العمر سبعين سنة أصابه تبدل في أجزاء جسمه المادية عشرة مرات، رغم أن «الأنا» (شخصيته الإنسانية) ثابتة لم تتغير، وهذا يدل على أن حقيقة «الأنا» حقيقة ما وراء المادة ولا تتغير بتغيرات المادة.

فصلاً عن أن في أذهاننا حقائق مخرونة يكون أكبر من مخا وخلايانا المسحية آلاف الآلاف من المرات، تصور السماوات والمحزات، الشمس والقمر وغيرها، فمن المستحيل أن تكمن هذه الصور الكبيرة في الجزء المادي من وجودنا، ولا سبيل إلا أن تنعكس في الجزء غير المادي أي الروح، لأن الجزء المادي أي المخ ليس إلا موجود صغير.

وعلاوة على هذا فإن الطواهر المادية تقبل التجرئة والقسمة جميعاً في حين توجد بين مفاهيمنا الذهبية مفاهيم لا تقبل التجزئة إطلاقاً.

إن خصوصية «تصوير الواقع» والاطلاع على العلم الخارجي بالنسبة لنا، والموجودة في علومنا ومعارفنا، هي حقيقة لا يمكن تبريرها عن طريق الخواص «الفيزوكيميائية» للمخ.

وهذه البراهين الأربعة وبراهين واصحة أخرى تدل بجلاء على أن الروح جوهر مستقل ومجرد من المادة^١.

١. من أجل مزيد من الشروح راجع، ذيل الآية ٨٥ من سورة الإسراء من «التصوير الأمثل».

٦ - خصوصيات الروح في القرآن الكريم

يمكن استخلاص الخصوصيات وانصفات تنالها لروح الإنسانية بالاستفادة من آيات القرآن الكريم .

(أ) تتمتع الروح الأدمية بالاستقلال وتبقى بعد انفصالها عن الجسد مستقلة، والآية ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ...﴾ (الزمر / ٤١)

تشهد بهذه الحقيقة .

(ب) من الممكن أن تتنعم الروح الأدمية وبعد انفصالها عن الجسم في عالم البرزخ بأنواع النعم الإلهية أو أنها تتعذب بمختلف صنوف العذاب الشديد، وفي آية «حَيَاءُ الشُّهَدَاءِ» كما ورد في الآية ١٦٩ من سورة آل عمران .

وآية «عَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ» كما ورد في الآية ٤٦ من سورة غافر .

دليل على هذا المعنى .

(ج) يختلف بناء الروح إحتلافاً كبيراً عن بناء الجسم كما قرأنا ذلك في الآيات المعنيه حيث إن الله تعالى يعتبر الروح من عالم «الْأَصْرَةِ» وخلقها من نوع «انشاء الخلق الآخر» الآية ٨٥ من سورة الاسراء و١٤ من سورة المؤمنون .

(د) إن علم الإنسان عن حقيقة الروح وأسررها قليل جداً، وآية «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» (الاسراء / ٨٥)

شاهد على هذا المدعى .

(هـ) في حالة النوم تصعب علاقة «الروح» ، «الجسم» وفي حالة الموت تنقطع نهائياً كما في ورد في سورة الزمر، الآية ٤٢ .

(و) الروح والظواهر الروحية بصورة عامة من الآيات المهمة على عظمة الله ووسيلة مهمة لمعرفة تعالى : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (الزمر / ٤٢)

٧- خاتمة للبحث حول الروح

إنَّ البحث حول الروح اكبر وأوسع من أن نستطيع تبيان جميع أبعادها في هذا الموجز السريع، وإذا أردنا أن نترك عنان القسم خراجاً من بحثنا التفسيري، لذلك يمكن الرجوع إلى الكتب الفلسفية والكلامية والروائية، من أجل المزيد من التفاصيل وقد وردت بحوث متعددة في «التفسير الأمثل» في هذا المصمار، ونلاحظ بحوثاً وشروحاً وافية في تفسير الميزان، المجلد الأول في تفسير الآية «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ».

(البقرة / ١٥٤)

ذكر العلامة المجلسي في كتابه المشهور بحار الأنوار ١٧ دليلاً عقلياً ونقلياً لإثبات أنَّ حقيقة الإنسان ليست مجرد هذا الجسم^١.

وهي نفس هذا الكتاب يذكر نقلاً عن المحقق الكاشاني ١٤ قولاً حول حقيقة الروح^٢ ويختم هذا البحث بحديث لطيف عن أمير المؤمنين عليه السلام، حيث روى عنه أنه قال «الروح في الجسد كالمعنى في اللفظ»^٣.

يقول أحد العلماء واسمه الصفري «إنَّني لم أَر مثلاً حول الروح أجمل وأصح من هذا المثال»، نعم الروح كالمعنى والجسم كاللفظ.

❦❦❦

١ بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٦ إلى ١٠

٢، المصدر السابق، ص ٧٥

٣، سفينة البحار، ج ١، ص ٥٣٧، مادة (الروح).

٥ - آياته هي

الهداية الفطرية والعريضة للإنسان والحيوان

تمهيد:

ليس الشر فحسب بل الكثير من الأحياء الأخرى تولد من أمهاتها ولديها حصيلة من العلوم والمعارف الفطرية والغريزية، العلوم التي لم يكن ثمة معلم يعلمها وليست وليدة التجربة والاحتمار، بل إن المعلم الأول هو الذي أودعها منذ البداية في عمق وجود الإنسان وسائر الحيوانات بطريقة تثير الإعجاب والذهول.

إن دراسة هذه العلوم والمعارف والهداية الفطرية والعريضة تعد آيات عظيمة على عظمة الله وعلامة بيّنة لعلمه وقدرته.

وبهذه الإشارة القصيرة، نقرأ حاشعين للآيات لكرامة أدياب.

- ١ - «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى».
- ٢ - «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

(البلد / ٨ - ١٠)

- ٣ - «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»

(الشمس / ٨)

- ٤ - «فَأَنزَلْنَاكَ لِلدُّنْيَا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»

(الروم / ٣٠)

- ٥ - «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

(العلق / ٤ - ٥)

٦ - «الرَّحْمَنُ • عَلَّمَ الْقُرْآنَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» (الرحمن / ١ - ٤)

٧ - «قَدْ كُنَّا إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ» (العاشية / ٢١)

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

لستأذ الأزلح:

الآية الأولى من الآيات التي اخترناها هي بحثنا هذا تتناول حوار موسى بن عمران ﷺ مع فرعون، فعندما سأله فرعون وأحاه هارون: من هو ربكما هذا الذي تدعوان له؟ أجابه فوراً: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى».

واضح أن كل موجود خلق من أجل هدفه، وكل صنف من أصناف النباتات والحيوانات والموجودات سواء كانت طيوراً أو مشيات أو حشرات أو صغاراً أو بحاراً، كل خلق لبينة خاصة، ويرى بوضوح أن لها السحماً كاملاً مع بيتها وقد رَوَّد بما تحتاج إليه، هذا في المرحلة الابتدائية من خلقها.

أمّا في مرحلة الهداية التكوينية فنشاهد بجلاء أن ليس هالك موجود يترك لحاله بعد خلقه بل إنه يساق نحو أهدافه بتوجيه حمي، وللكثير منها علوم ومعارف لم تصلهم بلا شك عن طريق التجربة الشخصية ولا عن طريق تعليم المعلم، إن هذه الهداية التكوينية والعلوم والمعارف من آيات الذات المقدسة التي حققت هذا لعالم الكبير وما انفكت تهديه وتسيره، وبالطبع فإن هذا الكلام لا يخص الإنسان وحده، بل إن مفاد الآية هو بحث كلي وجامع وعام يشمل أفراد البشر، وهذا أمر يختلف عن هداية الأنبياء والرسل المسماة بالهداية التشريعية والخاصة بالإنسان.

إن الطفل الذي يولد من أمه يتجه ويدور أي مقدّمة نحو ثدي الأم بفمه ويمتص عصارة روحها، وتارة يضع يديه الصغيرتين على ثدي فيحرك منابغ اللبن فيه، من أين تعلم هذا الدرس الذي يصمن له تعذيبه واستمرار حياته؟

من اين يعلم أن أفضل سبيل لرفع حاجاته التي لا يستطيع القيام بها هو «البكاء» البكاء الذي يهز الأم في نومها ويقظتها ويغرض عليها معونه، وكذلك العلوم والمعارف الأخرى التي يستفيد منها الإنسان في مراحل أخرى من دون الحاجة إلى معلم.

يوجد في آيات أخرى من القرآن ما يشبه هذا المعنى، نقرأ في قوله تعالى: «وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ» (الأعلى / ٣).

وفي الآية الثانية من الآيات المخصصة لبحثنا هذا وعد تذكير الإنسان بنعمه عليه، يقول بعد الإشارة إلى نعم العين واللسان والشفاء، «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

«نجد»: في اللغة بمعنى المكان المرتفع والعلية، وهي تقابل «التهامة» التي تطلق على الأراضي المنخفضة والواطنة والمساوية لمستوى سطح البحر وما شاكل، وانطلاقاً من أن المعرفة بأسس السعادة وطرقها وسلوك هذه الطريق يشبه إلى حد ما سلوك الطرق المرتفعة بما فيها من مشاق ومشاكل كثيرة، فقد استعملت مفردة «نجد» هنا بمعنى طريق الخير، ثم جاء الاطلاع على طرق الشر إلى جانبها بعنوان «التكليب»، وعليه يكون معنى الآية هو «إنا هدينا الإنسان إلى هذين المكانين المرتفعين»، وهذان المكانان هما طرق الخير والشر لهذا نقرأ في حديث عن الرسول، الأكرم ﷺ «يا أيها الناس! هما نجدان: نجد الخير ونجد الشر، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير»^١

يحصّر البعض من ذوي النظر المحدود مفهوم الآية الواسع في داخل موضوع محدود، ويقولون إن المعصود من هذين المكانين المرتفعين هما نديا الأم! وقد ورد في الحديث أن الإمام علي عليه السلام سئل عن معنى «وهدينا للنجدين» وهل تعني نديي الأم كما يدعي البعض، إن الهداية الإلهية في هذا المجال تحصل طبعاً عن طرق مختلفة، عن طريق الوجدان الأخلاقي، العطرة، الدلائل العقلية، وتعاليم الرسل (أي أنها تشمل أنواع الهداية التكوينية والتشريعية)، لكن سياق الآيات يناسب الهداية لتكوينية أكثر.



١. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٨١ و تفسير مجمع البيان، وتفسير القرطبي، وقد روي نفس هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام تعقياً على الآيات المنظورة.

وفي الآية الثالثة بعد القسم بروح الإنسان، وحالق الروح، يشير إلى مسألة الهام الفجور والتقوى ويقول: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلْهَمَ نَفْسَ الْإِنْسَانِ الْفَجُورَ وَالتَّقْوَى: «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». «واللهام» من مادة (لْهَم) على وزن (فَهْم) أي (ابتلاع) أو (شرب) الشيء^١.

ثم جاءت بمعنى الفاء الأمر في قلب الإنسان من قبل الباري تعالى، فكأنما يلتهم القلب ذلك الأمر بتمامه، وللهام معنى آخر أيضاً وهو «الروحي»، حيث استخدم أيضاً بهذا المعنى أحياناً.

وتعني «الفجور» خرق حجاب التقوى، وارتكاب الذنوب، وهي من مادة «فجر» التي تعني الانشقاق الواسع، أو انكشاف ظلمة ليل بواسطة بياض الصبح و«التقوى»: من مادة «الوقاية»، وتعني (الصيانة)، والمقصود هنا الأساليب التي تمنع الإنسان من التلوث بالذنوب والقبائح.

من هنا يفهم بوضوح من هذه الآية أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد أودع مسألة إدراك العُشَنِ والقيح العقليين وفهم الحس والسيء بشكل مطري داخل روح الإنسان كي يهديه الطريق نحو السعادة والتكامل.

وورد في حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال «يُنَى لَهَا مَا تَأْتِي وَمَا تَرْكُ»^٢، فالمقصود هو أَنَّ اللَّهَ يَنْهَى لِلْإِنْسَانِ ما يجب فعله وما يجب تركه أو بتعبير آخر علّة (الواجبات، والمحرمات).

وحول السبب في تقدم «الفجور» على «التقوى»؟ يقول بعض المفسرين: لأنَّ «التطهر» من الذنوب «يمثل الأرضية له» التحلي بـ «تقوى»، باعتبار أنَّ (التخلية) تكون قبل (التحلية)، و«التطهير» قبل «إعادة بناء» دنياً^٣.

١. لسان العرب مادة (لْهَم) بناءً على ذلك ضحيماً تستعمل هذه السادة في باب الافعال تميم «الابتلاع والشرب» وقال بعض إنها تستخدم في أمور الحير فقط، وإنَّ المراد من الهام المجور في الآية هو صده عن الخير أيضاً.

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٨٦، ج ٧

٣. تفسير روح المعاني، ج ٢٠، ص ١٤٣

على أية حال، فلو لم يكن إدراك حُسن وقبح الأفعال فطرياً بالنسبة للإنسان، أي لو كانت هناك حاجة للاستدلال من أجل فهم قبح ظلم وحُسن العدل والاحسان والأعمال الأخرى فمن المسلم إنه سيخلُ نظام المجتمع بشري، لأن الكثير من الاختلافات العقائدية تنشأ عن الاستدلالات النظرية، حيث لا يوجد أساس وجداني متين لهذا المعنى، فيمنع كل شخص لنفسه حرية القيام بأي عمل أحل إن هذه الهداية الإلهية في الحياة الاجتماعية للإنسان مصيرية إلى أبعد الحدود، وهذه النعمة وهذه الهداية مهمة إلى الحد الذي لا يمكن قياسها بسائر النعم الأخرى.

﴿٥٥٥٥﴾

وفي الآية الرابعة طرح مسألة فطرية الدين، وهو (الدين الصحيح) أي الحالي من كل أشكال الهوى والاحياء نحو الباطل والاعراف، والظاهر من كافة أشكال الشرك والتلوث. ﴿قَالُوا وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ والاستفادة من تعبير «الدين» نظراً لشموع مفهومه، حيث يشمل جميع أصول الدين، والحد الأدنى من مجموع فروع الدين، بأنه ليس معرفة الله والوحيد فقط، وإنما أصول وفروع الدين كافة اودعت منذ البداية في روح الإنسان بنحو إجمالي وبصورة فطرية، وهذه هي «الهداية التكوينية» التي يمكن أن توجد أكثر الآثار جاذبية لدى الإنسان فيما لو تعاغت مع «الهداية التشريعية» للأنبياء ﷺ.

بناءً على ذلك فإن أصل كل دعوة موجودة في الشريعة له وجود في أعماق فطرة الإنسان، ولا يعارض أي دين الإرادات الفطرية للإنسان، بل يرشدّها ويكملها من خلال الطريق المشروع، ولهذا فإن التعبد والتدين موجودان داخل روح الإنسان بصفتها هداية تكوينية، وإذا ما حصل اعراف ما فأنه طارئ، لهذا فإن دور الأنبياء ﷺ هو إزالة هذه الانعراقات الطارئة كي تحصل إمكانية تفتح الفطرة الحقيقية

وهنا نكتفي بهذا المقدار حيث ستكمّم مفصلاً بخصوص هذه الآية في بحث التوحيد الفطري في المجلد الثالث إن شاء الله.

وقد تحدثت الآية الخامسة عن التعليم الإلهي بواسطة القلم ثم أشارت بشكل عام إلى تعليم الإنسان للمسائل التي يجهلها إذ يقول تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قد يكون التعليم الإلهي بواسطة القلم إشارة إلى القراءة والكتابة التي حدثت لأول مرة على أيدي الأنبياء ﷺ، أو لأن الله تبارك وتعالى قد أوجَدَ هذا الدوق والقبالية لدى الإنسان هدايةً فطرية حيثُ أُبتدِعَ بعد انصح القراءة والكتابة، وبدأت مرحلة ما بعد التاريخ مع إيجاد الخط (حيث نعلم أن الفاصل الزمني بين مرحلتين ما قبل التاريخ وما بعد التاريخ هي مسألة اكتشاف الخط).

على أية حال، فقد حصل التعليم بالقلم عن طريق الهداية الإلهية. ويمكن أن تكون جملة ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ إشارة إلى العلوم العنصرية المختلفة التي أودعها الله تعالى في فكر الإنسان المتضمنة لإدراك القبح والحسن، والفجور والتقوى وكذلك القضايا البيئية التي تكون أساساً للقضايا النظرية في العلوم الاستدلالية. والاطلاع على قواعد الدين وأصول الأحكام الإلهية أيضاً.



وفي الآية السادسة يُعَدُّ أن ينسب تعليم القرآن إلى الله الذي هو مصدر جميع الرحمت والكرامات، يتحدث عن خلق الإنسان ويقول: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. ولد «البَيَان»: مفهوم عام حيث يُطلق على كل شيء وموضع أنواع الاستدلالات العقلية، والمنطقية التي تبين المسائل المعقدة، أو الخط والكتابة، أو الكلام الذي يعد من أبرز مصاديقه.

وقد أعطى المفسرون احتمالات كثيرة في تفسير «البَيَان»، فقد اعتبرها فريق منهم

١. نقل عدد من المفسرين أن آدم ﷺ كان أول من كتب بواسطة القلم (تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ١٧٢١).
وتفسير روح البَيَان، ج ١٠ ص ٤٧٣).

بمعنى بيان الحير والنشر، وفريق آخر بمعنى بيان الحلال والحرام، وثالث اعتبرها بمعنى الاسم الأعظم، ورابع بمعنى تعليم اللغة^١.

لكن من الواضح أن ظاهر (البيان) هو التكمُّن، وتبدو بقية الاحتمالات ضعيفة^٢.
وهنا كيف علّم الله تعالى الإنسان التكلم؟ قال بعض المفسرين: إن الله هو الذي «وَضَعَ اللُّغَاتِ» ثم علّم الأنبياء ﷺ عن طريق الوحي، لكن يبدو أنه ليس هناك دليل واضح لهذا الرأي، إنما المقصود هو الإلهام الباطني من قبل الله تعالى للإنسان، حيث استطاع من خلال إيجاد الصوت عن طريق الصخرة، ثم إيجاد بحروف عن طريق حركة اللسان والاعتماد على مخارج الحروف، ثم تركيبها مع بعضها وإيجاد الكلمات، ثم تسمية الأشياء والمفاهيم المختلفة، بحيث يمكن مقاصد الباطنية والمفاهيم المادية والمعنوية، الجبروتية والكلية، المستقلة وغير المستقلة كافة عن هذا الطريق السهل الذي هو في متناول أيدي الجميع. والحقيقة أنه لو لم تكن هذه الهبة الإلهية الخلاقة ولم يعرف الإنسان التكلم لما وجدت الحضارة، ولما ارتقى العلم إلى هذا الحد. ولما تمكن الإنسان من بناء قواعد حياته على أساس التعاون الجماعي، لأن التعاون فرغ من علاقة التقارب مع الآخرين.

وورد في تفسير الميزان أن من أقوى الأدلة على أن إهداء الإنسان إلى «البيان» قد تم بالإلهام الهبي، هو اختلاف اللغات باختلاف الأمم والطوائف في الخصائص الروحية والأخلاقية والفلسفية وبحسب اختلاف المساقط الطبيعية التي يعيشون فيها^٣.

وقد قدر بعض المحققين عدد اللغات الموجودة في العالم بـ «ثلاثة آلاف لغة»، وقال بعضهم أن العدد يفوق ذلك^٤.

وهذا الاختلاف عجيب حقاً، وهو من براهين قدرة وعظمة الله تبارك وتعالى

١. تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٣٢٢، وتفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ٨٦.

٢. إذا فُسِّرت (البيان) في بعض الروايات على أنها الاسم الأعظم فهو من باب ذكر المصداق الواضح.

٣. تفسير الميزان، ج ١٩، ص ١٠٧.

٤. دائرة المعارف فريد وجدي، ج ٨، ص ٣٦٤.

فأصل التكلم من آيات الله العظيمة، وهذا التنوع في اللغات آية عظيمة أخرى، وكلاهما يعتبر من خصائص حكمة البشر.

من الممكن أن تنطق بعض الطيور عن طريق لتعليم المتكرر عبارات جذابة، ولكن -مما لا شك فيه- أن عَظَلَهَا لِسٍ لَا تَقِيدُ لَأَفَاظٍ مَحْدُودَةٍ صَادِرَةٍ عَنِ الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِ ادْرَاكِ لِمَعَاهِيهِمْ هَذِهِ الْأَفَاظِ، فالإنسان وحده الذي يستطيع -بنحو غير محدود وبإدراك تام- أن يكونَ حَتَلًا ويصعب فيها معاهيهم مختلفة ويغير عنها.

وهي (توحيد المفضل)، يلفتُ لإمام صادق عليه السلام النظر إلى هذه الآية العظيمة، حيث يقول عليه السلام للمفصل: «... أَطْلَلُ الْفِكْرَ بِمَا مَفْضِلٌ فِي الصَّوْتِ وَالْكَلَامِ وَتَهْيِئَةُ أَلَا تَه فِي الْإِنْسَانِ، فَالْحَنَجْرَةُ كَالْأَسْبُوبَةِ لَخُرُوجِ الصَّوْتِ، وَاللِّسَانُ وَالشَّفَتَانِ وَالْإِنْسَانُ لَصَيَاغَةِ الْحُرُوفِ وَالنَّعْمِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ مَنْ سَقَطَتْ أَسْنَانُهُ لَمْ يَقُمْ الْبَيِّنُ، وَمَنْ سَقَطَتْ شَفَتُهُ لَمْ يَصَحَّ الْفَاءُ، وَمَنْ ثَقُلَ لِسَانُهُ لَمْ يَصَحَّ الرَّاءُ، وَأَشْبَهَ شَيْءٌ بِذَلِكَ الْمَزْمَارُ الْأَحْمَرُ.»^١
ثم يشرح الإمام عليه السلام تفاصيل ذلك للمفضل ويدعوه إلى التمعن بهذا الأمر

وفي الآية السابعة والأخيرة من بحثنا، يحاطبُ تعالى الرسول ﷺ وبأمره: «قَدْ كُنَّا إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ»، فقد يكون المقصود من «لتذكير» إشارة إلى أن حقائق هذه العلوم والمعارف وخلاصتها موجودة في وجدان وروح الإنسان طبقاً للهداية الإلهية، ثم تفتح هذه العلوم في ظل تعاليم الأنبياء والرسل (عليهم السلام)، حيث تخرج من مرحلة «الخفاء» إلى مرحلة «الظهور»، ومن «الاجمال» إلى «لتفصيل» ومن «الباطن» إلى «الظاهر».

وقد وردت هذه الآية أربع مرات في القرآن الكريم هي سورة القمر عند بيان وقائع قوم «فِرْعَوْنَ» و«عَادَ» و«ثَمُودَ» و«لُوطَ» حيث يقول تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ» (القمر / ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠).

وهذا الكلام معروف أيضاً عن بعض الفلاسفة اليونانيين ، حيث يقولون : « ليست العلوم والمعارف إلا التذكير ، ولقد أُودِعَ جميع القواعد العلمية روح الإنسان دون استثناء ، وقد نسيها الإنسان إلا أنها تعود إلى الذاكرة بمساعدة المعلمين » .

يقول الفخر الرازي في تفسيره « لو قال قائلٌ هذا يقتضي وجود أمرٍ سابقٍ فَنَسِيَ ، ونقول : ما في الفطرة من الاتقياد للحق هو كالمسي مهل من مدكر يرجع إلى ما فُطِرَ عليه »^١ .

على أية حال ، فإن جميع هذه الآيات دليلٌ حى على الهداية الإلهية الفطرية للإنسان

❦❦❦

توضيح

الهداية الفطرية والغريزية في العلم للمعاصرة

مع تطور علم النفس ، وعلم التحليل النفسي ، وبحوث العلماء حول الحواس ذات الأسرار الغريبة للحيوانات ، اُكتشفت الكثير من أسرار الهداية الفطرية والغريزية الغريبة والمدهشة في عالم الأحياء ، وبواجهه ظواهر تمجر العلوم عن تفسيرها ، ولأى حكن أهدأ الوقوف على مصدر هذه الهدايات ، إلا أن نُسَلِمَ بأن مبدىء عالم الوجود الذي تكفل بهداية جميع الكائنات هو الذي وهب هذه العلوم عن طريق الإلهام الفطري الحفي للإنسان أو الحيوانات .

ولدينا في هذا المجال قدر وافر من الشواهد بحيث لو جُمعت لشكلت كتاباً كبيراً ، منها الحالات الدقيقة الآتية .

١ - إن الطفل حين ولادته يعرف جيداً ومن دون الحاجة إلى معلم كيفية الإمساك بالثدي والرضاعة ، واستخدام اليد والأصابع لهذا العمل ، وعكس وايصال حاحانه إلى الأم عن طريق البكاء ويكون حاملاً لاستعدادات خفية كتسبها من أمه ، من بينها ابتداع الكلمات ،

قابلية التكلم وفهم اللغات بالأصافة إلى إدراك الحس والفهم وقسم كبير مما يجب وما لا يجب ويحمل في نفسه بشكل فطري معرفة عالم الوجود بالإضافة إلى معرفة الله سبحانه وتعالى.

يقول أحد العلماء : حينما تحتضن الأمُّ أطفالهنَّ لتهدئتهنَّ فهنَّ يضعهنَّ على الجانب الأيسر من الصدر بلا علمٍ منهنَّ بهذا العمل ، حيث يضعنَّ أطفالهنَّ بجوار قلوبهنَّ ، فيهدأ الطفل بمجرد سماعه ضربات قلب الأمِّ لأنه عتاد على سماع هذا الصوت عندما كان جنيناً في بطن أمه وقبلما توجد أم ملتصقة إلى هذه المسألة ، ولذا فإنها تؤدي عملها هذا في هذا المجال بالهام فطري محض .

٢ - إنَّ مسألة الهداية العظيمة و لعمري في عالم الحيوان أوسع بكثير عما هي عليه في الإنسان ، حيث يحرص علماء العصر منادٍ مدهشة منها . فقد جاء في كتاب (البحر دار العجائب) تأليف (فرد ديناندليس) ما يأتي :
« إنَّ تصرفات بعض الأسماك بعدَّ من أسرار الطبيعة حيث يعجز كلُّ إنسان عن بيان سببها ، فأسماك الـ (قرن / آلا) تترك مياه البحر لتعود إلى مياه الأنهار العذبة التي بدأت حياتها فيها ، وتسبح بجدي في الاتجاه المعاكس لتيار الماء ، وتقفز من فوق الصخور ، بل وتصعد أعلى الشلالات أيضاً ، وقد تملأ نهر لكثرتها أحياناً ، وعندما تصل هذه الأسماك إلى المكان الذي تبحث عنه تصعب بيوصلها ثم تموت »

فكيف تهتدي هذه الأسماك إلى الأنهار لمناسبة ياترى ؟ أنها أكثر إثارة للمعجب من احتراع المذياع والتلفاز ، لأنها لا تمتلك حارطة ، كما أنَّ قابليتها على الرؤية تحت الماء ضعيفة ، وليس هناك من يَدُلُّها على الطريق .^١

٣ - وجاء في نفس ذلك الكتاب : « إنَّ تصرف (الجري) أكثر عَجَباً من هذا ، فحينما يبلغ سمك الجري « الانجليزي » ثمانين سنوات بهجر أحوص أو النهر الذي يعيش فيه ويرحف ليلاً كالافعى على الأعشاب الرطبة حتى يصل إلى شاطئ البحر ، ثم يطوي المحيط

الاطلسي مسباحةً ويتجه نحو المياه القريبة من (مثلث هرمود) حيث تضع الاناث بيوضها تحت الماء هناك وتموت... والمدهش أن صغار سمك الجريّ تعوم على سطح الماء ثم تبدأ سَفراً طويلاً نحو الوطن الأم، حيث تسفرق هذه الرحلة سنتين أو ثلاث سنوات! فكيف يعرف الجريّ هدفه هذا مع أنه لم يسلك هذا الطريق أبداً؟

إن الجواب عن هذا السؤال يستوي فيه جميع الناس حتى أعلم العلماء وهو (لا أعلم) ^١.

٤ - يقول (فيتوس فرميسر) مؤلف كتاب (العواصم الخفية للحيوانات) : « لقد اكتشف العلماء أسراراً مذهلة عن الحفاش، منها وجود أربعة أنواع من الخفافيش التي تصطاد الأسماك، فهي تحلق ليلاً فوق الماء وتمتد أرجلها فيه فجأة لتصطاد سمكة وتأكّلها، إنه سرٌّ مدهش فمن أين لها العلم بأن في تلك القطعة سمكة تسبح تحت الماء؟ لم يفلح الإنسان بالقيام بهذا العمل حتى الآن بالرغم من وسائله وأجهزة العلميه، فلا تستطيع أي طائفة قاذفة أن تحدّد مكاناً ممسكاً لمواصية سمك الماء، وإن استطاعت فعلها أن تطلق موجات حاصلة على الماء كي تحدد مكان الفواصية من خلال الدبذبات التي تبعث من الفواصية إلى الطائفة بواسطة الأمواج اللاسلكية.

أحلّ، فالطائفة على عكس الخفاش لم تستطع الاطلاع مباشرة على مكان وجود الهدف الذي تحت الماء. يقول البروفيسور (عيري هون) : « ليس هناك توضيح يمكن قبوله لهذا الموضوع أبداً ».

ثم يضيف قائلاً : « ولم يكتشف الإنسان شيئاً حتى الآن إلا ويعد الطبيعة قد سبقته إليه » ومن الطبيعي أن يبحث هذا الاكتشاف عن الإنسان العرور، لكنه لا يلبث أن يجد نفسه متأخراً عن الطبيعة في هذا المضمار.

لهذا فقد استحدث العلماء الاميركيون علماً جديداً باسم «البيولوجيا» - علم البيئة - وهدفه تعلم الفنون والأساليب الجديدة من الدروس التي تمنحها لنا الطبيعة من خلال الوصول إلى أسرارها.

ثم يضيف قائلاً: «لو وضعنا أحد هذه الساتن (الغشائس) في صندوقٍ مُقفَلٍ مُظلمٍ وأبعدنا به ثلاثمائة كيلو متر عن عُشِّه ثم أطلقناه، بعده يعود مباشرةً وباقصر وقتٍ إليه بالرغم من كونه شبه أعمى، ويكون ذلك المكان مجهولاً بالنسبة إليه»^١

٥ - ويوضح الكاتب المعروف (غرسى سوريسن) في كتابه (سرُّ خلق الإنسان) وهي فصوله تحت عنوان (الشعور الحيواني)، صوراً لساذج من هذا القبيل منها:
إنَّ الطيور نبي وتوجد أعشاشها بشكلى غريزي (على الرغم من أنَّها لم تَرِ نموذجاً من قبل)، فطير السنونو الذي يبني عُشَّهُ في روق البيوت يهاجر في فصل الشتاء إلى المناطق الدافئة، وأما إذا لاحت طلائع الربيع فهو يعود إلى وكره والكثير من الطيور تهاجر نحو الجنوب ولما طق الحارة، وأغلبها يقطع مئات الفراسخ براً وبحراً إلا أنَّها لا تنصّل الطريق إلى أوكارها أبداً.

والأسماك الحرّة تعيش سواكب مهددة في البحر، ثم تعود إلى النهر الذي جاءت منه، والاكثر عجباً أنَّها تغفر من شاطئ النهر القسرتفع وتذهب إلى النهر الذي وُلدت فيه... فالأسماك الحرّة تتبع شعورها الباطنى، وتذهب إلى الساحل الذي كان محللاً لنشوتها ونموها، فأى شعور يؤدى إلى أن يعود هذا الحيوان إلى وطنه بهذا المحو الدقيق؟ «لا جلم لأحد».

فلو أخرجنا قرخ طير من عُشِّه وقصا بتربته في بيئة أخرى، فهو يبدأ ببناء عش له عند بلوغه مرحلة الرشد والتكامل وبالأسلوب الذي يتبعه أبواه، فهل أن الأعمال المحددة والمختلفة التي تصدر عن جميع مخلوقات الأرض تحدث صدقة، أم أن العقل والشعور العام يؤدى إلى صدورها؟^٢

٦ - ويقول أحد العلماء الفرنسيين ويدعى «غارد» بصدد طائر يسمى (أكسيكلوب) ما يأتي:

١. الحواس الخفية للحيوانات، ص ١٧

٢. سرُّ خلق الإنسان، الفصل ٨، الشعور الحيواني.

«لقد درست أحوال هذا الطائر، فوجدت من خصائصه أنه يموت عندما يُكْمَلُ وَضْعُ بيوضه، أي أنه لا يرى فراخه أبداً، ولذلك فإن فراخه سوف لن ترى وجه الأم الصليء بالحنان إلى الأبد، وعندما تخرج من البيضة تكون على هيئة اليرقة عديمة الريش والأشحنة ولا قدرة لها للدفاع عن نفسها تجاه ما يهدد حياتها، لذلك فعليها البقاء لمدة سنة كاملة على هذه الحال وهي مكان آمن، وأن يكون غذاؤها إلى جانبها، لهذا فحينما تشمر الأم بحلول موسم وضع البيوض تبحث عن مقطع حشبي فتقوم بتقنيه، ثم تشتعل بجميع الأطعمة، فتجمع الأوراق والأغصان التي يمكن استحداثها لتغذية فراخها لمدة سنة كاملة وتعدّه لواحدٍ من هذه الفراخ، ثم تضعه في نهاية شقب وتصنع عليه بيضة واحدة وتبني فوقه سقفاً قوياً نسبياً من عجينة الخشب، ويبقى تشتعل بجميع الأطعمة، وبعد تأمين قوت سنة كاملة لفرخ آخر ووضعتها على سقف الطبقة الأولى تصنع بيضة أخرى ثم تبني طبقة ثانية، وهكذا تقوم بساء عدة طبقات ثم تموت بعد الفراغ من العمل! (انقلوا جيداً من ايس حاءت معرفة هذا الطائر الصغير بأن فراخه مثل هذه الحاجات؟ ومن استلهم هذه التعاليم؟ فهل تعلمها من أمه؟ في الوقت الذي لم يرها أبداً، أم من خلال التجربة، علماً أن هذا العمل لا يقع إلا مرة واحدة في حياته

ألا يجب الاعتراف بأن هذا العمل يستند إلى إلهام غيبي وغريزي حيث وصفته يد القدرة الإلهية في كتابه (١١؟).

٧ - يقول العالم الفسافي الروسي (بلاتونوف) في كتابه (علم النفس في الاتحاد السوفيتي):

«التقيت أثناء الحرب العالمية العظمى صدقة طبيب لم ير النوم لبضع ليالٍ، ثم تمكن من النوم قليلاً، وأثناء ذلك جيء بعدد كبير من الجرحى الذين يحب علاجهم فوراً، إلا أن الطبيب المذكور لم يستيقظ، فحركاه وسكبنا لهما على وجهه، فكان يحرك رأسه ويعود إلى النوم، فأشرفت إلى الموجودين بأسكوت «كي أوقفه»، ثم قلت له بهدوء وبشكل واضح: أيها الطبيب جاؤوا بالجرحى وهم بحاجة ماسة إليك، هنا استيقظ فوراً.

ثم يضيف: كيف يمكن تبرير هذا الأمر، فهؤلاء الذين كانوا يسعون لا يقاظه كانوا

يوجهون التأثيرات على القسم غير الفعال من دماغه، بينما وضعت «دائرة الحراسة من المنع» في حالة انذار وترقب فهذا الجزء يبقى مستيقظاً حتى في أعمق حالات النوم، ومن خلال دائرة الحراسة هذه يقيم الإنسان علاقته مع العالم الخارجي (ويودع المسائل التي يرغب بها في هذه الدائرة بلا قصد منه).

والأم التي تنام إلى جانب طفلها المريض ولا يمكن لأعلى صرخات الذين من حولها أن توقظها، تستيقظ لأقل أنية تصدر من طفلها والطَّحان الذي ينام عند حدوث العواصف المصحوبة بالبرق والرعد يستيقظ بمجرد توقف طاحونه عن العمل، كل ذلك بسبب ايداعهم لما يريدونه في دائرة الحفظ في المع في حالة اللاشعور^١.

١- ويقول (درفيشر) في كتابه حول احصاء الزاجل وعودته المدهشة إلى عشه، «لو وضعنا هذا الطائر في صندوق معمل مظلم وبعداء مئات الكيلو مترات عن وكره، وسلكنا به الطرق الملتوية والمعقدة أثناء رحلتنا، فإنه حال ائراجيه من الصندوق بطير مباشرة نحو عشه بعد عشر أو عشرين ثانية من رؤية النور، وقد ثبت ذلك عن طريق الاختبارات المتكررة التي قام بها عالم معروف يدعى الدكتور «غرامر».. ويمكن توضيح أسلوب عمله بهذا المثال، فلو أن هذا الطائر كان في مدينة هامبورغ فإنه يعلم أين تكون الشمس عند الساعة الثمانية من اليوم، فإذا أخذوه إلى مدينة «بروم» مثلاً فإنه يفهم أن الشمس هناك تكون إلى الشمال من ١ / ٢٥ درجة شرقاً بنصف درجة.

فمن أجل عودته إلى وكره في هامبورغ يجب عليه التحليق نحو الشمال الشرقي مع الأخذ بنظر الاعتبار وضع الشمس في هامبورغ إلا أنه ليس معلوماً كيف تقوم هذه الطيور بتحديد طريقها عندما يكون الجو غائماً حيث تختفي الشمس؟ لقد أثبتت التجارب أن أعينها يجد طريقه بدور الاستفادة من حركة الشمس كبوصله لتحديد اتجاهها^٢.

١. علم النفس في الاتحاد السوفيتي، ص ١٩ «مع شيء من الاختصار»

٢. الحواس الخفية للحيوانات، ص ١٨٢.

ولو فرضنا أن هذه الطيور تستفيد من حركة شمس، فمن المسلم به عدم مقدرتها على تعيين الزوايا، وهي زوايا صغيرة جداً، لا يمكن قياسها إلا من خلال الاستعانة بالمنقلة لتحديدتها، وهذه مسائل لا يمكن تفسيرها إلا في ظل لهداية التكوينية الإلهية.

إن هذا الطائر ومثله دليل حي على أن وراء الطبيعة علماً وقدرته لا متناهية تهدي وتقود كل موجود في مسيرة حياته. نعم كل هذا دليل على من لا دليل له.

٩ - ويحتم الحديث بكلام ورد عن الإمام الصادق عليه السلام طبعاً لما جاء في (توحيد المفضل)، حيث يقول عليه السلام: «فكر يا مقصّل في خلقه عجيبة جعلت في السمائم، لمّا هم يوارون أنفسهم إذا ماتوا كما يوارى الناس موتاهم، وإلا فأي حيف هذه الوحوش والسمائم وغيرها لا يرى منها شيء؟ وليست قليلة فتخفى لقلتها، بل لو قال قائل: إنها أكثر من الناس لصدق، فاعتبر ذلك بما تراه في الصحاري والجبال من أسراب الطيور والسمائم والحمير والوعول والأبائل وغير ذلك من الوحوش، وأصناف السمائم من الأسود والضباع والذئاب والنمور وغيرها، وضروب الهوام والحشرات ودواب الأرض. وكذلك أسراب الطيور من الغربان والقطا والأوز والكراكي والحمائم وسمائم الطيور جميعاً وكلها لا يرى منها شيء مات إلا الواحد بعد الواحد يصيده فأنص أو يفترسه سبع...»^١.

✽✽✽

١. بحار الأنوار، ج ٣، ص ٩٩ (مع شيء من الاختصار).



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

٦- آياته في حالتَي النوم واليقظة

تمهيد:

لم يقتصر القرآن الكريم على إشارته إلى لموضوعات المهمة جداً كخلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، وروح الإنسان، بصفتها آيات وبراهين من الله تعالى فحسب، بل نراه أحياناً يتعمد إلى المسائل العادية في نظريتنا أيضاً، لكي يوضح لنا أن ليس هناك شيء عادي في هذا العالم، فكأنها آياتٌ حتى كبيرة كانت أم صغيرة، وبراهين عظيمة على علم وقدره الباري تعالى

ومن بين هذه الأمور التي نُعدُّ عادةً حسب الظاهر، هي حالتا النوم واليقظة اللتان استند إليهما القرآن الكريم على وجه الخصوص.

بهذا التمهيد نقرأ خاتمين الآيات الكريمة لآية:

١- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآتِئَاتُكُمْ مِنْ قَضِيهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

(الروم / ٢٣)

يَسْمَعُونَ﴾.

٢- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾.

(المزمل / ٤٧)

(البأ / ٩- ١٠)

٣- ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا • وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾

٤- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾.

(الأنفال / ١١)

شرح للمفردات:

حينما يتطرق بعض أرباب قواميس اللغة إلى مصطلح «النوم» يقولون إنَّ له مفهوماً معروفاً^١.

إلا أنَّ الراغب يقول في كتاب المفردات:

النوم: قُسر على أوجه كلها صحيح بطُرت مختلفة. قيل هو استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، وقيل هو أن يتوقى الله النفس من غير موت. قال: «الله يتوقى الانفس» الآية، وقيل النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل^٢.

و«الشَّعْس»: «على وزن غبار» ويعني اسوم القليل والخفيف، وفُسر بعض على أنَّه بداية النوم، وهنا حيث يكون النوم خفيفاً في بدنه فإنَّ كلا المعنيين يعودان إلى حقيقة واحدة.

و«السَّبات»: مأخوذة من مادة «سَبَت» (على وزن تَبَت) أي «القطع»، ولهذا سُمِّيَ يوم السبت بهذا الاسم في لغة العرب، حيث كان يوماً لتعطيل الأعمال من أجل الراحة، ومثلاً يظهر أنَّ هذه التسمية مستوحاة من أفكار اليهود حيث يعتبرون يوم السبت عطلة لهم، وهذا ما يعتقد به اليهود، إذ يقولون إنَّ الله تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وانتهى بعد ستة أيام فكان يوم السبت نهاية لخلق البشر وللراحة، ولا شيء يعلم أنَّ هذا من الأخطاء العاصحة لليهود، لأنَّه في الوقت الذي لم تكن هناك سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر لم يكن هناك وجود لليوم والأسبوع أيضاً وحسبما يقول القرآن الكريم: «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» فالمقصود «ست مراحل»

وكلمة «السبت» جاءت بمعنى الراحة أيضاً^٣

❦❦❦

جمع لآيات وتفسيرها**النوم من آيات الله:**

في الآية الأولى من البحث يُعدُّ لقرآن الكريم يوم الإنسان في الليل والنهار أحدَ

١. لسان العرب ج ١٢، ص ٥٩٥، مادة (نوم).

٢. لسان العرب، مادة (نوم).

٣. مفردات الراغب: مجمع البحرين، لسان العرب

البراهين على علم وقدره الله تعالى فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ». وهو في نهاية الآية يؤكد هذا البرهان «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ». ومتأ لا شك فيه أن الكائنات الحية كافة تحتاج إلى الراحة لتحديد قواها، واكتساب الطاقة اللازمة لاستمرار مشاطاتها الحياتية، اراحة التي تلاحقهم تلقائياً، وتجبّر حتى الذين يعرضون على عدم التمتع بها.

فأي عامل أفضل من النوم يمكن أن يفكر به من أجل تحقيق هذا الهدف حيث يلاحق الإنسان بشكل إجباري ويضطره لايقاف جميع نشاطاته الجسمية، بل حتى بعض من نشاطاته الفكرية الأساسية، وفي النتيجة يعط في راحة عميقة، وخلال هذه الفترة تقوم أجهزة الجسم بإعادة البناء والاستعداد للسمي والحركة من جديد.

ومتأ لا شك فيه أن الإنسان لولا النوم، فإنه يدهل ويئلف، ويصير العَجَزُ والانكسار بسرعة. لذلك فقد قالوا إِنَّ التَّوَمَ الْمُعْتَدِلَ وَلاَ اسْتِقْرَارَ سُرِّ السَّلاَمَةِ وَطَوَّلَ الْعُمُرَ وَحَيَوِيَّةَ الشَّابِّ.

واللطيف أن الآية التي نبحثها وضعت «النوم» و«إيتاء فضل الله» في مقابل بعضهما، وحسب قول بعض المفسرين أن الأول هو علامة الموت والثاني علامة القيامة إن تعبير «إيتاء فضل الله» يشير إلى نقطة ظرفية وهي أن سعي وجهد الإنسان في حياته من المسائل ذات الأهمية، وكذلك العسل الإلهي، والجمع بين الاثنين يجعل الإنسان يستفيد من مواهب هذا العالم.

وهنا توجد نقطة جديرة بالاهتمام أيضاً حيث ذكرت الآية أعلاه النوم بالليل إضافة إلى النوم بالليل: «مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»، في لوقت الذي يُعتبر النوم مختصاً بالليل فقط حيث تؤكد آيات القرآن الكريم هذا المعنى، لا أن بعض الظروف التي تطرأ في حياة الإنسان تجبره على أن يسهر الليل وينام النهار، ويلاحظ هذا الأمر كثيراً في السفر ليلاً، وفي المناطق الحارة جداً حيث تتوقف النشاطات النهارية بسبب حرارة الجو ويكون العمل فقط أثناء الليل.

وفي عصرنا الراهن حيث تكون الكثير من المؤسسات الصناعية، ومعامل صناعة الأدوية مضطرة للعمل ليلاً ونهاراً، إذ من الصعوبة إيقاف العمل، متأ يدفع المال إلى تقسيم

أعمالهم إلى ثلاث وجبات يومياً، تنتضح حاجة إلى النوم في النهار أكثر من أي وقت آخر.

والآن.. فلو لم يكن برنامج تنظيم النوم بيد الإنسان، ولم يتيسر النوم نهاراً بدلاً عن الليل، فمن المسلم به أن مشكلات كبيرة ستعرض حياته.

❦❦❦

وفي الآية الثانية بعد ذكر: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِيَسَءَ﴾ يشير إلى مسألة النوم حيث يقول تعالى: ﴿وَالنُّوْمَ سُبَاتًا﴾

ومن الممكن أن يكون تعبير «هو الذي» إشارة إلى الجانب التوحيدي لهذه الأمور، فكل منها دليل على الذات المقدسة، أو جانب الانعام كي يعرف الإنسان ولي نعمته، ومن المسلم به أن الإشارة إلى ولي النعمة ستكون مقدمة لمعرفة أيضاً.

واللطيف أنه يقول بعد ذلك ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ تَشْوَرًا﴾^١

أحل.. فهي وصح النهار تنتشر الروح ويستيقظ الإنسان بشكل كامل، إذ لا يحلو من شبهه بشور يوم القيامة والحياة ما بعد الموت.

وهذا الاحتمال ممكن أيضاً، حيث يشير إلى انتشار الناس في ميدان الحياة وحركتهم نحو مقاصدهم المماشية المختلفة، ويهدأ فن أجراس النوم والراحة تفرع مع حلول الظلام، وتندى هذه الأجراس في النهوض مع بروج شمس.

وفي الآية الثالثة تكرر هذا المعنى باختصار طفيف إذ يقول ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا • وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسَءَ﴾، فكما يصور اللباس لإنسان من الاحطار ويكون له دوراً في سلامته فإن ظلام الليل له مثل هذا الأثر.

❦❦❦

وفي الآية الرابعة والأخيرة في هذا البحث، وحسبما يتحدث القرآن الكريم عن وقائع غزوة بدر يشير إلى أن أحدي نعم الله على المؤمنين في تلك الليلة التاريخية كانت ﴿إِذْ

١. تأملوا جيداً أن «الشور» معنى لمصدر، و«السبات» معنى لمصدر أيضاً أو اسم مصدر، وإطلاقهما على الليل والنهار يفيد المبالغة والتأكيد.

يُفَشِّحُكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَهُ مِنْهُ».

لقد كان هذا النومُ الرغيدُ سبباً في تجديد قوهم والاستعداد للمعركة العاصمة في ساحة المعركة بيدرس صباحاً، وبخاصة بعد قطع تلك المسافة الطويلة إلى حديما، تلك المعركة التي انتهت بنصر مبين للمسلمين.

ولعلَّ تعبير «النَّعَاسُ» إشارة إلى عدم استحواد النوم العميق عليهم بالرغم من تمتعهم بالراحة، كي لا يستغل العدو الوضع السائد ويبعثهم ليلاً، ولهذا كانت حقيقة ذلك النوم نعمة وكيفية نعمة أخرى.

على أية حال، فإن الآية أعلاه تعبر تأكيداً على أثر لنوم على أعصاب وجسم وروح الإنسان أيضاً، وتجديد الطاقات من أجل مثابرة أكثر وجهاد أكثر فاعلية في كافة المراحل.

85098

توضيح

قاهرة النوم الخفية:

مع أن «النوم» و«الرؤيا» تعتبر بالنسبة لباأمرأ عادية، إلا أن العلماء لم يوصلوا إلى عمق هاتين الظاهرتين المهمتين بالرغم مما يدور من مساع وجهود. فأي قنل واهالات تطرأ على جسم الإنسان ليتوقف فجأة القسم الأعظم من نشاطاته الحسية والروحية؟ وبحصل هذا التغيير في جميع أحرأ حسمه وروحه كذلك، فلا يفهم شيئاً ولا يبدي أي حركة ويستلقي جاباً كالبيت، ولو عرفت الدنيا بأكملها فهو نائم لا يدرى.

ومع كل هذه التوضيحات والآراء والمرصيات التي قيلت في هذا المجال، فقد حافظ النوم على صورته المدهشة

والأكثر عجباً من ذلك مسألة (الرؤيا)، التي تُعدُّ من الألغاز العظيمة كروح الإنسان. وطبعاً أن الحديث المفصل بصدد حقيقة وسرار هاتين الظاهرتين خارج عن موضوع بحثنا، لأن العاية من بحث الآيات المذكورة هي بيان المصافح الكثيرة، والقوائد التي لا تُحصى للنوم من جاسب ومن جانب آخر كونه نعمة من نعم الله

فالنوم المعتدل دائماً يعتبر دليلاً على سلامة روح وأعصاب الإنسان، لذلك فإن أهم أسئلة الأطباء للمصابين بالأمراض النفسية تدور حول كيفية نومهم.

فلا تتوقف الأجهزة الأساسية في جسم الإنسان كالقلب والرئة أثناء النوم، لكنها تعمل بهدوء أكثر، ويصبح دوران الدم في الأعضاء أكثر تناسقاً، ويتوقف نشاط الدماغ تقريباً، وتستقر جميع العضلات أيضاً، فتؤدي كل هذه الأمور إلى حصول هذه الأعضاء على فرصة لتجديد بناء بنائها.

وخلال النوم تُزال سموم الجسم، وتُعالج كثير من الأمراض. لقد أورد «روخلين» في كتابه (الرؤيا في نظر بافلوف) بحثاً تحت عنوان (العلاج بالنوم العميق) قائلاً:

«بناءً على فرصة «بافلوف» فإن النوم عبارة عن ظاهرة توقف من أجل الصيانة وتحديد القوى، وعليه فيمكن استغلاله كعامل للعلاج من الأمراض المختلفة، وتؤدي التجارب اليومية دور النوم في ذلك أيضاً».

ثم يضيف: «إن النوم العميق الطويل مؤثر على تحسن صحة المريض، لأن المريض ينام أكثر من المجهود بعد مرهين طويل من أجل استعادة قواهم وسلامتهم».

ويقول: «لقد وُجد العلاج عن طريق نوم رواجاً واسعاً في الاتحاد السوفيتي، وقد استخدمت هذه الطريقة لأول مرة لمعالجة (جيمون الشهاب) «الشيزوفرينيا» الذي يعتبر من الأمراض النفسية الشائعة».

ويقول في جانب آخر من حديثه: «من الحصول على نتيجة مرضية لعلاج المصابين بارتفاع ضغط الدم عن طريق النوم العميق.. فالنوم الطويل الذي هو حالة من الراحة الكاملة للمخ، يُحدد قدرة الجهاز العصبي ويوازن تنظيم نشاط الأعضاء الداخلية، ويترك أثراً إيجابياً مساعداً للوضع العام للإنسان»^١

أجل؛ فالذي خلق الإنسان سالماً من أجل السعي والنشاط، وضع جميع وسائل ذلك تحت تصرفه، وأحدها نظام النوم واليقظة، نظام الذي تبرز فيه بكل وضوح براهين حكمية الباري عز وجل.

١. النوم في نظر بافلوف، ص ١١٢-١١٦ (مع الاختصار)

٧ - آياته في بساط السماوات والأرض

تمهيد:

بعد أن ذكرنا آيات (الانفس) نتجه صوب آيات الآفاق:

لقد كان النظر إلى السماوات والأرض على مدوام دعاً لتفكير الإنسان، وكلما تطور علم الإنسان تعاظم العالم السماواتي ذو الأسرار العجيبة في بطنه، فلو قيسَتْ عظمة السماوات في نظر علماء اليوم مع ما مضى لكنت «كالقطرة» إلى «البحر»، وليس معلوماً أن يكون «العد» كذلك في قياسه مع «ليوم».

فماذا يجري في هذه المظومة والمحركات للكبيرة، واسحوم الثابتة والسيارة؟ وما هي

العوالم الموحودة فيها؟

وإلى أيّ زمان يعود تاريخ ظهورها؟

وهل هناك من يسكن فيها؟ وإذا كان كذلك فهل أن حياتهم تشبه حياتنا أم يختلفون

عنا؟

هذه الأسئلة وعشرات أخرى تشمل فكر كلِّ إنسان باحث ومتحصى في أمر السماوات

يقول علماء العصر إننا اليوم نرى نجوماً في السماء قد احتضت من الوجود قبل آلاف

السنين وربما قبل ملايين السنين، وهذا يعود إلى الفاصلة الخارقة بينها وبيننا، وأنّ تورها

قد بدأ حركته منذ آلاف أو ملايين السنين وما رر في طريقه إلينا، فإذا كان الميدان الحقيقي

للسماء هكذا - وهو كذلك -، فالإني أيّ حدٍ يخفف مع ما براه اليوم؟ ليس هناك من يستطيع

الإجابة عن هذا التساؤل!

هذه التساؤلات وأمثالها كثيرة حيث يصعب الإجابة عنها من قبل العلماء .
لقد أصبحنا أمام مثل هذا العالم المملوء بالأسرار، عظمتُهُ من جانب، والنظام والتقنين
اللذان يسودانه من جانب آخر، تكشف، تستار عن القدرة والعلم اللامتناهي لمن له اليد في
هذا الخلق.

بعد هذا التمهيد نقرأ حاشعين الآيات شريفة الآية .

١ - ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ﴾
(آل عمران / ١٩٠)

٢ - ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ... لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ﴾
(البقرة / ١٦٤)

٣ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾
(الروم / ٢٢)

٤ - ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾
(الجاثية / ٣)

٥ - ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

(العنكبوت / ٤٤)

٦ - ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾
(يونس / ٣)

٧ - ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ حَرَّ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ
فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾
(العنكبوت / ٦١)

٨ - ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
(عافر / ٥٧)

٩ - ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
(ابراهيم / ١٠)

١٠ - ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ قَرَشْنَاهَا فَتَنَعَمُ الْعَاكِدُونَ﴾
(الذاريات / ٤٧-٤٨)

١١ - ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾. (الأنبياء / ٣٢)

١٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾. (الرعد / ٢)



شرح للمفردات:

لكلمة «الخلق» معيان كما يقول صاحب «مفاتيح اللغة»، أحدهما تقدير الأشياء، والآخر النقي والمسطح.

ويقول الرابع في المفردات: «الخلق» أصله التقدير، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أبداعهما بدلالة قوله: ﴿يَدْبِغُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.. وليس الخلق الذي هو الإبداع، لأن الله تعالى، ولذلك قال في الفصل بيده تعالى وبه غيره: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله تعالى لعبارة «في بعض الأحوال»، وتستعمل هذه المفردة في الكذب أيضاً (وربما اطلق على الكذب بسبب احتلاق و إيجاد موضوع ما في فكر السامع)¹.

ويقول ابن منظور في «لسان العرب»: الخلق في كلام العرب إبداع الشيء على مثال لم يسبق إليه.

وعليه. أن كلمة الخلق تعني في الأصل انتقير والتنظيم وسقية الأشياء، إلا أنها أستخدمت فيما بعد بمعنى الإبداع والإيجاد وتعبير هيئة الأشياء بالنحو الذي يتبادر هذا المعنى الآن.

ومعنى «السما» استناداً إلى ما قاله علماء لغة، الشيء الذي يرتفع عالياً، لذلك فإن البعض يعتقد أن لها صفة السبيبة حيث يمكن أن تكون سببة شيء، إلى شيء آخر كالسما إلى الأرض، واشتق «الاسم» من هذه المادة أيضاً لأن التسمية عامل في رفعة وسمو مقام المسمى.

١. مفردات الراغب، ص ١٥٨.

واستناداً إلى كلام مؤلف «التحقيق» فإن السماء قد تكون ملموسة ومادية كما في: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» أو معوية كما في: «قَدْ تَرَى ثَقْلَكَ وَتَجْهَلُ فِي السَّمَاءِ».

ويقول «لبن منظور» في «لسان العرب» أيضاً السمو تعني الارتفاع والعلو^١ وبناءً على ذلك فإن كلمة السماء لا تعني هذه السماء فقط بل أي نحو من الارتفاع والعلو، ولكنها جاءت في الآيات انتزاعية في هذا البحث بشكل عام بمعنى السماء. وتطلق «الأرض» في الأصل على الجزء الأسفل لكل شيء قبالة «السماء» التي هي الجزء الأعلى لكل شيء. قال هذا الكلام صاحب «مقاييس اللغة». ويقول الرابع في تعبير مشابه: الأرض هي الجرم الذي يقابل السماء، ويعبر عن أسفل كل شيء به الأرض.

وورد في كتاب «التحقيق» أن الأرض لها اسميات متعددة بعضها أوسع من بعضها الآخر، فهي تطلق على المسكر، والمحل، ولقرية، والمدية، والبلد، والكره الأرضية، وما تحت السماء، وحتى ما موجود في عالم الحسم وتحت عالم الأرواح، حيث يقال لكل منها «أرض». وفي هذه المعاهيم يلاحظ فيدان هما الانخفاض، ومقابلة الارتفاع «أرضة» (على وزن حذقة) وتعني نحشة التي تخرج من الأرض وتأكل الخشب واللطف هو أن أحد معاني «الأرض» هو مرض الزكام، والآخر هو «الترضة» ولعل السبب في ذلك أن هذه الأمراض تُعقد الإنسان وتحلده إلى الأرض^٢.



١. في كتاب «العين» للخليل بن أحمد ذكرت «سماء» بمعنى الارتفاع أيضاً، ص ٣٩١

٢. مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم، ص ٧١٢ وص ١١٣.

جمع الآيات وتفسيرها

ارتفاع السماء آية حق!

الحديث في أول آية من البحث هو عن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار اللذين يحصلان نتيجة دوران لأرض حول نفسها مقابل الشمس إذ يقول تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

وكما أوضحنا في بحوث المعرفة في المجدد الأول من هذا التفسير فإن «الألباب» جمع «كُتِبَ» أي العقل الصافي والعميق، نعم فَمَنْ لَهُمْ مِثْلَ هَذِهِ الْقَوْلِ وَالْأَلْبَابِ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرَوْا آيَاتٍ وَبَرَاهِينٍ كَثِيرَةً عَنِ انْفِذَةِ الْإِبْهَةِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، واختلاف الليل والنهار، وليس آية واحدة أو برهاناً واحداً فقط

واللطف ما جاء في الرواية المشهورة الواردة في الكثير من التفاسير في تفسير هذه الآية حيث ورد فيها: قال ابن عمر: **قد كنت لعائشة أخبرني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ، فبكيت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى الصق حله بهجدي، ثم قال لي يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عياده ربي؟ فقلت يا رسول الله إني لأحب قريبك وأحب مرءك قد دنت لك، فقام إلى قربة ماء في البهت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بليت الأرض، فأتاه بلال يؤذن لصلاة الغداة فراه يبكي، فقال: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟**

فقال ﷺ: يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً، ثم قال ما لي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم قال: **«ويل لمن نراها ولم يشكر فيها»**^١. صحيح أن كل من ينظر إلى السماوات والأحرام السماوية يهتدي إلى آيات من آيات الله تعالى، إلا أن ذوي العقول والألباب يستعيدون أكثر من سواهم، فهؤلاء يَرَوْنَ آثارَ قدرة الله

١ تفسير روح البیان: ج ٣، ص ٣٨٤؛ تفسير الكبير ٩ ص ١٣٤؛ وتفسير روح المعاني، ج ١٤٠٤، تفسير

القرطبي، ج ٢، ص ١٥٥٢ وتفسير أخرى

تعالى في كل مكان من السماء، فهم يجدون في خلق كل منظومة، وكل مجرّة، وفي حركاتها المنظمة العجيبة أسراراً لم يجدها سوى أولي الألباب.

وما بلغت النظر أنّ ذكر في الآية الثانية «قَوْمٌ يَقْلُقُونَ» بدلاً من «أولى الألباب»، وفي الآية الثالثة «عالمين»، والرابعة والخامسة «مؤمنين».

وفي الحقيقة، كما ورد من تفصيل سابق في بحث (مصادر ومجالات المعرفة) في المجلد الأول من هذا التفسير فإنّ كلّا من الحيرات أعلاه (الألباب، التعقل، العلم، والإيمان) تعتبر أرضية مناسبة للمعرفة والاطلاع بشكل أكثر عن آيات الله.

وهذه مسألة جدية بالاهتمام حيث يصف القرآن الكريم «أولى الألباب» الذين تُفْتَحُ أمامهم أبواب معرفة الله من خلال متابعه خلق السماوات والأرض إذ يقول تعالى: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُهُودِهِمْ وَهُمْ يُسْكِرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا» (آل عمران / ١٩١)

أي أنّ ذكر الله أولاً، والتفكير تالياً، والتأمل في الهدف من الخلق ثالثاً، يُدْهَمُ كل ذلك على عظمة الخالق جلّ وعلا.

وعلى هذا الأساس فإنّ تلك العلماء لطيفة في معرفة الله سبحانه وتعالى بالرغم من معرفتهم لدقائق الأمور في هذا الوجود يعود إلى أنّهم اعتمدوا في بحوثهم على دراسة المعلول والمخلوق ولم يهتموا بدراسة علته لتعقل وخلق الوجود والهدف من الخلق.

XXXX

وكما في الآية الأولى فقد وردت مسألة خلق السماوات والأرض في الآية الثانية، إلى جانب اختلاف الليل والنهار، أي مجيء وذهاب الليل والنهار (أو اختلافهما التدريجي على مدى فصول السنة)، حيث يمثل ذلك إحدى الطواهر البارزة في السماوات والأرض، إذ يسود النظام الدقيق هذه الظاهرة منذ أرمّة طويلة، ويمكن تحديد لحظة شروق الشمس وعروبها قبل حصولهما، والحدود الدقيقة بين النهار في كل فصل وكلّ زمان من السنة،

ولأي بقعة من بقاع الأرض ، وتعلم جيداً بأنه أيسر يوحد نظاماً دقيقاً فإنه يكمن وراءه علم وعقل ولبّ مدبرٌ .



وفي الآية الثالثة ذكر مسألة اختلاف الألسن والألوان، التي هي من آيات الأنفس، إلى جانب مسألة خلق السماوات والأرض التي هي من آيات الآفاق، حيث يقول تعالى : **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَالِدَاتُ﴾** .

وقد يكون اختلاف الألسن والألوان بمعنى اختلاف اللغات التي يتكلم بها الناس ، وألوان وجوههم ، أو بمعنى لحن أصواتهم وسلوب حياتهم ، وتفكيرهم وأذواقهم ، وقابليتهم ، أو جميعها ، فهذا التنوع العجيب الذي يكون وسيلة لتعرف الناس على بعضهم ، وإلى عدم خلو أي من المناصب الاجتماعية ، من جلال النظام الدقيق الذي يسوده ، لا يعصل عن النظام العجيب السائد في السماوات والأرض بل يربطان معاً ، وكل دليل على عظمة وقدره وندبر الدات المقدسة ، عز وجل .



وتشير الايتان الرابعه والخامسة إلى خلق السماوات والأرض فقط ، وتَعْلَهُ من آيات الله ، لأنّ ممّا لا ريب فيه أنّ هذا الخلق لعظيم هو من آيات الله البينات ، غير أنّ الآية الخامسة استندت إلى مسألة التقنيين والهدف من هذا الخلق وبيانه من خلال تعبير «**بالحق**» .



وفي الآية السادسة طرح موضوع جديد لا وهو خلق السماوات والأرض في ستة أيام . إذ يقول تعالى : **﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾** .

وقد ورد ذكر خلق السماوات والأرض في ستة أيام في سبع آيات من القرآن الكريم^١. وهذا يُبرهن على أن (القرآن الكريم) يولي اهتماماً خاصاً لمسألة الخلق التدريجي للعالم، وهو بناته دليلٌ آخر على عظمة المعاني جلّ وعلا.

ومع أن بعضَ الماديين غير الواعين وبسبب عدم معرفتهم لمعنى «اليوم»، انتقدوا مثل هذه الآيات واستهزؤوا بها^٢ حيث إنهم يعتقدون أن «اليوم» هنا بمعنى بياض النهار أو (الأربع وعشرين ساعة). إلا أن الجميع يعمسون اليوم بهذا المعنى هو ناتج من حركة الأرض وضوء الشمس، وعندما لم يكن وجودُ السماوات والأرض لم يكن هناك مفهوم لليل والنهار بهذه الهيئة.

مقدّمٌ هؤلاء عن هذه المسألة وهي أن كلمة «اليوم» وما يماثلها في بقية اللغات لها معاني مختلفة من حيث المفهوم والاستعمالات اليومية، فمعها ما يعني «المرحلة» وقد تكون هذه المرحلة قصيرة أو طويلة جداً كما يقول الرابع في كتاب (المفردات) الذي هو من الكتب اللغوية المعروفة اليوم يُعبرُ به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يُعبر به عن مدة من الزمان أي مدة كانت.

ويقول في الاستعمالات اليومية، إن الدس كانوا في يوم ما يسافرون على ظهور الحيوانات، واليوم بوسائط العمل السريعة، وكلا هذين التعبيرين (يوم، واليوم) إشارة إلى حقيقة طويلة، ونقرأ في الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلم بأنَّ النهر يومان: يومٌ لك ويومٌ عليك»^٣.

بل إن الدنيا كلها عُدَّت يوماً واحداً، وكذلك كل الآخرة في بعض العبارات، فيقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وإنَّ اليومَ عملٌ بلا حساب، وغداً حسابٌ بلا عمل». والبيتان المعروفان عن الشاعر كليم الكاشاني تعبير لطيف في هذا المجال، وهذه ترجمتهما العربية:

١ الفرقان، ٥٦: السجدة، ٤: ق، ٣٨: الحديد، ٤: الاعراف، ٥٤: هود، ٧.

٢. المدية التاريخية، ص ٨٧.

٣. نهج البلاغة، الرسالة ٧٢.

إِنَّ الْحَيَاةَ سَيِّئَةٌ الصَّيْتُ يَوْمَانِ لَيْسَ أَكْثَرَ (كَلِيم)

فَيَوْمٌ مَرَّ بِتَعَلَّى الْقَلْبِ بِهَذَا وَذَلِكَ

وعليه فإنَّ المقصود من خلق السماوات والأرض في ستة أيَّام هو ست مراحل، وقد تمتد كلُّ مرحلة من هذه المراحل ملايين أو آلاف الملايين من السنين، ومن الواضح عدم توفر أيِّ دليلٍ يعارض هذا التحديد من الناحية العلمية^١

ولكن من المحتمل أن تكون هذه المراحل ست حسب التسلسل الآتي:

١ - مرحلة كانَّ العالمُ كلُّه فيها مجاميعَ عظيمةٍ جدًّا من الغازات التي تدور حول نفسها.

٢ - مرحلة انفصال هذه الغازات عن بعضها، ولدوران حول محور المجموعة المركزية

٣ - المرحلة التي فيها شكَّلت بعض هذه المجاميع بسبب دورانها حول نفسها منظومات

كمظومات الشمسية

٤ - المرحلة التي تكونت فيها الأرض واستعدَّت للحياة، وظهرت عليها المياه،

وبكونت البحار.

٥ - مرحلة ظهور الأشجار والنباتات وتهيئة الأقوات والأطعمة على الأرض.

٦ - مرحلة ظهور الحيوانات وبعدها الإنسان على الأرض

والمسألة الجديرة بالاهتمام هي أنَّ من بين الآيات السبع التي بيَّنت خلق السماوات

والأرض في ستة أيَّام، تمت الإشارة في أربع آياتٍ منها فقط إلى خلق السماوات والأرض

في ستة أيَّام^٢.

وفي ثلاث آيات ورد خلق السماوات والأرض وما بينهما^٣.

وفي آية واحدة فقط أُشير بشكلٍ عامٍ إلى تفصيل هذه المراحل الست، فمرحلتان لخلق

١ ذكر أيضاً في كتاب القاموس المقدس الذي هو شرح لمعاهيم التوراة والانجيل، شرح فيما يخص خلق

السماوات والأرض في ستة أيَّام حيث يشبه ما ورد أعلاه في بعض الجوانب بالرغم من اختلافه ببعض التفاصيل

كاستراحة الله في اليوم السابع (القاموس المقدس، ص ٨٤ كلمة الخلق)

٢. الحديد ١٤: الأعراف، ١٥٤: يوس، ٣: وهود، ٧

٣ الفرقان، ١٥٩: المسجدة، ٣٠٤: ق، ٣٨

الأرض، وأربعة مراحل لإيجاد النباتات وحيوانات. ﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ... وَقَدَرُ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾.
(فصلت / ٩ - ١٠)

بناءً على ذلك، فإن المراحل الست أعلاه تتعلق بخلق السماوات والأرض وموجوداتهما المتنوعة^١.



وتقول الآية السابعة من البحث إن هذا المعنى مسلم به حتى لدى الوثنيين وهو، إن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض، ومسخر الشمس والقمر، وأن هؤلاء يفهمون أن هذا العالم الجبار والنظام العجيب لا يمكن أن يكون من خلق الأصنام، بل إن صميرهم يحكم بأنه من خلق الله العالم العادر ﴿وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَنَسَخَرُ الشُّجَشَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

وعليه فليس العلماء والمفكرين وحدهم الذين يصلون إلى معرفة الذات الإلهية المقدسة من خلال التفكير بأسرار العلو، وإنما الوثنيون الجهلاء كذلك يعرفون بشكل عام الذات المقدسة من خلال مشاهدة هذا الطم بالرغم من أنهم يتبنون في واد من الشرك بسبب الخرافات والجهل المحيط بهم.



ومع أن الآية الثامنة تقصد مسألة المعاد وقيامه بدلالة الآيات التي تليها وتقول إن القادر على خلق السماوات والأرض بهذه لعظمة، قادر على أن يحيي الموتى، لأن خلق السماوات والأرض أصعب وأعقد من خلق لإنسان، لكنها مع ذلك دليل واضح على مسألة معرفة الله أيضاً، لأن وجود الإنسان بل وحتى عضو واحد من أعضائه جسمه كالعين والاذن،

١ ومن للتوصيح أكثر في هذا المجال يراجع التفسير الأمثل ذيل الآيات ٥٤ الاعراف ١ و ١٠ فصلت).

بل حتى بناء خلية واحدة من خلايا هذه الأعضاء بكل ما فيها من التعقيد والابهام والأسرار والأنظمة يمكن أن يكون من آيات الله تعالى، بناءً على ذلك فإن (خلق السماء والأرض الذي هو أكبر وأعظم من خلق الإنسان أوضح برهان على عظمة الله تعالى) ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾

ومن المؤكد أن خلق الإنسان إذا ما قيس مع كل جرم من أجزاء هذا العالم فإنه يرجع عليه، إلا أنه إذا قيس بكل السماوات الواسعة والأرض، فمن المسلم به أن السماوات والأرض يرجع خلقها على خلق الإنسان.

والظريف أن القرآن الكريم حينما جاء بهذا التصريح لم يكن للناس حينذاك - ولا سيما المتحلمين في الحجارة - معرفة بعظمة السماوات، ولعلهم كانوا يظنون أن السماء سقف أزرق اللون قريب منهم، وقد تم تشبيهه بواسطة مسامر قصية وهي النجوم

أجل... إنا اليوم ندرك جيداً المفهوم الصحيح لهذه الآية، لأن العلماء تفحصوا هذه السماء الواسعة من خلال المراصد الفلكية العملاقة، وقد رَوَدُوا بأسرار وعجائب مذهلة عن عظمتها والنظام السائد فيها، ومن أين يدري أن ما يشاهدونه اليوم لا يبلغ معشار عظمة هذا العالم، ولعل هذه الحقيقة تنصح عدداً لئلا، لهد يقول تعالى في آخر الآية: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^١.

وفي الآية التاسعة تم جمع دورة كاملة من دروس التوحيد ومعرفة الله في استفهام إنكاري حيث يقول: ﴿أَفَبَى لَوْ شَكَ قَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

والجدير بالاهتمام هنا أن كلمة «قاطر» تعني المشيق، وجاء استخدام هذا التعبير إما بسبب تمزيق حجاب العدم والظلمة أثناء خلق لسماوات والأرض وإشراق نور الوجود في

١. ما معنى «لا يعلمون» هنا؟ هناك احتمالات مختلفة، أولاً هو أن الناس يجهلون عظمتها قياساً مع الإنسان، والآخر أنهم يجهلون القدرة الإلهية اللامتناهية والثالث، أنهم يجهلون قدرته على مسألة المعاد، أو يعلمون، وحيث إنهم لا يعصمون عن علمهم هذا، هم في حكم الجهلاء (ولكن لا يستبعد أن تجتمع كل المعاني الثلاثة الأولى في الآية وكما قالوا بأن حذف المتعلق دليل على العنوم)

خلق السماوات والأرض، أو إشارة إلى ما يُعرف اليوم لدى علماء الفلك حيث إن جميع هذه الأجرام والمنظومات كانت في اليوم الأول على هيئة مجموعة كبيرة مرتبطة ببعضها، وانفصلت عن المركز نتيجة لحركتها حول نفسها وتأثير القوة الدافعة لها عن المركز، والقوت بقطع منها إلى الخارج وطهرت المنظومات والمجرات الثابتة والسيارة^١.

على أية حال، سواء كان المشركون هم المخاطبون في هذه الآية أو منكرو وجود الله تعالى، أو كلاهما، فإنه يسعاد من هذه الآية لكمية هذه الحقيقة، وهي أن التمتع في خلق السماوات والأرض يكفي لأن يقتنع كل سوي من أنواع الشك والريب في وجود الله ووحدانيته وقدرته من قلب الإنسان.



ويشير في الآية العاشرة إلى خاصية أخرى من خصائص السماء والأرض إذ يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾^٢ فمن المسلم به أن خلق مثل هذه العوالم الجبارة يستلزم قدرة مناسبة له، وهي قدرة الباري عز وجل وحدها.

ويضيف فيما بعد ﴿وَأَنَا لَمُوسِعُونَ﴾.

وبالرغم من أن بعض المفسرين اعتبروا ذلك بمعنى توسع الرزق عن طريق هطول المطر وغيره^٣ لكن يبدو أن للآية معان بالغة الأهمية والدقة، حيث اتضح ذلك لعلماء عصرنا الحاضر، وقد أميط اللثام عن معجزة من المعجزات العلمية للقرآن، وهي أن العالم في حال اتساع وبصورة مستمرة، وأن النجوم والمجرات والأجرام تبعد عن بعضها بشكل سريع.

١. يقول الراجز في الممرات: «فطر» على وزن «شتر» أي الشق طولياً، ثم جاءت بمعنى الإيجاد والإبداع، و«يطر» (على وزن يشر) نسي الاضطر وترك الصيام، وكان الصيام ينطر، (والعطرة تعني الخلقة وهي مأخوذة من هذه العادة أيضاً).

٢. وقد فسر بعض المفسرين لفظة (موسعون) بمعنى (قادرون)، أيضاً، لأنه مرادة (الوسع) تأتي أحياناً بمعنى «القدرة»، أمّا مفهوم «التوسيع» فهو أوضح.

يقول أحد العلماء المعروفين ويُدعى (جورج غاموق) في كتابه (بداية ونهاية العالم) :
 « يُمَرُّ فضاء الكون الذي يتألف من مليارات المجرات بحالة من الامتداد السريع ، والحقيقة
 هي أن عالمنا ليس ثابتاً بل إن اتساعه مُسَلَّمٌ به ، والوقوف على كون عالمنا يمرُّ بحالة من
 الاتساع يعني لنا المفتاح الحقيقي لكنوز أسرار لنظرية الكونية ، ولو أن العالمَ يُمَرُّ اليومَ
 بحالة من الاتساع والامتداد فهذا يعني أنه كان يمرُّ بحالة من الانكماش الشديد في عابر
 الأزمان »^١.

ومتى يبحث على الدهشة أن هذا التوسع يسيرُ سريعاً بالقدر الذي يقول عنه (هورد
 موفل) في كتاب (حدود النجوم) « لقد تم قياس أقصى سرعة لتباعد الكرات حتى الآن بما
 يعارب ٦٦ ألف كيلو متر في الثانية ، وتُدَلُّ الصور الملتقطة عن السماء على هذا الاكتشاف
 المهم بوضوح ، حيث إن الفاصلة بين لمجرات النائية تتصاعف بسرعة أكثر من المجرات
 القريبة »^٢.

فأي قوة عظيمة تكمن وراء هذه الأجرام والمنظومات الختارة حيث تُبعدُها عن مركز
 العالم بهذه السرعة النادرة من دون أن تتلاشى على إثر هذه الحركة ؟
 ثم يشير إلى الأرض فيقول : « وَالْأَرْضُ قَرَشْنَاهَا قَبْعَمَ الْمَاهِدُونَ »
 فالتعبير بـ « القرش » من ناحية ، و « الماهد » من مادة (مهد) من ناحية أخرى ، إشارة
 إلى التغييرات الكثيرة التي حصلت منذ بداية تكوين لأرض ، وتهيتها لحياة الإنسان ،
 وجعلها كالمهد أو فراش الراحة .

كل هذه دلائل على ذلك العلم والقدرة الأزلية



ونقرأ في الآية الحادية عشرة تعبيراً جديداً حول خلق السماء إذ يقول : « وَجَعَلْنَا
 السَّمَاءَ سَافَاً مَحْفُوظًا » .

١. بداية ونهاية العالم ، ص ٧٧ (مع الاختصار)

٢. حدود النجوم ، ص ٣٣٨

فهل هناك سماء في العالم على هيئة سقف يُحفظ من نفوذ الكائنات الخارجية ؟ نعم .. فالسماء هنا يمكن أن تكون إشارة إلى الغطاء الذي يحيط بالأرض ويبلغ سمكه مئات الكيلو مترات، فهذه الطبقة التي تتألف من بهواء المصفوظ اللطيف وبقية الغازات المحيطة بجوانب الكرة الأرضية على هيئة سقفٍ دثري، قوية بالقدر الذي يصفها بعض العلماء بأن لها مقاومة بقدر سقف فولاذي بسُمك عشرة أمتار، وهي لا تمنع نفوذ الاشعاعات المدمرة محسب، بل تمنع سقوط الصخور الفضائية التي تتجذب نحو الأرض باستمرار، لاصطدامها بهذه الطبقة الجوية بسرعتها الحارقة، فتكون مانعاً لحركة تلك الصخور، كما ويؤدي هذا الاصطدام إلى احتراق تلك الصخور وانصهرها

فلو لم تكن هذه الطبقة الجوية العظيمة لأصبح أهل الأرض عُرضةً للملايين من قدائف الصخور الفضائية الصغيرة والكبيرة ببلّ نهار، فماذا سيحصل ؟ وهل يكون هناك وجود للاستقرار في «مهد الأرض» ؟ وهل سيكون اسم المهد والعرفد لاتقاً بها ؟ لا ضير أن نقرأ هذا الكلام الوارد على لسان عالم معروف يُدعى (فرانك آلن) حيث يقول في كتابه (النجوم للجميع) : «إنّ الجو الذي تنفّس من الغازات التي تحفظ الحياة على سطح الأرض له من المقدار والسُمك «بحدود ٨٠٠ كم» بحيث يستطيع أن يكون كالدرع للأرض يصونها من شر اصطدام ٢٠ مليون صخرة فضائية مدمرة تبلغ سرعتها ٥٠ كيلو متراً في الثانية يومياً»^١.

صحيح أن وزن بعض هذه الشهب التي تتدطر نحو الأرض يعادل $\frac{1}{1000000}$ من الغرام إلا أن القوة الناتجة عن سرعتها تعادل قوة انطلاق ذرات القنبلة النووية ١٠٠٠٠ وقد يبلغ حجم ووزن بعض هذه الشهب مقداراً كبيراً بحيث تجتاز هذه الطبقة وتصيب الأرض، ومن الشهب التي اجتازت الغلاف الغازي ووصلت إلى الأرض شهاب «سبير» العظيم المعروف الذي أصاب الأرض عام ١٩٠٨ م وكان قطره يقدر كبير حيث احتل (٤٠ كم) تقريباً من الأرض، وأدى إلى حدوث اصراعٍ جسيمة «وكان الله تعالى يُنذّرنا بهذا

الأسلوب.. لتتصور حالتنا فيما لو تعرضنا لتقصص نصخور لسماوية يومياً».
 فلو كان الغلاف الجوي حول الأرض بشكل رقيق جداً هو عليه «لأصابنا الأرض يومياً
 عدة ملايين من الأجرام السماوية والشهب الثابتة، كما يقول (غرسى موريس) مؤلف كتاب
 (سر الخلق) «ولم تعد الأرض صالحة للحياة»^١
 ولا ينبغي طبعاً نسيان الآثار المدمرة الناتجة عن اصطدام الأشعة فوق البنفسجية
 بالأرض في حالة عدم وجود هذا الغلاف فهي أكثر بكثير من أخطار آثار هذه الصخور،
 ولعل هذا الأمر كان السبب في أن يقول الباري تعالى في نهاية الآية: «وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا
 مُعْرِضُونَ».



ويشير في الآية الثانية عشرة والأخيرة إلى خاصية أخرى من خصائص السماوات،
 وهي من المعجزات العلمية للعران الكريم إذ يقول «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
 تَرَوْنَهَا»

ويبرهن هذا التعبير على أن للسماوات عموداً إلا أنه غير قابل للرؤية، فهو عمود غير
 مرئي، فأي شيء يمكن أن يكون هذا العمود سوى توارن قانون «الجذب» و«الدفع»، أي
 «القوة الدافعة المركزية»؟ أحل إن تعادل الجذب والدفع هذا هو عمود قوي بحيث يرفع
 جميع كرات المنظومة الشمسية وبقية المنظومات في مداراتها بإحكام، مع أنه غير مرئي.
 كما ويمنع تساقطها على بعضها، أو الابتعاد عن بعضها فيختل نظامها.

وينتهي الانتباه إلى أن «عَمَدَهُ» (على وزن صعد) اسم جمع من مادة «عمود»، ولو أراد
 القرآن أن يقول «إن السماء مرفوعة بلا عمد»، لكان يكفي أن يقول «رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ
 عَمَدٍ»، إلا أن إضافة عبارة «تَرَوْنَهَا» يدل على أن المقصود هو سفي الأعمدة المرئية،
 ويستلزم ذلك إثبات العمود اللامرئي.

١. سر خلق الإنسان، ص ٢٤

لذلك نقرأ في الحديث المشهور عن الإمام الرضا عليه السلام حيث كان يتحدث إلى بعض الجهلاء الذين كانوا يقولون إن السماء بلا عمود، فقال الإمام عليه السلام: «سبحان الله ليس الله يقول بغير حتمٍ ثرونها»، ويجب ذلك الشك بنعم، فيقول الإمام عليه السلام مباشرة: «ثم عمده ولكن لا ثرونها»^١.

وقد روي هذا المعنى بتعبير «عمود من نور» في حديث شيعي لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدن التي في الأرض مبروطة كل مدينة إلى عمود من نور»^٢.

والذي يشير الانتباه هنا هو بالرغم من أن قانون الجذب والدفع لم يكس مذكوراً في تعاسير القدماء والسالفين، فإن منهم من هجر الآية كما ذكرنا آنفاً، حيث قال بوجود عمود غير منظور للسماء، بالرغم من أن البعض عثر عن هذا العمود غير المنظور بقدره الله^٣ على أية حال، فهذه إحدى آيات الله العظيمة حيث رفع السموات بهذه الأعمدة القوية غير المنظورة، والأنظمة المهيمنة على قانون الجذب والدفع، بحيث لو فصل أقل تعبير في هذه المعادلة، فسوف يحتل توازنها أو تصادم فيما بينها بشدة وتحتفي أو تبتعد نهائياً وينفصم الارتباط بينها.



النتيجة:

مع أن الآيات المتعلقة بخلق السموات والأرض في القرآن الكريم ليست محصورة بما أوردناه آنفاً، وإذا تقرر أن تبحث كموضوع مستقل تحت عنوان: «السماء والأرض في

١. تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٧٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ٩١، تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٢٧٩.

٣. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٤٧؛ تفسير روح المعاني، ج ١٣، ص ٧٨؛ تفسير الكبير، ج ١٨، ص ٢٣٢ و تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٢٥٠٨.

القرآن الكريم» فإنها تؤلف كتاباً مستقلاً^١، لأننا اخترنا هذه الآيات الاثني عشرة من بينها وأوردناها، ومن المؤمل أن يفتح هذا البحث - أي بحث معرفة الله وآياته وجوده في هذا العالم الكبير - الطريق أمامنا، ويوضح لنا بأن في هذا الخلق العظيم دلائل وإقنعة للسائرين في طريق الله، يُمكنهم من خلال التمعن في هذا الكتاب العظيم المليء بالأسرار أن يزدادوا قرباً منه، وتُملاً أوعية قلوبهم وأنفسهم من حُبِّه أكثر فأكثر، فيرددون هذا الكلام القرآني باستمرار: ﴿وَرَبُّنَا مَا خَلَقَ هَذَا بَاطِلًا﴾!

توضيحات

١ - عظمة ووُسعة السجودات

لا عِلْمَ لأحدٍ بحدود سعة وامتداد السماوات، إنَّ الشيء الذي يعلمه هو أنه كلما ازداد علم وتفكير الإنسان وتطور فإنَّ عظمة السماوات يهولُ تكون في مطره أكبر وسوف يكشف أبعاداً جديدة عن عظمة السماوات وأسرارها، ويقول آخر معلومات علماء الفلك بهذا الخصوص:

«إنَّ منظومتنا الشمسية ترتبط بـ «مربح الثبات» التي هي في الواقع إحدى المجرات، وقد توصل العلماء في بحوثهم إلى أنها تتألف من مائة مليار نجمة أحداها شمسنا هذه والتي تُعتبر أوسطها حجماً (لا تتسنى أن الشمس أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرّة)، وإذا صرّ بها هذا العدد بمائة تصبح النتيجة مائة مليون مليار، أي أن حجم مجموع كرات هذه المجرة يعادل الكرة الأرضية بهذا المقدار».

وإذا أضفنا هذا العدد إلى العدد الذي اكتشفه العلماء في هذا العالم وفقاً لبحوثهم، وهو مليار مجرة على الأقل، يفقُّ العقل والعلم البشري متحيراً أمام عظمة الاله الذي خلق هذا العالم اللامتناهي، (تفحصوا الأرقام أعلاه وتفكروا في عظمتها)

علماً أن هذه الأعداد والأرقام هي ضمن حدود علم وإطلاع البشر في الوقت الحاضر،

١. في القرآن الكريم ذُكرت «السماء» أكثر من ثلاثمائة مرّة بصيغة مفردة أو جمع (السفوات)

وليس واضحاً ما سيُكتشف من معالم جديدة في المستقبل »

وهناك شهادة عظيمة جداً لمرصد (بالومار) بخصوص عظمة السماوات حيث يقول :

«في الوقت الذي لم تتم صناعة عدسة مرصد (بالومار) العملاق لم تكن سعة الدنيا حسب علمنا أكثر من ٥٠٠ سنة ضوئية (و المقصود من السنة الضوئية هو مقدار المسافة التي يقطعها الضوء بسرعة ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية خلال سنة واحدة، وثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية تعني الدور حول الأرض سبع مرات خلال طريقة عين) .

ونرى هذه العدسة صاغت دنيانا إلى ألف مليون سنة ضوئية، وفي النتيجة تم اكتشاف الملايين من المجرات الجديدة، حيث يبعد بعضها عنّا مليار سنة ضوئية، ولكن هناك فضاء عظيمًا مهيبًا ومظلمًا بحيث لم يُر شيء من خلاله أبداً ويبعد ألف مليون سنة ضوئية ... إلا أن متلا شك فيه هو وجود مئات الملايين من المجرات في ذلك الفضاء المهيب المظلم حيث تُصان الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرات، ويُعتقد أن هذه الدنيا العظيمة التي نراها ليست سوى درة صغيرة متناهية من عالم أعظم، ولما نقطع بعدم وجود عالم آخر في مكان آخر من الدنيا^١ .



٢- اللذة العجيبة في القولون التي تحكم السماء والأرض

من المعروف أنه كلما تعاظمت الموجودات فلابد من أن تتصامل دقة القوانين السائدة فيها، بينما لا يصدق هذا المعنى على هذا العالم الشاسع أبداً، أي أنه مع عظمته وسعته العجيبة وإثارته للجدل، فهو ذو أنظمة دقيقة وظريفة، ومن أجل إدراك هذه الحقيقة يكفينا الالتفات إلى المسائل الآتية :

(نحن نعلم أن الإنسان قد أفصح في نهاية المطاف أن يُرل سمية القضاء بطاقم يتألف من شخصين في البقعة التي حددها العلماء في كوكب القمر، ثم عادا إلى الأرض (تأمل

جيداً ..) فعلى مدى الأيام الثلاثة التي قصتها انسينة في قطع المسافة بين الأرض والقمر، كانت الأرض تدور حول نفسها وتغير مكانها في السماء حول الشمس، وكوكب القمر كان يدور حول نفسه وحول الأرض أيضاً، فكم يجب أن تكون هذه الحركات مُنظمة ودقيقة ومحبوكة وثابتة بحيث يستطيع العلماء أن يحسبوا حساب هذه الحركات ويقدروها من خلال العقول الالكترونية حتى تحط سمينة لمصاء في المكان الذي حددوه على سطح كوكب القمر، ومن ثم المكان الذي عيَّوه لعودتها إلى كوكب الأرض؟ فإذا اختلفت إحدى هذه الحركات وتداخلت فيما بينها ونقصت أو ازدادت مقدار ثانية واحدة فمن المسلم به أن حسابات العلماء سترتكب ويكون عملهم غير ناجح

أحل، إن نظام عالم الوجود الدقيق هو الذي سمح للإنسان فرصة القيام بمثل هذا العمل، أي الهبوط على سطح كوكب القمر وفي المكان الذي حددته
(١) يستطيع علماء العدك أن يحسبوا ويقدروا أحداث المستقبل التي تتعلق بدلتا الخسوف والكسوف في الكرة الأرضية قبل عشرات السنين، وعدد ساعات الليل والنهار وشروق وغروب الشمس ويزرع وأقول نسهر، وهذا يعود إلى التسليم الدقيق لحركاتها ليس إلا.

ج) كما اشرنا سابقاً أن قوة الجاذبية تجذب لأجرام السماوية نحو بعضها، بيد أن القوة الدافعة التي تحصل من حركة الدوران والتي تسمى بالقوة الطاردة تبعدها عن بعضها فإذا أريد أن تتحرك الكرة في مدارها ملايين السنين حركة دقيقة وفي مدار معين فيجب أن تتوازن هاتان القوتان تماماً، وهذا ما نعرفه أيضاً حيث إن الجاذبية تتناسب طردياً مع حجم الموجودات، وعكسياً مع الجذر التربيعي للمسافة بينها (فلو ازداد الحجم فإن الجاذبية تتضاعف، وإذا تضاعفت المسافات تصعب الجاذبية طبقاً للمعادلة أعلاه).

وبناءً على ذلك فمن أجل أن تدور الأرض حول الشمس لمدة طويلة جداً في مدار ثابت، ينبغي أن يكون حجم الشمس والأرض وكذلك المسافة بينهما، وسرعة حركة الأرض حول الشمس وفق حساب دقيق، كي يتم التوازن بينهما، وهذه المسائل ليست ممكنة دون تدخل من عالم ذو علم غير متناهٍ وعقلٍ مدبر.

٣- السموات السبع

مايلفت النظر هو أنَّ الحديث عن (السموات السبع) ورد في سبع آيات من القرآن الكريم^١.

وتقت الإشارة في إحدى هذه الآيات إلى طبقات الأرض السبع أيضاً، حيث يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. (الطلاق / ١٢)

ومن بين جميع التفسيرات المختلفة التي ذكرت عن السموات السبع، يظهر أنَّ التفسير الصحيح هو أنَّ المقصود من «السموات السبع» هو المعنى الحقيقي للسموات السبع، أي السماء لا تعني الكرات، بل مجموعة النجوم والكواكب في العالم العلوي، والمقصود من العدد (سبعة) هو الرقم المعروف، وليس هو للكثرة.

إنَّه ما يظهر من الآيات الأخرى هو أنَّ كل ما نراه من نجوم ثابتة، وستارة، ومجرات، وسحب يتعلق (بالمجموعة السماوية الأولى) وعليه فهناك ست مجاميع عظيمة أخرى (ست سموات) تلي هذه المجموعة العظيمة، حيث إنَّ بعضها أكبر من البعض الآخر، وتلك حارجة عن متناول علم الإنسان (لحد الآن على الأقل)^٢.

تقرأ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾. (الصافات / ٦)
وجاء في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِتَصَايِغٍ﴾ (فصلت / ١٢)

وورد هذا المعنى أيضاً باختلاف طفيف في الآية الخامسة من سورة الملوك. والجدير بالذكر أنَّ المرحوم العلامة المحسني قد ذكر هذا الاحتمال كأحد التفسيرات لهذه الآية إذ يقول: «الثالث، ما خطر بالبال انقصر، وهو أن تكون جميع الافلاك الثمانية التي أثبتوها لجميع الكواكب فلماً واحداً مسمى بالسماء الدنيا»^٣.

١ البقرة، ٢٩؛ الاسراء، ٤٤؛ المؤمنون، ٨٦؛ فصلت، ١٢؛ الطلاق، ١٢؛ الملوك، ٣؛ يوحنا، ١٥ (واشهر في آيتين المؤمنين، ١٧؛ النبا، ١٢) إلى (سبع طرائق) وسبباً شديداً أيضاً حيث يمكن أن يكونا إشارة إلى السموات السبع أيضاً

٢ بهار الأنوار، ج ٥٨، ص ٧٨.

صحيحٌ أنَّ معدّاتنا العلمية الحديثة لم تكشف بحجب عن العوالم الستة الأخرى غير أنَّه ليس هنالك من دليل ينفيها من الساحة العلمية بوضوح، ويحتمل أن يكشف النقاب عن هذا السر في المستقبل.

بل يظهر من اكتشافات بعض علماء الفلك أنَّ هناك الآن براهين تلوح في الأفق عن وجود عوالم أخرى شبيهة لما نقلناه آنفاً عن مرصد (بالومار) الشهير فيما يتعلق بحظمة العالم، ويكرر الجملة التي تشهد على كلامنا هذا «تم اكتشاف الملايين من المجرات الجديدة حيث يبعد بعضها عنّا مليار سنة ضوئية، لكن هناك فضاء عظيماً مهيباً ومظلماً لم يُرَ أيُّ شيء من خلاله أبداً ويبعد مسافة مليار سنة ضوئية، إلا أن مقالاً شك فيه وجود مئات الملايين من المجرات في ذلك الفضاء المهيب المظلم، حيث تصان الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرات، ويُعتقد أنَّ هذه الدنيا العظيمة التي براها ليست سوى ذرّة صغيرة متناهية من عالم أعظم، ولنسأله قطعاً بعدم وجود عالم آخر في مكان آخر من الدنيا»^١. يقول أحد العلماء في مقال كسب حول حظمة بعالم الوجود، بعد ذكر المسافات الهائلة والمذهلة للمجرات، وبيان الأرقام المدهشة المحددة طبقاً إلى السنة الضوئية ما يأتي: «لا زال السجّتون يعتقدون أنَّهم لم يقطعوا سوى منتصف طريق ما يمكن رؤيته من العالم العظيم، ولا زال عليهم اكتشاف قصائد آخر غير مكتشفة»^٢. وعليه فإنَّ العوالم التي تكشّفت للبشر لحدّ الآن مع عظمتها ما هي إلا زاوية صغيرة من هذا العالم الكبير، وتصلح للمطابقة مع مسألة سموات سبع^٣.

٤ - لِمَ لَا تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟!

إنَّ كثرة ووفرة آيات الله في عرض السموات، وجمال السماء في الليل، دَفَّحَ القرآن

١ مجلة الفضاء، العدد ٥٦ غروردين ١٣٥٦.

٢ مجلة (نيو ويك) السنة ١٩٦٤ (لا ينبغي أن ننسى إنَّ هذه الشهادة تعود إلى ما قبل ٢٤ سنة).

٣ من أجل المزيد من الإيضاح حول التفسير المختلفة التي ذكرت فيما يخص السموات السبع، يُراجع التفسير الامثل (دليل الآية ٢٩ من سورة البقرة).

الكريم والأحاديث إلى دعوة الناس بأسرهم وحصص المؤمنين منهم إلى التفكير في السموات من أجل كسب المزيد من الإيمان، فيقول القرآن الكريم في الآية ٦ من سورة ق: ﴿أَقْلَمُ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بُنِيَهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ١.

وقد أشرت الروايات «المستفيظين في الاسفار» خاصة، أن ينظروا إلى السماء أولاً حين ينهضون «لصلاة الليل»، وأن يقرأوا الآيات الأخيرة من سورة آل عمران التي تنعكس فيها جميع هذه الحقائق بحسب عرفاني: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...» ثم يتوجهون نحو العبادة (حيث يتمليء الدعاء بعطر التوحيد ومعرفة الله) ٢.

وَرَوَى أَنَّ السَّيِّدَ ﷺ حِينَ كَانَ يَسْتَقِظُ لِمَلَاةِ اللَّيْلِ يَبْتَدِيءُ بِالنَّسْوَاكِ ثُمَّ يَلْقَى نَظْرَةً عَلَى السَّمَاءِ، وَيَرُدُّ هَذِهِ الْآيَاتِ ٣.

وورد في صفات أمير المؤمنين ﷺ أيضاً عن أحد أصحابه ويدعى (حبة العرني) حيث قال: «بيننا أنا ونوف (أحد أصحاب الإمام علي عليه السلام) نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمر المؤمنين ﷺ في بقية من الليل، وأحسنا يده على الحائط شبيه الواله، وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية، قال: ثم جعل يقرأ هذه الآيات ويمر شبه الطائر عقله، فقال لي: أراقد أنت يا حبة أم راقق؟ قال: قلت راقق هذا أنت تعمل هذا انصمل فكيف نحن؟ فأرخى عينيه فبكى، ثم قال لي: يا حبة، إن الله موقفاً ولنا بين يديه موقف لا يحفى عليه شيء من أعمالنا، يا حبة إن الله أقرب إليّ واليك من حبل الوريد، يا حبة إنه لن يحببني ولا ياك عن الله شيء...» ٤.



١. تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٥٤ الآيات الأخيرة من سورة آل عمران.

٢. المصدر السابق.

٣. بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢٢.

٨ - آياته في خلق الشمس والقمر والنجوم

تمهيد:

مع أن الشمس والقمر تُعدان من كواكب وكرات السماء، وقد تمّ الحديث بشكل منفصلٍ عن عظمة السموات، ولكن لقرّيبهما من كرتنا الأرضية فإنّ لهما تأثيرات جيّة على حياتنا، وقد أشار القرآن الكريم إليهما بشكل خاص، ووصف كلا منهما بآية عظيمة من آيات الله، وإشار إلى القوائد الخاصة للنجوم إذ غيرها من آيات الله، وأنّ التخصّص في كلٍ منها لا سيما في ظل اكتشافات العصر من الممكن أن يوضح لنا عظمة الباري تعالى من جهة وعظمة تعاليم القرآن الكريم من جهة أخرى.

وبعد التمهيد المختصر نتأمل حاشين في آيات الشريفة الآتية:

- ١ - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَّةَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (يوس / ٥)
- ٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ وَكَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾. (نوح / ١٥ و ١٦)
- ٣ - ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾. (إبراهيم / ٢٣)
- ٤ - ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. (فاطر / ١٣)
- ٥ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. (فصلت / ٣٧)
- ٦ - ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ

حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ • لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

٦- «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

(الأنبياء / ٣٣)

٨- «فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَائِدُونَ».

(المعارج / ٤٠)

٩- «كَلَّا وَالْقَمَرَ • وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ • وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ • إِنَّهَا لَإِحدى الْكُتُبِ».

(المدثر / ٣٢-٣٥)

١٠- «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

(الأنعام / ٩٧)

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

القسم بالشمس والقمر والنجوم:

بالرغم من أن زمان نزول الآيات المتعلقة بالشمس والقمر كان في وقت لا يملك فيه الإنسان إلا القليل من المعلومات عن هذين نكوتين العظيمين، وتقرن نزول هذه الآيات مع شيوخ الفرائعات الكثيرة «وبالأخص في مهد نزول هذه الآيات» بالرغم من كل ذلك فإن القرآن أشار إلى القمر والشمس والنجوم بعظمة ملفنة للطر، وذكر الكثير من خصوصياتها وبشكل عام فإن القرآن اعتبرها من آيات تحقق الإلهية والبراهين على إثبات الذات المقدسة.

فيقول تعالى في الآية الأولى التي نبحثها: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا».

يقول بعض أرباب اللغة (ومنهم الطبرسي في مجمع البحرين) وعدد من المفسرين، إن الفرق بين «الضياء» و«النور» هو أن «الضياء» يطلق على السور الذي ينبعث من ذات

الشيء، ويُطلق النور على الضوء الذي يُكسب من العبر، وعليه فإن الآية أعلاه إشارة لطيفة إلى هذه المسألة حيث إن نور الشمس يطلقُ منها، في الوقت الذي يحصلُ نور القمر عن طريق ضوء الشمس الذي يَشعُ عليه، ويتحدث القرآن الكريم بهذا في زمان لم يكن للناس اطلاعٌ عليه.

ومثلاً لا شك فيه أنه لا يمكنُ انكارُ أن كلاً من هذين المفهومين قد يُستعمل بمعنى اعم من النور «الذاتي» أو «الانكسائي»، ومشاهدة حالات استعمال هذين المفهومين في القرآن الكريم وفي كلام العرب يشهد على ذلك، وقد يكون لهما معيان مختلفان فيما إذا تزامنا معاً، كما جاء في الآية أعلاه.



وورد هذا المعنى في الآية الثانية بتعبير آخر، فنعم الإشارة إلى خلق السموات السبع بصيغ فاعلاً، «وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجاً» وقد عبّر عن الشمس بـ «السراج» في اثنين آخرين من القرآن الكريم أيضاً «الفرقان / ٦١، النبأ / ١٣»، ونحن نعلم أن نور المصباح ينبعث من داخله وليس مُكتسباً من الخارج، وقد جاء في بعض نصوص اللغة أن الضياء أكثر شدة من النور^١، ولعل هذا الاختلاف مُستفاد من الاختلاف الأول ويعود إليه^٢.

على أية حال، فقد أُشير هنا وقبل كل شيء إلى نور «الشمس» و«القمر» كآيات حق من آيات الله وبراهين على قدرته وآلانه جلّ وعلا

فالشمس بضوتها المشرق على الكون لا تقوم بتدفئة وانارة مهد الكائنات في العالم فحسب، بل لها نصيبٌ أساسي في نمو النباتات وحياة الحيوانات.

١ تفسير الكشاف، ج ٢، ص ٣٢٩، وتفسير روح البیان، ج ٤، ص ١٢

٢ ينبغي الانتباه إلى أن «الصب» يأتي بصيغة «المفرد» و«الجمع» أيضاً، ويعتقد بعض المفسرين أن له صيغة الجمع في الآية أعلاه، وأنه إشارة لطيفة إلى تركيب ضوء الشمس من سبعة ألوان

واليوم قد ثبتت هذه الحقيقة، إذ إنَّ كلَّ حركة تُشاهد في الأرض هي من بركات ضوء الشمس، فلو فكّرنا بامعان في حركة الرياح، والعيوم وأمواج البحار وجريان الأنهار، وانشلالات، والحيوانات والناس يوحدناها تسع من ضوء الشمس بدون استثناء.

ولو انطفأت الشمس وانقطعت هذه الأشعة التي تهب الحياة عن الأرض فسَيَعُمُّ الموتُ والسكوتُ والظلامُ كلُّ مكانٍ خلال فترة قصيرة جداً.

كما أنَّ نور القمر الجميل لا يعتبر مصباحاً في ليالينا الحالكة ودليلاً؛ لقاطعي الصحراء ليلاً فقط، بل إنَّ بوزة اللطيف والمناسب يبعث الطمأنينة والنشاط لدى البشر بأسرهم.

ويرى بعضُ المرادعين أنَّ (نور القمر) به دور حساس في نمو الفواكه والنباتات أيضاً وطبعاً أنَّ كلَّ ما ذكرناه يختصُّ بنور الشمس والقمر فقط، وسنقوم ببحث ما يخص بقية بركاتهما بشكلٍ مستقل.

ثم يشير القرآن الكريم في نهاية هذه الآية إلى إحدى البركات والفوائد المهمة لهاتين الكرتين السماويتين حيث يضيف: ﴿وَلَقَدْزُرُهُمْ تَارِيلاً لِّيَنظُرُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾.

فالقمرُ بسيره العظم، وحركته الدقيقة يعتبر تقوِماً واضحاً وحيثاً وطبيعياً للعامة، تسهّل قراءته على العالم والجاهل، ويُسَطِّمُ بمرامح حياته على أساسه، ولو أمعنا التفكير لوحدنا مسألة تنظيم حياة الإنسان ترتبط بقوة بحساب السنين والشهور ووجود تقويم طبيعي، حيث يتكفل القمر والشمس ودور الأرض المنظّم حول نفسها وحول الشمس بانجاز هذا الدور، وأنَّ التقويمات الحالية التي تُطَمِّت استناداً إلى حسابات المنجمين لا تنفع إلا الذين لديهم إمكانيّة فهمها، والتقويم لوحيده المفهوم والمعلوم والمفيد للجميع هو التقويم الطبيعي الذي يتوفر لدينا من حركة قمر، بمدِّ مرحلة (الهلال) وحتى وصوله إلى مرحلة (البدر الكامل)، ومن ثمَّ إلى (المحاق)، ولو تفحص الإنسان قليلاً لاستطاع أنَّ يُحدِّد ليالي الشهر من خلال ملاحظة حجم قمر، لأنَّ القمر لا يستقر على حالٍ واحدة في السماء على مدى ليلتين أبداً، ولعلَّ تنظيم العبادات الإسلامية وفقاً للأشهر القمرية تابعٌ من هذا الأمر.

وكل هذه الدوافع أدت إلى أن يقول القرآن بكریم في نهاية هذه الآية: ﴿يَقْضِلُ الْآيَاتِ لِلْيَوْمِ يُظْلَمُونَ﴾.

والحديث في الآية الثالثة والرابعة عن تسخير الشمس والقمر للإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

يُبدَأُ أَنَّهُ عُبِّرَ فِي الْآيَةِ بِكَلِمَةِ «مُخَلِّقِينَ» أَيْ (الْحَرَكَةُ وَفَعْلًا لُحْدَةً نَاهِيَةً) ^١ وَفِي الْآخَرَى وَرَدَ تَعْيِيرُ «كُلِّ يَجْعَلِي لِأَجَلٍ مُّسْتَقِي» أَيْ «إِنْ كَلَّا مَسْهُمَا يَسْتَمِرُّ فِي حَرَكَتِهِ إِلَى حَدِّ مُعَيَّنٍ».

وهذه الجملة تشير إلى أن حركة الشمس والقمر ستنتهي على المدى البعيد، ويتغير نظام المنظومة الشمسية بعد ملايين السنين، وهذا بعد داته أحد المعجزات العلمية للقرآن الكريم.

وفي الحقيقة أن المقصود بحركة الشمس هو دوران الأرض حول الشمس طبعاً، لأن ما يظهر للمعان أن الشمس هي التي تتحرك حيث إن الأرض في الواقع هي التي توجد هذا الشعور لدى الإنسان. إذ إن الشمس ستتحرك باستمرار مع المنظومة الشمسية داخل المجرات، وسوف تشير إلى ذلك لاحقاً.

والمقصود بتسخير الشمس والقمر وبقيّة الكائنات التي يعتبرها القرآن الكريم مسخرة للإنسان، هو أنها تتحرك في مجال مصالح الإنسان وخدمته، فكما قلنا سابقاً أن لضوء الشمس والقمر دوراً مهماً في حياة الإنسان وكافة الكائنات الحية، لا سيما ضياء الشمس إذ تستحيل الحياة على سطح الأرض بدونه لحظة واحدة، وحتى في الليالي المظلمة فإنا نستفيد من الحرارة المتبقية عن ضوء الشمس في الأرض ونحو ولولاها لانجمدت الكائنات الحية بأسرها، إضافة إلى القوائد الأخرى كالمذ والجرر في المحيطات، فهو مصدر للكثير من الخدمات، وسنشير إلى ذلك في بحث آياته في البحار - إن شاء الله -، وكذلك وضع تقويم طبيعي وخدمات أخرى.

١. «دائمين» من مادة «دَوَّب» وتعني استمرار العمل وفقاً لمدّة وشكّل دائمة وهو تعبير للحركة المنظمة والمتشعبة للشمس والقمر، ولا يُعتقد بوجود تعبير أفضل من هذا للتصير.

وبلا شك فإن ما نعرفه اليوم من بركات الشمس والقمر أكثر مما كان يعرفه السالفون والمحافظون بهذه الآيات عند مزولها، ولهذا فإن دروس التوحيد التي تقرأها على صفحاتها أكثر مما كان يقرأه السابقون، لهذا يقول في نهاية هذه الآية: **إِنْ رَبُّكُمْ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ كُلَّ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ ، أَمَّا الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ فَمَا يَمْلِكُونَ الْحُكْمَ وَالْمُلْكَ فِي هَذَا الْعَالَمِ بِقَدْرِ قَشْرَةِ نَوَاةِ التَّمْرِ . ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَنْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾^١** .

❦❦❦

وقد عبرت الآية الحامسة بصراحة عن حلقي لليل والنهار والشمس والقمر ووصفت هذه الظاهرة بأنها من آياته ، إلا أنه يأثر في نفس الوقت بضرورة عدم الاعتقاد بأن هذه هي الإله كما يتصور عبدة الشمس والقمر كـ... **﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِتَاءَ تَعَهُذُونَ﴾** .

وهنا يرى الدقة التي يتحدث بها القرآن الكريم، إذ إن ذكر القوائد المختلفة للشمس والقمر والليل والنهار وكافة الموجودات في هذا العالم من شأنه أن يترك أثراً في أذهان ذوي العقول الضيقة ويتصورون بأنهم مديون للنعم التي أسبقتها عليهم هذه الموجودات فيسجدون لها ويحضرون ويعظمونها، وهذا ما ابتلى به الوثنيون على مر التاريخ، لكن القرآن يقول لهؤلاء: **اعتصموا أعينكم جيداً وانظروا بدقة وثبوا، وعدوها سترون من وراء الحجب العللي، وسترون الذات القدسية لعنة العدل وعدوها سوف تعرفون جباهكم بالسجود إليه وسوف لن تخذعكم أو تضلکم هذه المظاهر**

❦❦❦

ويتحدث في الآيتين السادسة والسابعة عن حركة الشمس والقمر ومآزلهما، ويصرح

١. «القطمير»، بتفسير بعض المفسرين هو القشر الحبيب الذي يعطي نواة التمر، ويقول البعض إنه النبتة الصغرى الموجود حلف نواة التمر، وعلى أية حال فهو كناية عن موجودات متناهية وصغيرة ودينية

في نهاية هاتين الآيتين بأن كلاً من هذين الجرمين يسبح في فلكه ومداره وخطه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^١. وهذه التعابير من عجائب القرآن من ناحية، ومن عجائب عالم الخلق وعلم وقدره الباري تعالى من ناحية أخرى.

وتوجد هنا عدة تفاسير لما تعنيه جملة ﴿وَالشُّشُ تَجْرِي﴾ ومفهوم ﴿لِئَمْثَقِرَ لَهَا﴾.

الاولى: إنَّ المقصودَ هي الحركة الظاهرية للشمس التي تبدأ منذ شروق الشمس وحتى استقرارها عند الغروب. حيث يظهر لعيان أنها تحتفي (وتعلم جيداً) أنَّ حركة الأرض حول نفسها هي التي تجسّد لنا مثل هذه الظاهرة في الواقع.

الثاني: إنَّ المقصودَ هي حركات لشمس المحورية، حيث تنحرف نحو الجرم الشمالي للكرة الأرضية مع بداية فصل الربيع، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الصيف حيث تستقر (في المصنف الشمالي للكرة الأرضية) بمحاذاة لمدار السرطان ٢٣ شمالاً وهو ما يصطلح عليه بالميل الأعظم الشمالي. ثم تبدأ حركتها نحو الجنوب وتصل إلى محاذاة خط الاستواء أوائل فصل الحريف، ثم تنحرف نحو جنوب الكرة الأرضية، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الشتاء حيث تصل إلى محاذاة مدار رأس الجدي ٢٣ جنوباً ويعتبرون عن هذا الانحراف بالميل الأعظم الجنوبي، ثم تبدأ حركتها نحو الشمال وتكون بمحاذاة خط الاستواء في فصل الربيع.

بناءً على ذلك فإنَّ المقصود من جريان الشمس هو هذا الانحراف نحو الشمال والجنوب، والمقصود من المستقر هو آخر نقطة للانحراف الجنوبي والشمالي أي (مدار رأس السرطان ومدار رأس الجدي).

والمعروف (طبعاً) أنَّ هذه الحركة ناتجة عن دوران الأرض حول الشمس ومع الأخذ بنظر الاعتبار انحراف محور الأرض بمقدار ٢٣، ولكن ما يبدو لنا هو أنَّ الشمس لها مثل هذه الحركة.

الثالث: المقصود هو الحركة الموضعية لشمس حول نفسها، فقد ثبت اليوم أنَّ الشمس

١ «يسبحون» من مادة «سباحة» وتعني الحركة السريعة في الماء أو الهواء (مفردات الراسب)

تدور حول مركزها أيضاً (إذ ذكرُوا أنَّ مدَّة هذه الحركة في دورة كاملة تعادل ٢٥ يوماً ونصف اليوم)، وفي هذه الحالة ستكون الام في «لِئْسَتَقَرَّ لَهَا» بمعنى (نحي) أي أنَّ الشمس تتحرك في مكانها (وطبعاً فقد اشكَّل بعض المفسرين على هذا التفسير باعتباره لا يتناسب مع مفهوم كلمة جريان).

الاربع: المقصود هو حركة الشمس في أهرح السماء على مدى أشهر السنة، والتي تقابل في كل شهر أحد هذه الصور الفلكية الاثنا عشر ومن هنا تظهر السنة باثنتي عشر شهراً بعدد هذه الابراج^١، وعليه فإنَّ المقصود من المستقر هو نهاية هذه الدورة.

الخامس والسادس: الحركتان اللتان اكتشفهما العلماء مؤخراً للشمس، إحداهما مع مجموعة المظومة الشمسية في دورتها حول مجرتنا التي تأخذها باتجاه إحدى الصور الملكية المعروفة بـ (صورة الجاني) الواقعة في جهة الشمال بالنسبة للشمس، إذ تقطع أثناء هذه الحركة أكثر من (٦٠٠ مليون كم سنوياً)، وهذا ما يشبه تماماً جلوس مجموعة في طائرة وانشغالهم بالدوران حول مركز واحد بينما تسير الطائرة بسرعة نحو اتجاه ما، وقد تكون حركة الطائرة هادئة وخفيفة بالمقارنة الذي لا يحس الإنسان بهذه الحركة السريعة

والحركة الأخرى هي دوران المظومة الشمسية مع بقية المجرات حول المركز الأصلي لهذه المجرات التي ترتبط بها، ومما يثير العجب فقد ذكرُوا أنَّ سرعة هذه الحركة المذهلة تقدر بـ ٩٠٠ ألف كيلو متر في الساعة (بل أكثر من ذلك قليلاً)^٢.

وطبقاً لهذا التفسير فإنَّ المقصود من المستقر هو المستقر الذي تهلغه الشمس عند نهاية العالم وحلول القيامة، حينها تصبح الشمس بلا ضياءٍ ويزول نظامها (وطبعاً) لا تتعارض هذه التفسير مع بعضها، فيمكن أن تحتج كل هذه التفسير الستة

١. المقصود من «الهرج» هنا مجموعة النجوم المتجمعة والتي تكون شكلاً خاصاً، والابراج الاثنا عشر كما يلي: الحمل، والثور، والجوزاء، السرطان، الأسد، والمسيح، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت

٢. راجعوا كتاب الموالم البعيدة، ص ٢٩٢؛ وتسخير النجوم، ص ٣٩٢

في مفهوم هذه الآية ، لأن حركة كل من الأرض ولشمس ليست نوعاً واحداً .
وتعبير «يسبحون» تعبیر لطيف حيث يعبر عن حركة لشمس والقمر السريعة والرفيعة
والمتوازنة في نفس الوقت .

وذكر في الآيات أعلاه منازل معينة للقمر حيث قال ﴿ وَالْقَمَرَ قَدْرَ نَازٍ مَنَازِلَ ﴾ .
والمقصود تلك المنازل الثمانية والعشرون التي يطويها القمر كل شهر منذ بداية مرحلة
الهلال وحتى المحاق (الغلام المطلق) ، وهي : السبعة الثمانية والعشرين يظهر ثانية على هيئة
هلال أصفر رفيع جداً وقليل الاشعاع والور ويبقى لستين حيث يقال له (محاق) إذ تتعد
رؤيته

وبشبه القرآن الكريم هلال آخر الشهر بـ «العرجون القديم»^١ ، وهذا التعبير لطيف
وحداب للغاية من عدة وجوه

وبختتم هذا البحث الذي قد طال بعض الشيء بذكر هاتين المسألتين :
/ أولاً : إن المقصود من الملك في الآيات المذكورة هو المعنى اللعوي وليس المعنى الذي
يقصده علماء الملك في قديم الزمان ، لأن الملك في اللغة يعني مدار النجوم ، وأحياناً يقال
لكل موجود يشبه الدائرة ويكون عالياً من أطرافه .

ويعتقد «الراغب» أنها في الأصل من مادة «كلك» (على وزن قفل) والتي تعني
«السفن» ، لأن السفن لها حركات دائرية أثناء مسيرها في البحار

ولكن «المنجمين القدماء» سلكوا بهج بطليموس إذ كانوا يعتقدون أن السماء تتألف من
تسع طبقات مركبة بعضها فوق بعض كقشرة البصل ، ولأن هذه الطبقات تتكون من مادة
شفافة كالبثور فقد التصفت النجوم والكواكب في وسطها وتدور مع دوران الافلاك فيظهر
دوران النجوم فقط ، ولا يظهر شيء من دوران الافلاك ، وقد بطل هذا الاعتقاد بنحو كامل
اليوم ، واصبح من المسلم به أن النجوم معتقة في فضاء غير محدود وتتحرك تحت تأثير

١ «العرجون» من مادة «عرج» أي الاعوجاج والانحاء ، ويصفه البعض بذلك القسم من القوس المسقوس الذي
يتجهن على النحل بعد قطب التمر ، و«القديم» تعني الشقيق

قانون الجذب والدفع في مسيرة معينة، و نعدير بالذكر أن القرآن الكريم نزل في زمان كانت تحكم فيه نظرية بطليموس على جميع المحافل العلمية بكل قوة، إلا أن تعابير القرآن (كالتعبير بـ «الجران» و«السياحة» التي وردت في الآيات أعلاه) لا تتلائم مع النظرية القديمة بأي نحو وتتطابق مع آخر لاكتشفات العلمية في هذا العصر.

❦❦❦

وورد في الآيتين الثامنة والتاسعة (التي تَبَتُّ عَلَى التَّأَمُّلِ فيقول في إحداهما: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾، فيمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى المشارق والمغارب و«المكانية» المختلفة، لأن كروية الأرض تؤدي إلى وجود مشرق ومغرب بعدد نقاط سطح الأرض، أو أن يكون إشارة إلى المشارق والمغارب «الزمانية»، لأننا نعلم أن حركة الأرض حول الشمس تؤدي إلى استعالية ظهور الشمس وغروبها من نقطة واحدة خلال يومين متتاليين.

هذا الاختلاف في المشارق والمغارب الذي يتم من خلال نظام دقيق ومهجي سبب في حدوث «الفصول الأربعة» بما فيها من بركات من جهة، ومن جهة أخرى فهو يؤدي موازنة الحرارة والبرودة والرطوبة على سطح الأرض، ويسمح حياة الإنسان والحيوانات والنباتات نظاماً وترتيباً، وكل منها آية من آيات الله وبرهان من براهينه

وفي مكان آخر يقسم بالقمر «كَلَّا وَالْقَمَرَ • وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ • وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ» ثم يضيف: «أَنَّ هَذِهِ الْإِيمَانُ تُبَيِّنُ عَنْ تَعْدِيرٍ فِي أَمْرِ الْمَعَادِ فيقول: «إِنَّ أَحْدَاثَ الْقِيَامَةِ وَجْهَهُمْ مِنْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ» «إِنَّهَا لَا تَخْدِي الْكَبِيرَ»^١

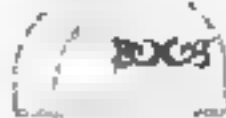
واقسم في بداية سورة الشمس بالشمس والشمس أيضاً، واشعته التي تحيي الأرواح، والقمر الذي يبرز بعد غروب الشمس.

١ يقول القمري الرازي: «إِنَّ جَهَنَّمَ بِهَا سَبْعُ مَقَامَاتٍ وَدَرَكٌ وَهِيَ كَمَا يَدِي، جَهَنَّمَ، وَنُفْلِي، وَالْعَطْلَةُ، وَالسَّحِيرُ، وَسَفَرُ، وَالْجَحِيمُ، وَالْهَائِيَّةُ» (تفسير الكبير، ج ٣٠ ص ٢٠٩)

وهذا ما نفهمه أيضاً بأنَّ القَسَمَ بشيء ما يدلُّ على أهميته الخاصة ، وإذا صدر هذا القَسَمُ عن شخص عظيم ستضاعف أهميته ، وإذا أقسم به من أجل موضوع مهم سترداد أهمية هذا الموضوع أيضاً .

والآن تأملوا جيداً عندما يقسم الباري جلُّ وعلا بالشمس والقمر من أجل مسألة المعاد المهمة ، فهذا دليلٌ على العظمة الفائقة لهدى الكوكبين ، ويشهد على هذه الحقيقة كون أن كلاً من هذين الكوكبين ذو أهمية في نظر القرآن الكريم

فلماذا يُقسم الباري تعالى بكواكب السماء وتلويح النهار من أجل إثبات القيامة والحساب ؟ وذلك لأنَّ السطام الحاكم على هذه الأشياء يبرهن على أن لجميع ذرات العالم حساباً خاصاً ، بناءً على ذلك كيف يمكن أن تكون أعمال الإنسان الذي هو رهرة عالم الوجود بلا حساب ولا كتاب ، ولا وجود للمعاد والمعكمة العادلة ؟



وحاء الآية العاشرة الأخيرة في بحثنا هذا عن نعمة وجود النجوم والسطام الدقيق الذي يحكمها فيقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ثم يضيف : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

لقد كانت النجوم دائماً وعلى مدى مراحل تاريخ من أهم وسائل إرشاد الإنسان في الليالي المظلمة ، حيث كان يهتدي بمساعدتها في أسفاره البحرية والبرية ، حتى أن بعض العلماء يظنون أن الطيور المهاجرة ، أي الطيور التي تقطع آلاف الكيلو مترات في السنة أحياناً ، وبعضها يستمر في طيرانه ليلاً ونهاراً بلا توقف ، تحدد طريقها نهاراً عن طريق الشمس ، وليلاً عن طريق نجوم السماء ، ولهذا فأنها تتوقف عن مواصلة الطيران مؤقتاً إذا كان الجو غائماً تماماً حتى تكشف الغيوم وتظهر السماء والنجوم !

والعجب إن إمكانية تحديد فصول السنة أيضاً من خلال الاستفادة من النجوم على أيّة حال ، فإن هذه الآية تُلَفَّتْ ظَرْفَ كُلِّ لَمَعُوكَيْنِ إلى هذه المسألة وهي أن حركة

النجوم في السماء واستقرارها في هذا الميدان العظيم تتمتع بنظام وحساب خاص، وإلا لما استطاع أي أحد العثور على طريقه في طسمة الليل من دونها.

وهذا النظام يدل على أن الحاقق المدبر قد خُصَّصَ له بكل حكمة، ولهذا فإن النظام السائد على نجوم السماء هو الذي يُحرِّمنا من طلمات الشرك والكفر أيضاً.

ومع تطور علم الفلك، فقد نصح العلماء في تقدير سرعة الكثير من كواكب السماء، وحبسها ومسافاتها وبقية خصائصها، وتوصلوا عن هذا الطريق إلى حقائق جديدة عن هذا النظام العظيم.

صحيحٌ قد تم اختراع آلات ووسائل دقيقة يستطيع الإنسان بمساعدتها أن يعثر على طريقه في البر والبحر، ولكن لا يسمي سبب عدم إمكانيه استخدام جميع المسافرين لهذه الوسائل العلمية المتنوعة، إضافة إلى حدوث الحبل في هذه المعدات والآلات الدقيقة أحياناً مما يسبب الانحراف عن الطريق، فإذا كان الإنسان مطلعاً على مواقع ومواضع النجوم يستطيع من خلال ذلك إصلاح أخطاء هذه المعدات.

ورد في بعض الروايات تفسير آخر لهذه الآية عن أهل البيت (عليهم السلام) يمكن أن يُعد جزءاً من المعاني الباطنية والثابوية لهذه الآية، وذلك أن المقصود من «النجوم» هم العادة الربانئون والأئمة المعصومون الذين يسجدون لهم من ظلمات الحياة كما ورد في تفسير علي بن إبراهيم في بيان معنى الآية «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» حيث قال «النجوم هم آل محمد»، وطبعاً - من المستطاع الجمع بين هذين المعنيين، أي النجوم المادية والنجوم المعنوية واهدية الظاهرية والباطنية.

ۛۛۛۛ

توضيحات

١ - هوية الشمس

لقد اتضح لنا اليوم تقريباً أن الشمس عبدة عن كرة، وأنها أكبر من الأرض بحليون

وثلاثمائة ألف مرة، أي لو كانت الشمس مقررةً نوسط لكان من الممكن أن تستوعب مليوناً وثلاثمائة ألف كرة أرضية! وتتضح هذه العظمة لعددها من خلال التأمل في قطر الشمس عند الوسط الذي يقرب من (مليون وأربعمائة ألف كيلو متر)

وتبلغ المسافة بيننا وبينها ١٥٠ مليون كيلومتراً تقريباً، وأن نورها الذي يقطع طريقه بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية يصل إلينا خلال ٨ دقائق تقريباً.

إِنَّ جُرْمَ الشَّمْسِ الْعَظِيمِ يُوَدِّي إِلَى رِيَادَةِ وَرَرِ الْأَشْيَاءِ فِيهَا. فَمِثْلًا إِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَبْلُغُ وَرَثَهُ ٦٠ كِيلُوغَرَامًا عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ سَيَكُونُ وَزَنُهُ ١٥٠٠ كَعَمَ فِيهَا إِذَا كَانَ عَلَى سَطْحِ الشَّمْسِ ١.

لقد قَدَّرَ العلماء وزن الشمس بما يعادل:

٢٠٠٠

وَأَخِيرَ لَهُمْ يُقَدَّرُونَ عَمْرَ الشَّمْسِ مَهْدٌ تَكُونُهَا بِشِكْمِهَا الْعَاسَى بِمَا يُقَارِبُ ٥ مَلْيَارَاتٍ

إنّ للشمس ثلاثة أنواع من الحركة تقريباً، حركة حول نفسها (كلّ ٢٥ يوماً مرة واحدة تقريباً، وحركة مع المسطومة الشمسية في قلب المجرات نحو الصورة الفلكية (الجالي)، حيث تبعد عن مكانها أكثر من ٦٠٠ كم كل ساعة، وحركة حول مركز المجرات، وتدور حول هذا المركز خلال هذه الحركة مرة واحدة كل ٢٥٠ مليون سنة.

أما حرارة سطح ومركز الشمس فهي عجيبة للغاية، وتبين حسابات العلماء أن حرارة سطح الشمس تعادل ٦٠٠٠ سانتيراد تقريباً، ولا تحصل هذه الحرارة على الأرض في أي مختبر أو فرن أبداً، ودليل ذلك واضح جداً لأن جميع المواد بطيئة الدويان التي نعرفها والتي يمكن بناء فرن منها لا تذوب في مثل هذه الحرارة فقط، بل تصبح بخاراً، ولهذا فإن جميع المواد الموجودة على سطح الشمس دائبة على هيئة بخار.

والأعجب من ذلك حرارة عمقها التي تبلغ ٢ مليون درجة سانتيمرادا وتندلع من سطح الشمس السنة بهران يبلغ ارتفاعها أحيانا ١٦٠ ألف كم، ومن السهولة أن تصيع الكرة

الأرضية فيها (لأن قطر الأرض ليس أكثر من ١٢ ألف كيلو متر)

إن هذه الحرارة لا تحصل بسبب الاحتراق، وإلا لو كان جرم الشمس قد صُنِعَ من الفحم الحجري الغالض لانتَهت تماماً على مدى عدة آلاف من السنين كما يقول «جورج فاصوف» في كتاب «تكوّن وموت الشمس»، ولا يبقى شيء سوى الرماد. فالحقيقة أن مفهوم الاحتراق لا يصدق بخصوص الشمس وما يصدق هو الطاقة الناتجة عن الانشطار النووي، ولكن بهذا الحال وطبقاً للحسابات العلمية فإن كل ثانية تمر على الشمس ينقص من ورنها ٤ ملايين طن، أي إن هذا المقدار من دراتها يتحول إلى طاقة، وبالرغم من أن هذا الأمر ليس له تأثير على المدى القريب، إلا أنه من المسلم به سيساعد في فناء الشمس على المدى البعيد، وهذا ما صرّح به القرآن الكريم في آياته، حيث سيأتي اليوم الذي يطمى هذا الصباح السماوي العظيم المنير



٢- للبركات العظيمة للشمس

مهما تحدثنا حول فوائد وجود هذا النعم السماوي وتأثيره البالغ في حياة الإنسان وبقية موجودات الأرض، فإننا لا نستطيع أن نفي بالعرض، وفي الحقيقة يمكن تأليف كتاب كبير في هذا المجال بالترتيب التالي:

- ١- إن جاذبية الشمس تؤدي إلى دوام استقرار الأرض في دورانها في مدارها الثابت وإلا لسقطت في إحدى زوايا هذا الفضاء ثلاثاً متتالي ككرة مضطربة.
- ٢- إن الحرارة التي تصلنا من الشمس بصورة مباشرة بهاراً والتي مخزن في الأجسام وتنكس علينا ليلاً، لها تأثير في نمو النباتات وديمومة الحركة والحياة لدى الحيوانات.
- ٣- إن الشمس تضع في خدمة الإنسان بوراً سليماً ومجانياً وغير حارٍ أو مُحرقٍ ولا

١. لفتبس من كتب ١- تركيبات الشمس، ٢- نجوم بلا منظار، ٣- تكوّن وموت الشمس، ٤- تاريخ العلوم،

ومن العوالم البعيدة، ٦- الإسلام والهيئة.

باردٍ وخالٍ من الأثر، بشكلٍ دائمٍ، وإذا قدرنا قيمة الطاقة التي نحصل عليها من الشمس مع قيمة مصادر الطاقة الأخرى فلا بد أن تدفع البشرية أموالاً عوضاً عن النور والحرارة التي تستلمها من الشمس مقارنةً مع ثمن « لكهرباء » بمقدار (ملياراً و ٧٠٠ ألف دولار كل ساعة).

عندئذٍ يجب أن نفكر كم سيكون هذه الميراثية على مدى سبة كاملة ؟
وبتعبيرٍ آخر، لو أراد أهل الأرض تأمين الحرارة التي تستعملها إياهم الشمس، عن طريق شراء الفحم الحجري فيجب عليهم توفير ٦٦ ألف مليار طن منه سنوياً، أو بعبارة أخرى توفير ٢٠ ألف طن لكل شخص، أي تأمين ميراثية باهضة.

٣ - نحن نعلم أن ضوء الشمس يتركب من ٧ نوار مُرَجَّت مع بعضها وظهرت على هيئة هذا النور الأبيض والشعاع الحاني، وهذا النور يُعْتَرُ عملاً مساعداً للنباتات حيث يمتص عار ثاسي اوكسيد الكاربون من الجو ويخرج في المقابل غاز الاوكسجين الذي هو عماد حياتنا، فهو مساعد النباتات في نموها ينتج ناسي اوكسيد الكاربون

ونحن نميز الأشياء حسب العادة عن طريق ألوانها وهذه الألوان تحصل في شعاع الشمس، لأن كل موجود يقوم وحسب تكوينه بامتصاص جانب من ألوان الشمس فطلق على اللون الذي لم يمتص لون الشيء، أي أن ورق الأخضر للنباتات يمتص جميع ألوان الشمس عدا اللون الأخضر، إذن صور الشمس هو الذي يظهر جميع الألوان

٤ - إن الأشعة فوق البنفسجية والتي هي من اشعاعات الشمس تُعَبَدُ في القضاء على ٩٠٪ من الجراثيم، وتقوم بدورٍ مع التعرض سحر تام، ولولاها لتبدل الأرض إلى مستشفى كبير، ولعل أشعة الشمس اعتبرت لهذا السبب من المظهرات في الإسلام « مع شروط خاصة طبعاً ».

٥ - لقد استطاع العلماء من خلال استحداثهم للعدسات المحدبة الفحمة من توليد حرارة هائلة بإمكانها تشغيل المصانع المهمّة، وبعل الكثير من المؤسسات الصناعية الحساسة سيتم تشغيلها في المستقبل القريب بالاستفادة من نور الشمس، وتحل الطاقة

الشمسية عندئذ محلّ الكهرباء في البيوت

٦- إنَّ تكونَ الغيوم نتيجةً لسقوط أشعة الشمس على سطح المحيطات وهبوب الرياح نتيجةً لاختلاف درجات الحرارة على الأرض بسبب أشعة الشمس، ثم حركة الغيوم نحو اليابسة وهطول الأمطار التي تبعث الحياة، هي إحدى الفوائد المهمة للعناية بنور وحرارة الشمس.

٧- إنَّ حركة الشمس المنتظمة في أبراج السماء (الصور الملكية) وشروقها وغروبها المنهجي الذي يجري بنظامٍ وتعاقبٍ دقيقٍ ومحسوبٍ على مدى أيام السنة، إضافة إلى مساعدتها في تكوين الفصول المتعددة، فهي تساعد في إيجاد تقويمٍ وحسابٍ منظمٍ للزمان الضروري جداً للحياة الاجتماعية للبشر^١

XXXX



٣- للقمر وهركانه

إنَّ القمر كوكبٌ صغيرٌ سيباً فهو أصغر من الأرض بنحو (٤٩ مرة) وفقاً لحسابات العلماء، لهذا فإنَّ قوة جاذبيته تعادل ١/٦ قوة جاذبية الأرض، ومتوسط بُعده عن الأرض أكثر من ٣٨٤ ألف كيلومتر، لذلك فإنَّ نور القمر يصل إلينا خلال أكثر من ثانية واحدة بقليل، وتبلغ سرعة حركته في دورته حول الأرض كيلو متراً واحداً في الثانية، ويدور حول الأرض مرة واحدة على مدى شهر قمرى واحد أي «أكثر من ٢٩ يوماً بقليل»، ويدور حول نفسه أيضاً مرة واحدة خلال نفس هذه الفترة، وبما أنَّ هاتين الحركتين متناسقتان فإنَّ جانب القمر الذي يقابل الأرض يكون ثابتاً على الدوام، ولا عجب إذا قلنا إنَّ نور القمر حين اكتماله ليلة البدر أقل من ضوء الشمس بـ (٤٦٠) ألف مرة، إلا أنَّ هذا النور الضئيل

١ فكما قلنا إنَّ السبب الرئيسي لحصول هذه الأمور هو في الواقع دوران الأرض حول الشمس، ولكن بما أنَّ حركة الشمس هي التي تُرى كسببٍ لهذا حسب الظاهر فإنَّ القرآن الكريم يعتبر كلا من الشمس والقمر (حسبان) أي (وسيلةً للنظام والحساب) - الأنعام، ٩٦

يضئ الليلالي المقمرة ، ويظهر كمصباح جميل كثيف الشعاع ومُريح للفؤاد وبمظهر شاعري محبب .

ولم تكن الإشارة إلى القمر في الآيات السابقة فقط ، فقد تمت الإشارة إلى القمر وبركاته وفوائده في آيات كثيرة من القرآن الكريم . وورد القسم به في آيات أخرى أيضاً ، وجاء الحديث عن «القمر» في ما مجموعه ٢٧ آية من القرآن الكريم ، وأشير إلى تسخير القمر في سبع آيات من هذه الآيات التي تبين أهمية هونته في حياة البشر^١ .

إن فوائد وبركات القمر كثيرة للغاية . حيث نشر هنا إلى عدد منها .

١ - إن دوران القمر حول الأرض يُشكل تقويمياً طبيعياً لطبيعاً ، وقد مر شرحه في الأبحاث السابقة .

٢ - إن الصياء المناسب الذي يسمعه القمر بالرغم من أنه لا يريل ظلمة الليل كلياً (ولا ينبغي أن يزيلها لأن نفس الظلمة لها فلسفة مهمة) ولكن يمكن أن يساعد الإنسان إلى حد ما في الكثير من الليالي على اكتشاف طريقه في المدن والصحاري والبحار . لا سيما أن دور القمر مناسب وملامح بحيث لا يزعج الإنسان والحيوانات الأخرى أثناء النوم والراحة ليلاً ، بل يشعر الإنسان بأطمئنان خاص من حلال نور القمر .

٣ - إن مسألة المد والجزر في البحار إحدى الآثار البارزة لوجود القمر ، فالذين ذهبوا إلى البحار كان بإمكانهم ملاحظة هذا الأمر في نيل والنهار حيث يرتفع وينخفض مسوب المياه مرتين كل يوم ، ويُعبر عن ذلك بالمد والجزر ، ويستمر كل منهما لمدة ٦ ساعات تقريباً .

فأثناء المد يرتفع مسوب المياه ويغطي معظم سواحل البحر ، وخلال الجزر تنكشف سواحل البحار .

ولهذا المد والجزر فوائد مهمة في حياة البشر منها تراجع مياه الأنهار التي تصب المياه العذبة في البحار مما يؤدي إلى ري الأراضي الواسعة عن طريق ذلك كما يشاهد في بساتين

١ الاعراف، ٥٤: الرعد، ٢: إبراهيم ١٣: البقر ١٢: لقمان، ٢٩: طه، ١٣: الزمر، ٥.

النخيل الساحلية الواسعة في خوزستان.

ومن الفوائد الأخرى للعد والجرر هي حركة المكائش في المصانع وبشاط المولدات الكهربائية، وكذلك الإبحار، حيث إن السفن الكبيرة تستطيع خلال المد أن ترسو في معظم السواحل حيث يتم تحميل وتفريغ حمولتها، وتنظيف الموانئ، وصيد الأسماك، وتحريك مياه البحر وموازنة حرارته ومركباته أيضاً ومور أخرى^١



٤ - الشمس والقمر في كلام الأنفة المعصومين

عندما تقع عين الإمام السجاد عليه السلام على لقمه فهو يحاطبه، وهذه الكلمات درس في التوحيد ومعرفة الله حيث يقول:

«أيها الخلق المطيع! الدائب السريع المشرق في منازل التدبير المتصرف في فلك التدبير، آمنت بمن نور بك الظلم، وأوضح بك الظلم، وجعلك آية من آيات ملكه، وعلامة من علامات سلطانه... سبحانه ما أعجب ما ذكر في أمرك، والطف ما صنع في شأنك جعلك مفتاح شهر حادث لا مرق حادث...»^٢

وفي توحيد المفصل عن الإمام الصادق عليه السلام

«فكر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي النهار والليل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله فلم يكن الناس يسعون في معاشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم ولم يكونوا يتعاونون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه، والإرب في طلوعها ظاهراً مستغن بظهوره عن الإطباب في ذكره، والزيادة في شرحه، بل تأمل المنفعة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة...»

١. اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة، وباترة المعارف بمصاحف وكتب أخرى

٢. بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ١٢٨، ح ٣٦

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما في ذلك من التدبير والمصلحة ...

فكر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنة ... وفي هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الفلات والشعار، وتنتهي إلى عاياتها، ثم تعود فيستأنف النشوء والنمو ...

انظر إلى شروقها على العالم كيف تبرأ أن يكون، فأنها لو كانت تبرز في موضع من السماء فتقف لا تعود لما وصل شعاعها ومنفعتنا إلى كثير من الجبهات .

أفلا يرى الناس كيف أن هذه الأمور الجليلة التي لم تكن عندهم فيها حيلة صارت تجري على مجاريها، لا تعطل ولا تتحلف عن موافقتها لصالح العالم وما فيه بقاؤه؟

استدل بالقمر، ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة في معرفة الشهور، ولا يقوم عليه حساب السنة ... ففكر في انارته في ظلمة الليل والإرباب في ذلك، فأنه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على التربة لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شيء من العمل ولا تنفع بها احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في تضيي الأعمال بالنهار، أو لشدة الحر وإفراطه .. وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض، ونقص مع ذلك من نور الشمس وضياءها لكيلا ينهبط الناس في العمل انبساطهم بالنهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار ..^١

❦❦❦



تجربہ نامہ

٩ - آياته هي خلق الليل والنهار

تمهيد:

بالرغم من أن الليل والنهار من الظواهر التي تحصل نتيجة لصوء الشمس وحركة الأرض، ويعتبران من بركاتهما، لكن نظراً لاهتمام القرآن بهما في آيات التوحيد بشكل خاص، واستناده إلى هاتين الظاهرتين في الكثير من الآيات، لذلك من الواجب الاهتمام بهما بشكل مستقل، كي نرى فيهما آيات تلك الذات مع لمعلومة، وتتعرف أكثر على خالق وإله عالم الوجود، ويزداد حباً له، ويتشرف بالنظر إلى حصرته المقدسة.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاتمة الآيات الاثني عشرة الآتية.

١ - «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» (الانبياء / ٣٣)

٢ - «يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ» (النور / ٤٤)

٣ - «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْهِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

(يؤمنون / ٦٧)

يَسْمَعُونَ».

٤ - «وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» (فصلت / ٣٧)

٥ - «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوُونا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْهِرَةً لِّمَنْ يَعْلَمُوا

(الاسراء / ١٢)

فَضْلًا مِّن رَّبِّكُم وَلِتَعْلَمُوا عَدَّةَ السِّنِينَ وَالْحِسابِ»

(النبا / ١٠ و ١١)

٦ - «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا».

٧ - «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا».

(الفرقان / ٦٢)

٨- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (النحل / ١٢)

٩- ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس / ٦)

١٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلَمَةٍ تَكْمُتُونَ • قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَكْمُتُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ • وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَشْكُرُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص / ٧١-٧٣)

١١- ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى • وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى﴾ (الليل / ١-٢)

١٢- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج / ٦١)



جمع الآيات وتفسيرها

النظام العجيب لليل والنهار:

لقد تكررت كلمة «الليل» في القرآن الكريم أكثر من «٧٠» مرة، وكلمة «النهار» أكثر من «٥٠» مرة، والآيات السابقة تُعتبر نماذج مختلفة لهذه الآيات، حيث تمت الإشارة فيها إلى البعد التوحيدي لخلق الليل والنهار على وجه الخصوص.

وهي الآية الأولى ذُكر أصل خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، اللذين يرتبطان بهما بعلاقة قريبة كبرهانٍ لسالكي خط لتوحيد ومعرفة الله، حيث يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

وجاء هذا المعنى بنحو آخر في الآية الرابعة، إذ يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

في الوقت الذي يقول في الآية الثانية : ﴿ يَتْلُبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةً
لِّأُولَى الْأَبْصَارِ ﴾ .

وقد يكون هذا التعبير في التعبير إشارة إلى حصول الليل والنهار، أو زيادة وتقصان
مقداريهما، أو اختلافهما من حيث البرودة وحرارة الذي يحدث خلالهما^١، ولكن لا مانع
من شمول هذا التعبير كل هذه المعاني أهدأ.



وأشار في الآية الثالثة إلى إحدى فوائد «الليل» و«النهار» المهمة، حيث يقول : ﴿ هُوَ
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾

والواضح أن الاطمئنان في طلعة الليل أحد أهم النعم الإلهية، كما أن نور النهار
الضروري لمختلف النشاطات يعتبر بعمق مهمة أخرى.
والملاحظ في هذه الآية أن النهار اعتبر «مبصرًا» والمبصر في الأصل يعني البصير.
ونحن نعلم أن النهار ليس بصيرًا في نفسه، ولكن بما أنه يؤدي إلى أن يبصر الآخرون، فلعل
هذا التعبير أطلق عليه للتأكيد والمبالغة.

وفي الحقيقة لولا بريق النور فلا فائدة لألف عيني مبصرة، لهذا فهو يضيف في ختام
الآية : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، أي أولئك الذين يستمعون هذه الآيات
ويتفكرون فيها.



في حين أنه يعتبر كلاً من الليل والنهار في الآية الخامسة آية من آيات الله تعالى ويقول :
﴿ فَصَوَّرْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾، ثم يشير إلى عائدتي ذلك حيث يقول :

١ وردت هذه الاحتمالات الثلاثة في تفسير روح المعاني، ج ١٨، ص ١٧٣، وتفسير الكبير ج ٢٤ ص ١٥، ولكن
ذكر التفسير الأول والثاني فقط في تفسير مجمع البیان ج ٢ ص ١٤٨

﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلَتَتَفَلَّحُوا عَذَّةَ النَّارِ وَالْحِسَابِ﴾.

هل أن فوائد النهار تقتصر على ابتغاء فضل الله ومعرفة حساب السنة والشهور من آثار الليل والنهار معاً؟ أم أن كلا المفعولين لهما علاقة وثيقة بالليل والنهار معاً؟ لأن الراحة في الليل لها أثر واضح في إمكانية العمل والابتغاء من فضل الله نهاراً، والظاهر أن المعنى الثاني أكثر تناسباً من حيث تناسقه مع الآية، بالرغم من أن العديد من المفسرين ذكر المعنى الأول.

XXXX

وفي الآية السادسة إشارة إلى هذا المعنى وسجود آخر حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً - وَالنَّهَارَ مَعَاشاً﴾.

وقد يكون «المعاش» اسم زمان أو مكان ثم مصدراً ميمياً، وهو يلائم المعنى المصدرى^١.

ووصف الليل «اللباس» يعتبر من التعابير اللطيفة جداً، حيث إن الليل كاللباس بالنسبة لنصف الكرة الأرضية، وهو كذلك بالنسبة للإنسان، فكما أن اللباس يحفظ جسم الإنسان من بعض الاضرار ويمنحه حملاً ورواقاً، من ظلمة الليل والنوم العميق أثناء الليل يمنح روح الإنسان وجسمه طراوة وشحاطة ويصوبه من مختلف الأمراض

XXXX

والحديث في الآية السابعة عن استخلاف الليل والنهار لبعضهما البعض، فيقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾

١ قال بعض المفسرين إن التصير بـ «المعاش» أي «الحياة» بخصوص النهار هو لأجل أن النوم في الليل يشبه الموت كما يقول العرب في أمثالهم «النوم أح الموت» وعنه فإن النقطة المقابلة له أي النهار هو أساس المسحوة والحياة، (الحياة بكل أبعادها)

«خاتمة»: على وزن (فَيْتَه)، وكما يقول الراغب في «المفردات» فأنها تُطلق على شئتين يخلف أحدهما الآخر باستمرار، لكن «خاتمة» تعني «مختلف» وفقاً لرأي الفيروز أبادي في «قاموس اللغة»، ففي الحالة الأولى يصبُّ لاهتمام على تناوب الليل والنهار، فلو لم يكن هذا التناوب دقيقاً ومحسوساً، فإما أن تحترق موجودات الأرض من شدة حرارة ضوء الشمس أو تنجمد من شدة البرودة، وفي الحالة الثانية إشارة إلى اختلاف الليل والنهار وحصول فصول السنة الأربعة التي لها آثار خاصة في حياة الإنسان

واختار بعض المفسرين المعنى الأول، بينما ذهب البعض الآخر إلى المعنى الثاني، ولكن ليس هنالك من مانع في الجمع بين هذين المعنيين وورد في الروايات أن الإنسان يستطيع أن يقضي في النهار ما فاتته من عبادات الليل وبالعكس، واعتبر أن الآية تشير إلى هذا المعنى^١.

ولا يتعارض هذا التفسير مع التفسير السابق أيضاً، على أية حال، فإن الآية تشير إلى نظام خاص ومساوٍ لظاهرة الليل والنهار حيث تدل على العلم والقدرة اللامتناهية للخالق جل وعلا، بشكل لو كانت دورة الأرض حول نفسها أسرع بقليل أو أكثر ببطء مما عليه الآن لطال الليل والنهار وتعرضت حياة الناس بل كافة لموجودات على الأرض إلى الخطر.

❦❦❦

والحديث في الآية الثامنة عن تسخير الليل والنهار وخدمتهما للإنسان إذ يقول «وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

وبما أن شرح معنى التسخير قد مرّ سابقاً في موارد مشابهة فلا نرى حاجة للإعادة.

❦❦❦

١. ورد هذا التفسير في حديث عن النبي ﷺ «طبقاً» لما نقل في تفسير الفيروز الرازي، وفي حديث عن الصادق عليه السلام «طبقاً» لما نقل في تفسير نور الثقلين، ج ٣، الآية المورد البحث.

وأشار في الآية التاسعة، أولاً إلى مسألة اختلاف الليل والنهار، ثم إلى كافة مخلوقات الأرض والسماء التي خلقها الله تعالى كبرهذه على عظمته وعلمه وقدرته فيقول: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾ وهذا التعبير دليل على مدى أهمية خلقها.



وفي القسم العاشر أشار في ثلاث آيات بتعابير جميلة إلى الفوائد المهمة لليل والنهار فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ضِيََاءٌ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ • قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَآ تُبْصِرُونَ • وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. والجدير بالذكر أنه يقول في نهاية إحدى الآيات: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾. وفي نهاية آية أخرى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

ولعل هذه التعابير إشارة إلى أن هناك دلائل حشمة في هذا النظام الدقيق لليل والنهار يجب أن تُنظر بالعين، وكذلك هناك دلائل بقلبه يجب أن تُسمع، وهذا جدير بالتأمل أيضاً، يقول في مورد خلود الليل: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وفي مورد خلود النهار: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، لأنَّ الأدن تستخدم غالباً في الليل والعين في النهار



إنَّ أهمية موضوع الليل والنهار بلغت إلى الحد الذي يُقسم الله تعالى في القرآن بهما في آيات عديدة من بينها ما يقوله في القسم الحادي عشر من هذه الآيات: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى • وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾.

وورد هذا المعنى في مكان ثابٍ وتعبير آخر فيقول: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَر﴾. (المدر ٣٣/)

ويقول في مكان آخر: «وَاللَّيْلُ إِذَا عَشَّصَ • وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّصَ» (التكوير / ١٧)
 ويصيف في مكان آخر: «وَالضُّحَى وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى». (الضحى / ١-٢)
 وأيماناً أخرى من هذا القبيل حيث تحكي كلها عن الأهمية العائقة التي يوليها القرآن
 الكريم لليل والنهار كي يتمعن الإنسان بهما ويرى آيات الله في كل موقع منهما، لأن القسم
 دليل على أهمية وقيمة وحقيقة التأمل دائماً



وفي الآية الثانية عشرة والأخيرة يواجه تعبيراً جديداً في هذا المجال إذ يقول: «ذَلِكَ
 بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ»
 «يُوَلِّجُ» من مادة «ولج» وتعني الإدخال، وبما أنها جاءت بصيغة «الفعل المضارع»
 وحيث أننا نعلم أن الفعل المضارع يعيد الاستمرار، فقم تكون إشارة إلى طول وقصر الليل
 والنهار التدريجي والمنظم على مدى فصول السنة المختلفة حيث ينقص أحدهما ويصاف
 إلى الآخر، فهذا النظام التدريجي عامل مؤثر في نمو النباتات وكامل الكائنات الحية، فلو
 حدث فجأة سيحتل توازن هذه الموجودات فيكون مضرراً، لهذا فقد جعله البارئ تعالى أمراً
 تدريجياً.

ومن الممكن أن تكون إشارة إلى مسألة شروق وغروب الشمس، لأن الشمس حينما
 تقترب من الشروق يشع نورها نحو الطرف الأعلى من الجو، ويضيء الجو قليلاً، وكلما
 ارتفعت الشمس من وراء الأفق يرداد هذا الضوء، وعلى العكس أثناء الغروب، فلا يحل
 الليل دفعة واحدة، بل تحتوي أشعة الشمس رويداً رويداً في الطبقات السفلى من الجو،
 ويحل الظلام محلها، فهذا الانتقال التدريجي من النور إلى الظلام وبالعكس يؤدي إلى أن
 يتأقلم الإنسان معه من الناحية الحسية والروحية، ولو حل الليل أو النهار بشكل مفاجيء
 لترك آثاراً سيئة.

والجدير بالذكر أن طاهر الآية هو أن دخول سبل في النهار والنهار في الليل يحدث في

آن واحد، والواقع هو كذلك، لأنَّ الليلَ يقرُّ تدريجياً أثناء فصل الصيف في المناطق الواقعة شمال خط الاستواء ويصبح جرة من النهار أي إنه مصداق لـ «يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ»، وفي ذات الوقت يقلُّ النهار في جنوب خط الاستواء ويصبح جزءاً من الليل حيث يكون مصداقاً لـ «يُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ»^١.

وجاء في الحديث المشهور عن المفضل، أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«فَكَرُّ فِي دُخُولِ أَحَدِهِمَا - اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - عَلَى الْآخَرِ بِهَذَا التَّدرِجِ وَالتَّرتُّبِ، فَإِنَّكَ تَرَى أَحَدَهُمَا يَنْقُصُ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ، وَالْآخَرُ يَزِيدُ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنتهَاهُ فِي الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ، وَلَوْ كَانَ دُخُولُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ مَفْاجِئَةً، لَأُضِرَّ ذَلِكَ بِالْأَبْدَانِ وَاسْتَقْمَاهَا، كَمَا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ خَرَجَ مِنْ حَتَّامٍ حَارٍّ إِلَى مَوْضِعِ الْبَرْدِ لَضُرَّ ذَلِكَ وَاسْتَقَمَ بَدَنُهُ، فَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا التَّرْسُلَ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ إِلَّا لِلْإِسْلَامَةِ مِنْ ضَرَرِ الْمَفْاجِئَةِ؟»^٢



توضيحات

١ - أهمية النور والظلام وقولند للليل والنهار

لاحظنا في الآيات الآتية كيف أنَّ الله تبارك وتعالى يدعو الناس إلى دراسة هاتين الظاهرتين اللتين تبدوان عاديتين للعيان، ويعدُّهما من آياته، والحقيقة أما كلُّهما أمراً للنظر في هذا المجال تتوصل إلى أمور جديدة:

١/ فسبحَ يعلمُ أنَّ الليل والنهار في جميع أنحاء العالم يختلفان تماماً، فطول الليل عند خط الاستواء ١٢ ساعة، وطول النهار ١٢ ساعة أيضاً في كافة الفصول، إلا أنَّ السَّنةَ كُلَّهَا في المنطقة الجنوبية وعلى خط ٩٠ ليست أكثر من يوم واحدٍ وليلة واحدة حيث تكون مدة كلٍّ منهما ستة أشهر تقريباً «ومثل هذه المناطق عبر مأهولة طبعاً»، وهالك مراحل وسط

١ لقد ذكر «الطبري» في «مجمع البحرين» هذه العبارة في مادة (ولج)

٢. بحار الأنوار، ج ٣، ص ١١٨

بين هذين الوضعين في باقي بقاع العالم .

إلا أن ما يثير الإعجاب هو بالرغم من هذا الاختلاف فإن جميع بقاع الأرض تستفيد من أشعة الشمس بنفس النسبة على مدار السنة وهذا نظام عادل للعناية ؛
سواء إن النهار أكثر طولاً أثناء الصيف والليل أكثر طولاً في الشتاء ، أي أن هذين الأمرين يسيران بشكل متزامن ، زيادة طول النهار ، و لاشعاع العمودي « أو شبه العمودي » للشمس ، فيكمل أحدهما أثر الآخر ، ويؤديان إلى زيادة حرارة الجو فتثمر الفواكه والمحاصيل الزراعية ، وفي الشتاء يؤدي إلى زيادة البرودة وتساقط أوراق الأشجار والنباتات ، واللطيف أنه في المناطق الاستوائية حيث يشع ضوء الشمس عمودياً لا يطول النهار أبداً ، وإلا لداهمها خطر الحرارة لشديدة واحترقت النباتات .

ج) إن ضوء الشمس يسبب القطعة والجد والسمي والحركة باستمرار ، على المكس من الليل الذي يبعث على السكون والاستقرار واسوم ، ولا عطف هذا الأمر على وجه الخصوص في عالم الحيوانات ، حيث تسبب الطيور مع صفور الصبح وتتجه نحو الصحراء ، وتعود وتستريح في أوكارها عند عياب الشمس ، وفي الارياك حيث إن لمعظم الناس حياة طبيعية ، ويكون برنامج حياتهم كذلك أيضاً ، ولكن نظراً لتطور الآلة ، وصناعة النور الاصطناعي ، فإن الكثير من الأشخاص يسهرون جزء من الليل ويامون بعض النهار ، وهذا أحد الأسباب لبعض أنواع الأمراض ، وفي الحقيقة أن القرآن يحذّر مثل هؤلاء الأفراد بأن ترك النوم ليلاً يؤدي إلى فقدان الاطمئنان الروحي وذلك من خلال عبارة : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ . (يونس / ٦٧)

❦❦❦

٢ - ظاهرة الليل والنهار في القرآن الكريم

لقد ذكرت ظاهرة الليل والنهار أكثر من ثلاثين مرة في القرآن الكريم كبرهان على وجود الله ودليل على عظمته وقدرته ، حيث يقول أحياناً : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي

الأبصار».

(النور / ٤٤)

ويقول كذلك: ﴿لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يُشْكُونَ﴾.

(يونس / ٦)

ويقول: ﴿لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(النمل / ٨٦)

وفي الواقع، أن العلاقة بين هذه الأمور الثلاثة تتضح هنا حيث إن التفكر والتأمل الناضجين والعميقين كما ورد في حق ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يؤدیان إلى ظهور الإيمان ورسوخه. والإيمان بدوره يؤدي إلى ظهور تعمق في القلب والروح أيضاً.

ولهذا فإن التمعن في آيات عظمة الله وعلمه وقدرته في عرص عالم الوجود، يرسخ العقيدة ويربي الإنسان من الناحية العملية أيضاً

١٠ - آياته في خلق الجبال

تمهيد:

الكلُّ يعرفُ بشكل عام أنَّ القرى وعلبَ المدن المهمة تقع في سموح الجبال الشامخة وتقع فيما بينها، وأنَّ الأنهار الكبيرة التي هي عمادُ دهر المدن تنبعُ من الجبال الشاهقة، إنَّ دورَ الجبال في حياة الإنسان لا ينحصر بذلك فقط على الرغم من أهمية هذا الدور فالجبال لها دورٌ مهمٌ جداً في حياة الإنسان بل جميع الموجودات التي تعيش على الأرض، وفوائدها وبركاتها عددةٌ جداً، ولا تُبالغ إذا قلنا بأنَّ بحالة الحياة على الأرض بدون وجود الجبال

ولهذا فإنَّ القرآن الكريم أشار في آياتٍ كثيرة إلى مسألة خلق الجبال كإحدى آيات التوحيد وبرايمه على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا
بعد هذه المقدمة نقرأ خاشعين الآيات الآتية

١ - ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْرَةِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾.
(الغاشية / ١٧-١٩)

٢ - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ (الباء / ٦-٧)

٣ - ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً﴾. (الرعد / ٣)

٤ - ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

(الحج / ١٥)

٥ - ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجْجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ

(الانباء / ٣١)

يَهْتَدُونَ﴾.

٦ - «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمْوَاطَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ»
(فصلت / ١٠)

٧ - «وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً قُرًاتاً» (المرسلات / ٢٧)

٨ - «أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ جِلَالَهَا أُنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُمْ لَا يَخْلُقُونَ» (النمل / ٦١)

٩ - «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً» (النحل / ٨١)

١٠ - «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ» (فاطر / ٢٧)



شرح للمفردات:

«جبل» على وزن (عَـجَلَ)، بالرغم من أن بعض أرباب اللغة عسرها بأنها المفردة التي تقابل الأراضي المنبسطة، وعسرها بعضهم بالأجزاء المرتفعة من الأرض حيث يكون عالية وشامخة، فالظاهر أن جميع هذه التعابير تشير إلى معنى واحد

وطبعاً قد يستعمل هذا اللفظ في المعاني اللفظية أيضاً، فقد يقال (جبل) للأشخاص الصامدين والعظماء، و«جِبَلِي» للصمات الثابتة في طبيعة الإنسان والتي لا تتبدل ولا تتغير «كالجبل»، وكذلك يقال (جِبِلٌّ) بكسر الجيم والياء وتشديد اللام، للرھط والمجموعة في لغة العرب من باب التشبيه بالجبل في العظمة^١

و«الرواسي»: جمع «راسية» أي لجبال ثابتة اراسعة، وهي في الأصل من «الترسو» (على وزن رَسَمَ وَغَلَوُ) وهي مأخوذة من لثبات والرسوح، ويُطلق على الاواني النضخمة الراسخة والثابتة في مكان العمل بـ (الراسية) أيضاً، (كالقدور الراسية) التي وردت في قصة سليمان عليه السلام في القرآن الكريم، ويُطلق لفظ (رسي) على الأعمدة الثابتة في وسط الحيمة أيضاً، ويقال لمكان رسو السفن بـ «المرساة» حيث تثبت وتستقر السفينة في مكانها.

١. المفردات للراغب: ومجمع البحرين؛ ولسان العرب.

وقد يُستخدم هذا اللفظ بمعنى ارساء السُّم في المجتمع أيضاً لأنَّ السُّم أساسُ ثبات كلِّ بلدٍ.



جمع الآيات وتفسيرها

البركان والأسرار السجّية للجبال:

في القسم الأول من هذه الآيات يدعو الباري تعالى الناس إلى البحث والتأمل في آيات الله في السماء والأرض، ثم يشير إلى كيفية خلق الابل وكذلك ارتفاع السموات حيث ارتفعت بدون عَمَدٍ مع مالها من عظمة، وأشار إلى نصب الجبال فقال: ﴿وَالْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾.

ولعلّ هذا التعبير إشارة إلى ثبات واستقرار الجبال في أمكنتها ومع حدوث الزلازل التي سبشار إليها في الآيات القادمة أو أشيرَ إليه آنفاً، أو الوقوف أمام الأعاصير والعواصف، وتوفير الملاحي، الأمانة للبشر، ومسودعات حفظ المياه على هيئة يسابيع وقنوات وأنهار. ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارة لطريقة إلى مسأنة طبيعة تكوين الجبال ووجودها حيث كشف العلم المعاصر الستار عنها، إذ يقول إنَّ الجبال تكونت نتيجة لعوامل معينة فقد يكون بسبب نهْج الأرض، وأحياناً بسبب براكين، أو نتيجة الترسبات الناتجة عن الأمطار التي تغمر الأرض وتجرف بعضها معها ويبقى الجزء القوي والصلب ثابتاً في مكانه. وفي أعماق البحار تتكون الكثير من الجبال نتيجة الترسبات الحيوانية كالمرجان حيث يطلق عليها الجبال أو الجزر المرجانية.

ومن الممكن جمع كل هذه المعاني في عبارة ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾.



ويقول في القسم الثاني من الآيات كيبّر نُنعم الإلهية: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً • وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً • ؟﴾

«الأوتاد»: جمع (وتد) (على وزن حسد)، وتطلق على المسامير الصخمة القوية جداً. وقد فسرّها البعض بالمسامير التي تعور في لأرض وتربط إليها جبال الخيمة^١. وهنا كيف تكون الجبال بمثابة أوتاد الأرض؟ هناك تفسيرات متعددة: أولها وهو ما ثبت اليوم بأن الجبال لها جذور عظيمة في أعماق لأرض، وهذه الجذور متشابكة معاً وتُمسكُ بقشرة الأرض كالدرع وتحفظها في مواجهة لصعوط الناشئة عن الحرارة الداخلية، ولولاها لما كان لسطح الأرض من قرار.

وفصلاً عن ذلك فكما أنّ جاذبية القمر ونُشْمس تترك تأثيراتها على المحيطات، وتسبب المد والجزر، فإنّ اليابسة لها تأثيرها أيضاً، فسمح درع الجبال قشرة الأرض قدرة المقاومة أمام هذا الصعط الهائل.

ومن ناحية ثالثة فإنّ الجبال تصون نقاع الأرض لمحتلّة من العواصف والسيول وتقف أمامها كالسور العالي، بحيث لو كان وجه الأرض كنه على هيئة صحراء لتعصّرب حياة الإنسان على سطحها أمام هذه السيول العارمة

وأنهم من كل ما مضى فإنّ الجبال تعتبر بحتولة الأوتاد القوية لطعام حياة البشر لكونها مركزاً للذخائر المياه.

وجاء في تفسير الميزان أنّ الأوتاد جمع وتد وهو المسمار إلا أنّه أعلط منه^٢ كما في المجمع ولعلّ عدّ الجبال أوتاداً مبني على أنّ أكثر جبال الأرض ناتجة من البراكين التي تنطلق من أعماق الأرض فتخرج مواد أرضية مذابة تستقر على قم الشق متراكمة كهيئة التوتد المنصوب على الأرض تسكن به قودة بركان التي تحته فيرتفع به ما في الأرض من الاضطراب والتزلزل.

❦❦❦

١ تفسير المراعي، ج ٣٠، ص ٤

٢ تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٢٥٩

وفي الآيات الثالثة والرابعة والخامسة عُبر عن الجبال بـ «*الرواسي*» حيث يقول
 ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ وَأَنْهَاراً﴾

ويقول في مكان آخر: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّ أَنْ تَبِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا
 لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

ويشاهد هذا المعنى في الآية الخامسة أيضاً.

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أن أحد أهم فوائد الجبال هو منع الحركات غير
 الطبيعية والزلازل الأرضية.

و«*التميد*» من ماله (تميد) (على وزن صند) أي بهترار الأشياء الصخمة. وقال البعض
 إنها الحركة المترامية مع التمايل يمياً وشمالاً، كحركة لسان الحالية بسبب أمواج البحر،
 ولهذا يقال «*تميدان*» أثناء المسابقات أو الحروب.

وقد تحدثنا في شرح الآيات السابقة عن تأثير الجبال في منع حركات فشر الأرض أثر
 الصعط الداخلي، وحاذية المد والحرر (الشمس والقمر)، والاضطرابات الناتجة عن السبول
 المستمرة، ولا حاجة إلى التكرار.

ويعلم من هذه الآيات بصورة عامة أيضاً، أن لتكوين الأنهار علاقة بوجود الجبال، وهو
 الصحيح، فالأنهار الكبيرة التي تجري على مدى السنة وتسقي الأراضي اليابسة هي من
 بركة المياه التي تحممت في أعماق الجبال أو قمتها على هيئة جليد أو ثلج، ولهذا تُعتبر
 الجبال العملاقة في العالم يابيع لأنهار لعالم نطيمة، وربما يحدث لدى البعض شبهة في
 كون وجود الجبال يكون حائلاً في عزل الأرض عن بعضها وسبباً في غلق طرق العبور
 والمرور، لكن الآيات الواردة أعلاه صرحت بأن لفة سبحانه وتعالى جعل طرقاً وادمية
 يسلكها الناس ليهتدوا إلى بلوغ مقاصدهم ونيل مآربهم.

وهذه نقطة ظريفة جداً حيث يوجد على سدوم في أعماق الجبال العظيمة الشاهقة
 معرات وطرق يستطيع الناس من خلالها المرور والعبور، أي أنها في ذات الوقت الذي
 تشكل سداً قوياً أمام العواصف والأعاصير، فهي لا تمنع عبور ومرور الناس، وتنادراً ما
 تقوم هذه الجبال بعزل أجزاء من الأرض بشكل كامل.

وهناك نقطة بالغة الأهمية وهي لو كان سطح الأرض مستوياً، فسوف تكون درجة الحرارة على الأرض عالية جداً ومحرفة وذلك بسبب حركة الأرض السريعة حول نفسها وحركة الهواء على سطح الأرض وبذلك تتعذر الحياة على سطح الأرض. لكن الباري تعالى الذي جَعَلَ لأرض مهداً براحة الإنسان، أمر الجبال أن تكون مرتفعة في طبقات الجو، وتدور حول نفسها بعباً لموران الأرض، كي تمنع اهتزاز الجو وحصول الحرارة.

بناءً على ذلك نلاحظ جيداً أهمية الدور الذي يلعبه وجود هذه القطع الصحيرية الصماء في حياة الموجودات.

بالإضافة إلى ذلك فإن الجبال تُوحّد مساحات مسطحة شاسعة بسبب التدرجات والانكسارات وتؤدي إلى مضاعفة لجزء سدي يمكن استغلاله من الأرض لعدة مرات، وفي نفس الوقت فإن أعليها يعتبر مكاناً لنمو أشجار الغابات الكثيفة وأنواع النباتات الطبية والغذائية والمراعي.



ولعل لهذا السبب جاء الحديث في الآية السادسة عن بركات الأرض واقواتها بعد نصب الجبال في الأرض إذ يقول: ﴿وَجَعَلْ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَازِلَهَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾

لأنّ ممّا لا شك فيه أنّ الجبال نفسها وكذلك المياه التي تسيل من بطونها لها دورٌ حساسٌ للغاية في إنتاج المواد الغذائية.

وممّا يلفت الانتباه قوله في نهاية الآية «سَوَاءٌ لِمُسْأَلَيْنٍ»، فلملّه إشارة إلى هذا المعنى، وهو أنّ المواد الغذائية تعادل ما يحتجّه السائلون والمحتاجون تماماً، ويمكن أن يكون تعبير «السائلين» إشارة إلى كافة الحيوانات والبشر والنباتات (وإذا جاء بصيغة جمع المذكر للمعاقل فهو من باب التعليل) نعم فانكل يسأل عن «الاقوات» بلسان حاله.

و«اقوات»: جمع (قوت) وتعني العذاء، وقد فسرّها بعض المفسرين بـ«الأمطار» فقط، والبعض الآخر فسرّها بالمواد الغذائية المدخّرة في باطن الأرض، إلّا أنّ الظاهر هو أنّها

إشارة إلى كافة المواد الغذائية التي تخرج من لأرض أو التي تنمو عليها، ولعل التعبير بـ «كُلُّ شَيْءٍ» وهي من «التقدير»، إشارة إلى أنه قد تم تقدير وتخطيط كافة احتياجات الإنسان وبقية الموجودات قبل خلقها.

وقد ورد مضمون الآية السابعة في الآيات لآفة



وأشار في الآية الثامنة إلى أربع بعم الهية فلأرض مستقرة بسحو يستطيع الإنسان والموجودات الأخرى من العيش عليها براحة وطمئناً، وتكوين الأنهار التي تشق سطح الأرض، وخلق الجبال العظيمة الراسحة، وتكوين البرخ بين البحرين (من الماء العذب والمالح) كي لا يختلط أحدهما بالآخر.

وهذه النعم الأربع مرتبط مع بعضها بنحو مدعنى، فالجبال أساس استقرار الأرض، ومصدر مياه الأنهار، وهذه الأنهار عندما تصب مياهها في البحر فهي تبقى منفصلة بواسطة حاجز غير منظور لفترة طويلة لا تختلط مع مياه المالحة، وهذا الحاجز ليس سوى اختلاف كثافة الماء «المالح» و«العذب»، وبتعبير آخر أن اختلاف كثافتهما يؤدي إلى عدم امتزاج مياه الأنهار العذبة بالمياه المالحة لمدة طويلة، ولهذا فائدة ضرورية للزراعة في المناطق الساحلية، لأن هذه المياه العذبة ترجع إلى الخلف عن طريق المد والجزر وتغطي معظم الأراضي الزراعية فتغمر البساتين النظرة ولمرارع لردهرة.

فليس جزاءً أن يقول في نهاية هذه الآية: «أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»؟ «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». أجل... فهؤلاء يجهلون أسرار هذه النعم ولبركات، النعم الموجودة في كل زوايا وبقاع العالم، وكل منها برهان على تلك الذات المقدسة، إلا أن هؤلاء الجهلة محجوبون عنها



وفي الآيتين التاسعة والعاشره أشار إلى مجموعة أخرى من خصائص ومنافع الجبال، فبعد أن ذكر خلق الجبال التي تقي الإنسان حرارة الشمس المحرقة، يشير إلى الملاجيء.

الموجودة فيها حيث يقول: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾.

و«الأكنان»: جمع (كن) على وزن (جر) وكما قل صاحب مجمع البيان هو المكان الذي يضم الإنسان بداخله، إلا أن البعض ذكر ذلك بمعنى كل نوع من اللباس، حتى أنهم اعتبروا «الرداء» «كنًا» للإنسان، والمقصود بـ«أكنان الجبال» المغارات والكهوف التي يستطيع الإنسان أن يستخدمها كملجأ له، قد تكون أهمية الملاجئ الجبلية والمغارات مجهولة بالنسبة لسكنة المدن، غير أنها ذات أهمية حساسة جداً للمسافرين العزل، وقاطعي الصحراء، والرعاة، والسائرين ليلاً، وغالباً ما تنقذهم من الموت المحتوم، لا سيما وإن هذه الملاجئ دافئة في الشتاء وباردة في الصيف.

فضلاً عن ذلك فإن بعض الناس منذ عهد الأرومان وحتى يومنا هذا يحتضنون بيوتهم في وسط الجبال، وهي مُحْكَمَةٌ جداً وآمنة تماماً في مواجهة الحوادث الطبيعية، كما ورد في القرآن الكريم حول «أصحاب الحجر» (قوم بمعد). ﴿وَكُنُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِينَ﴾ (الحجر / ٨٢)

وهذه فائدة أخرى للجبال.

وهي قسم آخر من هذه الآيات إشارة إلى طرق التي صنعها الباري تعالى بالوانٍ مختلفة بيضاء وحمراء وأحياناً سوداء بكاملها: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

و«جُدَدٌ»: جمع (جَدَّة) (كُفَّتَدَ وَغَتَدَ) بمعنى الطريق والجادة، و«بَيْضٌ» جمع «أبيض»، و«حُمْرٌ» جمع «أحمر»، و«غَرَابِيبُ» جمع «غَرَابِيبٌ» وتعني شديد السواد، ولهذا يقال «غراب» و«سود» جمع «أسود» ووردت هنا بعد كلمة «غَرَابِيبُ» للتأكيد.

فطرق الجبال المختلفة، بألوانها المتباينة تماماً، لها أهمية كبيرة حيث تساعد المسافرين في العثور على مقاصدهم، وتنقذهم من التيه، إضافة إلى أن تعدد الألوان يدل على اختلاف مركبات الصخور، وقد يكون دليلاً على وجود المعادن المختلفة التي تختفي فيها.

يستفاد جيداً من تسلسل هذه الآيات أن خلق الجبال بفوائدها الحياتية والضرورية جداً والمصيرية، من البراهين المهمة على علم وقدره لباري تعالي وآيات حكمته ورأفته بالإنسان، ويوضح جيداً أن خلق هذا العالم ودرجات موجوداته، مليء بالمعنى والمحتوى إلى حدٍ كلما تم التمعن به تمكشفت للإنسان أسرارٌ جديدة ويتولد على أثرها حبٌ وارتباطٌ بالخالق جلّ وعلا.



توضيحات

١ - الجبال والاعجاز العلمي للقرآن

١ - لعل إلى ما قبل قرن من الزمان كانت نظرية العلماء تنص على سطحية الجبال، وكان الاعتقاد السائد هو أن كل الجبال عبارة عن قطع صخرية كسرة تستقر على سطح الأرض، ولكن مع مرور الزمان أزيل الحجاب عن سرّهم، وتوصل العلماء إلى هذه الحقيقة، وهي أن الجزء الأعظم من كل جبل يقع تحت الأرض، وكما يقول «جورج غاموف» في كتاب «قصة الأرض»: «طبقاً للنظريات المعاصرة فإن جبال الأرض لها أوضاع تشبه الجبال الجليدية التي تكون تحت تأثير ضغط الثلوج في المناطق القطبية، فكل من رار المناطق القطبية يعرف جيداً أن القطع الثلجية الصخمة حينما تنكسر تحت تأثير الضغط تتراكم على بعضها، وتدفع نحو البحار - وأثناء ذلك - تنهار أغلب كميات الثلج في المياه، (ولعل عُشرها فقط خارج المياه وتسعة أعشارها تحت الماء)، ولهذا ففي مقابل كل جبل يرتفع على سطح الأرض هناك جبلٌ تحت سطح الأرض، متكون من مادة حجر الغرانيت يعوص في ثسايا طبقة من الصخور التحتية الناعمة»^١.

وهنا نصل إلى هذه المسألة الاعجازية في قرآن حيث يطلق على الجبال «أوتاد» ومسامير الأرض، وذلك لأتينا نعلم أن القسم الأعظم من لمسامير يعور في الجدار أو الأشياء الأخرى دائماً.

١ قصة الأرض، تأليف جورج غاموف، ص ١٢٦ مع شيء من الاختصار

وهنا حيث تستخدم المسامير في تثبيت شيء ما، أو ربط القطع المختلفة مع بعضها أيضاً، فهذا التعبير يعتبر إشارة لطيفة إلى تأثير المهم للجبال في منع تبعثر قطع الأرض أثر الضغط الداخلي للكرة الأرضية والضغط الناتج عن حالات المد والجزر.

٢ - لا يقتصر دور الجبال على حفظ استقرار وثبات الأرض فحسب، بل تساعد في استقرار المناخ المحيط بالأرض أيضاً، وانكل يعلم مدى صعوبة العيش في الصحراء الشاسعة لأن الهواء دائماً في حالة من السرعة المقرونة بالمبار والرمال، فيصبح الاستقرار في هذه المناطق عسيراً والتنفس صعباً مقروناً بعدم الراحة

نعم فهذه القسم الشاهقة للجبال هي التي تقف أمام هذه العواصف الهوجاء، وتصدّها، أو تُرسبها إلى طبقات الجو العليا

٣ - إضافة إلى ذلك فإن للجبال تأثيراً واضحاً في نزول الثلوج وهطول الأمطار، لأنها تقف في طريق الغيوم والرطوبة الصاعدة من البحر، وتدفعها إلى الهطول فيسحدر بعض هذه الأمطار من سفوحها، وتحتفظ بالقسم الآخر في هذه السوح، أو تحتفظ بها على هيئة ثلج وجليد في قممها

٤ - وكذلك فإن للجبال دوراً مهماً في تعديل حرارة الجو لا سيما في المناطق الاستوائية، لأن ارتفاع الجبال يؤدي إلى ابتعاد المناطق المجاورة لها عن سطح الأرض ونحن نعلم أننا كلما ابتعدنا عن سطح الأرض تزداد برودة الجو.

٥ - إن الجبال مصدر مهم لأنواع المعادن والثروات الهائلة التي تحتوي في أعماقها، ومن أجل أن يظفر الناس بهذه الثروات فهم يتجهون إلى الجبال دائماً للبحث عنها.

٦ - للجبال دور مهم آخر في إيقاف حركة لكتبان الرملية، فمن نعلم أن الكتيبان الرملية تتحرك أثناء هبوب الرياح في الصحراء الفاحشة، وقد تدفّن تحتها الأشجار والناس والقوافل وحتى القرى، وتصبح سبباً في هلاك النباتات والحيوانات، فإذا لم تتم السيطرة عليها فسوف تأتي على جميع أنحاء الأرض، فأى عامل أفضل من الجبال يُمكنه السيطرة عليها؟

إن هذه القوائد العظيمة إضافة إلى فوائد أخرى كثيرة ذكرناها في تفسير الآيات السابقة

توضح لنا الدور المهم للجبال من جهة، وعظمة آيات القرآن الكريم في هذا المجال من جهة أخرى.



٢ - حديث الإمام الصادق عليه السلام حول الجبال

وفي حديث توحيد المفصل وهو حديث مني بالمعالي، وكاشف لأسرار الخلق في مختلف الجوانب لمعرفة الله، جاء ما يلي:

«انظر يا مفضل إلى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة التي يحسبها الغافلون فضلاً لا حاجة إليها، والسافع فيها كثيرة فمن ذلك أن تسقط عليها الثلوج فيبقى في قلالها لمن يحتاج إليه، ويدوب ما ذاب منه فتجري منه العيون العذبة التي تجتمع منها الأنهار العظام، وينبت فيها ضروب من الثبات والعقابر التي لا ينبت مثلها في السهل، ويكون فيها كهوف ومقاييل للوحوش من السباع العادية وتنجد منها الحصون والقلاع المنسعة للتمركز من الأعداء، وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء، ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر، وفيها خلال أخرى لا يعرفها إلا المقدر لها في سابق علمه»^١.

وقد تكون العبارة التي جاءت في حتام حديث الإمام عليه السلام إشارة إلى الفوائد المهمة الأخرى التي اكتشفت تدريجياً مع تطور العموم وتمت الإشارة إليها في البحوث الماضية، المنافع التي لا زالت حافية عن أنظار نعلم البشري



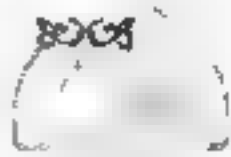
٣ - كلام لعالم كبير

عندما يتعرض العلامة المرحوم المحلّي عليه السلام إلى البحث حول الجبال في كتابه بحار الأنوار، يذكر في تفسير الآية: «وَالْجِبَالُ أَوْتَاداً» سبعة آراء، يذكر ثالثها:

«ما يخطر بالبال وهو أن يكون مدخلية الحبال لعدم اضطراب الأرض بسبب اشتباكها

واتصال بعضها ببعض في أعماق الأرض بحيث تسمعها عن تفتت أجزائها وتفرقها. فهي بمنزلة الأوتاد المعروزة المثبتة في الأبواب المركبة من قطع الخشب الكثيرة بحيث تصير سبباً لالتصاق بعضها ببعض وعدم تفرقها وهذا معلوم طاهر لمن حفر الآبار في الأرض فإنها تنتهي عند المبالغة في حفرها إلى الأحجار لصلية. وأنت ترى أكثر قطع الأرض واقعة بين جبال محيطة بها، فكأنها مع ما يتصل بها من القطعة الحجرية المتصلة بها من تحت تلك القطعات كالظرف لها تسمعها عن التفتت وتفرق والاضطراب عن عروض الأسباب الداعية إلى ذلك»^١.

إن هذا الحديث واستناداً إلى التصريح الذي أورده آباء لأحد العلماء المتأخرين، والذي هو من اكتشافات القرن الأخير، يعتبر أمراً مثيراً جداً حيث يشير هذا العالم الإسلامي الكبير إلى ذلك قبل أكثر من ٣٠٠ سنة.



٤ - حديث مجازي حول تكوين الجبال

وهذه نقطة جديدة بالاهتمام أيضاً حيث ورد في روايته أن شخصاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «بِمَ خُلِقَ الْجِبَالُ؟» فقال الإمام عليه السلام: «فِي جَوَابِهِ «مِنْ الْأَمْوَاجِ»^٢.

وهذا الحديث يتطابق تماماً مع النظرية المشهورة للعلماء المعاصرين إذ يعتقدون بأن أغلب الجبال تكونت نتيجةً لتعرُّج قشرة الأرض بسبب انجمادها كالتجمدات التي تظهر على قشرة التماس عند جفافها وهذه التعرُّجات تشبه الأمواج التي تحدث على سطح الماء، وقد يكون تعبير «وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي» إشارة إلى خلق الجبال بعد خلق الأرض أيضاً.



١. بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٢٧.

٢. بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٧٣ و ج ٦٠، ص ١٢٠.

١١ - آياته هي

تكوين العيوم والرياح والأمطار

تمهيد:

إن دور العيوم، والرياح والأمطار، في حياة الإنسان وكافة الكائنات الحية واضح إلى حد لا يحتاج معه إلى شرح أو تفصيل. صحيح أن الماء يعمر ثلثه أرباع الكرة الأرضية، ولكن أولاً، أن المياه المالحة لا تصلح للشرب، ولا لشرب الإنسان والحيوانات، وثانياً: لو فرضنا أن كل مياه البحار كانت عدة مائي طريقة يمكن نقلها إلى المناطق والأراضي التي قد ترتفع عن مستوى سطح البحر عدة آلاف من الأمتار.

هنا يرى بجلاء القدرة العظيمة بثبوت الحق، حيث لقي هذا التكليف المهم على عاتق أشعة الشمس لتشرق على المحيطات وتقوم بتبخر وتصفية مياهها، فيظهر على هيئة قطرات من العيوم، ثم تتجه به نحو المناطق الباردة بمساعدة الرياح، وتتركها عليها بصورة قطرات مطر لطيفة وصغيرة ويهدوء، حيث تدب الحياة في جميع أرجاء المعمورة، فينتشر الإزدهار والإعمار والحضرة في كل مكان، وهذا يأتي من خلال طام دقيق ومحسوب مقرون بظرافة بالغة.

وبعد هذا التمهيد القصير نتجه نحو آيات قرآن الكريم بهذا الخصوص فنقرأ خاشعين

الآيات الآتية:

١ - وَاللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنِيَّ سَحَاباً فَيُمْسِكُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ مُمْسِئاً

فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

(الروم / ٤٨)

٢- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
(الروم / ٤٦)

٣- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا لَقَالَا سُفُّهُاءُ لِيَلْدِ مِثْبًا فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾
(الاعراف / ٥٧)

٤- ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْفُفًا إِلَى بَلَدٍ مِثْبًا فَأَجِثَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾
(ماطر / ٩)

٥- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْتَبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالشَّعَابِ الْمُسْفَرِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
(البقرة / ١٦٤)

٦- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ • أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ • لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾
(الواقعة / ٦٨ - ٧٠)

٧- ﴿أَمْنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾
(النمل / ٦٣)

٨- ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْفَقْنَا كُفْرًا وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾
(الحجر / ٢٢)

٩- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ • إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾
(المرم / ٢١)

١٠- ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا • لِيُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا • وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾
(النبا / ١٤ - ١٦)

١١- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

طهوراً».

(الفرقان / ٤٨)

١٢ - «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ

(المائدة / ٢٧)

أَنْعَامُهُمْ وَاتَّقُوا فُلَا يُخِصَّرُونَ»^١.

❦❦❦

شرح للمفردات :

«الرياح» : تكرر هذا اللفظ عشر مرات في القرآن الكريم . تسع منها إشارة إلى الرياح التي تحرك الغيوم وتُعدها لتنزل الأمطار

و«الرياح» : في الأصل جمع (ريح) وتعني نهواء المتحرك . وأصلها «رَوْح» ، وغالباً ما تعتبر مؤنثاً لفظاً ، والحدير بالذکر أنها تستخدم بصيغة الجمع دائماً في الآيات التي تتعلق بحركة الغيوم ونزول الأمطار في القرآن الكريم ، وذكر البعض دليلاً على ذلك بأن الرياح إذا تحركت بشكل جماعي فإنها تنشر الغيوم وتكون أمطاراً عذيرة ومليئة بالبركة ، وإذا تحركت على هيئة أجراية متفرقة فإنها تكون عقيمة وفقيرة مقيدة ، بل مصرة عندئذ . لذلك ورد في الدعاء : «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»^٢

ويقول «الرابع في المفردات» . هي جميع لموارد التي ذكر الله تعالى لفظة «الرياح» بصورة مفردة (في القرآن) فهي تحكي عن «العذاب» ، وإنما ذكرت بصيغة الجمع فهي تحكي عن الرحمة .

وقول الراغب صائب في ما يخص «الرياح» في صيغة الجمع ، ولكن ليس هناك تعميم في مورد «الرياح» بصيغة المفرد ، لأن «الرياح» استخدمت في القرآن بصيغة المفرد في مورد

١. توجد في القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا المجال ، وما ورد أعلاه مقاطعات من هذه الآيات باسمائها تبيان أبعاد هذه الأمور الثلاثة المهمة وهي كما يلي : الانعام ٩٩ ، إبراهيم ٢٢ ، النحل ، ٦٥ طه ، ٥٣ ، الحج ، ٦٣ ، النمل ، ٦٠ ، العنكبوت ، ٦٣ ، لقمان ، ١٠ و ١١ طه ، ٢٧ ، صافات ، ٢٩ ، الرعد ، ١٧ ، الأعراف ، ٥٧ ، الحجر ، ٢٢ ، النمل ، ٦٣ .

٢. مجمع البحرين - مادة (ريح)

النعمة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَكُمْ بِهِمْ يَرِيحٌ طَائِفَةٌ وَقَرَحُوا بِهَا﴾. (يونس / ٢٢)

ونقرأ أيضاً بخصوص سليمان عليه السلام: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّاهَا شَهْرٌ وَزَوَاجُهَا شَهْرٌ﴾. (سبا / ١٢)

و﴿تَضْرِبُ الرِّيحُ﴾ تعني نقل الرياح من حالٍ إلى حالٍ (من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال)، وهي من مادة (ضرب) (على وزن حرف) أي تحويل الشيء من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى أو إبداله بشيءٍ آخر.

وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى أن الرياح لو سارت باتجاه واحد باستمرار فمن الممكن أن تدفع بالرطوبة والغيوم المتصاعدة من سحار نحو جهة واحدة فقط أما تأثير الرياح فإنه يؤدي إلى أن تتحرك الغيوم من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، وتستفيد أغلب المناطق المحيطة من الأمطار إلى أقصى حد.

فضلاً عن ذلك وكما سيأتي فإن لفظة الرياح لا تحصر بحركة الغيوم، بل لها منافع كثيرة أخرى سنشير إليها في تفسير الآيات من شاء الله -

و«السحاب»: من مادة «سحب» (على وزن مَحَو)، وتعني في الأصل الحرّ، حيث تُسحبُ الغيوم بواسطة الرياح، أو أن الغيوم تسحبُ المياه نحو أي اتجاه، فيطلق اسم «السحاب» عليها، وقد يُستخدم هذا المفهوم بمعنى انطلق أو الطلام من باب التشبيه.

واللطيف أنه قد تمّ التعبير في الآيات أعلاه بـ«سقاء» من مادة «سوق» أي «الدفع» وقد استعمل هذا التعبير لأن الله تبارك وتعالى يدفعها نحو اتجاه معين (بالرغم من أن السحاب يتحرك طبيعياً).

و«مُزْنٌ». على وزن «مُزَنٌ» وتعني «الغيوم الواضحة»، وفسرها البعض بـ(الغيوم الممطرة) ٢.

١ مجمع البحرين، ومفردات الراسب

٢ يقسم العرب الرياح إلى أربعة أقسام «الشمالية» التي تهب من الشمال، و«الجنوبية» التي تهب من الجنوب، و«الغربية» التي تهب من الشرق، و«الدهورية» التي تهب من الغرب

٣ مفردات الراسب ولسان العرب، مادة (مَزَن)

ولهذا يُطلق على الهلال الذي يبرز من بين غيوم - (ابن مُزَنَّة)، و(مازن) تعبيراً يطلق على بيض النمل.

و«بُشْر» (على وزن عُشْر)، وحسب ما جاء في (مصباح اللغة) فهي مأخوذة من (بُشْر) (على وزن سَقَر) أي السرور والفرح^١.

والسبب في تسمية القرآن الكريم للغيوم بـ «بُشْر» و«مُبَشَّرات» لأنها غالباً ما تكون مبشرات بهطول المطر الذي يَهَبُ الحياة.



جمع الآيات وتفسيرها

ظاهرة للريح والأمطار والأسرار للكامنة فيها:

أشارت الآية الأولى من البحث وكثيراً ما بدأت بالآية المقدسة إلى مسألة هيوب الرياح وحركة الغيوم بواسطتها حيث يقول: «لَقَدْ الَّذِي يُزِيلُ الرِّيحَ فَتُبَثِّرُ سَحَاباً».

ثم تعرضت إلى بسط الغيوم في كبد السماء، وتراكبها فوق بعضها، وفي الختام أشارت إلى خروج قطرات الأمطار من وسطها، فيقول: «فَيَنْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَيْفَ يَشَاءُ الْوَدْقِ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ»

و«الْكَيْفُ»: على وزن (قِسْم) تعني هنا تر كم قطع غيوم حيث تستعد لمزول المطر، و«الودق» (على وزن حَلَق) تطلق على الرد الذي يشبه الماء، وفشرها البعض بأنها قطرات المطر

وفي نهاية الآية أشير إلى استبشار عباد الله أنزل المطر فيقول: «فَإِذَا أَحَبَّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ»

وعليه فإن الرياح لا تحرك الغيوم فقط، بل تبسطها في السماء ثم تصعها على بعضها وتقوم بتبريد أطراف الغيوم وإعدادها لإنزال المطر.

١ «بُشْر» اسم مصدر وتأتي بمعنى اسم فاعل (مُبَشِّر، أيضاً)

فالرياح شأنها شأن الرعاة ذوي الخبرة والتجربة حين يقومون بجمع قطع الماشية في وقت محدد من أطراف الصحراء ويسوقونها في طريق معين، ثم يحصرونها للحلب .
فلا شك الغيوم يكون بحد بحيث يمسح حروج قطرات المطر، ولا شدة الرياح بالقدر الذي تمنع نزول هذه القطرات إلى الأرض ولا تكون قطرات الأمطار صغيرة بالقدر الذي يجعلها تبقى معلقة في السماء، ولا كبيرة حيث تؤدي إلى تدمير المزارع والبيوت، ولا يقتصر برول المطر على بشارة الناس بالإعمار والازدهار فقط، بل إنه يصفى ويلطف الجو ويهتئ على المشاط .

والملفت للنظر أن الآيات التي تلي هذه الآية من سورة الروم تُذكر بالرحمة الإلهية في إحياء الأرض بعد موتها: ﴿فَنَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُضْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم / ٥٠)

ومن أجل إدراك مفهوم هذه الآية يمكننا مشاهدته صور من بعض الصحاري، والمزارع في بعض المناطق في أفريقيا كيف يُحيي عليها شبح الموت أثر الجفاف المستمر، ورحلت عنها ملائكة الرحمة والحياة

وفي المقابل فإن هذه الأمواج العظيمة للرياح التي تعترقها قطرات الأمطار بسهولة، تقوم أحياناً باقتلاع الأشجار الصخمة، وتدمر المباني، وتختطف الإنسان معها إلى السماء ثم تدمره إلى مكان آخر إذا ما أمرت بذلك .



وتتعلق الآية الثانية هذا الموضوع أيضاً بشيء من الاختلاف، فهي تصف الرياح بالمبشرات، وبالإضافة إلى مسألة نزول الأمطار فهي تشير إلى حركة السفن بواسطة الهبوب المنظم للرياح أيضاً، فجاء في النهاية ﴿وَلْيَتَّقُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .
ومن الممكن أن تكون عبارة ﴿وَلْيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ إشارة إلى بقية فوائد الرياح، كتلقيح الأشجار، ودفع العفونات وتصفية الأجواء وغيرها كما تم توضيحه في تفسير الميزان^١ .

والحقيقة أن الإنسان لا يعرف قَدْرَ لعمدةٍ إلا بعد سُلِيَتْ منه، فلو توقفت هذه الرياح والنسمات يوماً واحداً لأصبح العيش في أجمل البساتين والمزارع أسوأ من العيش في مطامير السجون المظلمة، ولو هبت سمةٌ على طامورةٍ انفراديةٍ فهي تصغي عليها صبغة الفضاء الطلق ولو توقفت الرياح فوق سطح المحيطات، وتوقفت الامواج، فإن حياة الكثير من الاحياء المائية تتعرض إلى الخطر بسبب نقص الاوكسجين، وتبدل البحار إلى مستنقعات متعفنة رهيبة.



واهتم في الآية الثالثة بهذا الأمر أيضاً مع هذه السماوات وهو اعتبار الرياح مقدمة لرحمته، ووصف الغيوم بـ «الثقال» أي (الأحمال الثقيلة، جمع ثقل) لأن الغيوم المسطرة أثقل من بقية الغيوم، وتكون قرسة من الأرض، لذلك عثر عنها القرآن الكريم بـ «الثقال»، و«أقلت»: من مادة «إقلال» وتعني حمل شيء يكون حقيقاً بالنسبة لقدرة العامل، فهو يعتبره قليلاً ولا قيمة له، إن وجود هذا التعبير في الآية أعلاه يبرهن على أن الغيوم الثقيلة التي قد تحمل معها ملايين الاطنان من المياه لا تحتل الرياح ثقلاً كبيراً، وهذا عرض لقدرة الله تعالى.



وقد أشارت الآية الرابعة إلى أن إرسال الرياح لأداء هذا الدور العظيم هو أحد آثار عظمة الذات الإلهية المقدسة، إذ يحيي الأراضي الميتة بواسطة هذه الرياح. والجدير بالذكر هنا هو أن الآية استعملت كلمة «خير» أي أن الرياح تثير الشهب، وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى تكوّن الغيوم بسبب هبوب رياح المناطق الحارة على سطح المحيطات حيث تؤدي إلى تكاثف الغيوم، لأن مسألة حركة الغيوم أُحْدِثَ بالاعتبار في

عبارة «مستفناه»، وعليه فإن الرياح لها أثر مهم في حصول العيوم، وكذلك في تحريكها نحو المناطق الجافة، ورفعها إلى أعالي الجو وتهيئة الظروف لهطول الأمطار.

وذكر هذه العبارة بصيغة الفعل المصارع «تسير» إشارة إلى عمل السحب الدائم والمستمر أيضاً.

على أية حال فإن هذه المسألة تعتبر برهاناً على علم وقدره الخالق جلّ وعلا وكذلك دليل على قدرته في المعاد، ولهذا تمت الإشارة إلى مسألة المعاد في ختام بعض هذه الآيات.

§§§§

واستند في الآية الخامسة من بحثنا إلى خلق سبعة أشياء مختلفة كآيات ودلائل على علم وقدره الله تعالى ليستفيد منها المتفكرون والمفكرون وهي خلق السماء، والأرض، واختلاف الليل والنهار، والخلق الذي تجري في البحر بما يجمع الناس، والأمطار، وهبوب الرياح واختلافها، والسحب المعلقة بين الأرض والسماء.

واستند في هذه الآية على مسألة الحركات المختلفة للرياح «وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ»، وكذلك العيوم المعلقة بين الأرض والسماء «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، السحب التي تحمل ماء البحار في أوساطها، وهي في ذات الوقت معلقة بين الأرض والسماء، فهي تمثل في الواقع أعظم آيات الله، «فتحي الأرض بنزول المطر وتبث أنواعاً مختلفة من الدواب على وجه الأرض»: «فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ».

وعندما نشاهد أن الرياح والغيوم قد ذكرت في هذه الآية بعد نزول الأمطار فلعلها من أجل الإشارة إلى هذه النقطة، وهي أن عائدة لرياح لا تنحصر بتحريك الغيوم وانزال المطر فحسب، بل لها فوائد جمة أخرى تمت الإشارة إليها سابقاً، وسيشار إليها في نهاية الموضوع أيضاً.

وبعض النظر عن كون الغيوم هي السبب في هطول الأمطار ، فإن الغيوم لوحدها تعتبر ظاهرة عجيبة أيضاً ، لأنها تحتفظ ببخار من المياه وهي معلقة بين الأرض والسماء^١ .



وتستند الآية السادسة إلى مسألة مياه شرب الإنسان ، وتذكر موضوعاً جديداً حيث تقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ • أَأَنْتُمْ تُزْلِمُوهُ مِنَ الْغَيْمِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ ؟ ثم يضيف تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ فلو أن ماء البحر يسطحب أثناء تبخره إلى السماء ذرات الأملاح الصغيرة ، وتزل الماء المالح والمرّة من الغيوم لتحوّلت الأرض إلى مملحة ، فلا ينمو نبات ، أو شجر ، وإذا أراد لإنسان أن يدفع الموت عنه أثر العطش لم يستطع أن يشجرع شرمة من هذا الماء بدأ

إن القدرة التي جعلت الماء ينبع والأملاح الموجودة في مياه البحار تبقي في مكانها ، هذه العملية التي أثرت على حياة الإنسان وعمره بمجرها بل أثرت على أوضاع كل المخلوقات على وجه الكرة الأرضية ، هل يستطيع الإنسان أن يشكر هذه النعمة طيلة بقائه حياً في هذه الدنيا؟

وكما قلنا فإن «الغمر» تعني الغيوم المطيرة و«الأجاج» تعني الماء الشديد الملوحة أو المرارة .



وأشار في الآية السابعة إلى هبتين عظيمتين أخريين من هبات الله إلى عباده وهما : هبة الهداية في ظلمات البر والبحر «بواسطة النجوم» ، وهبة إرسال الرياح كمبشرات قبل نزول أمطار رحمته ، فحينما تنزل الأمطار تصدح الحياة بنعماتها وتكون أساساً لأنواع الحير والبركة .

١. يجب الانتباه إلى أن السحاب البخار المتراكم وتسميه العرب (صباحاً) جالفتح - مالم يفصل من الأرض فريد انفصل وعلاشفي (سحاباً وغيماً وعماماً) ، (تفسير الميزان ج ١ ، ص ٤١١) .

ويستند في نهاية الآية على هذين الموضوعين كوثيقة لإثبات وحدانية الله تعالى، ويخاطب المشركين: ﴿أَإِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ولعل ذكر هاتين الهمتين معاً إشارة إلى هذا المعنى وهو عندما يكون نحو صافياً يمكن الاستعادة من النجوم ليسلاً في الإهتداء إلى الطريق للوصول إلى الهدف وإذا كان الحو غائماً فتحة رحمة أخرى وهي المطر ينالها الإنسان، إذن ففي كلا الحالتين هناك موهبة ورحمة، وهو برهان لمعرفة الدات الإلهية المقدسة.



وهي الآية الثامنة إشارة إلى مسألة الريح وسرول الأمطار بتعبير جديد، فيقول: ﴿وَلَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾

هل أن المقصود من الآية الكريهة هو حمل حبوب اللقاح بواسطة الرياح لتلقح النباتات التي ستحمل العواكه والثمار من بعد ذلك، أم المقصود هو تلميح السحاب لكي يحمل المطر؟

وبالنظر لقوله في تكملة الآية: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُفُومًا﴾، فيظهر أن المعنى الثاني أكثر تناسباً، بالرغم من إمكانية الاستعادة من المعنيين معاً. على أية حال، فإن التعبير أعلاه تعبیر لطيف جداً حيث شبه قطع العيوم بالامهات والآباء، فتتلاقح هذه العيوم عن طريق الرياح ثم تحمل، وتضع جنينها أي قطرات الأمطار على الأرض!

ويشير في حتام الآية إلى المياه الجوفية المخرونة تحت الأرض، والتي هي من الذخائر الإلهية للناس، فيقول: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾.

فنحن الذين أمرنا طبقات الأرض أن تحتفظ بمياه الأمطار الصافية في داخلها، وقد تكون الآبار والقنوات التي تستخدمونها اليوم هي من احتياطي المياه التي ذخرت لكم منذ ملايين السنين في باطن الأرض، من غير أن تتلوث أو تتعفن.

وقد تقوم بمخزنها عن طريق تجميعها في قمم الجبال على هيئة جليد وتلج كي تصبح ماءً بشكلٍ تدريجي، وسقيكم أنتم وحيواناتكم ومرارهم، وربما يكون المياه التي تنحدر من القبة الفلانية اليوم مخزونة منذ ملايين السنين

XXXX

وفي الآية التاسعة، فبالإضافة إلى إشارته إلى نزول الأمطار من السماء، فهو يشير إلى مسألة تكون الينابيع، فيقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ»

و«ينابيع»: جمع «ينبع» وتعني العين. وهي في الأصل مأخوذة من مادة (نَبَعَ) وتعني انبثاق الماء من الأرض، ومن الطبيعي إن تكون الينابيع في الأرض الذي يجعل الإنسان يستفيد من الماء الجاري بدون الحاجة إلى قوة أخرى، يتبع ظروفًا خاصة أولها: أن تكون طبقة الأرض قابلة للاختراق كي يعمل الماء خلالها، ثم يجب أن يكون ما تحت هذه الطبقة صلباً كي يتوقف الماء ويحزن هناك، وأن يكون هناك فارق في المستوى بين خزانات المياه والمناطق الأخرى حتى يساق الماء من هناك إلى بقية النقاط، ومن المسلم به استحالة تناسق هذه الأمور لولا تخطيط مبدئ العلم والقدرة.

ويضيف في سياق الآية: «ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ».

فيمكن أن يكون اختلاف الألوان هذا إشارة إلى ألوان النباتات المختلفة تماماً، أو إشارة إلى أنواع النباتات وأزهار الزينة والأعشاب الطبية والصناعية والحضروات التي يأكلها الإنسان والتي لها أنواع لا تحصى في الواقع.

أجل.. إن الله تعالى يستخرج من هذا الماء الذي لا يول له مئات الآلاف من ألوان الورد والنباتات المنتشرة في هذه الرياض لكثيرة، وكما يقول الشاعر نقلاً عن اللغة الفارسية.

فإذا توصلت إلى أسرارها ستعرف أن هذا هو سر الأسرار
حيث هناك واحد ولا يوجد غيره «وحده، لا إله إلا هو»

لهذا فهو يقول في نهاية الآية «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ».

XXXX

وقد أُشير في الآية العاشرة إلى نكتة جديدة أخرى، فيقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾.

و«مُعْصِرَاتٍ»: جمع (مُعْصِر) من مادة «عَصَرَ» وتعني الصعظ، والمُعْصِرَات تسمى الضاعطات، وما هو المقصود هنا بهذا التعبير؟ لقد ذكروا تفاسير متعددة. فالبعض اتخذها صفةً للغيوم، إذ اعتبرها إشارة إلى نظام خاص يتحكم بها عندما تتراكم على بعضها، فكأنما تعصر نفسها كي تجري الأمطار منها، واعتبر هذا التعبير من المعاجز العلمية للقرآن الكريم^١.

إلا أن البعض الآخر اتخذها صفةً للرياح، واعتبرها إشارة إلى العواصف الرملية والأعاصير الشديدة والرواح الترابية، حيث لها تأثير عميق في تكوين الأمطار والرعد والبرق (علماً أن «الاعصار» يعني ربيع يرتفع بالتراب أو بمياه البحار).

فيقول هؤلاء: أثناء هبوب العواصف الرملية الشديدة على سطح البحار والمحيطات فإنها تحمل معها البخار من على سطح المحيط، وخمسا نصل به إلى نقاط الجو العليا الباردة جداً، وحيث تكون قدرة إشباع البخار هناك ضعيفة^٢ يحصل الرعد والبرق الشديد، وبما أن «ثَجَّاجًا» صيغة للمبالغة، وهي من مادة «تَجَج» على وزن (تَحَجَج) وتعني سكب الماء تساقطاً وبكثرة فهي تناسب كثيراً مع مثل هذا الرعد والبرق^٣.

واعتبرها البعض إشارة إلى الغيوم التي تتزامن مع العواصف الرملية والأعاصير^٤، فهذه العواصف تسوق الغيوم نحو الأعلى، وتأخذها نحو مناطق الجو الباردة حيث تتبدّل هناك إلى قطرات من الماء، وبما أن هذا العمل يتمّ سريعاً فهو يولد رواع رعدية شديدة وفي الماء الثَجَّاج. وتلاحظ كثرة مثل هذه الرواع الرعدية في فصل الربيع ولعله بسبب كثرة حالات الزوايع الرعدية والعواصف في هذا الفصل.

١. راجع كتاب الرياح والمطر، ص ١٢٦.

٢. اعتبار القرآن في نظر العلوم المعاصرة، ص ٦٧.

٣. التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٨. إذ ذكر هنا معنى كاحد لتفسير هذه الآية.

ويصيف في سياق هذه الآيات: «لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا • وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا»، ويشمل هذا التعبير جميع أنواع النباتات والحبوب وأشجارها كلها

﴿﴾

وفي الآية الحادية عشرة، وبعد بيان ما جاء في الآيات السابقة: «وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ»، يرد ما يلي: «وَأَنْزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا». وهذا موضوع جديد حيث يستند إليه في هذه الآية.

و«الطهور»: صيغة مبالغة من «الطهارة» وسماوة حيث تفيد طهارة الماء وكذلك كونه مطهراً، ولو لم تكن للماء صفة التطهير لتلوثت كل مقومات حياتنا وأجسامنا وأرواحنا خلال يوم واحد، ويمكن أن نلمس حقيقة هذا الكلام إذا ما ابتلينا تارة بفقدان ماء للتنظيف، حينها يصعب توفير الغذاء، وسن فقد نظافة الجسم والنشاط والطراوة والصحة والسلامة. صحيح أن الماء لا يقتل الحرائيم ولكنه (مطهر) جديد فهو يقوم بتحليل أنواع الجراثيم وإزالتها، ولهذا فهو عامل مؤثر في تأمين السلامة، ويظهر روح الإنسان من الأدران عن طريق الوضوء والغسل أيضاً.

وليس عبثاً أن يأتي في الآية «لَنُخْرِجَ بِهِ بَلَدًا مَّيْتًا»

﴿﴾

ثم يواجه في الآية الثانية عشرة ولأخيرة مسألة جديدة وهي أن الله تعالى يسوق المياه إلى الأرض «الْجُرْز» أي العانة اليابسة الحانية من الكلاً، فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ؟» «فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ»، فيأكلون الحبوب وتأكل بهائمهم السوق والأورد والجذور

ويستفاد من كلام أرباب اللغة أن «الْجُرْز» مأخوذة من الأصل من مادة (ج ر ز) على وزن (مَرَضَى) وتعني (الانقطاع) أي انقطاع الماء، ولبات، والإعمار والطراوة، ولذا يقال

للناقة التي تأكل وتقطع كل شيء بـ «ناقة جرور»، ولمن يأكل كل ما موجود على حوان الطعام ويفرغها تماماً بـ «رجل جرور»^١.

ويقول في نهاية الآية داعياً إلى التفحص في هذه النعم الإلهية العظيمة وآيات التوحيد: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

ولكن لماذا تقدمت «الانعام» على الإنسان في الآية المذكورة؟ يقول بعض المفسرين: لأن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان بالإضافة إلى أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه، في حين أن الإنسان غذية أخرى^٢.

النتيجة:

يستفاد جيداً من الآيات الآتية وبالاتباه إلى المسائل الدقيقة والطريقة التي انعكست فيها. أن هناك نظاماً دقيقاً جداً ومصبوطاً يسود وجود الرياح والعموم والأمطار، حيث كلما أطال الإنسان التمعن فيها تزداد معرفته بالطريقة والماضيات والبركات الكامنة فيها.

فقد اعتبر الماء في بعض هذه الآيات أساساً للحياة، وفي بعضها وسيلة للظافة، وفي بعضها كموجود مبارك (سورة ق، ١)، وفي بعض الآخر كمشروب سائغ ﴿مَاءٌ قُرَاتٌ﴾.

(المرسلات / ٢٧)

ومن مجموع ذلك فإنا أئتما وجهها الطر وحدقنا بعر على آثار حكمة الله البسلفة، وأئتما يقع بصرنا تتجلى لنا صورة من العظمة لإلهية



توضيحات

١- تكوين الرياح وقوائدها

إن مصدر حصول الريح هو الاختلاف في درجة الحرارة بين منطقتين مختلفتين من

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، و مصباح اللغة.

٢. تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ١٨٧.

الأرض، ويمكن تجربة هذا أثناء فصل الشتاء حيث يكون هواء العرقة حاراً وفي خارجها بارداً، فلو وضعنا شمعتي إضاءة عند طرفي الباب العلوي والسفلي وفتحنا الباب قليلاً سيتضح هذا الأمر جيداً إذ إنَّ لهواء ليارد ويسبب ثقله يدخل من الأسفل والهواء الحار يخرج من الأعلى لنفثته فيحرك شمعةً لشمعةً باتجاهه (إنَّ الهواء الحار يكون ممدداً وخفيفاً والهواء البارد مضغوطاً ثقيلًا)، ولو لم تكن هذه الصفة وتوقف الرياح عن الحركة فأيُّ بلاءٍ عظيم سهنزل على الإنسان؟!)

كما عرف أيضاً أنَّ للكُرة الأرضية ثلاث مناطق، فالمِنطقة الباردة (الأطراف القطبية)، والمِنطقة حدًّا (المناطق الاستوائية)، والمعتدلة (المناطق التي تتوسط هاتين المنطقتين) وهذا الاختلاف في درجات الحرارة على لأرض يكون سبباً في انتقال الهواء من جهةٍ إلى أخرى وأهمُّه الرياح التي تُسمى «الرياح القطبية» (وهي الرياح التي تهبُّ من القطب نحو المنطقة الاستوائية ولأنَّها تكون باردةً فهي تنسحب بالقرب من سطح الأرض)، والرياح «الاستوائية» (وهي الرياح التي تهبُّ من المنطقة الاستوائية نحو القطب وبما أنَّها تكون حارةً فهي تتحرك في طبقات الجو العليا) ^١.

فضلاً عن أنَّ ماء المحيطات لا يكون حاراً كحرارة السواحل أثناء شروق الشمس، إضافة إلى أنَّ ماء البحر يفقد حرارته لِهَلَا اسرْعُ ممَّا يفقده الساحل، فهذا الاختلاف في درجات الحرارة بين ماء البحر والساحل يتسبب أيضاً في هبوب الرياح باستمرار من البر إلى البحر ومن البحر إلى البر أيضاً.

وإضافة إلى كل هذا فإنَّ كروية الأرض تؤدي إلى أنَّ تقع بعضُ المناطق في مواجهة الشمس مباشرة (أثناء الظهر)، وأنَّ تشعُّ الشمس على المناطق الأخرى بشكلٍ مائلٍ (أثناء الشروق والغروب)، فهذا الاختلاف في درجات الحرارة أحد أسباب حصول الرياح في مختلف المناطق أيضاً (وكذلك هناك عوامل معقَّدة أخرى)

وتتظاهر هذه الأسباب في تحريك الرياح في سائر أنحاء الكُرة الأرضية وتترامن معها

الفوائد الجمة التالية التي نمت الإشارة إليها في الآيات السابقة :

- ١ - للرياح نصيبٌ مهمٌ في تكوين الغيوم بسبب هبوبها على المحيطات .
 - ٢ - إنَّ الرياحَ تصطحبُ معها الغيوم إلى لمناطق الجافة واليابسة ولولاها لاحترق جانبٌ كبير من الكرة الأرضية بسبب الجفاف .
 - ٣ - إنَّ الرياحَ تُلطِّفُ الجوَّ وتجلبُ الاوكسجين الضروري من المناطق البعيدة .
 - ٤ - إنَّ الرياحَ تأخذ معها التلوث حيث تساعد في تنقية الجو عن هذا الطريق .
 - ٥ - إنَّ الرياحَ تُقلِّلُ من شدة حرارة الشمس على أوراق الساتات ، وتمنع احتراقها بهذه الأشعة ، وبصورة عامة فإنها وسيلة مهمة لاعتدال اجو في بقاع الأرض .
 - ٦ - إنَّ الرياح - وكما قلنا في تفسير الآيات - تعصُرُ الغيوم وتُعِدُّها لإنزال المطر .
 - ٧ - إنَّ الرياح تسوقُ الغيوم نحو طبقات الجو العليا ، ويسبب البرودة وفقدان قدرة تحمل الاشبايع تتحول إلى قطرات مطرٍ تهبط الحياة .
 - ٨ - إنَّ الرياح تُحرِّكُ السحب الشراعية في المحيطات ، كما أنها تُعبرُ أحد المصادر المهمة للطاقة .
 - ٩ - تُستخدم الرياح لتشغيل الطاحونات تهوائية .
 - ١٠ - إنَّ الرياح تُعتبرُ وسيلة مهمة جدًّا لتمر رعين في تصفية الحنطة وغيرها وعزلها عن التبن .
 - ١١ - إنَّ الرياح تعملُ على تحريك مياه البحر فتحصل الأمواج وهذه الأمواج تؤدي بدورها إلى اختلاط الهواء مع الماء ، فيكون أساساً لحياة الموجودات في البحر ، ولولا الرياح والأمواج لتبدَّل البحر إلى مستنقع آس لا حياة فيه .
 - ١٢ - وختاماً فإنَّ الرياح تساهم في تلقيح النباتات ، إذ تحمل حبوب اللقاح إلى الأحرار الانثوية ، ولو تقاعست عاماً واحداً لتناقصت كمية الفاكهة المستجة لدينا !
- هذا جانبٌ من بركات هبوب الرياح الذي توصَّل إليه العلمُ البشري حتى الآن ومن المسلمَّ به أنَّ بركاتها لا تنحصر بما قلناه ، ويبقى الانتظار حتى يرفع العلمُ الحجابَ عن

أسرار جديدة، ولكن كلاً من الأمور المذكورة أعلاه يكفي لوحده أن يبرهن لنا على علم وقدرة الخالق جلّ وعلا، ناهيك عن مجموعها، فكم هو رحيم ورؤوف ذلك الإله الذي يُكِنُّ لعباده كلّ هذا النطق والمحبة، وكنّ مدينة بـ (البركة) تلك «الحركة» التي تترك كبل هذه الآثار الايجابية المهمة أثناء هبوب ذرات الهواء ؟.

XXXX

٢ - أسرار تكوين الغيوم وهطول الأمطار

لا يحفى أنّ الغيوم هي ذرات بحار الماء، أو بتعبير أكثر دقة هي ذرات الماء التي انفصلت جزئياتها عن بعضها وتحولت إلى بخار.

إنّ التمعّن في ما يخصّ تكوين الرياح والأمطار يكشف لنا أسراراً لطيفة عن هاتين الطاهرتين المجبيتين، منها:

١ - إنّ أغلب السوائل لا تبخر إذا لم تصل إلى درجة الغليان، إلا أنّ الماء من السوائل المستثناة حيث يتبخر في أي درجة من الحرارة، ولولا هذه الميزة في الماء لما تبخرت قطرة واحدة من ماء البحر، ولما تكوّنت الغيوم ولما برست المطر ولا احترقت اليابسة من الجفاف.

٢ - وهذا ما يجدر بالاهتمام أيضاً، فثناء عملية التبخر يتبخر الماء الصافي فقط، وتبقى الأملاح والذرات الأخرى التي فيه في مكانها، أي أنّ هناك عملية تصفية طبيعية كي ينال البشر المياه الصالحة.

٣ - لو لم تكن الطبقات العليا من الجو أكثر برودة من الطبقات السفلى لما امطرت الغيوم المضطربة في الجو أبداً، ولكن هذا الاختلاف في درجات الحرارة هو الذي يؤدي إلى نزول الأمطار، وكذلك لو كانت قدرة إشباع ذرات انبحار متساوية في الهواء البارد والحرار لما نزلت الأمطار، ولكن بما أنّ الهواء البارد له قدرة إشباع ضعيفة عنه يُنزلُ البخار الذي تحول إلى ماءٍ

٤- إنَّ الأمطار إضافة إلى توفيرها للماء الضروري لنمو النباتات ، تقوم بغسل الأرض وتحمل الأوساخ معها نحو البحار .

٥- إنَّ الأمطار تُنظِّفُ الجوَّ أيضاً ، وتقوم بإزالة التراب والغياب والذرات المعلقة في الجو التي تذوب فيها إلى الأرض ، ولولا هطول الأمطار لتلوث الجو بعد مدة قصيرة واستحال التنفس على الإنسان .

٦- إنَّ الأمطار تفصل صحور الجبال شيئاً قشياً ، ليخرج منها التراب الذي يمكن استثماره ، فتمتد السهول الواسعة على سطح لأرض

٧- إنَّ الأمطار تحمل معها الاتربة العسبة من المناطق البعيدة وتشرها في المزارع لتقويتها . كما يجلب جريان الماء معه أفضل الأسمدة الطبيعية للنباتات إلى بعض المناطق (كسواحل النيل) .

٨- إنَّ الأمطار لا تهبط الحياة في المناطق الجافة محسب ، بل إنَّ هطول الأمطار على البحار يُعتبر مؤثراً للغاية أيضاً ، وليس أقل من تأثيره في المناطق اليابسة كما يقول بعض العلماء . لأنَّ سقوط الأمطار في البحر يساعد على نمو النباتات الصغيرة في وسط أمواج المياه ، حيث تكون طعاماً مناسباً جداً للأسماك والاحياء البحرية ، وفي السنة التي يقلُّ فيها نزول الأمطار يسوء فيها وضع الصيد .

٩- إنَّ ارتفاع العيوم عن سطح الأرض أكثر من ارتفاع أعلى نقاط الأرض ولهذا فلا تحرم أية بقعة من الاستفادة من ماء المطر .

١٠- إنَّ العديد من أشجار الغابات والأعشاب الطبية والغذائية تنمو على سفوح الجبال الشاهقة ، وهذا يدل على أنَّ الأمطار تقوم بإبصال لكمية اللازمة من الماء إليها ، ولولا الأمطار لاصبحت هشيماً يابساً .

١١- لو تأملنا جيداً بالسود الصحمة التي أنشئت في عصرنا هذا والتي تؤمن جانياً مهماً من الطاقة الكهربائية في العالم ، وتقوم بتشغيل لمعامل الملاقة لوجدناها من بركات هطول الأمطار على المناطق الجبلية

١٢ - إن بعض ترشحات الغيوم تنزل إلى الأرض على هيئة جليد فتتراكم على قمم الجبال كمصادر للمياه ، وتقوم بتعدية حوانات المياه الموجودة تحت الأرض أيضاً لأنها تذوب تدريجياً وتتفقد داخل الأرض ، وبكى لو تساقط الجليد باستمرار بدلاً من المطر لتعدم عندئذ الكثير من المنافع التي ذكرت .

١٣ - الغيوم بحار معلقة في السماء ، وما أعظم لإله الذي يرسل كل هذا الماء إلى السماء خلافاً لقانون الجاذبية ، ويقوم بحمله بسهولة من نقطة إلى أخرى .

١٤ - بالإضافة إلى كل هذا فإن للغيوم تأثير ملموساً في خفض درجة الحرارة شتاءً وخفض درجة الحرارة صيفاً .

١٥ - إن الغيوم تحمل الشحنات الكهربائية المختلفة حيث تؤدي إلى وقوع الرعد والبرق ، وسوف نتحدث عن هاتين الظاهرتين في البحث الذي يتعلق بالرعد والبرق إن شاء الله

وعلى العموم فإن هاتين الظاهرتين اللتين تعتبرهما من الأمور العادية جداً تنبجها لأنسباً بهما ، مدهشتان ومليتان بالأسرار ، ويمكن مشاهدة آيات التوحيد العظيمة في أعماق أسرارهما ، والوصول إلى عظمة تلك الدات المقدسة من خلال هذه الآيات العظيمة .



٣ - الرياح والأمطار في الروايات

نقرأ في الحديث المعروف بتوحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال :

«وانبهلك يا مفضل على الريح وما فيها ، ألت ترى ركودها إذا ركبت كيف يحدث الكرب الذي يكاد أن يأتي على النفوس ، ويترص الأصحاء وينهك المرضى ، وينفسد الثمار ، ويخن البقول ، ويحب الرياح في الأبدان ، والآفة في الغلات ففي هذا بيان أن هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق .

ولو أن ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته قناطير من ذهب وفضة ألم يكن سيظم

عندهم وينهب له به الصوت ؟ فأين هذا من مطرة رواء ؟ إذ يعمر به البلاد ويمزيد في
الغلات أكثر من قناطير الذهب والفضة في أقاليم الأرض كلها
تأمل نزوله على الأرض والتسبير في ذلك فإنه جعل ينحدر عليها من علو ليتفشى ما
غلظ وارتفع منها فيرويه ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا على المواضع
المشرقة منها ويقل ما يزرع في الأرض وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مژونة
سياق الماء من موضع إلى موضع ، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى
يستأثر بالماء ذوو العزة والقوة ويحرمه الصعفاء . ثم إنه حين قلّر أن ينحدر على الأرض
انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش ليعور في قطر الأرض فيرويهما ولو كان يسكب
انسكاباً كان ينزل على وجه الأرض فلا يعور فيها ثم كان يحطم الزرع القائمة إذا اندفق
عليها فصار ينزل نرولا رقباً فينبث الحب للزروع وفي نزوله أيضاً مصالح أخرى فإنه
يلين الأبدان ويجلو كسر الهواء فيرتفع الهواء الحادث من ذلك ويعسل ما يسقط على الشجر
والزروع من الداء .

ويقول في جانب آخر من الروايات :

« ففكر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يعتبان على هذا العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام
واحد منهما عليه كان في ذلك فساد ، ألا ترى أنّ الأمطار إذا توالى عفت البقول والخضر
واسترخت أبدان الحيوان وخصر الهواء فأحدث ضرراً من الأمراض وفسدت الطرق
والمسالك وأنّ الصحو إذا دام جفت الأرض واحترق النبات وغيض ماء العيون والأودية
فأضر ذلك بالناس وغلّب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً أخرى من الأمراض فإذا تعاقبا
على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الأشياء
واستقامت »^١ .

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام السجاد عليه السلام :

« أنزل من السماء ماء يعني المطر ينزل من أعلى ليبلغ قلال جبالكم وتلالكم ومضاهكم

واوهادكم ثم فرقه رقاًذاً وواهباً وهطلاً لتشفه لرضوكم، ولم يجعل ذلك المطر ناراً عليكم قطعة واحدة فيفسد أرضيكم وأشجاركم ووروعكم وثماركم»^١.

٤ - لقد كشفت البحوث الحديثة للعلماء انقاب عن أسرار جديدة وبيّنت التأثيرات المهمة للرياح في نزول الأمطار بكيفية جديدة حيث يُعتبر التوضيح الآتي نموذجاً منه (يجب توفر شرطين لتكوين الغيوم وهطول الأمطار) وهما:

١ - وجود بخار الماء في الهواء.

٢ - تشبع الهواء بالبخار وتغطيره.

أما فيما يتعلق بالشرط الأول فيالرغم من أن للهواء لا يخلو على الإطلاق من بخار الماء وتبلغ ادنى نسبة له نحو ٥٠ غراماً في لمتراً المكعب، إلا أن هذا المقدار من الرطوبة لا يكفي لتكوين الغيوم ونزول الأمطار، بل يجب امداده باستمرار، أي يجب أن يصل هواء حديد محثّل ببخار الماء بعد تكوين الغيوم ونزول الأمطار نهائياً، ويستمر هبوب الرياح، ويكون انطلاقها أو مسيرها من البحر أو العاصفة الكيفية كي تزود من الرطوبة بالمقدار اللازم وأما الشرط الثاني أي الوصول إلى حالة الاشباع وحصول ظاهرة التغطير (تعرق الهواء وتحول البخار إلى سائل) فهذا يستلزم برودة الهواء، كما يحدث في الشتاء إذ يتعرق رجاح شبابهك العرف التي تحتوي على ما يكون البخار كالسماور واندر ..

والعامل الوحيد المؤثر في برودة الهواء والذي يوصله إلى مرحلة تكوين الغيوم والتغطير هو ارتفاع الهواء وعلوه، ويحدث ارتفاع الهواء على ثلاثة أشكال أو في ثلاث حالات، وينزل في كل حالة منها مطرٌ خاصٌ وهي:

(أ) اصطدام الهواء بالأجرام الباردة من الأرض والصعود من وسط الجبال حيث تنتج عنه الأمطار الجبلية.

(ب) حرارة وخفة الهواء وصعوده السريع ثراشعة الشمس وملامسة المناطق الحارة وتنتج عنه (أمطار العواصف).

١ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤١، بحار الأنوار، ج ٥٦، ص ٣٤٤ - ٣٧٤ أيضاً وردت رواية أشدت إلى أسرار تكوّن الغيوم والمطر.

ج) اصطدام جناحي الهواء الحار والبارد وتقليبهما وتنتج عنه (الأمطار الغزيرة)، وأن الغيوم والأمطار كافة تنشأ عن أحد هذه الحالات الثلاث وأهمها النوع الأخير إذن فالهواء يرتبط بالغيوم والأمطار في كل المراحل فهو يتدخل ابتداءً من حمل البخار وابطاله إلى المناطق الجافة، مروراً وانتهاءً بهر الغيوم وانزال المطر، وليس من الممكن حصول الغيوم والأمطار بدون الهواء، والمعروف أن الغيوم ليست سوى الهواء (أي الهواء المحتل بالماء).

وورد في قسم آخر من هذا البحث: «إن قطرات الأمطار تهطل من الغيوم المتكونة من عدة طبقات والتي ترتفع أكثر من عشرة كيلو مترات، وهذه الغيوم العارية الصاخبة تظهر على هيئة جبال حيث يغطي القسم الأعلى منها بقصبان الثلج وقطع الجليد وقد تكون ممثلة بالبرد».

وحتى قبل الحرب العالمية الأولى حيث تمكنت الطائرات حينذاك من الارتفاع فوق الغيوم وشاهد الطيارون الستائر المكونة من الجليد والباشنة من الغيوم المنصاعدة، لم يكن لأي شخص علم بوجود الجليد والبرد في غيوم السماء.

«فالصعود المتقلب للطبقي للرياح الرطبة والحارة يؤدي إلى تكوين جبال عالية من الغيوم المتجمدة التي تتراكم مع الروبع الشديدة وسط الرعد والبرق المتتابعين»^١

ويمكن أن يعطي هذا التوضيح تفسيراً جديداً للآية ٤٣ من سورة النور ويرفع الحجاب عن معجزة علمية لطيفة للقرآن الكريم، حيث يقول: «وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ لَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكُذِّبُنَا بَرْدُهُ يَصْهَبُ بِالْأَنْهَارِ» فأي جبل في السماء توجد فيه قطع البرد؟ هذا لسؤال الذي كان صعباً ومعتقداً بالنسبة للكثيرين، ولهذا فقد ذكروا له عدة تفاسير.

ولكن من خلال الاكتشافات أعلاه يتضح عدم الحاجة إلى التبرير والتقدير والمجاز وامثال ذلك لتفسير الآية المذكورة. ويتبين معنى الآية في ظل هذا الأمر^٢

١. الهواء والمطر، ص ٥٧ - ٦٥ (مع الاختصار).

٢ من أجل المزيد من الايضاح يراجع التفسير الأمثل، دهر الآية ٤٣ من سورة النور

١٢ - آياته هي حدوث الرعد والبرق

التمهيد:

هناك القليل من يولي احدى اهمام لاهاتين الظاهرتين السماويتين قبل دراسة أسرار الرعد والبرق ، وعادة ما يمر الحمص عليها مرور كرام ، ولعل بعضهم ينظر إليها وكأنها مراح الطبيعة ، كما يتحدث بعض اخر حولها بقصص خرافية ، إلا أن الحقيقة هي أن هاتين الظاهرتين تحدثان من خلال نظام خاص ، ولهما آثار وبركات جديرة باهتمام الإنسان حيث سيأتى شرحها في تفسير الآيات الآتية:

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين بعض آيات نمران الكريم في هذا المجال :

- ١ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم / ٢٤)
- ٢ - ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾. (الرعد / ١٢)
- ٣ - ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾. (الرعد / ١٣)



شرح للمفردات:

«البرق»: كما يقول الراغب في المفردات تعني في الأصل النور الذي يظهر من العيوم ، ثم استعملت للتعبير عن كل شيء ساطع ، فمثلاً يقول للسيب اللامع: (السيب البارق).

إضافة إلى ذلك، يستفاد من «مقاييس اللغة» أن «البرق» له معنى آخر، وهو اجتماع السواد والبياض في شيء واحد، وبكسر الظاهر أن المعنى الثاني يعود إلى المعنى الأول. السواد عندما يكون إلى حاسب البياض يُسمى بريقاً أكثر، كما اعتبر بعض مفهوم الشدة والصفط جزءاً من معنى البرق أيضاً فيقولون، إن البرق واللمعان يحدثان بشكل خاص من خلال الشدة والصفط^١.

ويقول «الراغب» إن «الرعد» هو صوت العيوم، ويستعمل كناية أيضاً عن تحطم وسقوط الشيء الثقيل المنزاع مع الصوت لأن صاحب «مقاييس اللغة» ذكر أن معناه الحقيقي هو الحركة والاضطراب، وبكى بصورة عامة، يستفاد جيداً من كتب اللغة أن المعنى الحقيقي هو الصوت الذي يطلق من عيوم، وبقيت المعاني لها صبغة كناية و«الصواعق»: جمع «صاعقة»، وتسمى في الأصل الصوت الشديد المهيب الذي يطلق من الجوف مصحوباً بريق ناري عظيم، وجاءت هذه السادة أيضاً بمعنى الدهول بسبب سماع الاصوات القوية، وقد يستعمل بمعنى الهلاك أيضاً وقال بعض أرباب اللغة إن موارد استعمال الصاعقة ثلاثة وهي: «الموت» و«العذاب» و«البار»^٢ إلا أن الظاهر أن جميعها من لورده المعنى الحقيقي.

❦❦❦

جمع آيات وتفسيرها

أسرار خلق الرعد والبرق:

تعتبر الآية الأولى من البحث بشكل صريح، أن يرق السماء من آيات الله فتقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا» هذه الآية تارة تذكر الخوف وأحياناً الأمل والرجاء الخوف الناتج عن الصوت المهيب الذي يرافق الرعد، واحتمال تزامن مع صاعقة

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة (برق)

٢. مفردات الراغب، وسان العرب، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم

مميتة، والأمل والطمع بسبب احتمال نزول المطر، لأنه في كثير من الحالات يعقبُ الرعدُ والبرقُ زواجٍ مليئةً بالبركة.

ولعلَّه لهذا السبب يضيف في سياق هذه الآية ﴿وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَغْدًا مَوْتَهَا﴾

فالأرضُ اليابسة والمحترقة تحيي بعدلٍ من المطر والغيث الذي يهب الحياة، بحيث تنبت الأزهار والنباتات فيها وكأنها ليست تمك الأرض السابقة.

ولهذا يضيف في نهاية الآية للتأكيد فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. فهم يفهمون أنَّ هذه الظواهر ليست ظواهر عادية تحدث صدفةً، فيتفكرون فيها ويتعرفون على أسرارها.



وورد هذا المعنى في الآية الثانية من بحثنا بتفسير آخر تعريفاً بالدات الإلهية المقدسة عن طريق آثاره فيقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾^١ الخوف من الصواعق والتعاؤل برول المطر، أو خوف المسافرين، وتعاؤل المقيمين في المدن والارياف.

واللطيف أنه يقول بعد ذلك مباشرة: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾. وقيل في بيان هذه الجملة (تتزامن مع العوصف القوية كُتْلُ من العيوم، فتتغلي اعالي الجو القريبة من الأرض، فيصبح الجو مظلماً، وتتولد شحنات كهربائية نتيجة تلامس الرياح، وتهتز الأرض والجو بسبب صوت الرعد المتتابع، وأخيراً فإن العيوم المتراكمة في طبقات الجو السفلى كثيفة ومحملة بكثير من قطرات الماء الكبيرة لذلك تكون ثقيلة للغاية على الرياح المحركة^١.



ويشير في الآية الثالثة والأخيرة من بحثنا إلى طاهرة «الرعد» فيقول: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾.

ويُبين هذا التعبير أن هذه الطاهرة السماوية ليست مسألة عادية، بل تُبَيِّنُ عن علم وقدرة الله تعالى، لأن «التسبيح» يعني التزويد عن كل عيب ونقص، و«الحمد» تعني شكره مقابل الكمالات، وعليه فإن صوت الرعد يتحدث عن الأوصاف الجمالية والجلالية لله تعالى!

ويمكن أن يكون هذا الكلام بلسان الحال، كما يتحدث أختراعهم عن علم ووعي المخترع، أو لوحة جميلة جداً عن الذوق بحاد للرسام، أو قطعة شعرية عن الذوق الأدبي للشاعر، فتمدحه وتشكره، فتكون لسان حال، كما قال بعض المفسرين بأن لدى ذرات هذا العالم كافة عقلاً وشعوراً، كل حسب حظه، وتسبيحها وحمدتها يسع من العقل والشعور والإدراك.



يقول الصحر الرازي في تفسيره:

«فلا يبعد من الله تعالى أن يُخلق الحياة والعلم والقدرة والطق في أحرار السحاب فيكون هذا الصوت المسموع من الأفعال لاحتيارية لله سبحانه وتعالى وكما هو تسبيح الجبال في زمن داود عليه السلام وتسبيح الحصى في زمان محمد ﷺ»^١. فليكن أي الاحتمالين، فليس هناك اختلاف في بحثنا، وعلى كل حال فإن هناك أسراراً خفية في هذه الظاهرة السماوية حيث تكشف عن عطية الخالق وتمثل آية من آياته.

والمعروف أن الماء والبحار، والعيون الناتجة منهما عناصر لا تتسجم مع النار، ولكن بقدرة الخالق تنطلق منها بار هائله كثر احرقاً من أنواع النيران الموجودة على الأرض كافة، وكذلك البخار، الجسم اللطيف جداً، ولكن يطلق منه صوت لا ينطلق من سقوط أثقل وأقوى الأجسام.

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أن كلاً من «الرعد» و«البرق» من ظواهر عالم الوجود الجديرة بالاهتمام ويجب دراستها بجدية، للتوصل إلى أسرارها، والتعرف على عظمة الخالق عن طريقها، وسيأتي هذا الأمر في قسم توصيحات إن شاء الله تعالى.

❦❦❦

توضيحات

١ - الرعد والبرق في نظر العلم المعاصر

يعتقد العلماء المعاصرون أن برق السماء يحدث من خلال تقارب كتلتين من الغيوم المحملة بالشحنات الكهربائيه المختلفه واحده موجبة والأخرى سالبة، فتحدثان برقاً كما يحصل من اقتراب قطبيّ التوصل الكهربائي تماماً.

وحيث تتحمل قطع الغيوم بالشحنات الكهربائيه العظيمة يكون برقها عظيماً أيضاً، ونحن نعلم أن لكل برق صوتاً، وكلما اشتد البرق كلما تعاظم صوته، ولهذا قد يكون الصوت المهيّب لهذا البرق من الشدة بحيث يهرّج جميع المباني ويحدث صوتاً كالقنابل الشديدة الانفجار.

ولكن البرق لا ينتج نتيجة اقتراب كتلتين من الغيوم دائماً لتكون بعيدة عن متناول الإنسان ولا تسبب أي خطر، بل قد تقترب الغيوم المحاوية على الشحنات الموجبة من الأرض، وبما أن الأرض تحتوي على الشحنات السالبة لذلك يحدث البرق بين «الأرض» و«الغيوم»، وهذا البرق العظيم الذي يسمى بالصاعقة خطيراً للغاية، فهو يحدث هزة شديدة في المنطقة التي يقع فيها، وكذلك يولد حرارة عالية جداً بحيث إذا أصابت أي شيء تجعله رماداً^١.

١. مع أن مدة الصاعقة لا تتجاوز عُشر الثانية وقد تكون — من الثانية، ولكن الحرارة التي تنتج منها تصل إلى ١٥٠٠٠ (ساتيراد) بإمكانها التسبب في حدوث احطار بدرجة الشدة حرارة سطح الشمس ٨٠٠٠ فقط (احجار

ونظراً لتجمع الشحنات على الأجزاء لمدينة للأجسام ففي الصحارى التي تحدث فيها الصواعق، يظهر البرق في النقاط المرتفعة كروؤوس الأشجار، وحتى رأس الإنسان المار عبرها، لذلك يعتبر التوقف في الصحارى أثناء العواصف المليء بالرعد والبرق خطيراً للغاية، وفي مثل هذه الحالات يمكن أن يربى اللجوء إلى الوديان أو الاقتراب من الأشجار واسفل الجبال والتلال الحطير إلى حد ما (ب) الابتكاء على الأشجار والشبابيك الحديدية لا يخلو من خطورة أيضاً).

ويتضح جيداً من خلال الإشارة أعلاه خطر البرق وعامل الخوف الذي أشير إليه في الآيات الآتية.

٢ - فولند وبركانه للرعد والبرق

بالرغم من الاخطار التي تصاحب الرعد والبرق أحياناً إلا أن لهذه الظاهرة فوائد جمّة تشير إلى بعضها هنا.

(أ) الري - من المعروف أن البرق يولد حرارة عالية جداً، قد تبلغ ١٥ ألف درجة سانتيفراد، وهذه الحرارة كافية لاحتراق معدن كبير من الهواء المحيط ممّا يؤدي إلى هبوط الصعط الجوي مباشرة، ونحن نعلم أن العيوس تمطر أثناء هبوط الصعط، ولهذا فعالباً ما يبدأ نزول المطر عقب حدوث البرق وتزل قطرات الأمطار الكبيرة، وفي الواقع يعتبر الري من هذا الجانب أحد بركات البرق.

(ب) رش السموم - عندما يظهر لبرق بتدك الحرارة، تترود قطرات المطر بكميات إضافية من الاوكسجين، فيحصل الماء الثقيل أي الماء المؤكسد (H_2O_2)، ونحن نعلم أن من آثار هذا الماء هو القضاء على اجراثيم، ولهذا يستعمل طيباً في تنطيف الجروح، فهذه القطرات تقضي على بيوض الآفات المسببة لأمراض النباتات عندما تنزل إلى الأرض، وتقوم برش السموم على أحسن وجه، لذلك فقد قنوا في كل سنة يمل فيها الرعد والبرق ترداد الآفات النباتية.

ج) التغذية والتسميد - إن قطرات المطر وثر حدوث البرق وحصول الحرارة الشديدة الناتجة عنه وتركيبها الحامض ، تحصل على حبة من حامض الكاربونيك ، فتقوم بتكوين سماد نباتي مؤثر أثناء تناثرها على الأرض وتحللها فيها ، فتعدي النباتات عن هذا الطريق .

ويقول بعض العلماء : إن كمية السماد الحاصل من حالات البرق في السماء خلال سنة واحدة يبلغ عشرات الملايين من الاطنان ، وهذا رقم مرتفع للغاية .

بناءً على ذلك نرى أن هذه الظاهرة الطبيعية العادية وغير المسهقة إلى أي حد مفيدة ومليئة بالبركة ؟ فهي تسقي ، وترش السموم أيضاً ، وتقوم بالتغذية ، وهذا نموذج صغير من الأسرار العجيبة لعالم الوجود حيث يصلح أن يكون دليلاً في الطريق لمعرفة الله

كل هذا من بركات البرق ، ولكن لحرارة التي تنتج عن نوع منه وهي الصواعق من حاسب آخر قد تحرق الإنسان أو الحيوان والمزارع والأشجار ، بالرغم من أن هذا الأمر قليل وتندر الوقوع ويمكن احتسابه ، إلا أنه بإمكانه أن يصبح عامل خوف وقلق ، وعليه فإن ما قرأناه في الآية السالفة بأن البرق أساس للخوف وأساس للأمل أيضاً قد يكون إشارة إلى مجمل هذه الأمور .

ومن الممكن أن تكون عبارة ﴿ وَنُفِثَ السَّحَابَ الْثِّقَالَ ﴾ الواردة في نهاية الآية لها ارتباط بميزة البرق هذه التي تؤدي إلى تحلل نفيم بقطرات الأمطار



مکتبہ اسلامیہ

١٣ - آياته في خلق البحار والفلك

تمهيد:

نحن نعلم أن الماء يغطي ثلاثة ارباع سطح كرة الأرضية، وأن المحيطات والبحار ترتبط مع بعضها، كما نعلم أن الإنسان قد استمر البحار للحمل والنقل منذ غابر الأيام على الفصل وجهه، بالإضاعة إلى استغلاله لجانب مهم من الموارد الغذائية الكامنة في البحر، وكذلك فإن القسم الأعظم من مختلف المواد التي نستخدم في الصناعات تُستخرج من البحار والأهم من كل ذلك، أنه لا يخفى على أي شخص دور البحار في تكوين اليوم وسقي الاراضي الهائلة كافة، وواضح للجميع تقريباً وصح حيوانات البحار وتنوعها وعجائتها. لهذه الأسباب اعتبر القرآن الكريم البحار والفلك من آيات الله، ودعا الناس إلى التمعن في أسرارها.

بعد هذا التمهيد نتمم وجوها صوب القرآن الكريم ونقرأ حاشعين الآيات الآتية:

- ١ - ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل / ١٤)
- ٢ - ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر / ١٢)
- ٣ - ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البجائية / ١٢)

- ٤- «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ * إِنَّ يَشَأْ يُشْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (الشورى / ٣٢-٣٣)
- ٥- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (لقمان / ٣١)
- ٦- «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ... لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (البقرة / ١٦٤)
- ٧- «رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلُوكَ فِي الْبَحْرِ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» (الاسراء / ٦٦)



شرح المفردات :

«البحر»: حسب قول الراجب في «المفردات» هو المكان الواسع الذي يتجمع فيه ماء كثير، كما يطلق على كل شيء واسع، و«متبحر» أو «ممتبحر» - يقال للشخص الذي يمتلك علماً واسعاً، ويقال للبحر الذي يحدث لتسبيل فجأة «بحران» (ثم أطلق لفظ «بحران» على الحوادث العادية) واعتبر بعض أن الملوحة تدخل في مفهوم «البحر» علماً أن البحر يطلق على الماء العذب أيضاً^١، و«الفلوك» (على وزن قفل) وتعني السفن، ويستوي فيها الممرد والجمع والمذكر والمؤنث، ولفظ «فلوك» (على وزن فذك) يعني مسير ومدار النجوم تفرغ من هذا الأصل.

و«الجواري» جمع «جارية» وهي مأخوذة في الأصل من «الجري» أي العبور السريع، ويقال «جارية» للسفن التي تجري وتتحرك في البحار، ويقال للشاية في لغة العرب «جارية» أيضاً وذلك لنشاط الشباب الذي يملأ كل وجودها، وجاء في «المصباح المنير» أن إطلاق لفظ «الجارية» على العادمة لكونها مسخرة لأوامر مولاه وتجري لانجاز الأعمال باستمرار.

١ صحاح اللغة، والمقاييس، ومفردات الراجب، ومجمع البحرين، وسان العرب

«ومواخر»: جمع «ماخرة» وتعني لسفينة وهي من مادة «مختر» (على وزن فخر) كما تطلق على جريان الماء في الأرض وانقطاعها، وكذلك تطاير الماء من على جانبي السفينة، كما تستعمل هذه المفردة لأصوات هبوب الرياح، ولظواهر أنها من لوازم المعنى الأول^١.

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

عجائب البحار

تقول الآية الأولى معرّفة بالدات الإلهية المقدسة: «وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ» ويدلّل هذا التعبير على أن البحر يكن وجوده في خدمة الإنسان، والحق كذلك، فاول براعم الحياة تنفتح في البحار، وقد كان البحر فيما مضى وحاصراً مصدراً مهماً لأنواع حاجات الإنسان وديمومة حياته

ونلاحظ من سياق هذه الآية أنها كُتبت على ثلاثة مواضع
/ أولها: يستطيع الإنسان أن يسخر البحر لخاصة طريقاً إذ يقول: «لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً
طَرِيّاً»

لحم كثير لم يتحمل الإنسان عباءة تربية مصدره أبداً، ويكون طريقاً بشكل كامل وفي تناول يده في أغلب نقاط الأرض.

إن التأكيد على طراوة وطراحة هذا اللحم، صافة إلى إشارته إلى لذة لحم الأسماك، فهو تذكير بهذه الكتلة، وهي أن الناس في تلك العصور والارمان كانوا يستفيدون من اللحوم المجففة بسبب المشكلات التي تواجههم في الحصول على اللحوم الطرية، وهذه السمعة ذات أهمية خاصة، وفي عصرنا وزماننا حيث تتوفر اللحوم القديمة والمجففة لأسباب مختلفة تتضح أهمية هذا التعبير.

ويقول بعض المفسرين: هذا التعبير إشارة إلى عظمة الله عز وجل وقدرته في خلق اللحوم الطرية اللذيذة في المياه المالحة^٢.

١ مفردات الراغب، والمصباح المنير، التحقيق في كلمات القرآن والسنة العرب

٢، تفسير روح المعاني، ج ١٤، ص ١٠٢

وفي الآية الثانية تكررت ذات النعم الثلاث لثبتي أشير إليها في الآية السابقة (اللحم الطري، والحلي، وحركة السفن في عرص البحار) أيضاً، واستند إليها، مع هذا الاختلاف حيث يشير في مطلع الآية إلى بحار الماء العذب والماء المالح فيقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

ومع أن أكثر مياه البحار على سطح الأرض مالحة، إلا أن بحار وبحيرات المياه العذبة ليست قليلة أيضاً، حيث تُشاهد مداخل عديدة منها في الولايات المتحدة، وكثيراً ما يستعاد منها، إضافة إلى الأنهار الكبيرة التي تصب في لبحار المالحة وتتوغل فيها، فتدفع المياه المالحة إلى الخلف ولا تحتلط معها لفترة طويلة فتشكّل بحراً من الماء العذب حيث يستفي كثيراً من السواحل أثناء المد والجزر، مما يؤدي إلى اردهار البساتين والمزارع الواسعة ويعتبر المخر الرازي في تفسيره هذين البحرين إشارة إلى المؤمنين والكافرين، إلا أن التمعن في لحن الآيات يدل على أنه لا يقصد هذا المعنى، بل إن الهدف هو بيان آيات وآلاء الله في عَرْضِ الخلق.



وجاء الحديث في الآية الثالثة عن تسخير البحار للإنسان: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾

ولكن استند إلى مسألة الإبحار فقط من بين مختلف بركات البحر، والتي تمت الإشارة إليها في الآيات السابقة.



وفي الآية الرابعة اعتبر السفن العملاقة التي شبه الجبال المتحركة والتي تظهر على سطح البحر من آيات وآلاء الله، فيقول ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ﴾، حقاً.. من خلق المحيطات بهذه السعة والعمق والحصائص؟ ومن الذي منَحَ الخشب

والحديد هذه المبرة بحيث يطفو على وجه الماء ؟ ومن الذي أمر الرياح أن تهب بشكل منظم على سطح البحار وتمسح الإنسان فرصة الانتقال من نقطة إلى أخرى ، ويستخرج ملايين الثروات عن طريق البحر ؟

أليس هذا نظام متقن ومحكم ، وكذلك نظام اسناد على قوة البحار والبرق دليل جلي على علم وحكمة الخالق جل وعلا ؟

ها يشبه القرآن الكريم السفن الصالحة بـ «الأعلام» و «الأعلام» جمع «علم» (على وزن قلَم) وتعني في الأصل (كما يقول اربع في المفردات) الاثر الذي يحصل منه علم بوجود شيء ، كالعلامات التي توصل على طرق ، وعلم المسكر ، ولهذا اطلق على الجبل اسم «علم» حيث يعتبر دليلاً واضحاً يبرر من بعيد ، ولهذا السبب شبهت السفن العملاقة بالجبال حيث تنصح من بعيد كالجبال .

واللطف أن القرآن يقول عقب هذه الآية : ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلَنَّ رِجَالَهُ عَلَى ظُهُورِهِ﴾ .

ولو شاء جعل الرياح مضطربة وغير منتظمة بحيث لا تستطيع أية سفينة بلوغ هدفها ، بل يعرفها في البحر ، لذلك يكرر التأكيد في نهاية الآية : ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلَنَّ رِجَالَهُ عَلَى ظُهُورِهِ﴾ .

اولئك الذين استوعبوا آيات الآفاق من خلال الصبر والتحمل ، ويؤدون شكر هذه النعمة بعد إدراك الحقيقة ، ويركعون على اعصاب ساحة القدس الإلهية العظيمة .



وأشار في الآية الخامسة إلى هذا الموضوع أي حركة السفن في البحار كأحد النعم الإلهية العظيمة أيضاً ، مع هذا العارق حيث يقول : ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾



وفي الآية السادسة أيضاً حيث يأتي البحث عن سبع آيات من آيات الله، فهو يذكر الفلك كآية ثالثة حيث تجري في البحر بما يرفع الناس ﴿وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾، ويؤكد في حتام هذه الآية أن في هذه لأمر آيات من الذات الإلهية المقدسة وآيات عن وحدانية الله لقوم يعقلون ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

❦❦❦

وفي الآية السابعة يستند إلى ربوبيته تعالى فيقول: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلُوكَ فِي الْبَحْرِ﴾ فلا تتبعوا الأوثان لأنها ليست بربكم

وهنا نواجه تعبيراً جديداً «يزجي» وهو من مادة «إزجاء» التي تعني «تسيير الشيء بمداواة ورقّة» بالنحو الذي ورد في «مصباح اللغة»، ويُستفاد من «مقاييس اللغة» بأنها تعني «التسيير الدائم والمستمر»، وهاتان العسالتان في حركة السفن على سطح المحيطات جديرتان بالاهتمام، لا سيما في السفن الشراعية، فالمعروف أن الرياح تسوق السفن برقي واستمرار.

فلو كان للرياح هبوب شديد، أو تكون متقطعة فإنها تعمل السفن تواجه حركات واضطرابات قوية، وقد تتوقف وتصبح في وسط البحر أيضاً، إن هذا التعبير يبين أسراراً جديدة عن هذه الآية الإلهية.

ولهذا يستفاد من مجموع الآيات السابقة أن لخلق البحار فوائد مختلفة حيث تعتبر كل منها آية من آياته تعالى، لا سيما حركة السفن تدفئة على سطح المحيطات، وتعرف النعمة دائماً بعد فقدانها، فلولا البحار لم يتكبدس القسم الأعظم من السلع التجارية التي تُنقل عبر المياه فحسب، بل تحتوي كميات كبيرة من المواد الغذائية والحلي أيضاً، وأهم من ذلك، تعدد العيوم ولا تهطل لأمطار، ويجر الهواء الجاف والحرار جميع الكائنات الحية إلى الفناء.

❦❦❦

توضيحات

١ - البحر مركز لأنواع النظم

لم يكن هنالك أحدٌ عندما تكونت البحار . كي يرى طريقة تكوينها ، إلا أن العلماء يعتقدون أن كُرْنَا الأرضية بعد انفصالها عن الشمس كانت حارة وساخنة ، ويزدَّت رويداً رويداً ، كالتعاضد الناضجة تمرَّج قشرها وتحمَد وحصل الانحماض والارتفاع ، برزت الجبال والوديان والبحار .

ومن الممكن أن يرد هذا التساؤل وهو من أين جاءت مياه البحار ؟ هنالك رأيان يعتقد بعضُ أنها تكونت نتيجة لتفاعل الاوكسجين والهيدروجين الموجودين في أعماق الأرض وانبثقت كالينابيع التي تتدفق حالياً ، وملأت مسطحات الأرض تدريجاً .

إلا أن أشهر الآراء هو أن السماء عطَّت بخوب انكسرة الأرضية بالغيوم المتراكمة ، وحينما انخفضت حرارتها سالت على هيئة أمطار غزيرة ، وهطل المطر لآلاف السنين ، وعمرت السيول كافة أنحاء الكرة الأرضية حتى لا يمكن تصوره ، وحصلت البحار ، وحتى أمدٍ طويل كانت أمواجه تغسل أعماقه وكذلك للصخور والسواحل . ثم هدأت تدريجاً ، واستقر على هيئته الحالية .

على أية حال فإن البحر له ماريحٌ قديمة جداً وملوءٌ بالأسرار ، ولكن الأهم من ذلك هي البركات والمنافع التي يهاها الإنسان اليوم من البحار حيث بإمكاننا أن ندرج قسماً منها ، ولا يتسع هذا البحث المختصر لبيانها كلها :

١ - إن البحر له أهمية بالغة في الإبحار وحمل ونقل الباس والسلع التجارية ، وكما أشرنا فإن البحار تعتبر أهم وسائل البشر لنقل وتُنقل لاسيما الخطوط البحرية التي تمتد بشكلٍ طبيعي إلى بقاع الأرض كافة ، ويكفي الالتفات إلى هذه الحقيقة وهي صناعة البواخر العملاقة التي تستطيع أن تستوعب (خمسمائة ألف طن) من النفط وتنقله إلى أي نقطة في العالم .

وهذا يلزم توفر (خمس وعشرين ألف سيارة ذات حمولة ٢٠ طناً) لحمل هذه البضاعة .

٢ - *المواد الغذائية* - ومن أهم المواد الأخرى للبحار هي المواد الغذائية التي يحصل عليها الإنسان منها.

فمن أجل معرفة أهمية هذا الأمر يكفيننا العلم بأنه يتم صيدُ ست وعشرين مليون طن من الأسماك سنوياً، علماً أن هذا الاحصاء يتعلق بثلاثين عاماً مضت، ومن المسلم به أن هذا الرقم قد تضاعف كثيراً في الوقت الحاضر.

وليس الإنسان وحده بل إن الكثير من الطيور تحصل على طعامها من البحار أيضاً، وهذا بحد ذاته اقتصادٌ في استهلاك المواد الغذائية الجافة.

فيقول بعض العلماء من خلال الاحصاءات التي قاموا بها: إن طيور البحرية التي تعيش على الجبال الساحلية والحرر الصحرية تستهلك لوحدها مليونين وخمسمائة ألف طن من الأسماك سنوياً.

ونعلم أيضاً أن جانباً مهماً من علف الدواجن يتم تأمينه من عظام أسماك البحر، (نفس هذه الأسماك المصطادة)، أي أنها تتدخل بصورة غير مباشرة في تغذية الإنسان.

٣ - *الاعشاب والادوية* - يحصل من كل هكتار من المحر خمسمائة طن من العلف الاخضر، في حين أن أفضل مزارعنا لا تنتج أكثر من أربعة أطنان وفي بعض البلدان يُستغل هذا العلف لتغذية المواشي، ويُستعمل رماده سماداً للمراعي أيضاً.

ويستخرجون من الاعلاف البحرية مختلف المواد، كالكحول الجامد والسلولوز والنشاء والمواد الجلانية، حيث تُستثمر في الصناعات الكيميائية واعداد الطعام (وبعض الادوية).

٤ - *المعادن والنمط* - إن البحار غنية بالمعادن، وبكمٍ جانبٍ من هذه المعادن في أعماقها، ويعوم الجزء الاعظم منها على سطحها، ومنها الفلزات التي يمكن استخلاصها من ماء البحر «كالمغنيسيوم» الذي يُستعمل في الصناعات، وكذلك «البوتاسيوم» و«البروم» و«سلفات الصوديوم» وغيرها.

يقول العلماء إن أكثر من أربعين عنصراً (عدا ما ذكر) موجود في ماء البحر، لها قيمة

صناعية جديدة بالاهتمام، كما ويعثر على لذهب في ماء البحر أيضاً، غير أن استخراج الكثير من الفلزات ما زال يحتاج إلى ميزانية هائلة لا يمكن مقارنتها بالاستهلاك، وقد يأتي اليوم الذي يتمكن فيه الإنسان من أن ينهاها من خلال طرق أكثر يسراً.

وتقوم بعض الشركات العملاقة بتصنيع أكثر من خمسمائة مادة مختلفة من معادن البحر، حيث هنالك مليارات الأطنان من المعادن.

ويعتبر النفط - وهو من أثمن المستحضرات - من هدايا البحر، لأن المصالحات من الموجودات البحرية توجد في أعماق البحار العميقة، وبما أن الفلزات ارتفعت فيما بعد فقد دفنت هذه الموجودات تحت الرمال التي تحولت إلى صخور بعد ذلك، وبقي السطح الناتج عنها في أعماق الأرض.

والملح هو أحد أهم المواد المعدنية التي تُستخرج من البحر، له دور مهم في حياة الإنسان، وقد ذكروا في السابق أن الملح بلغ من الأهمية بحيث إن جنود الروم كانوا يتفاوضون رواتبهم على هيئة ملح، وحتى في روسيا فقد اندلعت «ثورة الملح» بسبب ارتفاع سعره.

إن أهم مصادر استخراج الملح هو البحر، وحتى أن بعض المناطق الملحية الموجودة على اليابسة والتي يبلغ قطرها ٨٠٠ م هي من آثار البحار عندما كانت تغطي جميع بقاع الأرض.

لقد قدروا الاستهلاك العالمي للملح بـ ٢٢ مليون طن سنوياً، بحيث لو أراد الإنسان استهلاك محزون الملح الموجود على اليابسة لعدّ عاجلاً أو آجلاً في حين أن البحر مصدر لا ينفد للملح، فيمكن أن تؤمّن أملاح البحر ما يحتاجه البشر لمدة مليون وسبعمئة ألف سنة.

٥ - أفضل منتج للطاقة - لقد انتبه الإنسان منذ لقدم إلى هذا الأمر، وهو إمكانية إنتاج الطاقة من خلال السيطرة على المياه المتراكمة بسبب المد، وتسحب أثناء حدوث الجزر، فتستغل لتحريك المطاحن وغيرها.

وتفيد بحوث العلماء المعاصرين أنه يُمكنُ إنتاج الكهرباء بكمية كبيرة من هذه البحار، وأنَّ يستعانَ بها بصفاتها أهم مصدرٍ لإنتاج الطاقة، فالجَرَر والمد اللذان يحدثان مرتين ليلاً وبهاراً بتأثير جاذبية القمر يقومان برفع وخفض ماء البحار بمقدارٍ كبير، وهذا الأمر إضافة إلى مسألة الطاقة التي أُشير إليها فهو يؤثر في سفي المساطق الساحلية، لأنَّ مصبات الانهار التي تصب في البحار تمثل بحراً من الماء العذب، فيندفع ماء الساحل العذب إلى الخلف ويُغطي كثيراً من الأراضي، لذلك سخر لبشرٍ منذ لَقَدِمَ أراضي واسعة للزراعة من خلال شق الأنهار في مثل هذه المناطق.

ولعلَّ هنالك الملايين من أشجار الخيل في سواحل الخليج الفارسي حيث تُسقى بنفس هذه الطريقة فقط، لأنَّ الماء يتراجع إلى مسافات بعيدة عن الساحل، فهذا الماء العذب العرات الذي يجاور الماء المالح الاجاج ولا يمتلئ معه يعتبر ثروة عظيمة لسكان السواحل.

٦ - وسائل الريبة المختلفة - من المساقع الأخرى للبحار التي ذُكرت بشكل خاص في الآيات المذكورة هي وسائل الريبة التي تُستخرج من البحر، كاللؤلؤ الذي ينمو في نوع خاص من الصدف، والمرجان الذي هو نوع من لآحياء البحرية، ولكن على هيئة اغصان أشجار لها منظر جميل ومرعوب. إضافة إلى صفة الريبة فهو يُستعمل في الطب أيضاً

٧ - تلطيف الجو عن طريق البحار - ليست لرياح التي تهب من البحار نحو اليابسة هي التي تُرطب وتُلطف الجو فقط، بل هنالك أنهارٌ عظيمة متحركة في قلب محيطات العالم تتحرك من المساطق الحارة إلى المساطق الباردة وبالعكس، وبصورة عامة لها أثر بالغ في تلطيف الهواء على الكرة الأرضية.

وواحدٌ من أعظمها هو «غولف استريم»، هذا النهر العظيم الذي يتحرك من سواحل أمريكا الوسطى ويغطي المحيط الأطلسي، ثم يصل إلى سواحل شمال أوربا، وهذه المياه تكون حارةً حينما تتحرك من المساطق العربية من خط الاستواء، حتى أنَّ لونها يختلف أحياناً عن لون المياه المجاورة لها، والتلطف أنَّ عُرِضَ هذا النهر البحري العظيم أي «غولف

استريم» نحو مائة وخمسين كيلو متراً، وعمقه عدة مئات من الأمتار^١، وتبلغ سرعته في بعض المناطق حداً بحيث يقطع مائة وستين كيلو متراً في اليوم، وتختلف درجة حرارته عن حرارة المياه المجاورة بـ ١٠-١٥ درجة.

إن «غولف استريم» يتسبب في حصول رياح حارة، ويعطى نسبة كبيرة من حرارته إلى البلدان الواقعة شمال أوربا، فيعمل على تحسين جوها، ولولا هذا الجريان لتسمرت الحياة كثيراً في هذه البلدان واستحالت في بعضها.

والصحيح أن هذه الأنهار البحرية العظيمة والتي يكمن السبب الرئيس وراء ظهورها في التفاوت في درجة حرارة المناطق الاستوائية والمناطق القطبية قليل ما تمتزج بالمياه المحيطة بها، وتطوي آلاف الكيلو مترات بهذا الشكل، فهي مصداق لطيف لـ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * لَئِنْ مَآ بِمِزْجُهُمَا يَبْتَغِيَانِ﴾^٢ (الرحمن / ١٩ و ٢٠)

٨ - استثمار ماء البحر طبيًا - لا حاجة لتوضيح أن ماء البحر له آثار مفيدة لجسم واعصاب الإنسان، ولهذا ينتشر اليوم وفي معظم مناطق العالم استثمار ماء البحر لعلاج بعض الأمراض الجلدية والعصبية، وتو لحفظ الصحة والسلامة، ولو تم القضاء على التلوث الأخلاقي في هذا المجال لأصبح استثمار ماء البحر مصدراً لسلامة ونشاط الناس.

٩ - المصدر الرئيس للمياه الجوفية - إن أهم وأعظم وأكثر فوائد البحر هي الأبحر التي تتصاعد منه، ثم تولف اليوم، وتساق هذه اليوم نحو المناطق اليابسة والجافة، فتحييها، حيث ذكر ذلك في فصل الريح والأمطار بشكل مفصل.

١٠ - توفير الماء العذب - يتم في الكثير من المناطق التي يصعب الحصول على الماء العذب، تأمين هذه المادة الحياتية من خلال تقطير ماء البحر فتصبح المناطق المهجورة مسكونة بسبب ذلك.

هذا جانب من منافع وبركات لبحار انبي وقف عليها الإنسان حتى هذا اليوم، وليس

١ وقد ذكر في بعض الكتب أن عمقه يصل في بعض المناطق إلى (٨٠٠ م) (البحر والجانب، ص ٤٦).

٢ لمزيد من التوضيح في هذا المجال يراجع التفسير الامثل، دبل الآية ١٩ و ٢٠ من سورة الرحمن

معلوماً ما حجم الصافح التي سينالها الإنسان في المستقبل، وهذا تقف على عظمة هذا التعبير القرآني: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ»^١

□□□□

٢ - البحر عالم للصعائب

لو فكرنا جيداً فإن جميع الموجودات في العالم تهت على الدهشة، ولكن لا يشبه أي منها الاحياء التي في أعماق البحار، وقد ذكر بعض العلماء أن عدد أنواع الاحياء البحرية التي تمت معرفتها مائة وأربعون ألف نوع، علماً أن عدد هذه الأنواع كثير للغاية على سطح المحيطات، ولكن كلما نفدنا في الأعماق فأنه نقل، أو على الأقل نقل معلوماتنا عنها والمسألة المهمة التي تخص البحار هي أن التصوّر كان ينصب على عدم وجود أي كائن حي في أعماق البحار، لأن أشعة الشمس تمتد إلى عمق «٦٠٠» متر في الماء فقط، و تحتها نهاية الأشعة في مثل هذا العمق، تليق كل شيء في «ظلام دامس» بالإضافة إلى أن ماء البحر يكون بارداً جداً في هذه المنطقة، والأهم من ذلك الضغط الذي يولده الماء على موجودات تلك المنطقة، لأن ضغط الماء في عمق كيلو متر واحد يكون في نحو من مائة كيلو غرام لكل سنتيمتر مربع واحد، ومن المسلم به لو كان الإنسان هناك مجرداً من ملابس الوقاية لتحطمت وسحق عظامه^٢، ولهذا لا يمكن النزول في البحار بعمق عشرة أمتار فأكثر بدون ملابس وقية، ولا بد من استخدام الواقيات الفولاذية السميكة أثناء الموص في الأعماق، وإلا لدمر ضغط البحر كل شيء، ولا يمكن الذهاب بكل وسيلة إلى الأعماق في بعض المراحل بسبب عدم وجود شيء يقاوم الضغط.

١. تراجع كتاب: البحر دار العجائب، وأسرار البحر، وعجائب البحر، وبشرة المياه والبحر: رسالة الشقيقة، ج ١٢، وأفضل الطرق لمعرفة الله

٢. إن الفواصين يوصون إلى عمق ٢٠ متراً فقط بدون ملابس الفوص وإلى عمق ١٥٠ متراً بملابس الفوص، في حين أن ضغط الماء يبلغ ٧ أطنان لكل متر مربع في أعماق قاع البحر (البحر دار العجائب، ص ٨٩).

على أية حال فقد اثبتت بحوث العلماء فيما بعد أن هنالك في أعماق البحر موجودات حيّة كثيرة وعجيبة ، حيث تقوم بإبطال مفعول الضغط العجيب للماء من خلال الضغط الداخلي الموجود فيها .

ولا تنمو الحشائش هناك كي تستفيد منها الاحياء الموجودة في قاع البحر ، لكن يد القدرة الإلهية تقوم بتهيئة الغذاء اللازم لها ونسبي هو عبارة عن المواد النباتية المختلفة على سطح المحيط وتحت ضوء الشمس ، وبعد إعداده يرسل إلى سُكّان أعماق البحر على هيئة مائدة سماوية ، وترسب هناك ، بالإضافة إلى الاحياء الموجودة على سطح الماء التي تموت حيث تُعدّ جثثها طعاماً للذيذ للموجودات الحيّة في قاع البحر .

ولكن لنز كيف تُحل مشكلة الطعام الدائم ؟ فقد وفّرت القدرة التي خلقت هذه الموجودات للعيش في هذه المنطقة والنور لازم لها ، لأن أغلب هذه الاحياء تقوم بإشعاع النور منها ، نور كمور لينة مقمرة من بهالي الصيف فتضيء ذلك المحيط .

وينطلق نور أحمر من رأس نوع من الأسماك يسمى ديل أخرى نور أروق ، وسنرى بعض الأسماك نوراً باللون الأحمر والأبيض والأزرق .

يقول أحد العلماء : إن أكثر المناطق غنى في البحر ليست قرب سطح الماء ولا قاع المحيط ، بل هي المنطقة التي تتوسطهما ، فليس لها سماء فوقها ولا أرض تحتها ، وإنما يحيط الماء بكل شيء ، ولا مأوى للموجودات التي تعيش هناك ، فهي في حركة مستمرة ، وهالك الأسماك التي تُحَيَّرُ العقول ، فاسان بعضها طويل بالقدر الذي لا تتمكن من أن تغلق فمها أبداً ونوع من الأسماك يتسع بطنه بحيث يتمكن من ابتلاع سمكة تعادل حجمه ثلاث مرات ، وقد أطلق على هذه الأسماك أسماء عجيبة وعريضة مثل «البالح الأسود» و«الأفعى البحرية» و«ثعبان السمك» .

لنترك قعر المحيط ومأت إلى سطح الماء فهناك عجائب أيضاً ، وهالك أسماك كل منها أعجب من الآخر ، منها الأسماك دوات الشعمة الكهربائية حيث نستطيع إنتاج كميات كبيرة من الكهرباء بإيعاز من الدماغ ، إذ تصيب العدو أو الفريسة بالشلل ، تلك الشحنات الخطيرة حتى على الإنسان أيضاً .

«**الأسماك الطائرة**» التي تخرج من الماء وتطير إلى مسافة ستين متراً، وتقفز أحياناً أعلى من الأشجار.

«**السمك ذو الدواة**» الذي يفرر مادة سوداء اللون في ماء البحر للاختفاء عن العدو والافلات منه، كما يُصنع اليوم في الحروب التفتيدية، حيث يُمَلَأ ميدان المعركة بالدخان كي يتوارى الأشخاص عن العدو.

«**السمك المائدة**» أحد الأنواع المحببة لسمك، حيث تكون عريضة وكبيرة جداً، إذ تبسط نفسها على سطح المحيط فتشكل مائدة، وبمجرد وقوع الفريسة على هذه المائدة تجمع أطرافها المنسوجة عليها وتنشغل بأكلها

يعيش في البحر أصغر الاحياء، وأكبرها أيضاً، إذ يبلغ طول الحيتان الموجودة في البحر ثلاثين متراً، وقطرها أكثر من أربعة عشر متراً، ويبلغ طول فكها أكثر من سبعة أمتار، ووزن لسانها ثلاثة أطنان، ووزن قلبها نصف طن، ووزن كبدها طناً واحداً، ويبلغ طول وليدها سبعة أمتار أحياناً^١.

وكان طول إحدى الحيتان التي تم اصطيادها في جرائر «تيو جورجيا» ثلاثاً وثلاثين متراً، ووزنها مائة وخمسة وعشرين ألف كيلو غرام^٢ وكذلك هناك نباتات مجهرية، ونباتات يبلغ طولها خمسين متراً تعيش في البحار أيضاً.

❦❦❦

٣ - البحر في كلام المصنفين

وهنا نترنم بهذه الجملة المشهورة في دعاء الجوشن من خلال عالم من الحشوع والإخلاص ولنقل: «يا مَنْ في البحار عجائبه»^٣.

١. عجائب البحر، ورسالة الثقافة

٢. البحر دلة العجائب، ص ١٢١

٣. دعاء الجوشن الكبير، الفقرة ٥٨

في ذلك اليوم حيث رويت هذه العبارة في دعاء الجوشن عن النبي ﷺ لم تزل أسرار البحار غير مكشوفة لأحد، واليوم تتجلى لنا عظمة هذه العبارة أكثر من أي وقت.

وورد في دعاء ومناجاة أخرى لأمر المؤمنين ﷺ حيث يقول:

«أنت الذي في السماء عظمتك، وفي الأرض قسرتك، وفي البحار عجائبك»^١.

ونواصل هذا البحث بحديث آخر عن أمير المؤمنين ﷺ حيث يقول:

«سخر لكم الماء يغدو عليكم ويروخ صلاحاً لمعايشكم واليخر سبهاً لكثرة أنموالككم»^٢.

ويختتم هذا البحث بمقطع من الحديث مشهور بـ «توحيد المفضل» عن الصادق ﷺ، إذ يقول ﷺ:

«فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وتصر علم المخلوقين، فانظر إلى ما في

البحار من خروب السمك ودواب الماء، والاصناف والاحصاف التي لا تحصى ولا تعرف

منافعها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأهليتهم تحدث، مثل القرمز فإنه إنما عرف

الناس حينه بأن كلبه تجول على شاطئ البحر فوجدت شيئاً من الصدف الذي يسمى

«الحلزون» فاكلته فاخضب خطمها بدمه فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغاً»^٣.

نعم.. وفي البحر وموجوداته ونباتاته وغيرها منافع وبركات تتكشف عنها المزيد من

الأسرار في كل يوم يمر من حياة البشر، وتظهر له فوائد جديدة بحيث تعجز الإنسان على

الخضوع إلى خالق هذه البقعة.



١ بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٢٠٢

٢ المصدر السابق، ج ٦٠، ص ٣٩، ح ٣ (باب الماء وثماره والبحار).

٣ المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٩ (حديث المفضل).

١٤ - آياته في خلق الظلال

تمهيد:

هل أن الظل شيء يمكن من خلاله أن نستدل على خالق العالم؟ نعم . فقد نمت الإشارة في آيات القرآن الكريم إلى هذه المسألة التي تهدو عادية أثناء وصف بعم الخالق جل وعلا والتعريف بالذات الإلهية المقدسة ، فهو تعالى يريد بيان هذه الحقيقة ، وهي أينما يقع بصرك في هذا العالم ، المليء بالعجائب والأسرار فإن عظمة تتجلى فيه ، وبرايم حكمة وقدرته مكتوبة في جيب كل الموجودات صغيرها وكبيرها .

بعد هذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات الآتية :

١ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَائِبًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۖ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۚ ﴾ (الفرقان / ٤٥-٤٦)

٢ - ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَبْكُمُوهَا وَسَرَابِيلَ يَنْجِيكُمْ بِأَسْكُمُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ غَيْبَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۚ ﴾

(النحل / ٨١)

٣ - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَخَوُّوا ظِلَالَهُ عَنِ النَّارِ وَالشُّمَائِلِ شُجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۚ ﴾

(النحل / ٤٨)

٤ - ﴿ وَرَبُّهُ يَتَجَدَّدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ ۚ ﴾

(الرعد / ١٥)

شرح للمفردات:

«ظِلَالٍ»: جمع «ظِلٍّ» إلا أن العالم و مفسر المعروف «الراغب» يقول في كتاب «المفردات»: أي مكان لا تشرق فيه الشمس يُعتبر ظلاً سواء أشرقت عليه سابقاً أم لا، ولكن «الفي» على وزن (شيء)، يقال للمكان الذي أشرقت عليه الشمس سابقاً ثم غطاه الظل في حين أن بعض أرباب اللغة اتخذوا الالفين بمعنى واحد، وقال البعض إن «الظل» هي الظلال التي تنزل أثناء الصباح، و«الفي» يصبق على الظلال التي تنزل عسراً، إلا أن المعنى الأول يتناسب كثيراً مع حالات استعمال هذين اللفظين.

ويطلق لفظ «الظل» كناية في مورد العزة والصعة والرفاء والراحة لأن من المعروف أن هذه الأحوال تحصل في الظل^١.



جمع الآيات وتفسيرها

هل إن الظل لغة عظيمة؟

إن الحديث في هذه الآيات عن ظلال، ومسألة تبدو وكأنها عادية لكن التمعّن فيها يمكن أن يقربنا ويعرفنا أكثر بحالنا هذا المدم

ففي الآية الأولى يخاطب النبي ﷺ قائلاً: «أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا».

ويضيف في نهاية الآية قائلاً: «ثُمَّ جَعَلَ الشَّمْسُ عَلَيْهِ ذَلِيلًا»، ويضيف في الآية التي تليها: «ثُمَّ قَبَضْنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا».

وهنا ما المقصود بهذا الظل الذي يمدّه لربّي تعالى ثم يجمعه تدريجياً؟ قال بعض المفسرين: المقصود هو ظل الليل حيث يمسطّ على جميع سطح الأرض وينقبض ينحوي متناوب، ويعتبر وجود الشمس دليلاً وإشاره عليه، إذ «تُعرف الأشياء بأضدادها».

ويعتبره البعض إشارة إلى الظل الذي يعتد بين الطلوعين (بين طلوع الصبح وطلوع

١. لسان العرب، ومفردات الراغب.

الشمس)، فيغطي وجه الأرض وهو أصل الظلال والساعات.
واعتبره البعض بمعنى الظلال التي تحصل أثناء النهار بسبب اصطدام ضوء الشمس
بالجبال والأشجار وبقيّة الأجسام، ثم ينتقل تدريجياً.
من هنا حيث لا تتعارض هذه التفسير الثلاثة، وما نَ تعبير الآية مُطلق وجامع، فيمكن
أن يكون إشارة إليها كلها إذ إنَّ كلاً منها نعمة نعمة

إنما نعلم أنَّ اللَّيْلَ في الواقع هو ظل نصف الكرة الأرضية الذي يقع أراء الشمس، الظلُّ
المخروطي الشكل الذي يمتد في الفضاء في جهة المقابلة ويتحرك باستمرار، ولولا ظلُّ
اللَّيْلَ لاحتُرقت كافة الكائنات الحية بفعل ضوء الشمس والحرارة الناتجة عنه، وهلك
السل البشري بسرعة

وكذلك لولا وجود سائر أنواع الظلال، ولو كان الإنسان مجبوراً على قضاء النهار تحت
الشمس لوقع في حَرَجٍ بالغ، ولأصبحت الحياة شاقةً بالنسبة له لاسيما في فصل الصيف، إنَّ
الله تعالى فتح الظل للإنسان كي يمال أراحته والاستقرار هو ومن يتعلق به،
وبتعبير آخر فإنَّ بعض الأشياء جُلِّت «معممة»، والبعض جُلِّق «شفافاً» بحيث يعبرُ المور
من خلاله، فلو كانت كل الأشياء شفافة فلا وجود للظل إطلاقاً وستبدل حياة الإنسان
مقابل ضوء الشمس المستمر إلى جهنم محرقة، وإذا تعمَّك الإنسان قليلاً في هذا المسحال
فسيتعرف على عظمة وأهمية هذه النعمة ويتمكن من حلال ذلك الوصول إلى الخالق
الحكيم.

ولعلَّ التصريح بـ «النظام التدريجي للظل» في الآية أعلاه إشارة إلى هذه الحقيقة وهي
لو أنَّ الظلال تحصل أو تزول فجأة لأدت إلى صرارٍ حسيمة، إذ لا يخفى على أحد الاضرار
الناجمة عن الانتقال المفاجيء من النور إلى ظلام وبالعكس، أو من الحر إلى البرد
وبالعكس.

ولكنَّ «الظل» بما له من بركابٍ وصفٍ، مصرُّ أيضاً فيما إذا دام وخُلِّدَ لأنَّ يحرم الإنسان
من نعمة النور، لهذا يقول في الآية أعلاه «وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا»، (ولكنه للطفه وكرمه لم
يفعل ذلك كي يَنعمَ العباد بنعمة النور والنظِّل على السوء)

ويقول في الآية الثانية التي تم بيانها ضمن آيات التوحيد في سورة النحل، بعد تعداد بعض آيات الآفاق وبعث الخالق جلّ وعلا «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا» قال بعض المفسرين: إن المقصود هنا لأشياء التي تتسبب في إيجاد الظلال، كالجبال والأشجار، والغيوم، والسقوف والحدردان^١.

ومما لا شك فيه لو كانت جميع الأشياء - كما المحا سابقاً - شفافة ومضيئة كالبلور، ولا وجود للظل في العالم لكانت الحياة غير ممكنة بالسبة للإنسان ويشير سياق الآية إلى سائر النعم التي هي في الواقع مكملّة لوحد الظل، كالملاجيء المستحدثة في الجبال على هيئة مغارات وكهوف، والتي تقي الإنسان من حرارة الشمس المحرقة، كالدرع حين يصدّ طمبات العدو في ساحة الحرب: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُم بِأَسْكُكُمْ»^٢.

وها لماذا أشار في الآية الالفة إلى اللباس كوقاء للمحفظ من الحرّ فقط، من دون الإشارة إلى البرد؟ يقول بعض المفسرين لأى المناطق التي نزلت فيها هذه الآيات، المتداول فيها مسألة الحر بكثرة، أو لكثرة ورياقه إخطار الحرارة والاحتراق عند مواجهه الشمس، في حين تتزايد طرق وقاية الإنسان لمواجهة البرد.

ولكن لا يجب سيار أن في آداب العرب حينما يريدون التلميح إلى حدّين فهم يحذرون أحدهما في أغلب الموارد ويذكرون واحداً فقط، وهذا الأثر له قرائن كثيرة.

والجدير بالاهتمام أنّه يقول في نهاية هذه الآية بعد ذكر هذه النعم الثلاث (الظلال، والمساكر، والملابس): «كَذَلِكَ يُتِمُّ بِرَحْمَتِهِ عَلَيْكُمْ لَعَنَكُم تُسْلِمُونَ».

نعم.. فالتأمل بهذه النعم وأسرارها المعتمنة يعرف الإنسان بعلم وقدره الله تعالى من ناحية، ومن ناحية أخرى يدفع إلى التسليم إلى أوامر الخالق جلّ وعلا ذي اللطف والرحمة، من خلال تحريك الشعور بالشكر له.

١. تفسير روح المعاني، ج ١٤، ص ١٨٦، وتفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٧٧.

٢. «سراويل» جمع «سرايل» (على وزن مفعال، وقد فُسر، البعض بكل أنواع الملابس، واعتبرها البعض بمعنى الرداء (حيث يرتدون الدرع كالرداء، إلا أن المعنى الأول أكثر تناسلاً هنا).

وفي الآية الثالثة يوجه اللوم والتوبيخ للمشركين في آيات التوحيد فيقول:
**وَأَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُونَا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجُوداً لِلَّهِ
 وَهُمْ دَاخِرُونَ^١**

أي تعبير لطيف هذا؟ فقد خضعت الظلال بأسرها وسجدت أمام ذاته المقدسة، لأنها
 مُسَلِّمَةٌ لأمره وهذا التسليم والخضوع أمام قوانين الخالق هو سجودها لحضرتة تعالى.
 فكيف يتضاءل الإنسان أمام لظلال، ويسجد للأصنام، ولا يسجد للخالق جلّ وعلا؟
 إن سجود الظلال حرّة من سجود كافة الكائنات في السماء والأرض، ولهذا فقد أشار في
 سياق هذه الآية إلى هذا السجود العام، فقال: **﴿وَقُلْ يَسْجُدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 مِنْ دَابَّةٍ﴾**

وهنا سنطرح بحوث مفصلة خلال بحث السجود العام لموجودات العالم أمام الباري
 عز وجل، على أية حال ففي هذه الآية إشارة لطيفة إلى أهمية الظلال وأثارها حيث تصلح
 كمصدر لإلهام التوحيد.

❦

وفي الآية الرابعة يضع الظلال في جملة موجودات السماء والأرض التي تسبح
 وتسجد لله تعالى، فيقول: **﴿وَقُلْ يَسْجُدْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ
 بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ﴾**.

وربما يكون التعبير **﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾** إشارة إلى تسليم الموجودات العاقلة وذات
 الاحساس رعية وطوعاً، وإلى تسليم الموجودات غير العاقلة كالظلال للأوامر الإلهية
 فتسجد قوانين الخلق الاجبارية.

١. «يَتَّبِعُونَا» من مادة «تبع» وتعني العودة والرجوع، ويحصرها بعض أرباب اللغة بمعنى ظلال الأشياء حين عودة
 الشمس عنها، وإطلاقها على غنائم الحرب يعود إما بسبب رجوع المسمى بها، أو رولها أو فنائها النهائي كالظلال،
 و«داخر» تعني المتواضع

أو إلى أن المؤمنين يسجدون رغبةً وطوعاً، وغير المؤمنين الذين ليس لديهم الاستعداد للسجود طوعاً فإن جميع ذرات وجودهم مسلمة لله تعالى بحكم قوانين الخلق الاجبارية، وقد جيلوا على السجود التكريمي أمام ذاته المقدسة
أو أن المؤمنين يُتَرَّغون جباههم بالتراب أراءه في كل الأحوال (في الراحة وعند حلول المشكلات، مطمئنين كانوا أم مضطربين)، إلا أن الكافرين لا يتوجهون نحوه إلا حينما تباغتهم المشاكل.

ومما لا شك فيه أنه ليس هناك تعارض بين هذه التفسير الثلاثة، ويمكن جمعها في مفهوم واحد

والنصير بـ«مَنْ» في الآية أعلاه مع أنه يختص باصحاب المقول حسب الظاهر، إلا أن من المحتمل أن يكون له مفهوم عامٌ يشمل كافة الموجودات العاقلة وغير العاقلة، فيصبح التعبير بـ«مَنْ» من باب التغليب.

وأما تعبير «الغداة» و«الأصيل» (الصباح والمساء) فلعله كان بسبب إمكانية روال الطلال وسط النهار، أو كونها صنبلة حياءً ومحدودة، هي حين أنها ليست كذلك في الصباح والمساء، وفصلاً عن ذلك، فإن هذا التعبير جاء في الكثير من الحالات لبيان الديمومة والتعميم، فمثلاً تقول إن الشخص الفلاني يدرس صباحاً ومساءً، أو إنه يؤدي شحناً آخر، أي إنه كذلك على الدوام.

يُستفاد من مجموع هذه الآيات أن القرآن الكريم يولي اهتماماً خاصاً حتى للظلال، ويعتبرها من آيات عطية الله، والتعبير بـ«السجود» الذي هو عاية الخصوع إشارة إلى هذا المعنى.



توضيح

لولم تكن هناك للظلال!

من أجل ادراك أهمية أي موجود لابد من احتمالي رواله تماماً في لحظة أو يوم أو شهر

ما، ثم الالتفات إلى آثاره.

والأمر كذلك في مسألة الظلال التي تبدو موضوعاً عادياً وغير مهم للوهلة الأولى، ولكن افرضوا أن كل أنواع الطل والمظلات رُفعت عن الكرة الأرضية لمدة أسبوع، فلا جبال، ولا أشجار، ولا حائط بيت ولا سقف، ولا حتى ظل نصف الكرة الأرضية الذي يغطي النصف الآخر وهو الليل، واحتضت كلها بصورة مفاجئة، وتبدلت جميع الأجسام في هذا العالم إلى حالة كالهلور ونفذ ضوء الشمس من خلالها، فكيف ستصبح الحياة صعبة وغير قابلة للتحمل؟ إذ يشع ضوء الشمس باستمرار، ويتعرض له كل شيء، ويسلب كل أشكال الاستقرار والطمأنينة والراحة من الإنسان وسائر الموجودات، ولو حدثت مثل هذه الفرضية في فصل الصيف فسوف تهلك جميع الكائنات الحية خلال فترة قصيرة. بهاء على ذلك يمكن القول أن لوجود ظلال دوراً مؤثراً جداً في حياة الإنسان للأسباب الآتية:

١- إن وجود الظلال ضروريٌ للعناية من أجل تخفيف ضوء وحرارة الشمس، لأن الأشعة الحياتية للشمس لو لم تُحفف بالظهور للمتناوب للظلال ستُفنى كل شيء وتحرفه خلال فترة قصيرة.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: «إن لظل هو لأمر المتوسط بين الضوء الحاصل وبين الظلمة الحاصلة، وهو ما بين ظهور الصحر إلى طوع الشمس، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأقنية الجدران، وهذه الحالة أطيب الأحوال، لأن الظلمة الخالصة يكرها الطبع وينفر عنها الحس، وأما الضوء الخالص وهو نكيفية لفائضة من الشمس فهي تقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية، فاذن أطيب الأحوال هو الظل، ولذلك وصف تعالى الجنة به فقال: ﴿وَوَيْلٌ مِّنْهُمُ الَّذِي﴾

٢- يبدو أن دور الظلال لا سيما الظلال المتحركة حيوي جداً بالنسبة للمسافرين وقاطعي الصحراء، فهؤلاء يستطيعون الاستعانة بالحمام ووسائط النقل المسقفة من وقاية

انفسهم أزاء أخطار أشعة الشمس المباشرة

٣- والمسألة الأخرى الجديرة بالاهتمام، هي أنه حلاًماً للتصور العام فإنَّ النور لا يكفي لوحده لرؤية الأشياء، بل يجب أن يكون متراساً مع «الظلال» كي تتوفر إمكانية رؤية الأشياء، وبعبارة أكثر جلاءً:

لو أنَّ النورَ يشعُّ على موجودٍ ما من أربعة جهات بحيث لا يوجد أيُّ شكلٍ للظل أو بعضه، فلا يمكن رؤية ذلك الشيء الذي يهرقُ في نور المتساوي من جميع الجهات، اذن فكما لا يستطيع الإنسان رؤية الأشياء في لظلام المطلق فهو غير قادرٍ على رؤية الأشياء في النور المطلق أيضاً، بل يجب أن يتطافر معاً كي تيسر رؤية الأشياء (فتأمل جيداً).
فالحائق الذي أباط هذه الأدوار المهمة والحيوية لموجودٍ عاديٍّ بهذا المستوى، جديرٌ بالعبودية والخصوع والسجود.

مختتم هذا الحديث بعبارة لأحد المفكرين: إذ يقول لمن صَعَلَ عن السجود لله تعالى:
«أما طلك مسجِد لربك وأما أنت فلا تسجد له بنسما صعب»^١.



١٥ - آياتة في عالم النباتات والثمار

تمهيد:

إن النباتات هي أكثر الكائنات الحية الموحدة على الأرض، وتحتل المرتبة الأولى من حيث التنوع والكثرة، والعجائب والزينة، وكذلك من حيث الآثار العفيدة والشمسية أيضاً لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية مرراً على مسألة خلق النباتات، ومراياها المختلفة، ودعا الإنسان إلى التفحص في أسرار هذه الموجودات الرائعة في عالم الخلق، الموجودات التي يمكن أن تقدم ورقة واحدة منها كتاباً عن معرفة الله تعالى.

بعد هذا التمهيد نتمنح حاشع في آيات الآتية ومواضيعها اللطيفة:

١ - «وَأَوَّلَ مَا بَرَأَ إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْثَتَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (الشعراء / ٧-٨)

٢ - «وَأَمَّا خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْثَتَا بِهِ حَدَائِقَ بَارِدَةٍ مِثْلَ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهُنَّ، إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ» (الزلزال / ٦٠)

٣ - «خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَغْفِرَ هَمْدَ تَرْوَنَهَا وَأَلْفَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَنْبِتَ بِكُمْ وَهَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْثَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الْدِّينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (القمان / ١٠-١١)

٤ - «وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجَتْ مِنْهَا حَبًّا فَعِنَهُ يُأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * مُبَحَّانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

يَخْلُقُونَ».

(يس / ٣٣ - ٣٦)

٥ - «وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَرَيْبِهِ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

(الأنعام / ٩٩)

٦ - «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَاوِزَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَتَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِهَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

(الرعد / ٤)

٧ - «وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزُّرُوعَ وَالزَّيْتُونَ وَالتَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

(النحل / ١٠ - ١١)

٨ - «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مِّمْرُوسَاتٍ وَغَيْرَ مِمْرُوسَاتٍ وَالتَّخْلَ وَالزُّرُوعَ مُخْتَلِعًا أَكْثَهُمُ الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ».

(الأنعام / ١٤١)

٩ - «وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِزَارِقِينَ».

(الحجر / ١٩ - ٢٠)

١٠ - «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى... ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ»^١

(الأنعام / ٩٥)

شرح للمفردات:

«النَّهَات»: يعني في الأصل كل نوع من ررع الذي يخرج من الأرض سواء كان له ساق كالشجر، أو بدون ساق والذي يُسميه العرب «التَّجَم»، إلا أن هذا اللفظ غالباً ما يُطلق على

١. هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى كآيات التالية: الباء، ١٥: طه، ٥٣: عيس، ٢٧: ق، ١٧: البقرة، ٢٦١: البقرة، ١٢٢: إبراهيم، ٣٢: الأنعام، ١٤١: الأعراف، ٥٧: النمل، ٦٧.

الزراع الذي ليس له ساق. وفي التعابير لأكثر شمولاً يُطلق «النبات» على كل موجودٍ نامٍ سواء كان نباتاً أم حيواناً أم إنساناً^١.

و«الشَّجَر» تعني النباتات ذات السيقان، وهذا جاء في القرآن الكريم أزاء «النَّجْم» الذي يعني النبات الذي لا ساق له. «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» (الرحمن / ٦)

وورد في «مقاييس اللغة» أن «الشَّجَر» له معيان في الأصل هما الارتفاع والعلو، وتداخل أجزاء الشيء مع بعضها، وحيث إن، لأشجار ترتفع عن الأرض، كذلك فإن أغصانها تتداخل فيما بينها، لذلك أطلق عليها «شَجَر». و«مُشَاجِرَة». تعني النزاع والاختلاف والمحادثة لأن حديث الحانيين يتداخل مع بعضه

إلا أن البعض يعتقد أن أصل هذه المادة يعني الشيء الذي ينمو ويرتفع وتخرج منه أوراق وأغصان. وقد يُطلق على الأمور المعنوية أيضاً كما في «وَالشَّجَرَةُ الْمُنْكَوْنَةُ فِي الْقُرْآنِ» (الاسراء / ٦٠)



(التي تم تفسيرها بمعنى «شجرة الرقوم» أو «اليهود» أو «هي أمه»)^٢.

وكما يُعهم من كتب اللغة المختلفة فإن «الزراع» تعني في الأصل نثر البذور والحبوب في الأرض، ومن هنا حيث سيتبع نثر البذور نمو اشبات وحصاده، فيُطلق على كل واحد من هذه العمليات «زراعاً»

ويحول بعض اللغويين: إن الزراع تعني الإساءة، وهذا في الحقيقة هو فعل الله تعالى، وإذا أُطلق لفظ الزارع على العباد فهو سبب توفيرهم لأسباب ومقدمات ذلك، وقد يقال: «المزروع» زرعاً أيضاً.

وغالباً ما يُطلق لفظ «زراع» على الحطة ولشعير، إلا أن مفهومه أكثر شمولاً، حيث يشملها وغيرهما^٣.

١ «النبات» لها معنى مصدرى، واسم مصدرى أيضاً

٢ مفردات الراغب: مقاييس اللغة: مصباح اللغة، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

٣ مفردات الراغب: لسان العرب: والتحقيق في كلمات القرآن الكريم؛ وصحاح اللغة.

وأما الدكتور فقد جاء في «مقاييس اللغة» أن هذا اللفظ يعني في الأصل كل شيء يتولد من شيء آخر، وقال بعض اللغويين، أنه يعني ما يحصل من الشجرة فقط.
 وصرح قسم آخر من أرباب اللغة، بأن كل موجود يحصل ويتولد عن موجود آخر مأكولاً كان أم غير مأكول، مرغوباً كان أم غير مرغوب، حلواً كان أم مرأ، يسمى «ثمرًا».
 لكن الظاهر أن الثمر كان له في الأصل مفهوم محدود وهو الفاكهة الحاصلة من الشجرة، لكن هذا المفهوم اتسع فيما بعد وأطلق مجازاً على محصول ومتنوع أي شيء، حتى أصبح يقال إن ثمرة هذا المذهب وهذه التعاليم كاذبة وكذا، وجاء في الرواية: «أَمَّاكَ أَطْعَمَكَ مِنْ ثَمَرَةِ قَلْبِهَا»، إشارة إلى حليب الأم أو محبتها وفي الروايات أيضاً أطلق على الولد بأنه ثمرة العزاد.

❦❦❦

جمع الآيات وتفسيرها

الورق الأخضر للأشجار:

أشار في الآية الأولى إلى المشركين أو معاصدين، فقال: «وَأُولَئِكَ يَرْوُوا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْشَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ».
 ثم صرح قائلاً: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ».
 أجل... فلو تمعن هؤلاء في هذه النباتات الملونة، والأرهار، والثمار، والأشجار، والحضار، والسابل، وأنواع الزروع الأخرى، سيرَوْن آيات الله فيها بكل جلاء، فهؤلاء لا يريدون أن يؤمنوا وينظروا إلى صورة داته المعدسية ببصيرة القلوب، وإلا فإن جماله لا يخفى على أحد، نعم فهؤلاء ليست لديهم آذان للاستماع إلى آيات الله التشريعية ولا أبصار لمشاهدة آياته التكوينية.

وهنا ما المقصود من «تزوج»؟ فالكثير من المفسرين فسر ذلك بمعنى النوع والصف، واعتبروه إشارة إلى تنوع وتشعب النباتات، حيث إن عددها غير محدود ولا يمكن حصره،

وأياً منها يُعتبر آيةً من آيات الباري عز وجل.

في حين احتلها البعض إشارة إلى «الزوجية» (أي الذكر والانثى) الموجودة في عالم النباتات، وهذه الحقيقة اكتشفت لأول مرة على نطاقٍ واسعٍ على يد عالم النبات السويدي المعروف «لينه» أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، حيث إن النباتات - على الأغلب - تحمل وتثمر كاليحوانات عن طريق تلاقح الذكر والانثى، في الوقت الذي وردت هذه الحقيقة في القرآن الكريم قبل قرون عديدة.

ومن هنا حيث لا تعارض بين هذين المعنيين فيمكن أن تكون إشارة اليهما معاً. إن وصف «الزواج» «الكريم» علماً بأن لفظ «كريم» يعني الموجود الثمين، إشارة إلى أهمية أنواع النباتات وقيمتها الفائقة.

إن تنوع النباتات كثيرٌ إلى الحد الذي يقول بعض العلماء إن «النخل» أكثر من ثلاثة آلاف نوع، و«الكافور» أو «التين الهندي» ألف وسبعمائة نوع، و«ورد الهند» ألف ومائتا نوع، ونسبوا «الكافور» مائة ألف نوع، و«الطحالب» أربعة آلاف نوع، و«التفاح» سبعة آلاف نوع، وذكروا «الحنطة» خمساً وثلاثين ألف نوع! -

حقاً... كم هو عجيب عالم النباتات الفسح بكل هذا التنوع؟ وكم هو عظيم خالقه

ومدبره!



وفي الآية الثانية ومن أجل إثبات «وحدانية المعبود» يدعو الناس إلى تفحص أسرار خلق السموات والأرض ثم زول المطر، ثم يقول: «فَأَنْبِثُوا بِهِ حَدَائِقَ^١ ذَاتَ بَهْجَةٍ»، وليس في إمكانكم أبداً أن تُنبثوا أشجارَ هذا البستان الجميلة، «فَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِثُوا شَجَرَهَا».

١. عالم الزهور، ص ٩٩ إلى ١١٨.

٢. «الحدائق» جمع «حديقة» وتعني «البستان» وهي تعني في الأصل قطعة الأرض التي تجتمع فيها الماء، وقد فسرها الكثير من المفسرين بأنها البستان الذي ضرب حوله سور وفيه ما يكفي من الماء.

ومع هذا تقولون هناك إله مع الله: «وَأِلَهُ مَعَ اللَّهِ».

إلا أن هؤلاء أفراد يجهلون حيث يعدلون عن الخالق العظيم الذي أبدع كل هذه العجائب والفرائب ويجعلون الموجودات التي لا حول لها ولا قوة ببدأ الله: «يَبْلُ هُمْ قَوْمٌ يَفْقَهُونَ». ومن الممكن أن يكون التعبير «يعدلون» بمعنى عدولهم عن الله الواحد المنفرد، أو اختلاق مثيل ونظير له.

أجل فعل الإنسان شر البذور والرأي وأمثال ذلك، والله وحده الذي خلق الروح في جسد هذه البذرة الصغيرة، وأعطاه القدرة على أن تتحول إلى شجرة عملاقة مثمرة مزدهرة نظرة حيث يبعث منظرها في البساتين الفرح والسرور في نفس الإنسان، ولو وضع الإنسان قدمه وسط أحد هذه البساتين المزدهرة النظرة في أحد أيام الربيع، وفتح بصيرته إلى جانب بصره الظاهري، لهرى كل هذا التسوع والعجائب والمناظر الخلابة والأدهار الملونة والأوراق والثمار المختلفة، لاستشقى عطر النوحيم وارتوى من كأس العبودية وأصبح مسحوراً مهنوياً، مسحوراً يجعله يترسم بلحن التوحيد ويعرف بهذه الحقيقة.

وهذا الشعر المنقول من اللغة الفارسية يقول:

هناك واحد لا أحد سواه وحده لا إله إلا هو
وهنا يثمر هذا الأمر: كل نبات ينمو من الأرض
يقول وحده لا شريك له

❦❦❦

وفي القسم الثالث من الآيات أعلاه وصف تعرضه لخمسة أقسام من براهين توحيد الخالق جل وعلا وآيات الآفاق (خلق السموات بعمر عمده ترونها، وخلق الجبال، وخلق الدواب والحيوانات، وخلق المطر، وخلق نباتات)، حاطب المشركين قائلاً: «هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ».

وأضاف في ختام الآية: «بَلِ الْغَافِلُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»

فكيف يُمكنُ لَمَنْ يملكُ بَصْراً ويرى آثارَ قدرةٍ وحكمةٍ وعظمة الخالق في عَرْضِ عالم الوجود، ثُمَّ يَحْضَعُ تعظيماً لغيره؟!

ونواجه في هذه الآيات مرةً أخرى لتعبير «كُلُّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» بخصوص النباتات، حيث يتحدث عن التنوع الضروري جداً للنباتات، وعن الزوذية في عالمها، ويُشعر سالكها طريق التوحيد بأهمية هذا الموضوع.

لعلَّه «ظلم» لها معنى واسع حيث يشمل وضع أي شيء في غير محله، وحيث كان المشركون يعتبرون تدبير الكون بيد الأصنام، أو بتصوراتها واسطةً بين المخلوق والخالق ويسجدون لها، فقد ضلُّوا وارتكبوا ظلماً عظيماً، ولهذا جاءت هذه الكلمة في الآية أعلاه بمعنى الشرك، أو بمعنى واسع حيث إنَّ «شرك» مصداقٌ وصح له.

لا يخفى أنَّ عبارة «فأروني» في الواقع - جاءت على لسان النبي ﷺ، وتعبير آخر: أنَّه مكلفٌ بأن يقول هذه الجملة للمشركين، لأنَّ لأمره لا يمكن أن يكون لها مفهوم.

❦

ويقول بصراحة في الجزء الرابع من هذه الآيات التي وردت في سورة يس: «وَأَيُّ الْوَيْلِ لِلْأَرْضِ أَهْبَتُ أَعْيُنَهَا».

وفي الحقيقة أنَّ مسألة الحياة من أهم أدلةٍ لتوحيد، سواء كانت في عالم النباتات، أم الحيوانات والبشر، أنَّها المسألة المية بالأسرار والمدهشة التي حيرت عقول كبار العلماء، ومع كل النجاحات التي حققها الإنسان في مختلف الحقول العلمية، لم يفلح أي شخص من حلِّ لغز الحياة حتى الآن، ولا عِلْمٌ لأي أحدٍ كيف وتحت تأثير أية عوامل تبدلت الجمادات إلى كائناتٍ حية؟!

ثمَّ أشار خلال بيان مسألة أحياء الأرض المبتة، إلى إنباء المحاصيل الغذائية (كالحنطة والشعير والذرة...)، وبساتين العنب والتين لظرة، وبكون يسابيع الماء الصافي، وقال في الختام: «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ».

إنَّ عبارة «مَا عَلَّمْنَهُ أَيْدِيهِمْ» إشارة لطيفة إلى أنَّ هذه الشمار الطازجة، غذاء كامل مهياً للأكل دون الحاجة إلى طبخه وإضافة المواد الأخرى إليه، فليس للإنسان تدخل في أصل وجودها، ولا في إعدادها للأكل، فعملُ لسان لا يتمدى سترُ البدور وسقي الأشجار فحسباً.

على أية حال، لم يكن الهدف من خلق كل هذه النعم المختلفة إنهمالك الإنسان بالأكل كالحيوانات، وأنَّ يقضي عمره على هذه الحال، ثم يموت ويصبح تراباً، كلا، فالهدف ليس هذا، بل إنَّ الهدف هو أن يرى ذلك ويعيش في ذاته اشعور بالشكر، ومن خلال «شكر» النعم يصل إلى معرفة واهب النعم حيث ينال اسمى المواهب وأرفع مراحل تكامل الإنسان.

والمسألة الجديرة بالاهتمام في الآيات أعلاه هي أنها تصع الروحية في عالم النباتات إلى جانب الروحية في عالم الإنسان منقول: «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ».

فهذا التعبير دليل على أنَّ الروحية هنا تهي جسد الذكر والانثى، ووجودها على نطاق واسع في عالم النباتات، وهذا من المعاجز العلمية بقرآن الكريم، لأنَّ هذا المعنى لم يكن آنذاك واضحاً لدى الإنسان بأنَّ هناك وجود لقوام الذكر والاجزاء الانثوية في عالم النباتات، وتنطلق الخلايا التي هي نطفة الذكور لتستقر في الأجزاء الانثوية وتتلاقح معها وتنفق نطفة النبات.

ويمكن أن تكون عبارة «وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ» إشارة إلى أنَّ مسألة الروحية لها نطاق واسع، وما أكثر الموجودات التي تجهلون وجود لروحية فيها، وسيريل تطوُّر العلم النقاب عنها (كما ثبتت هذه المسألة في الذرات حيث تتركب من قسمين مختلفين يكمل أحدهما الآخر

١. وهذا في حالة كون «ما» في عبارة (وما علمته) مافية (وهذا هو الظاهر)، إلا أنَّهم احتملوا أن تكون موصولة، تلميحاً إلى الشمار التي تنتج عن طريق التطعيم والتي للإنسان دخل فيها، أو من المشتقات التي يأخذونها من الفاكهة كالعصير والتخل التي تؤخذ من العنب والتمر، ومما لا شك فيه أنَّ المصنَّ الأول أكثر تناسلاً

كالزوجين: **فَالْأَلَكُتْرُونَاتُ** تحمل الشحنات السالبة، و**البروتونات** تحمل الشحنات الموجبة)، ومواضيع أخرى لم يوصل إليها العلم لبشري حتى الآن

XXXXXXXX

وفي الآية الخامسة حيث تبدأ بالتعريف بالله من خلال الآيات المختلفة، أشارت أولاً إلى نزول المطر من السماء، ثم قالت: **فَأَخْرَجْنَا بِهَا نَبَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ**.

وربما يكون التعبير **«نَبَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ»** إشارة إلى أنواع النباتات المختلفة، حيث تُسقى بماء واحد، وتنمو على أرض واحدة، ومع هذا فهي تختلف في الشكل والطعم والخواص وأحياناً تتعارض في ذلك، وهذا من عجائب حقيق لله

أو أن المقصود هو النباتات التي ساحتها الطيور والبهائم البرية والبحرية وكذا الإنسان^١، ويمكن الجمع بين هذين المعنيين أيضاً. ثم يتطرق إلى ذكر مسألة أخرى، مضافاً: **فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا**، وبهذا يشير إلى مادة **«الكلوروفيل»** الخضراء التي هي من أهم وانفع امزاج النبات، هذه الحُصرة التي تهبث الحيوية، واللطافة، والجمال، وتسلب القلوب وتخرج من التراب الغامق اللون والماء الرائق الشفاف.

إن التعبير **«خَضِرًا»** بالرغم من إطلاقه، إلا أنه استناداً إلى الجملة التالية التي تقول: **«نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا»**، يشير بالأساس إلى سيقان وسنابل الحنطة والشعير والذرة وما شابه ذلك^٢.

ثم يُلَفِّتُ النظرَ إلى أشجار الحيل، فيقول: **«وَمِنْ الشَّجَرِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ»** **«قِنْوَانٌ»**: جمع **«قِنْوَر»** على وزن (حزب)، وتعني القروع الرفيعة التي تخرج من الطلع بعد

١ في هذه المسألة يكون مفهوم الجملة **«فَأَخْرَجْنَا بِهَا نَبَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ»**.

٢ **«متراكب»** مأخوذة من مادة **«ركوب»** وتعني الصعود، وهي إشارة إلى العيوب التي تتراكب على بعضها على هيئة سلسلة ذات منظر جميل ومحجوب للغاية

تَفْتُحِهِ، وهي التي تُكُونُ عَذوق التمر فيما بعد.

وقد يكون التعبير بدلالة إشارة إلى قرب هذه العذوق من بعضها أو انحنائها نحو الأسفل بسبب ثقل ثمار الرطب.

ويقول بعض المفسرين بما أن عَذوق ثمر تختلف أيضاً، والبعض يكون في الجزء الأسفل من النخل ويمكن استثماره بيسر، والبعض الآخر بعيداً عن متناول اليد فتكون الاستفادة منه صعبة بعض الشيء، فقد أشار الباري تعالى إلى الصنف الأول باعتباره أكثر فائدة^١.

وأشار في سياق هذه الآية إلى سائين لعب والزيتون والرمان: «وَجَنَاتٍ مِّنْ أَصْنَابٍ وَالزُّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ»، التي تتشابه في نفس الوقت الذي تختلف فيه، وتختلف فيما بينهما في حين أنها متشابهة «مُشَابِهًا وَغَيْرَ مُشَابِهٍ».

يقول بعض المفسرين إن هذه الثمار تشابه في لمطر، إلا أنها تختلف في الطعم (كانواع العنب والرمان الحامض والحلو).

وقال البعض الآخر إن أوراق أشجارها تشابه أحياناً (كأوراق الزيتون والرمان)، في حين أن ثمارها مختلفة.

ولكن المناسب إعطاء أوسع مفهوم لتوضيح الآية وهو الإشارة إلى أنواع التشابه والتفاوت.

واللطيف أنه يدعو الجميع للتمسك في أشجاره فيقول: «أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ». «لأن في هذا، آيات وبراهين عن عظمة وقدرته وحكمة الباري تعالى لأهل الإيمان» «إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وليست آية واحدة بل فيها آيات جمعة لله تعالى، لأن تكون الثمار كولادة الصغار في عالم الحيوانات، حيث تنتقل حبوب لقاح للذكور إلى الأقسام الانثوية عن طريق الرياح أو الحشرات، وبعد انجاز عملية التلقيح والاختلاط فيما بينهما يتم تشكيل البويضة والطفلة

أولاً، ثم تظهر في جوانبها خلايا الثمار والالياف واللُب والفروع الجذابة التي تغذيها وفي داخل هذه الثمار تكثُر هناك عظمُ المحتبرات «حُمّة» التي تعمل باستمرار في صناعة المركبات الحديثة بمرايا حديثة، وقد يكون الثمر بلا طعم في بداية الأمر، ثم حامضي الطعم تماماً، ثم يصبح حلواً، وفي كل وقت يحدث فيها انشطارٌ وتفاعلٌ جديد، كما تتغير ألوانها باستمرار وهذه من عجائب خلقِ الله التي يدعو القرآن الكريم - لاسيّما في الآية الآتية - الإنسان إلى التمعّن فيها



وأشار في الآية السادسة من البحث في باديء الأمر إلى قطع الأرض المختلفة التي تملك قابليات متفاوتة لتربية أنواع الأشجار ونباتات وحياتها، إذ يقول: «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتجاوِرَاتٌ» مع أن هذه القطع ينسبُ بعضها ببعض الآخر، فبعضها حصبٌ ومستعدٌ لأي شكل من الزراعة، وبعضها مالحٌ لا يسبُ فيه سبُلُكُمُ أنداً، وقد يناسبُ بعض هذه القطع زراعة الأشجار أو نوع خاص منها فقط، ويناسبُ البعض الآخر نوعاً خاصاً من الزراعة، وهذا عجيبٌ حيث تتفاوت الأراضي المترابطة بشكلٍ تستمد للقيام بواجباتٍ مختلفة، وبعد ذكر هذه المقدمة أشار إلى أنواع الأشجار والزرعات، عاصاف قائلاً: «وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونٌ وَنَخِيلٌ مُسْنُونٌ وَغَيْرُ مَسْنُونٍ».

«أعْنَاب» جمع عنب وتعني الكُرم و«نخيل» جمع «نخل» و«نخيلة» وتعني شجرة التمر، وذكرهما بصيغة الجمع يُحتملُ أن يكون إشارة إلى الأنواع المختلفة للعنب والتمر، لأنّ لهاتين الفاكهتين مئات أو آلاف الأنواع المختلفة.

والتعبير بـ «مَسْنُونٌ وَغَيْرُ مَسْنُونٍ» بالالتفات إلى أن «مسْنُون» جمع «مسْنُو» وتعني الفرع الذي يخرج من البدن الأصل للشجرة، من الممكن أن يكون إشارة إلى قابلية الشجرة على تغذية الثمار المختلفة عن طريق تنظيم، لهذا تظهر على أغصان شجرة واحدة لها ساق واحد وجذر واحد وتتغذى من ماءٍ وأرضٍ واحدةٍ أنواعٌ مختلفةٌ من الثمار، وهذا من عجائب الحلقة.

ومن الممكن أن يكون هذا التفاوت إشارة إلى تفاوت الأعصاب التي تنمو على أصل واحد، وتتفاوت من حيث الثمار الطبيعية.

ثم يُصرِّح بأن هذه الأشجار مع هذا الاختلاف فإنها تُسقى بماء واحد. «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ»، وفي نفس الوقت فإننا نُفَضِّل بعضها على البعض الآخر من حيث الثمر «وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ».

ومن المسلم به أن في هذا الأمر آيات وبراهين للمفكرين: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

حقاً إنه مدهش، فالماء واحد، والتراب واحد أيضاً، أما الاختلاف بين الثمار فكثير بحيث إن أحدها حلو والآخر حامض تماماً (ففي الكثير من المناطق تنمو أشجار الليمون الحامض إلى جانب أشجار التين) أو تنمو المحاصيل الزيتية والمحاصيل النشوية وغيرها في مرعية واحدة، وتتفاوت تماماً، حتى أن هذه الفواكه والمحاصيل أنواعاً مختلفة بالكامل.

ما هذا الجهار المعيب المكون من أحضان الأشجار وجذورها الذي لديه القدرة على صنع المواد الكيميائية مختلفة الخواص من خلال استعمال نوع واحد من المواد (نوع واحد من الماء والتراب)؟ أفلو لم يكن هناك دليل على علم وحكمة خالق الكون سوى هذه المسألة لكانت كافية لمعرفة هذا الخالق العظيم، وكما يقول أحد شعراء العرب:

والأرض فيها عبرة للمعتبر	تخبر عن صنيع مليك مقتدر
تُسقى بماء واحد أشجارها	وبسقة واحدة قرارها
والشمس والهواء ليس يختلف	وأكلها مختلف لا يتلف
فما الذي أوجبَ ذا التفاضلا	إلا حكيم لم يردّه باطلا

❦❦❦

وفي الآية السابعة يتطرق إلى شرح أدلة التوحيد ومعرفة الله بقرينة بدايتها ونهايتها، فيقول: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شُرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ». فليس كل ماء صالح لشرب الإنسان، ولا كل ماء صالح لنمو النبات والشجر، إلا أن هذا الماء السماوي مفيد لكل وأساس لحياة كل شيء.

«تَسِيمُونَ»: كما قلنا له معنى شامل في اللغة، حيث يشمل أنواع النباتات سواء كانت ذات سيقان أم لا، و«تُسِيمُونَ» من «إِسَامَةٍ» وهي من مادة «سَوَمَ» وتعني رعى الحيوانات^١، وحيث إن الحيوانات تتناول كلاً من الأعشاب وأوراق الأشجار عند رعيها فالتعبير «شجر» يبدو مناسباً جداً لاشتماله على كليهما.

ثم يضيف: «يُنْثَبُ لَكُمْ بِهِ الرُّزْعُ وَالرُّيْشُونَ وَالْأَغْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ». والطلب أن الآية أعلاه مع أنها تتحدث عن كثافة الثمار وجميع أنواع المحاصيل الزراعية بما فيها الحبوب، فهي تستند خاصة إلى ثلاث ثمار هي: الزيتون، والتمر، والعنب. وهذا يعود لأهميته الفائقة لهذه الثمار من حيث المواد الغذائية، وأصواع العظاميات والميراث الدوائية التي تمت معرفتها مع تطور العلوم الغذائية في هذا العصر^٢. لهذا يعود ويؤكد في نهاية الآية بأن في هذه الأمور برهاناً واضحاً عن حكمة وقسرة وعظمة الله لأولئك الذين يتفكرون: «إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». والدين لا يتفكرون في هذه الآيات الحليّة لا يستحقون أن تطلق عليهم كلمة الإنسانية، كما يقول الشاعر تقياً عن الفارسية.

عجبٌ لهذا الرسم على بابٍ وجدار الوجود
فكلما فقل فكرك كان رسماً على الحائط

١. وطبقاً أن المعنى اللغوي لـ «السَّوَمَ» هو وضع العلامة، وبما أن للحيوانات حين العلف تترك أثراً على الأرض أطلق عليه هذا الاصطلاح.

٢. طالعوا شرح هذا الكلام في التفسير الأمثل، دس الآية ١١ من سورة النمل.

هل يتمكن أن يعطي فاكهة ملونة من الخشب؟
 أم يقدر أن يستخرج من الشوك ورداً بسمانة لون؟
 لقد تناثر الأرجوان على صتبة المرج الخضراء
 عيوناً تبقئ الابصار حيرى فيها
 ❦❦❦❦❦

وفي الآية الثامنة يواجه تنوعاً آخر في عالم النباتات والأشجار الذي يُطرح كأحد أدلة التوحيد ومعرفة عظمه الله، إذ يقول «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ». «مَعْرُوشَاتٍ» من مادة (عَرَّشَ) وتعني السرير المرتفع أو السقف، وفي ما يعنيه هذا المفهوم في هذه الآية، هنالك خلاف بين المفسرين.

فقال بعضهم: إن «المَعْرُوشَاتِ» تعني النباتات التي تنساب على الأرض أو تتسلق على الأسنة أو على هيكل من حديد أو خشب يصنع لها، مثل الأعقاب والحيار والبطيخ. و«غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ» ما قام على ساق مثل التخل وسائر الأشجار. وقال البعض الآخر المَعْرُوشَاتِ ما ارتفعت أشجارها وأصل التعريش الرفع، عن ابن عباس، وقالوا أيضاً: المَعْرُوشَاتِ ما أثبتته ورفعه الناس - واحيط بسور -، وغير المَعْرُوشَاتِ ما خرج في البراري والجبال من الثمار^١.

ولكن يظهر أن التفسير الأول أكثر ملائمة

على آية حال، فالعجب أن بعض الأشجار كالسرو والصوبر ترتفع في السماء برتابة ولا تستطيع الرياح المائية والعواصف من التأثير على قامتها، في حين أن البعض الآخر كأشجار الكروم لا تملك غصناً مستقيماً واحداً، وتهتز وتسحني باستمرار، وكل منها له عالمه الخاص.

فأشجار العنب بمناقيدها الثقينة لو كانت لها قامة كأشجار الصوبر لانكسرت ولم

١ وردت هذه التفسير الثلاثة في تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٥٢٤

تستمر يوماً واحداً، فضلاً عن ابتعادها عن متناول يد الإنسان، في حين أن طعلاً صغيراً باستطاعته اقتطاف جميع الثمار في بساتين العشب

ثم يضيف مستنداً إلى أربعة أنواع من الثمار والزرع: «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزُّيْتُونُ وَالْأَوْثَانُ مَشَابِهًا»، لا بد من لانتباه إلى أن «جنت» جمع «جنته» تطلق على البستان، وعلى الأراضي التي ينطويها الررع، و«أكل» على وزن (دَهَلَ) من مادة «أَكَلَ» على وزن (تَكَلَّى) وتطلق على جميع المأكولات.

على أية حال، فالأشجار والزرع والنباتات لا تختلف كثيراً من ناحية الظاهر فقط، بل إن ثمارها ومحاصيلها تتفاوت للغاية أيضاً، من حيث اللون والطعم والشكل الطاهري، وكذلك من حيث ما فيها من مواد غذائية وخصائص متنوعة، إضافة إلى أن منها المرعوب والمتوسط، وهذا يبين لقدرة الخالق جل وعلا بدي أوجد مثل هذا التنوع العظيم الواسع في عالم النباتات، وكل نوع يُنسَج بحمده وتثانته.

وفي نهاية الآية يصدر أوامره: «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ».

وعليه فإن الأمر بـ«كُلُوا» دليل على حليتها تكامله ولكن بشرطين: الإيفاء بحقوق المحتاجين، وعدم الإسراف.

وبالرغم من أن بعض المفسرين قانوا بأن المقصود بـ«حق» هنا هو الزكاة، إلا أن أغلب المفسرين واستلهاً من الروايات الواردة عن طريق أهل البيت (عليه السلام) وأهل السنة، صرحوا بأن المقصود بهذا الحق ليس الزكاة^١

بناءً على ذلك لا بد أن يُخصص أصحاب المزارع والساتين نصيباً للمحتاجين أثناء قطع الثمار، وحصاد المحاصيل كحكم إلهي، وهذا النصيب ليس له حد معين في الشرع، بل يتعلق بهمة المالكين وعليه فإن ذيل الآية تتحدث عن حكم أخلاقي وصدرها يشتمل على دورس توحيدية.

١. تراجع سنن البيهقي، ج ٤، ص ١٣٢؛ وسائل الشيعة، ج ٦ كتاب الزكاة أبواب زكاة الفلات؛ وتفسير الميرزا؛ وتفسير القرطبي فيما يخص الآية.

ويشير في الآية التاسعة إلى موضوع آخر من عجائب عالم النباتات والأشجار، فيقول بعد ذكر مسألة بسط الأرض وتكون الجبال «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونًا». بالرغم من أن «موزون» من مادة «وزن»، إلا أنها هنا إشارة إلى النظام الدقيق والمحدد، والتقدير المتلائمة والمتناسقة التي تحكم جميع درات البساتين، إضافة إلى أن «وزن» كما أوردها الراغب في المفردات تعني في الأصل معرفة قدر الشيء. وقال بعض المفسرين أيضاً إن المراد من هذا التعبير هو أن الله خلق من كل نبات بقدر حاجة الإنسان^١.

كما قالوا إن المراد من «موزون» هو وحبوب تظاهر كميات محددة من الماء والهواء والتراب وصور الشمس كي تنمو النباتات. واحتمل بعض المفسرين أن التعبير «كُلُّ شَيْءٍ» يشتمل على المعادن أيضاً، ولكن من خلال الفهم بأن عبارة «أنبتنا» لا تناسب كثيراً مع المعادن، فإن هذا التعبير يبدو بعيداً، وأن الجمع بين التفسيرين ممكن، وورد في بعض الروايات إشارة إلى التفسير الثاني أيضاً^٢ ويرد فيها الإشارة إلى توفير الوسائل المعاشية والحياتية للناس ولحيواناتهم ولأولئك الذين يرتزقون على مائدة الخالق الواسعة فيقول: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَنْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ».

«معايش»: جمع «معيشة» ولها معنى واسع جداً، فتشمل كل شيء يعد من وسائل حياة الناس، وجملة «وَمَنْ لَنْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ» إشارة إلى الحيوانات والكائنات الحيّة التي ليس بمقدور الإنسان أن يقطعها، فوضع الباري تعالى الطعام المناسب لكل منها في اختيارها على أساس النظام الحاص الذي يسود العالم، ولو فتحنا أعيننا وتأملنا طريقة تغذية أنواع الحيوانات من النباتات، لوحدنا فيه عالماً من أدلة معرفة الله.

١. ذكر القصر الرازي هذا في تفسيره كاحتمال أولي، والتفسير الثاني ككتاب احتمال، (التفسير الكبير، ج ١٩، ص ١٧٦).

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٦٨، أشار الإمام علي عليه السلام في هذه الرواية إلى المعادن المختلفة التي أوجدها الله في الجبال وتباع وتشتري بالوزن.

فبعضها يستفيد من الثمار، وبعضها من الحبوب، ومجموعة من أوراق الأشجار، وطائفة من السيقان، وآخر من القشور، والبعض من رحيق الأزهار، وقسم آخر يأكل الجذر فقط.



وفي الآية العاشرة والاعشرة من البحث أُشير إلى مرة أخرى لعالم النباتات، وهي مسألة انفلاق حبوب ونوى النباتات تحت الأرض.

وقد وُصف البارئ تعالى في هذه الآية كما يلي: «إِنَّ اللَّهَ قَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى»، ويقول في نهاية الآية: «ذَلِكُمْ اللَّهُ قَاتِي تُوَفَّكُونَ».

«قَالِقُ»: من مادة (قَلَقَ)، وكما يقول الرابع في الممرات فهي معني انقطاع الشيء، وانفصال جزء عن جزء آخر، و«الْحَبِّ» تعني حبوب الطعام والفداء أو كل أشكال الحبوب الساتية، و«النَّوَى» تعني نوى الثمار، وإذا خَضَرَهَا ابْتَحَسَ بمعنى نوى الثمر فذلك بسبب تكاثره في ذلك المحيط.

على أية حال، فإن أهم والطف مراحل حياة النباتات هي مرحلة «انفلاق الحب والنوى»، وفي الحقيقة فإن هذه الحالة تشبه حالة ولادة طفل، والعجيب أن هذا اليرغم النباتي بما فيه من رقة وظرافة يشق هذا الجدار القوي الذي يحيط به، ويخرج إلى العالم الخارجي، فيولد هذا الكائن الحي الذي كان محبوساً إلى ما قبل لحظات في القشرة والسوى، ولم تكن له علاقة بالعالم الخارجي، ويقيم علاقته مع الخارج فوراً، فيتعدى من المواد الغذائية الموجودة في الأرض، ويرتوي من الماء والرطوبة التي تحيط به، ويبدأ بالحركة بسرعة في اتجاهين متعاكسين فمن جهة ينفذ في الأرض على هيئة جذر، ومن جهة أخرى يستقيم فوق الأرض على هيئة ساق.

فالقوانين الدقيقة التي تسود هذه المرحلة من حياة النبات مدهشة حقاً، وتعتبر دليلاً

١ قد يستعمل هذا اللفظ بمعنى «الحلاقة» كأن حبب حله عدم تشرق ويكشف نور الوجود عنها (تفسير روح المعاني، ج ٧، ص ١٩٦)، ولنعني هذا الشيء يسمى بياض الصبح «نق» على وزن «شقق» أيضاً

حيأ على علم وقدرة الخالق جلّ وعلا.

يستفاد من مجموع ما ورد في هذه الآيات القرآنية حول خلق النباتات وخصائصها المختلفة ابتداءً من رشد النباتات إلى تنوعها ومسألة اللقاح والزوحية، وأسواع المواد الغذائية للإنسان والحيوانات، حتى كيفية نمو طلع التمر، والحبوب المرتبة بعضها فوق بعض كالحنطة والشعير، وتكاثر الثمار والرروع المتباينة تماماً الناتجة عن ماء واحد وأرض واحدة وسيادة القوايين المورثة على جميع المراحل وانعلاق الحبوب والبوى، أنها جميعاً آيات لتلك الذات المقدسة، ودليل على وحدانية الرب ونفي كل أشكال الشرك.

❦❦❦

توضيحات

١ - التركيب المدهل للنباتات

من الطبيعي أن ننسى عجائب وأسرار كل شيء إذا بدا لنا واضحاً فيكون مصداقاً للآية الشريفة: «وَكَايُنْ قِنْ آيَةِ قِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» (يوسف / ١٠٥)

فنمر عليها مرور الكرام في الوقت الذي يكمن فيها عالم من عجائب وقدرة وعظمة الخالق جلّ وعلا.

نبدأ من جذور النباتات، فالجذر بلطفه وريقته له قدرة مدهلة، فهو ينفذ في طبقات الصخور والأراضي الصلدة، وأحياناً يخور تحت قطع صخرية ترنّ عدة أطنان ويرفعها عن مكانها وتتحرك العمارات والأحواص التي نُشِئت من القوالب والطبقات المسلحة نتيجة نمو الأشجار حولها.

فعمل الجذر هو امتصاص المواد الغذائية والرطوبة من كل ناحية، وكأنها تعرف مراكز الرطوبة والمواد الغذائية من خلال شعورها "محبب فتسعى نحوها.

ولكل جذر جهاز عظيم له قدرة خاصة في انتحاب نوع الغذاء وتغييره وتبديله، ثم

يدفعه إلى داخل الأغصان بعد التغيرات التي يحدثها فيه، ومنها إلى الثمار، وتجري عليها تفاعلات كيميائية جديدة في كل مرحلة، كي يصنع من تراب فاكهة طيبة كالعسل، أو يصنع دواءً شافياً وصحياً.

ومن أهم واجبات الجذر امتصاص - الخروج المذاب - الضروري لبناء النبات الذي لا تتمكن بقية أجزاء النبات من جذبه.

وبناء الأوراق أكثر عجباً منه، فلو وضعنا ورقة أمام أشعة الشمس ستلتفت نظرياً الفروع الدقيقة جداً الممتدة فيها والتي يكون واجبها يصال الماء والعذاء إلى كافة خلايا الورقة وفي الواقع أن كل ورقة تعتبر بعد ذتها مدينة كاملة، وهذه الفروع هي الأنابيب المنتظمة لهذه المدينة ابتداءً من الأنبوب الرئيسي، وحتى أصغر الشعرات.

والورقة مع رقتها لها سبع طبقات، وكل طبقة لها بناء وبرنامج خاص يبحث على الدهشة، والغلاف الذي يعطي الورقة كجلد الإنسان ذو مساهمات دقيقة جداً، وكل من هذه المساهمات لها خلايا للصيانة تقوم بتعليم اصباح وانغلاق المسامات.

وتتنفس الورقة من خلال هذه المسامات، فتستشق الهواء وتفصل عنه غار ثاني أكسيد الكاربون، لتصنع به «الكلموروفيل» النباتي، وفي المقابل تطرح الاوكسجين وكمية من الرطوبة لتلطيف وتطهير الجو كموهبتين عظيمتين لديمها الإنسانية.

والأرقام التي يقدمها العلماء هنا تبحث على العمرة إذ يقولون، من أجل أن يتمكن النبات من صناعة رطل واحد من السكر يجب أن تستشق الأوراق ما يعادل ثلاثمائة ألف لتر من الهواء وتحلله.

وبناء الأزهار ومن ثم الثمار أعجب من ذلك أيضاً، فهناك الأقسام الذكرية والانثوية، وتفاعل الذرات الذكرية الدقيقة جداً مع الأجزاء الانثوية، ثم تكوين البويضة في رحم النبات بعد هذا الزواج الصامت، وكيفية نموه، أنه عالم عجيب يسلب معه روح وعقل الإنسان، ويجعله غارقاً في محيط من العجائب.

إن تفصيل بناء هيكل النباتات ولأزهار وثمار لا ينبغي بالغرض المطلوب في هذا

البحث المختصر، فقد تمّ تأليف العديد من كتب من قبل العلماء حول هذا الموضوع، وظهر علمٌ واسعٌ باسم (علم النبات)، فمن الأولى أن مكتملي هنا بكلام لأحد خبراء الزراعة ونفلق هذا الملف الضخم على عجل، يقول عالم نبات «تشرالوت» : «إنّ الآله يظهر من حلال القوانين الثابتة والرمزية التي يدير بها عالم لنبات بته يظهر ويتجلى من حلال هذه الطرق:

١ - النظام والترتيب: ويشمل التكاثر ولاقسامات العلوية وبناء الأجزاء المختلفة من النبات حيث يتم بشكل معظم ومرتب.

٢ - التطيد: علا تقاس أي ماكية من صبح الإنسان مع الترتيب المعقد والمدهل لنبات عادي.

٣ - الجمال: إن جمال الساق، والورق والزهرة أمر الهي. إذ لا يقدر أي نحاب ماهر ورسام مجرب من تقديم تمثال أو لوحة بهذا الجمال

٤ - الوراثة: فكل نبات يولد مثله وهذا هو انتاج المثل، وهو يجري وفقاً لارادة وتخطيط، فبأي مكان زرعوا وكيفية زرعوها فن «العصطة تهت من الحسطة والشعير من الشعير».

ثم يصعب، باعتقادي، أن هذه المظاهر دليل على وجود الحالق دي الحكمة البالغة والقدرة اللامتناهية».

يقول «تاليس» اساذ علم البيئة السابق في جامعة مانشستر: «تأملوا النباتات والحشائش التي نبتت على جانبي الطريق، فهل تستطيع الآلات الحديثة التي صنعها البشر حتى الآن أن تضاهي صبح هذا النبات الطبيعي؟

فهذه الحشائش الطبيعية بكل معنى الكلمة مذهشة ومذهلة حيث تنمو باستمرار وتقوم يومياً بآلاف الأفعال والتفاعلات الفيزيائية والكيميائية. وكل ذلك يجري بإشراف المادة البروتوبلازمية التي تكونت فيها كل حياة لطيفة، هذه الآلة الحيّة المعجبية من صنع أي قدرة؟



٢ - فولند وبركانس للنباتات

إنَّ النباتات تُمثِّلُ الركن الأساس للحياة على الكرة الأرضية، وكافة الكائنات الحيَّة الأخرى بحاجة إلى النباتات، ففوائد النباتات كثيرة ووفيرة للعناية حيث يمكن الإشارة إلى اثنتي عشرة فائدة متسلسلة

١ - **أفضل مادة غذائية:** يتمَّ تحصيل أفضل طعامنا نحن البشر من النباتات والحبوب والفاكهة، فطاقتنا وقدرتنا وسلامتنا تؤمَّنُ عن طريق الغذاء النباتي، والكثير من الطيور والدواب واللبائن والأسماك في البحر تستفيد من النباتات، لهذا فكلُّ بلدٍ يتمكن من تأمين منتجاته الغذائية عن طريق النباتات منه يبلغ الاكتفاء الذاتي في الواقع.

٢ - **النهيمة:** نحن نعلمُ أنَّ الإنسان واغلب الموجودات الحيَّة تستخدم اوكسجين الهواء بنحو دائم وتقوم بإحراقه، ولولا وجود مصدرٍ يعوِّضُ ذلك فسُتهلك هذا الاوكسجين الموجود في الجو والأرض خلال مدة قصيرة، وبذلك هذا الصنف من الموجودات أتر الاختناق، إلا أنَّ الإله الحكيم اناطَ مسؤولية تعويض هذه الخسارة بالنباتات، فهي تنفس على العكس من الإنسان، إذ تأخذ غاز ثاني اوكسيد الكاربون وتحلله وتطرح غاز الاوكسجين، لهذا فإنَّ هواء البساتين والمزارع منعش ومُشطِّط، كما يوصون لنفس هذا السبب بأنَّ تقام في كلِّ مدينةٍ ممرهاتٍ مُشجرة، وتخصَّص لكلِّ شخصٍ مساحة من هذه الممرهات، ويطلقون على هذه الممرهات «رئة المدينة».

٣ - **الملابس:** إنَّ الجانب الأعظم من ملابسنا يتمَّ تصنيعه من ألياف بعض النباتات، وفي الواقع فإنَّ المصدر الذي لا يتعد لملايس الإنسان في الدرجة الأولى هو النبات.

٤ - **البيت والراحة:** لو ألقينا نظرة على ما حولنا في البيت لوجدنا أنَّ أغلب الأبواب والشبابيك واللوازم الأخرى هي من حشاب لأشجار، بنحو لو أردنا العاءها من حياتنا فستصبح الحياة صعبةً بالنسبة لنا، وفي الكثير من المناطق يصنعون بيوتهم من الخشب بشكلٍ كامل، ولهذه البيوت مزايا كثيرة، وأحد الموارم المهمة للحياة المعاصرة هو النايلون، ونحن نعلمُ إنَّ مادته الاصلية تُستخرج من عصير شجر (المطاط).

٥ - الأعشاب الطبية: كانت أعدب الأدوية في السابق تُستخلص من النباتات، واليوم فإن القسم الكبير منها يستخرج من نباتات أيضاً، وبطراً للآثار السلبية للأدوية الكيميائية فقد بدأت الآن حملة للعودة إلى الأدوية النباتية، وهناك صيدليات جميع أدويتها من النباتات.

٦ - السيطرة على الكتبان الرملية: إن أحد الأخطار الجدية التي تهدد المدن لا سيما القريبة من الصحاري الرملية هي الكتبان الرملية حيث تدفن تحتها أحياناً قرية كاملة، وأفضل سبيل لتثبيت هذه الرمال هو استخدام النباتات المخلفة التي توقف حركتها وتقدمها.

٧ - تحضير الورق: نحن نعلم أن اختراع لورق كان له نصيب مهم للمهارة في تطور الحضارة والعلم البشري، والنباتات هي المصدر الأساس لصناعة الورق

٨ - معادلة الحرارة والبرودة: إن النباتات ونسب الرطوبة المناسبة والمعتدلة التي تلقىها في العشاء تقوم بالحد من شدة البرد، وكذلك الحد من شدة الحرارة، ولهذا فإن الجو في المناطق كثيفة الأشجار يكون معتدلاً دائماً.

٩ - وسائل النقل: إن الكثير من ابواب و لقوارب كانت تصنع سابقاً وتصنع حالياً من الخشب، وهي تعتبر من أفضل وسائل النقل التي يستخدمها الإنسان سابقاً وفي الوقت الحاضر.

١٠ - الجمال والطراوة: لا يخفى هذا الأثر اللطيف للأشجار والنباتات والزهور على أحد حيث تبهز روح الإنسان بجمالها المدهش، وتريح القلب وترفع الطمأنينة في نفس الإنسان لمواجهة الضغوط الشديدة للحياة، لهذا يقومون بترتين المستشفيات بأنواع النباتات والأشجار من أجل تحسين أحوال وأوضاع المرضى، ويلجأ الإنسان باستمرار إلى أحضان الطبيعة في وسط الأشجار واليساتين ومرارح الحنطة من أجل إزالة المتاعب وتجديد النشاط.

١١ - المصدر المهم للطاقة: إن الخشب والورق وجدور النباتات كانت ولا زالت إحدى

المصادر المهمة للطاقة وتأمين الحرارة، وحتى لمحم الحجري الذي هو أحد مصادر الطاقة المهمة فهو من منتوجات الأشجار والنباتات أيضاً، واهترارة التي تحصل من الخشب وأوراق الأشجار ملائمة، وتلويثها للبيئة ضئيل جداً، وحتى الرماد المتبقي منها يصلح كسماد للأشجار يستفاد منه مجدداً

١٢ - **أصناف العطور والمواد الكيميائية:** نحن نعلم أن أفضل العطور العطيفة لروح الإنسان كانت ولا زالت تُستخلص من رحيق الأزهار، والأشجار والنباتات ذات الورق والحشب المعطر ذا الرائحة الطيبة، ليست بالطيبة.

ناهيك عن كثير من المواد الكيميائية المستحصلة من النباتات التي تستخدم في مختلف الصناعات.

عظيم ذلك الأله الذي أودع كل هذه الآثار والفوائد والبركات في هذا المخلوق، وجعله آية عظيمة من آياته علمه وقدرته.

إن المعابر الشاملة التي تلوّناها في الآيات المذكورة، يمكن أن تجمع كل هذه الفوائد في عبارة «معايش» جمع «معيشة» وتعني وسيلة الحياة.

8008

٣ - الأنواع غير المحدودة للنباتات

كما أشرنا سابقاً فإن أنواع النباتات كثيرة بانقدر الذي لا يمكن حصرها، وقد تم حتى الآن احصاء ثلاثة آلاف نوع من النخيل، وألف وسبعمائة نوع من التين الهندي، وألف ومائتي نوع من ورد الثعلب.

يذكر مؤلف كتاب «عالم الأزهار» (فريدنالد لين) أن عدد النباتات ذات الحب المغلظ يبلغ مائة وخمسين ألف نوع وقد تم بيان صفات أكثر من ثمانية عشر ألف نوع من النباتات في بعض كتب علم النباتات^١.

وقد تم بحث ألف نوع من الكمأة من ثني تم احصاؤها، وأكثر من أربعين ألف نوع من الطحالب، وسبعة آلاف نوع من لتفاح، وخمسة وثلاثين ألف صنف من الحنطة^١. ومن بين النباتات، هناك نباتات لا تُرى بالعين المجردة، وهالك نباتات يصل طولها إلى خمسين متراً، وبعضها ينمو في وسط نضغور، وبعضها يعوم وسط الماء، وجذور بعضها يتفرع تحت الماء وأزهاره فوق سطح الماء، ولكل منها منظره البديع واللطيف في عالمه حيث يصدق بلحن التوحيد.

❧❧❧

٤ - عجائبه عالم النباتات

لو تركنا كل ما قيل بخصوص نباتات بشكل عام، سلاحظ أن هناك عجائب جمة في عالم النباتات، حيث صار بعضها طي السواحل^٢ أعجيبا عليها فأوراق وسيفان النباتات الصالحة ترفع يوماً مليارات الأطنان من الماء من الأرض حلافاً لقانون الجاذبية، ثم تنثره مختاراً في الفضاء المحيط بها، أي هاون يسمح للنباتات أن تستعرض قوتها هكذا حلافاً لقانون الجاذبية التي تجذب كل شيء نحو الأسفل - لا سيما الماء؟ - هناك الكثير من النباتات كورد عهد الشمس تدور مع حركة الشمس فتتحرك أزهارها الكبيرة نحو الشرق في أول الصباح ونحو الغرب أثناء الغروب. والنباتات آكلة اللحوم من أكثر طواهر عالم النباتات إثارة.

وقد أجرى البروفسور «ليون برتن» مدير «معهد التاريخ الوطني الطبيعي الفرنسي» تحقيقات بخصوص هذه النباتات آكلة اللحوم حيث يوجد منها عشرة أنواع فقط في فرنسا، وأشهرها النباتات الآتية:

١/ «الدروفوند» ويكثر في ولاية «جيرفوند» الواقعة غرب فرنسا على سواحل المحيط الأطلسي، فهذا النبات ذو ورقة تتكون من قطعتين خاصنين متقابلتين كصفحتي كتاب

مفتوح، تتصلان من الأسفل بواسطة مفصل خاص، وتغطي سطح الأوراق طبقة حساسة. وعندما تقترب دبابة منه وتمس أرحبها أو جسثها هذه الطبقة، تنطبق الصفحتان المذكورتان بسرعة، فيقع الحيوان في وسط ذلك السجن، وفي النهاية يُهضم تدريجياً ويصبح جزءاً من جسم النبات أثر افراز مادة لاصقة خاصة حيث تمرز من الورق

س، «دوروزر»: وهذا النبات له أوراق حمراء اللون تشاهد عليها نتوءات رقيقة تشبه الشعر، وحينما تضلّ الدبابة طريقها، تقف على أوراق هذا النبات ظناً منها بأنها قد عثرت على المكار الآمن الحالي، وفجأة تنطبق المخالب من ناحية رأسها، فتجرها محفورة إلى داخل الورقة فتُهضم ويمتصها النبات وسط الافرازات المرجحة للورقة.

ج) «نبات تمس»: وهو أكثر النباتات الأكلة للعوام عجباً، حيث يوجد في نهاية المربع الذئيق ما يشبه الوعاء الصغير، تكون فوهته نحو الأعلى، وله باب خاص مفتوح خلال الأوضاع العادية.

ويعتبر هذا الوعاء فحاً خطيراً للحشرات الضافلة والهائمة في الجو، فهو يحوى باستمرار على العسل اللزج الحلو حيث تدعو الحشرات «عابدة البطن» نحوه، وكذلك فإن جمال وشعافية لون الوعاء ذو جذب خاص للحشرات «ذات الذوق الجيد».

فإذا وقعت حشرة ما أسيرة لهواها ودخلت بوعاء فإن فوهته ستعلق على الفور وستبتلى بسجى لا خلاص منه أبداً.

على أية حال، هذا الوعاء يعتبر كاسعدٍ بالنسبة لهذا النبات، والافراز الداخلي كافرازاتها، ويجعل الحشرة قابلةً للامتصاص.

يقول العلماء: إن قيام هذه النباتات باصطياد الحشرات يعود لعدم قدرة جذورها لامتصاص (التروجين)، لهذا فهي تموض هذا لفص عن هذا الطريق.

و يأمل العلماء بأن يأتي اليوم الذي يستطيعون فيه تربية كمية كبيرة من هذه النباتات في حدائق البيوت أو إلى جانب الأحواص، ويقصون بهذه الطريقة الصحية والطبيعية على الذهاب والحشرات الضارة الموجودة في بيئته للإنسان.

وورد في مذكرات الشَّيَاح والزَّحَّالَة قصصٌ عجيبةٌ حول النباتات التي تأكل البشر. فيقول بعض العلماء من الممكن أن تكون هذه النباتات من النباتات آكلة الحشرات إلا أنها أكبر حجماً لنموها في أرضٍ غنية، وتستطيع أن تقتصص أحياءاً أكبر في بطن فروعها وأوراقها وتمتصها تدريجياً (ولكن لا يمكن تأكيد قبول ذلك بسهولة)^١

ومن أدهب وألطف جوانب وجود النباتات هو إنتاج الشار.

وواحد من ماثات الأمور الطريفة فيها وجود سائلٍ حلوٍ ولديده في الكثير منها محروون في أوعيةٍ صغيرةٍ خاصةٍ مربوطةٍ بإحكام، حيث يبدو أفضل طرق الربط في عصرنا الحاضر، بدائيةٌ جداً أراءها.

افتحوا برتقالةً واحدة، ستجدون كأن شقاً منها يتكون من ماثات القطع الزجاجية الصغيرة الطريفة التي تقيصُ بسائلٍ لذيذٍ ومطرر. الزجاجات التي تجتمعت معاً دون أيِّ فاصلةٍ (ولو كان هنالك فاصلةٌ وهواء فيما بينها ^{لفسدت بسرعة}) لكن هذه الزجاجات لا تنكسر أبداً، وتتحمل صعوبات الحمل والنقل، واللطف هو إمكانية أكلها مع محتوياتها

وكلُّ مجموعةٍ من هذه الزجاجات الصغيرة والطريفة معلقةٌ بقشرةٍ سمكيةٍ وهي بمثابة الغلاف، وتظهر على هيئة شقٍّ (وهذا الوعاء قابلٌ للاكل مع محتوياته أيضاً، بل هو مفيدٌ للجهاز الهضمي).

وهذه الأعلفة الصغيرة تجتمعت بدونِ أقلِّ فاصلةٍ مع تفريخٍ كاملٍ من الهواء، والتوتُّ وسط عدةٍ لفافاتٍ من أجل السلامة والأمن، وفي النهاية أصبحت معدة على هيئة حملٍ صالحٍ جاهزٍ للشحن لمسافات نائية.

ويلاحظ هذا الأمر على نحوٍ أكثر طرامةً داخل ثمار الرمان والعنب والتين أيضاً. تأملوا جيداً لو أن عصارة أيٍّ من هذه لثمار وُضعت في الهواء الطلق ستغير بعد مرور ساعة واحدة، وقد تتعفن خلال عدة ساعات، إلا أن تعليقها دقيقاً ومحبوكةً بنحوٍ لا يسمح

١. نظرة على الطبيعة وأسرارها، تأليف البروفيسور ليون برن، ص ١٣١ - ١٣٤ (مع الاختصار والانتقاس).

بنفوذ الهواء إلى داخلها أبدأ، ولهذا فهي تبقى سالمة لعدة شهور دون أقل تغيير في طعمها. وهذا يتعلق بمسألة التغليف العادية فقط، وأما المركبات الكيميائية لكل فاكهة وخواصها الغذائية والطبية وأنواع الفيتامينات وموادها الغذائية فهي بعد ذاتها ذات قصة مفصلة حيث يختص ببحثها المتخصصون بعلم الغذاء، وقد سم تأليف كتب كثيرة في هذا المجال، ولو أردنا أن نطرق كل هذه المسائل فسفرح عن إطار كتابنا التفسيري، فضلاً عن أن «وزن كتاب كهذا سيبلغ الأطنان».

80098

٥ - أسرار خلق النباتات في توحيد المفضل

ونقرأ في حديث توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«فكر يا مفضل في هذا النبات وما فيه من ضرر من المأرب، فالثمار للغذاء، والأشجار للعلف، والحطب للوقود، والخشب لكل شيء من أنواع التجارة وغيرها، واللحاء والورق والاصول والعروق والصمغ لضرره من المنافع، وأريت لو كنا نجد الثمار التي تنفذي بها مجموعة على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه الأغصان الحاملة لها كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا، وإن كان الغذاء موجوداً فإن المساقع بالخشب والحطب والأشجار وسائر ما عدناه كثيرة، عظيم قدرها جليل مولعها هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظره ونضارته التي لا يعد لها شيء من مناظر العالم وملاهيها.

فكر يا مفضل في هذا الريح الذي جعل في الريح صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر وأقل وكان يجوز أن يكون الحبة تأتي بمثلها فلم صارت تريع هذا الريح إلا ليكون في الغلة متسع لما يرد في الأرض من البذر وما يتقوت الزراع إلى إدراك زرعها المستقبل... تأمل نبات هذه الحبوب من العدس والماش والبقلاء وما أشبه ذلك فأنها تخرج في أوعية مثل الخراطيط لتصونها وتحجبها من الآفات إلى أن تشد وتستحكم كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه، فأتما البذر وما أشبهه فأنه يخرج مدرجاً في

قشور صلاب على رؤوسها مثال الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوكل على الزراع... تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات قائماً لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتزغ منه الغذاء فتؤديه إلى الأغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت أصولها التي هي كالأفواه ملتزمة للأرض لتزغ منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان أمهاتها.

تأمل يا مفضل خلق الورق فانك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع، فمنها غلاظ مستدة في طولها وعرضها، ومنها دقاق تتخلل الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجباً لو كان متاً يصنع بالأيدي كصحة البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة في عالم كامل ولا حثيج إلى آلات وحركة وعلاج وكلام فصارت يأتي منه في أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل ويقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام إلا بالإرادة النافذة في كل شيء والأمر المطاع».

ثم أشار الإمام عليه السلام في سياق هذا الحديث إلى تحمّاتب الثمار والتوى، وموت وحياة النباتات في كل عام، وتلقيح وحمل الأجرء الانثوية عن طريق الالتحام مع الأجزاء الذكورية، وكذلك أدوية العلاج التي تستخلص من أصناف النباتات، والحبوب والنباتات التي يعتبر كل منها غذاء لأحد الحيوانات، وقدّم شرحاً لطيفاً حول كل منها، حيث إن ذكرها جميعاً لن يكون ممكناً، وبمقدور الراغبين مراجعة الحديث أعلاه^١

نضطرّ هنا إلى طي هذا البحث الطويل ويحتمه ببعض الآيات من الشعر التوحيدي الأصل، فلو أطلق عنان العلم فيجب تأليف كتب عديدة، في هذا المجال يقول الشاعر نقلاً عن الفارسية:

إن جميع خلق الله استنار للقب ليس له حساب من لا يقرب الله
فالجبال والبحار والأشجار كلها تسبح ولا يفهم كل مستمع هذه الأسرار

١. بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٢٩ - ١٣٦ «مع الاختصار».

والعقل مستجير من عنقود العنب الذهبي	والنهر يعجز عن حقيقة يا قوتة الزمان
وتتدلى عنقايد الزطب من السخل	والسخل من صنع قضاء وقدر ماهر
ولكي لا يصبح ظلاماً ظل الأشجار الكثيف	فقد جمع تحت كل ورقة عصياً من نور الزمان
وهبط الندى على الزهرة عند حلول السحر	يشبه عرق المحبوب المسطر!
لما فتح بعمرك وانظر خلق التاريخ	يا من لا تصلق أن «في الشجر الأخضر نار»
مستغدر منزه الآله الذي مسخر	الشمس والقمر بتقدير وكذلك الليل والنهار ^١



١. هذه الابيات مترجمة من «كلهات سعدي»، فصل القصائد، ص ٤٤٢



تجربہ نامہ

١٦ - آياته في خلق الأرض والسماء العامة

تمهيد:

إن لكل كائن حي احتياجات من أجل استمرار حياته، أو بتعبير آخر إن النشاطات الحياتية تتطلب مواداً تولد الطاقة بحسب أن نصل إلى الكائن الحي دائماً، ويُطلق عليها بالاصطلاح (اللافقي)، وتعويض ما يتحلل ويحسب أن تكون هذه المواد ملائمة تماماً لتلك المخلوقات من جميع الجوانب كي يتمكن من الاستفادة منها بيسر.

إن نظام الرزق في عالم الحلق، وكيفية إعداده، ثم كيفية وضعه في متناول كل موجود، وكذلك الاستعادة منها، نظام جميل ودقيق للعناية، وملئ بالأسرار أحياناً، حيث يحتفي فيه جمع من الآيات المهمة لتوحيد الله وعلمه وقدرته، لهذا استند عليه القرآن الكريم مراراً في مختلف الآيات.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن الكريم ونأمل خاشعين في الآيات الآتية:

- ١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُشْكِرُونَ﴾ (فاطر / ٣)
- ٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شَرِكَايَكُم مَّنْ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ شِبَعَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم / ٤٠)
- ٣ - ﴿أَمْ مَنْ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل / ٦٤)

٤ - «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ».

(الملك / ٢١)

٥ - «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

(الروم / ٣٧)

٦ - «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ».

(الذاريات / ٥٨)

٧ - «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ».

(هود / ٦)

٨ - «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّ أَوَّلَ الْيَوْمِ هَدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

(سبا / ٢٤)

٩ - «وَوَرَّكُنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّهَارِكًا فَانْبَثَّا بِهِ حَبًّا وَحَبِّ الْعَصِيدِ • وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ • رِزْقًا لِّعِبَادِهِ».

(ق الآيات / ٩ - ١١)

١٠ - «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ • أَتَا حَبِيبَاتٍ الْمَاءَ حَمِئًا • ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا • فَأَنْبَثْنَا فِيهَا حَبًّا • وَعَبًّا وَقُضْبًا • فَنَزَّلْنَاهُ نَجْلًا • وَخَذَلْنَاهُ غَلِيًّا • وَقَفَّيْهِمْ وَأَنبَا • مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ»^١.

(عبس الآيات / ٢٤ - ٣٢)



شرح للمفردات:

«الرِّزْقُ»: كما يقول الراغب في كتاب «المعجمات» يعني البذل والعطاء المستمر، ديوياً كان أو أخروياً، كما يقال للحظ والنصيب رزقاً، وكذلك للمواد الغذائية التي تصل إلى جوف الإنسان.

يقول «ابن منظور» في «لسان العرب» أيضاً: «الرِّزْقُ» نوعان ظاهر للأبدن كالأقوات، وباطن للقلوب والنفوس، كأنواع المعارف والعلوم

١. هناك آيات كثيرة أخرى وردت في هذا المجال لها شبهة بالآيات أعلاه منها ٣١: يونس؛ ١٧٢: البقرة؛ ٢٨: الشورى؛ ٢٦: الرعد؛ ١٢: الشورى؛ ٢٧: الشورى؛ ٢٢: البقرة؛ ٣٢: إبراهيم؛ ٧٣: النحل؛ ١٧: العنكبوت؛ ١٣: غافر.

وورد في كتاب «التحقيق» أيضاً أن لوردق^١ يعني «العطاء الخاص الذي يناسب متطلبات وضع المقابل ويطابق حاجته لاستمرار حياته».

وفي القرآن الكريم استعمل في كلا لمعنيين فقراء قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ»^٢.
وورد قوله تعالى في خصوص الشهداء «بَنَ أَخْيَاءَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَّقُونَ».

(آل عمران / ١٦٩)

إلا أنه يُستخدم غالباً بخصوص الأرزاق المادية، بالرغم من أن استعماله بخصوص الأرزاق المعنوية ليس قليلاً أيضاً، وحيث إن لفظه تعالى واهب جميع النعم المادية والمعنوية فإن لفظ «الرِّزْق» من صفاته الخاصة^٣.

و«الطعام» له معنى مصدرى واسم مصدرى معاً، أي أنه يُطلق على «أكل الغذاء»، وكذلك على نفس «الغذاء». وقد يستعمل هذا اللفظ بخصوص الحنطة، كما ورد في الرواية إن النبي ﷺ أمر بإعطاء صاع من «الطعام» أو صاع من «الشعير» (وهنا استخدم الطعام بمعنى الحنطة في مقابل الشعير).

ودكر صاحب «لسان العرب» أن الطعام اسم جامع لكل ما يؤكل، إلا أنه هو والراغب في المعردات صرحا بأن هذا اللفظ قد يُستخدم للمشروبات أيضاً كما في «قَسَنَ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنْي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي»^٤.
(البقرة / ٢٤٩)

يقول الخليل بن أحمد في كتاب «العين» أيضاً: يقال طعام في كلام العرب للبر خاصة، (إلا أنه يعود على ما يبدو إلى أن الطعام الأساس غالباً ما يكون من الخبز الذي يُصنع بدوره من الحنطة، والآثار الكثير من أرباب النعمة ذكروا أن للطعام مفهوماً عاماً)^٥، وقال بعض اللغويين إن الطعام يعني التمر أيضاً، ويبدو أن هذا الكلام يعود إلى أن التمر كان هو الطعام الأساس في ذلك الزمان وتلك البيئة.

١. لسان العرب، المعردات، مجمع البحرين، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

٢. لسان العرب، المعردات، كتاب العين، والنهاية لابن الأثير.

جمع الآيات وتفسيرها

الكل يتنعم بهذه المائدة عدواً كان له صديقاً:

لقد قلنا مراراً أنَّ مشركي العرب لم يعتبروا الأصنام كخالق لهم أبداً، إلا أنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ الأوثان لها يدٌ في تدبير هذا العالم وحل مشكلات الناس فيبدلون العطاء لها، لهذا يعتبرونها شريعة لدى الله، أو بسبب إباطة مسؤولية تدبير العالم في هذه الجوانب لها، لذلك فقد تمَّ التأكيد في الآيات القرآنية المذكورة على هذه المسألة بتعابير مختلفة من أجل رد هذه العقائد الحرافية، والتأكيد بأنَّ الحقيق والرازق واحدٌ، وجميع أنواع الأرزاق تأتي من ناحيته.

من النديهي إذا ما دُعي الإنسان إلى مائدة وكان فيها من الأطعمة ما لذ وطاب، أن يتقدم بالشكر قبل كل شيء إلى صاحب هذه المائدة لذلك فهو يذهب وراء صاحب تلك المائدة لمعرفة، هل هناك مائدة أوسع من مائدة الخالق؟ وهل يحب معرفة صاحب هذه المائدة الذي يتنعم بها العدو والصديق؟ وتقديم الشكر له لطاياه التي عَمَرَتنا ظاهراً وباطناً من أعلى رؤوسنا وحتى أخمص أقدامنا؟

بناءً على ذلك فإنَّ أهمَّ الدوافع «لمعرفة الله» وكذلك أحد الطرق لمعرفة هي هذه الأرزاق.

لذلك خاطب القرآن في أول آية من البحث كافة الناس عائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

فهو يرسل لكم من السماء نور الشمس لسيِّه الحياة، وقطرات المطر التي تُحيي الأرض، والنسيم الذي يُسمى الأرواح، ومن لأرض بُيْتُ لكم أنواع النباتات والفواكه والمواد الغذائية، وفي باطنها أنواع المعادن وثروات

مع هذا يجب أن تعرفوا أنَّ لا معبود سواه، وهو وحده الجدير بالعبادة، فكيف تتحرمون عن الصراط المستقيم وتعملون هذا الخالق العظيم واهب الرزق وراء ظهوركم، وتسجدون

للأصنام: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ تَوَفَّكُونَ»^١

ويستند في الآية الثانية على أربعة أمور لإثبات بوحيد الربوبية: «وحدانية الخالق»، وكذلك التوحيد في العبادة، وهي: خلق الإنسان، ورزقه، وموته، وإعادة أحيائه، وقد تم تعريفها من قبل الله تعالى، لأنها جميعاً ذات صدم دقيق حيث تُبرهن أنها تصدر عن مبدأ العلم والقدرة، فيقول: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ».

«هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ» بقاء على ذلك يحجب أن تُسلموا لنرايته وعلوه عما يُشركون به «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

فحيثما نعلم أن خلقنا وموتنا وحياتنا بيده، فلا معنى بأن نلهث وراء غيره، ونخضع ونسلم لسواه.

والحدير بالذكر أن الخلق يشمل الرزق والموت والحياة، لأن كافة أنواع الرزق تعود إلى خلق الله تعالى، وكذلك فإن الحياة جزء من الخلق، تنبها الأرزاق والموت، وعليه فإن الاستناد إلى هذه الحواشي الثلاثة ليس لكونها شيئاً منفصلاً عن الخلق، بل لأنها في الحقيقة توضح مصاديق مهمة عن ذلك الموضوع العام.

وهذه النكتة جديرة بالتأمل أيضاً، إذ بالرغم من أن الإحياء بعد الموت لم يكن مقبولاً لدى مشركي العرب، إلا أن هذه الآية تُعتبر إشارة لطيفة لهذا الاستدلال، وهو أن الخلق الأول ونعمة الحياة في بداية الأمر دليل واضح على إمكانية تكراره يوم القيامة والبعث، بل لو تأملنا جيداً فإن مسألة الموت والحياة مستعرة في هذا العالم، فوجود الإنسان يعتبر ساحة للموت والحياة في كل عام وشهر بل في كل يوم وساعة، تموت الملايين من الخلايا، وتحل مكانها ملايين أخرى، فتتجسد مسألة المعاد باستمرار في هذه الدنيا، إذن ما العجب في أن يرجع الاموات إلى الحياة من جديد في الآخرة؟

١. «تَوَفَّكُونَ» من مادة «وَفَّك» ، وتعني حير الشيء عن وضعه الحقيقي، ولهذا يقال للكذب والافتهام والانحراف عن الحق نحو الباطل «وَفَّكَهُ»، وكذلك يُطلق على الرياح التي تهرع عن مسيرها المنظم (مؤفكة) (مفردات للراغب).

وفي الآية الثالثة حيث جاءت في ترتيب آيات «التوحيد» إذ تُحصى آياته المختلفة في السماء والأرض، ثم الاستناد أيضاً إلى ثلاث مسائل هي: بداية الخلق، ورجوعه، والرزق والاقوات التي تصل الإنسان من السماء ولأرض فيقول: أَيْهُمَا أَفْضَلُ.. مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَمْ مَنْ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ «أَمْنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ»^١ «وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

ويضيف في النهاية «إِلَهُ مَعَ اللَّهِ».

«قُلْ: لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِدَلِيلٍ عَلَى رُبُوبِيَّةِ قَهَّاتُوا دَلِيلَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

«قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»

وبتعبير آخر: «إِنَّ هَذِهِ أَمْرَاتٌ تَصْدُرُ عَنِ الدَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ، أَمَّا هَذِهِ الْأَصْنَامُ فَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئاً كَيْ تَسْتَحِقَّ الْعِبَادَةَ»

والعبير «خَيْر» أي (أفضل) الذي حُذِفَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَالَّذِي يَتَجَلَّى بِسُورَةِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ أَنَّ الْأَصْنَامَ حَيْرٌ وَبَرَكَاتٌ قَلِيلَةٌ قَبَاساً إِلَى خَيْرِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ بَلْ إِنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ يُسْتَعْمَلُ أَيْضاً فِي الْحَالَاتِ الَّتِي لَا يَكُونُ هَذَاكَ حَيْرٌ فِي الْقَعْلِ أَوَّلًا، مِمَّا يُقَالُ لَكَ امْتَنِعْ عَنْ تَنَاوُلِ طَعَامٍ مَعِينٍ كَيْ تَحَافِظَ عَلَى صِحَّتِكَ أَوْ لَيْسَ الصَّحَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرَضِ؟ مِنَ الْمُسْلِمِ بِهِ أَنَّ لَا أَفْضَلَ فِي الْمَرَضِ بِحَيْثُ تَكُونُ الصَّحَّةُ أَفْضَلَ مِنْهُ، وَبِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَيْضاً: «وَلَقَدْ جَاءَ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكِهِ».

(البقرة / ٢٢١)

ويقول في مكانٍ آخر «قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْغُلْدِ».

(الفرقان / ١٥)

وخلاصة الأمر أَنَّ لُغْظَ «خَيْر» بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ مِنْ «لَفْعِلِ التَّنْضِيلِ» وَيَحِبُّ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَوْرَدِ شَيْئَيْنِ أَحَدُهُمَا حَسَنٌ وَالْآخَرُ أَحْسَنُ مِنْهُ إِلَّا أَنَّ الْهَدَفَ فِي أَغْلِبِ الْحَالَاتِ هُوَ اغْتِرَاقُ الْمُخَاطَبِ فِي التَّفَكُّرِ وَجَعْلُهُ يَشْعُرُ بِأَنَّ مَا يَحْتَارُهُ لَيْسَ مَنشَأً لِأَيِّ خَيْرٍ وَمَنْفَعَةٍ.

١. هنالك جملة معدودة حيث تصبح بقرينة آيات الآتية (الآية ٥٩ من نفس السورة) وتقدّر كما يلي «أَمْنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ».. حَيْرٌ أَمْ مَا يَشْرَكُونَ.

إن الاستناد إلى قضية المعاد بالرغم من عدم إيمان لمشركين بها إنما هو لأجل كون الخلق أول دليل على المعاد.



وطرح هذا المعنى في الآية الرابعة بنحو آخر، إذ يقول: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَلَكَ رِزْقُهُ»^١.

تلميحاً إلى أنه لو امتنعت السماء عن المطر بأمر الله، ولم ينم نبات ما، وعمَّ الجذب والقحط كل مكان، فهل تستطيع هذه الأصنام أن يوحوّد آخر أن يرزقكم ويطعمكم؟ ولو انقطعت عنكم الأوراق المصونة والروحانية بأمر من لقه، فهل من هادٍ يرشدكم؟ يسعي القول أن الجواب على كل هذه التساؤلات سلبى، فكيف ادّعى يتمادى الوثنيون في عملهم القبيح هذا؟ فهل من سبب هنا سوى العباد والتعصب؟

لهذا يقول في حاشية الآية: «هَلْ لِّجَوَائِي عَتُوٌّ وَتَكْوِيرٌ»^٢.



وفي الآية الخامسة استند إلى أمر آخر يتعلق بمسألة الأرزاق، إذ يؤكد أن بسط وقبض الرزق هو بمشيئة الله، فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ»^٣؟ صحيح أن سعي ومثابرة الناس والمؤهلات والاستحقاقات تؤثر في تحصيل الرزق، وصحيح أن العالم، عالم الأسباب، وغالب ما يستفيد المثابرون أكثر من الكسالى في تحصيل الأرزاق.

إلا أننا نرى استثناءات كثيرة قبالة هذه القاعدة، فقد نرى أناساً مقعدين قد فتحت أمامهم

١ بالرغم من احتمال بعضهم بتقدير محدود من الآية إلا أن ظاهر الأمر يشير إلى أن لا محدود هناك فيكون المعنى كما يلي «إِنْ أَمْسَلَكَ اللَّهُ رِزْقُهُ مِنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ» فتكون «أم» هنا بمعنى «هل» (فتأمل جيداً).

٢ «لجوائى» من مادة «الجاجة» و«العتو» تعني الطغيان و«التكوير» تعني لا يعماد والهروب من الشيء.

أبواب الرزق، وبالعكس فقد نرى مثابرين ومستحقين أيما يولوا وجوههم فإن الأبواب معلقة أمامهم، كما يقول الشاعر العربي المعروف:

كم عاقلٍ عاقلٍ أغيتُ مذهبهُ وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مرزوقاً

وهذا من أجل أن لا يصعب الإنسان في عالم الأسباب وليعلم أن وراء هذا العالم، يداً قادرة تديره وتعلو قدرتها فوق جميع قدرات، وكفى لا يصيب الغرور المتنعمين والمستفيدين بسبب إمكانياتهم، فيطمعوا ويظفروا، وحتى لا ييأس ذوو الإمكانيات المحدودة، لأنه من الممكن أن يتغير الوضع في كل لحظة حسب الإرادة والمشئة الإلهية ويتميز آخر، من أجل توفر الرزق والقوت لكل إنسان تتظاهر عشرات الأسباب أحدها سعي الإنسان ومثابرتة، حتى أن الله قد منح القدرة على السعي والمثابرة ودوافعهما أيضاً. وهنا يتمكن الإنسان من فهم نصائح من الذات الإلهية المقدسة من خلال مسألة سعة الرزق وضيقة، فقد قال في نهاية الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أولئك الذين لديهم استعداد لقبول الحق بسبب إيمانهم، ويتعرفون أكثر على الذات المقدسة من خلال مشاهدة هذه الميادين يومياً.

وفي الحقيقة أن الآية أعلاه قد تكرر مصمونها ومحتواها عشر مرات في القرآن الكريم تشبه ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «عَرَفْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِمَسْخِ الْعِزَائِمِ وَحُلِّ الْعُقُودِ وَنَقْضِ الْهَيْمَةِ»^١.

وتشابه ما نقل عن بعض المفسرين أن أحد العلماء سُئل عن الدليل على وحدانية الله؟ فقال: «ثَلَاثَةُ أدْلَةٍ: ذُلُّ الْكِبِيِّ وَفَقْرُ الْأَدِيمِ وَمُتَقَمُّ الطَّيِّبِ»^٢.

والتعبير «أَوَلَمْ يَرَوْا» إشارة إلى أن لو تمنع الإنسان قليلاً في حياة الناس لرأى هذه الاختلافات جيداً.

ولابد من ذكر هذه الكلمة وهي أن ارتباط سعة وصيق الرزق بالإرادة الإلهية يعني

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٥٠

٢. تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٣٩

الإرادة الممتزجة مع الحكمة وإلا ليس لله مشيئة بدون حكمه سواء كان هنا أم في باقي الموارد.

علماً أن ضيق الرزق في هذه الآية (والآيات العشر) المذكورة لا يعني مُطلق الحرمان من الرزق، حتى يتعارض مع الآيات الآتية التي تقول: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

بل المقصود قلة الرزق وفي نفس الوقت وجود الحد الأدنى والكافي منه.

❦❦❦

وهي الآية السادسة بعد أن يؤكد على هذه سكتة وهي أن الله لا يحتاج عبادةً وحينما يدعوهم إلى عبادته فليس بسبب حاجته فيقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

و«الرزاق»: صيغة مبالغة تعني كثير العطاء، وهذا يصدق بخصوص ذاته المقدسة فقط، حيث جلست الكائنات الحية في كل زاوية من هذا العالم العريض على الجبال، في بطون الصخور، في أعماق الوديان، في قاع البحار، ويحتصار في كل زاوية وجانب من هذا العالم العظيم على مائدة احسانه، متعممة بامداداته ونصره.

وبما أن مثل هذا العطاء والبذل الواسع وغير المحدود يحتاج إلى قدرة وقوة تامة، فقد ذكر بعد هذا وصفين آخرين: «ذُو الْقُوَّةِ» و«الْمَتِينُ» وهي من مادة «متن» وتعني في الأصل العضلتين اللتين تحيطان بالعمود الفقري، وتقومان بشد عضلات ظهر الإنسان من أجل انجار الأعمال الشاقة، وهنا كناية عن لقوة والاقدار الحارق.

وفي الواقع أن هذه الجملة وصفٌ لندات الإلهية المقدسة في بدل الأوراق، لأن هذه الصفة تخصه فقط، وأمّا الآخرون فكل ما يمكن أن يكون هو منه جُلّ وعلا، وإذا استعمل وصف «الرزاق» لبعض الناس أو للأسباب الطبيعية فهو يعني في الحقيقة الوسطة في انتقال فيوضاته وليس القياض وخالق النعم.

واستند في الآية السابعة إلى موضوع آخر وهو شمول رزق الله لكل الدواب، هذا العمل الذي لا يمكن حصوله بدون إحاطة وعلم كامل بجميع موجودات العالم، فلا بد أن يعرف المضيف عدد صيوفه سلفاً، وكذلك مقدار حاجاتهم وأذواقهم، كي يتمكن من تقديم الطعام الملائم لهم، لهذا يقول في هذه الآية: ﴿وَفَ مِنْ دَآئِبَةِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

ويشير هذا التعبير بعلاء إلى أنه قد تكفّر برزق عباده، كي يبعد من حرص وطمع بعض الناس واضطراب وقلق بعضهم الآخر من حاسب، ومن جانب آخر يبرهن على أنه لو شوهدت شحّة في الأوراق، فهي متعلة ومن المؤكد أنها حصلت نتيجة لظلم جماعة من الناس وهضم الحقوق، والاحتكار وافتعال لأزمات الكاذبة أو في النهاية بسبب عدم السعي للاستفادة من هذه المائدة الإلهية المسبوقة، تلك هي الأسباب التي يؤدي كل منها أو مجتمعة، إلى حرمان بعض الناس من رزقهم وقوتهم. وإلا فإن الله قد ضمن رزق كل الدواب. وبما أن إيصال الرزق لهم بعد مقتضاه بدون علم كامل بما كنهم وخصائصهم فهو يقول في سائر الآية: ﴿وَيَظْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

وكل ذلك مسجل في كتاب يحكي (هو اللوح المحفوظ، لوح علم الحالى) «كل في كتاب مبين».

و«دابة»: من مادة «دبيب» وتعني المشي البطيء، ويطلق هذا اللفظ (دابة) على البهائم والحيوانات والحشرات، بالرغم من استعماره بخصوص الحيل في بعض الموارد، إلا أن المسلم به هنا أنه ذو معنى واسع وشامل حيث يشمل جميع البهائم^١.

ولفظ «مستقر» يعني المقر، والمكان الثابت، وهو مأخوذ في الأصل من مادة «قر» على وزن (قحر) وتعني البرد القارس الذي يجعل لإنسان جليسا الدار.

و«مستودع» يعني المكان غير الثابت، وهي من مادة «وديع» وتعني في الأصل ترك وإطلاق الشيء، ولهذا يقال للأمور غير المستقرة «مستودع».

١. إن «الدابة» في «دابة» لا تشمل على التأنيث. بل تشمل جميع الحيوانات مذكرها ومؤنثها، وتعبر آخر أن تأنيثها لفظي وليس حقيقياً (مردات الراغب وتفسير الكبير، ج ١٧، ص ١٨٥).

وهذه الألفاظ تلمح إلى أنه لا تظنوا أن الله يوفّر الرزق للموجودات في مستقرها فقط، بل أينما تكون وفي أي نقطة من الأرض ولسماء، فهو يعلم ويرى مكانها ويعطيها رزقها هناك؛ روى بعض المفسرين في ذيل هذه الآية حديثاً مفاده: «أن موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه وكان برفقة طفله وزوجته في ليلة ظلماء في وادٍ بطور سيناء، حيث أمره الله سبحانه وتعالى أن يذهب إلى فرعون، فأنصرف ذهاباً إلى زوجته وطفله، كيف سيكون مصيرهم بعده.

فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه صخرة فاعلقت وخرجت منها صخرة ثانية؛ ثم ضربها بعصاه مرة أخرى فاعلقت وخرجت صخرة ثالثة، ثم ضربها بعصاه فاعلقت فخرجت منها دودة كأصغر ما تكون عليه السملة وهي معها شيء يجري مجرى العداء لها، وعند ذلك رفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول: سبحان من يراني، ويسمع كلامي، ويعرف مكاني، ويدكرني ولا ينساني»^١.

كما ورد في حديث أن الإمام الحسين عليه السلام كان للأسف كتب عليه «الرزق مقسوم والعريس محروم، واليهمل مذموم، والباحسة مقسوم»^٢.
ونختتم هذا الحديث بشعر لأحد شعراء العرب، إذ يقول:

وكيف أخاف المسقر والله رازقي ورازق هذا الخلق في العسر واليسر
تكفل بالأرزاق للخلق كلهم وللضب في البهائم والحيات في البحر

XXXX

وفي الآية الثامنة، يبدو وكأنه يحاكم المشركين، ويمن بطلان عقائدهم عن طريق مسألة إيصال الرزق إلى الخلائق، ويوضح وحدانية الرب، فيقول: «قُلْ مَنْ يُرْزَقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» من سوء الشمس، من قطرات المطر الذي يهب الحياة، ومن هذا الهواء

١. تفسير الكبير ج ١٧، ص ١٨٦؛ تفسير روح البيان ج ٤، ص ٩٧؛ تفسير روح المعاني ج ١٢، ص ٢.

٢. تفسير روح البيان ج ٤، ص ٩٧.

الذي يعد الكائنات بالحياة، ومن أنواع المواد الغذائية الموجودة في أعماق الأرض وتظهر على هيئة تمراتٍ وعلاٍ وحسروا.

ثم لا يدعُ النبي ﷺ ينتظر جوابهم فرددَ جواباً قائلاً: «قُلِ اللَّهُ وَآيَاتُ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

ولأنه لا تجتمع عقيدتان متناقضتان، وبما نكم لا تملكون دليلاً يثبت أن الأصنام هي منشأ البركات، يتصح إذن أسا تتبع الحق وأنتم في ضلالٍ مبينٍ ولو لاحظنا هنا أن النبي ﷺ لم يسطر جوابهم، لأنهم في الواقع لا يملكون جواباً لهذا التساؤل، سوى السكوت الممروج بالمجمل، وعليه يجب على المتكلم المصحيح أن يمسك برمام الحديث في مثل هذه الحالات ويقدم لجوابٍ بنفسه.

وأحد فنون الفصاحة هو أن يلتقي الكلام العامص على الحصوص من حلال الحوار ويترك الفصل لهم، لهذا يقول هنا: «وَآيَاتُ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» ومن المسلم به أن الفضال والمهتدي يتصح هنا، ومن الأفضل أن تبقى العبارة غامضة في الظاهر كي لا يتمادى هؤلاء في عبادهم، وأن يكلفوا أنفسهم عناء الاستنتاج.

والعجيب أن بعض المفسرين يعتقدون أن هذه العبارة من قبيل «التقية» في الوقت الذي لا مجال للتقية هنا، والأمر مشكوف بهجلاء - ولكن بشيء من اللطافة -، وحيث يقول في البداية: «وَآيَاتُ» ثم يقول: «وَأَنْتُمْ» ويتابع قائلاً عن «هدهي» أو على «ضلال»، وهذا التسلسل يوضح الأمر أكثر.



وفي الآية التاسعة، بعد أن أشار إلى نزول المطر المبارك من السماء، استند إلى ثلاثة أصناف من الارزاق التي يستفيد الجميع منها، فيقول: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْهَبْنَا بِهِ جِبْنَائِمْ وَخَبَّ الْحَصِيدِ»

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾^١ «رِزْقاً لِلْعِبَادِ».

وفي الواقع فقد استند في هذه الآية إلى الشار والمحاصيل الغذائية لأنها تمثل أهم وأصلح جانب من المواد الغذائية للناس، واستند إلى التمر بالخصوص من بين الثمار، بسبب أهميته الغذائية العاتقة. حيث بحثناه بالتفصيل في محله^٢

والجدير بالذكر: إن بعض المفسرين يعتقد أن استناد القرآن إلى هذه الأنواع الثلاثة من الأرزاق جاء بسبب خصائص كل منها على حدة، لأن بعض السباتات يُسَمَّرُ سنوياً، دون الحاجة إلى بذر البدور. كأنواع أشجار العاكة، وبعضها يحتاج إلى بذر البدور سنوياً كالحنطة والشعير والرز والدرّة وبعضها وسطاً بينهما كالخيل الذي يكون أصله ثابتاً إلا أنه يحتاج في كل عام إلى «التلقيح». بالنحو الذي يرفعون طلع الذكر ويثرونه على ثمار النخلة كي تحمل بشكل كامل. ومن الممكن أن تلقح بطريقة أخرى (عن طريق الرياح والحشرات) إلا أنها لن تكون غزيرة الثمار.

وهذه النكتة حديرة بالاهتمام أيضاً حيث إن في تعبير «رِزْقاً لِلْعِبَادِ»،^٣ إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهي وجوب استثمار النعم الإلهية كسلوك طريق عبودية الله. وهذه الموجودات مدعنة ومطبعة للإنسان كي يبدل الرزق ولا يأكله غافلاً عن الله، كما قال الحكماء:

أنت تعيش لتأكل وأنا آكل لأعيش وأذكر الله

❦❦❦

وفي الآية العاشرة وآخر الآيات في بحثنا استند إلى لأنواع المتباينة من الاطعمة التي

١ «نضيد» تعني المحصود (أو الجاهر للحصاد)، و«باسقات» جمع «باسقة» وتعني الطويلة و«طلع» تعني ثمرة النخيل في بداية تكوينها، و«نضيد» تعني المراكم والكيف الذي يمت على التمتع لا سيما في ثمار النخيل أي التمر

٢ يُراجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٢٥ من سورة مريم.

٣. إن نص «رِزْقاً» جاء لكونه «مفعولاً لأجله»، ويستبعد احتمال كونه «مفعولاً مطلقاً» أو «حالاً».

وضعها البارئ، تعالى في تناول لإنسان والدواب، ودعا الإنسان إلى التفحص فيها، كي يُعده لمعرفة المنعم ومعرفة الله من خلال تحريضه على الشعور بالشكر.

فيقول: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾.

ليرى كيف تظافرت مختلف الموامل من الشمس والأرض والهواء والمطر كي تصع في خدمته هذه النعم. فيجب أن ينظر ويرى كيف: ﴿أَنْ سَبَّغَتْنَا الْمَاءَ سَبْغًا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْهَبْنَا فِيهَا سَبًّا * وَعَيْنًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا تَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلًّا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾^١

مع أن «فاكهة» تشمل جميع أنواع الثمار، و«حدائق» تتضمن جميع البساتين، إلا أن الاستناد إلى «العنب» و«الزيتون» و«التمر» يأتي بسبب مزاياها المهمة للعاية التي ثبتت الآن في علم النبات بالنسبة لكل منها.

وبالرغم من أن «طعام» تعني عادةً الغذاء المادي، لا سيما بخصوص الآية التي بعدها، فقد ذكرت موارد عديدة للطعام المادية، عواكه والحبوب، إلا أنه وكما ورد في بعض الروايات، يمكن أن يكون للطعام معنى واسع وشامل حيث يشمل الغذاء المعنوي أيضاً، ويجب أن ينظر الإنسان جيداً مم يكسب اعم الذي هو غذاؤه الروحي، فلا ينبغي أن يكون مشتملاً على علوم سامة وهدامة.

والكلام الأخير حول هذه الآية الشريفة، هو من الممكن أن تكون عبارة «فَلْيَنْظُرِ» هي النظر من أجل إدراك أسرار المبدأ والمعاد، وكذلك النظر لتعبير الصف الطيب والظاهر، من الهيئت والملوث، والمشروع من اللامشروع والمفيد من الضار.

يستفاد جيداً من مجموع ما قيل في شرح هذه الآيات أن أنواع الرق الإلهي آيات

١ «عنب» على وزن (جذب) وتعني القطع والتقطيع وقد مررها المفسرون بأنها الحَصْرُ التي تُقطع هذه مرات.

٢ «حدائق» جمع «حديقة» وتعني البساتين المحصورة بين الجدران، و«عنب» جمع «أغلب» من مادة «غلب» وتعني الصخم الجثة، و«أب» تعني النباتات الطبيعية والمراعي الطبيعية، أو الثمار التي تُجف وتُحفظ. (والآية ٣٦ من سورة عبس).

وآثارٌ على عظمته، وكيفية ظهورها، ولنظام المدهش الذي استعمل في بنائها، والصفات المميزة لكل منها، والمواد المعاشية الموجودة في كلٍّ منها، وكذلك كيفية اتصال هذه الأرزاق إلى المحتاجين ومطابقتها لحاجتهم، فكلُّ منها آية ودليل عن حكمة وعظمة الذات الإلهية المقدسة.



توضيحات

أ- من عجائب عالم الأرزاق

حفاً لو تأملنا في النظام العجيب الموجود في ارتزاق مختلف الموجودات من المصادر الطبيعية، لتحلَّت لنا أمورٌ لطيفة ومدهشة عن قدره العالي جلُّ وعلا.

الأمر الأول منها هو لماذا لا تتفلس كمية المواد الغذائية الموجودة على الأرض مع قلتها واستفادة الناس والحيوانات على مدى آلاف الآلاف من السنين؟ كيف لا ينتهي هذه المائدة المعتدة في كل مكان؟

حينما نتأمل جيداً نرى أن المواد الغذائية في هذه لديها لها شكلٌ خاص بحيث لو استفيد منها لملايين الملايين من السنين، لم ينقص منها بقدر رأس الأبرة، وهذا بسبب «حركتها الدائرية» فمثلاً أن المياه تتبخر من البحر ثم تصهر على هيئة غيوم وأمطار، فيهطل قسمٌ من ماء المطر إلى البحر ثانيةً، ولقسمٍ آخر يصبحُ جزءاً من جسم الإنسان والحيوانات والنباتات ويتبخر ويتشر في الجو، وتستمر هذه الحركة الدائرية دائماً.

فالأشجار تمتص المواد الغذائية من الأرض وتتكون المروج والأوراق، ثم تتساقط الأوراق وتتفسخ وتتحول فيما بعد إلى سمادٍ ومواد غذائية لنفس الأشجار، وتستفيد الحيوانات من المواد الغذائية ثم تُصبحُ تراباً، وجزءاً من المواد الغذائية في الأرض.

ويتنفس الإنسان والحيوانات غازاً «الأكسجين» وي طرح عار «ثاني أكسيد الكربون»، ولكن الأشجار على العكس من ذلك فهي تأخذ عار «ثاني أكسيد الكربون» وت طرح غاز

«لا وكسجين»، ويتكرر هذا التبادل دائماً، هنا شاهد أن هذه المائدة الإلهية السرمدية مبسطة باستمرار لتجلس كافة المخلوقات إليها للارتزاق منها دون أن يصيبها نقصان. وكيفية إعداد الرزق للحيوانات عجيبة، بعضاً، فالبعض يتعدى على النباتات والرطوبة الموجودة على الأرض، وبعض يحصل على غذائه من الماء «النباتات العائمة» وبعض من الجو، وبعض عن طريق الالتحام نباتاً حراً «كبعض الطحالب» وتعيش حيوانات أعماق البحار في مكان لا يسو فيه نباتٌ بدأ، لأن أشعة الشمس تتلاشى تماماً في عمق ٦٠٠ - ٧٠٠ م ثم يسود ماء البحر بعدها من حالك وسرمدي، إلا أن الباري تعالى يهيء وبعد رزقها على سطح البحر ويرسله إليها في أعماق البحر فالنباتات التي تنمو بكثرة على سطح البحر وسط الأمواج تصبح ثقيلة وتهبط إلى قاعه بعد نضوجها وتخصيص قسم منها للموجودات الحية على سطحه، وكذلك ينزل بقايا الموجودات التي تعيش على سطح البحر على هيئة مائدة سماوية إلى الموجودات في قاعه.

فقد تصبح الطيور طعمة لأسماك البحر، وأسماك البحر طعمة للطيور، وقد يجعل النباتات غذاء للحيوانات، أو الحيوانات غذاء للنباتات التي تأكل اللحوم! وقد يصنع من فضلات ولعاب بعض الموجودات غذاء لبدء لموجود آخر (كما في بعض حيتان البحر حيث تخرج إلى ساحل البحر بعد تغذيتها على أسماك البحر المختلفة، فتبقى الفضلات بين أسنانها، فتفتح فمها الذي يشبه العار، فتدحرج مجموعة من طيور الساحل إلى فمها وتقوم بإخراج اللحوم المتبقية من بين أسنانها وتتحدها طعاماً لبدء لها، فتقوم بدور المسواك في تنظيف أسنان هذا الحيوان، الذي لا يسيء رد الحميل، فلا يطبق فاه حتى حروح آخر طير من فمه، وحينما ينتهي الأمر ويتخلص من مواد المزعجة، وتمتليء بطون الطيور من الطعام حينئذ يطبق فمه وينجعه نحو أعماق البحر).

وباختصار: كلما دققنا في هذه المسألة أكثر، نحصل على نقاط جديدة في مجال علم

١ يضيف الفخر الرازي في تفسيره ضمن إشارته المختصرة لهذا الموضوع، أنه على رأس هذا الطائر شيء يشبه الشوك، فلو قرر التماسخ ابتلاع هذا الطائر فيؤلمه ذلك وتفسير الكبير ج ٢٤، ص ١١.

وحكمة الخالق جلّ وعلا، والتدبير الذي صُرف في مجال الأرزاق، بشكل لا يبغي مجالاً لأي نوع من الصدفة.

يكفيها التأمل في وضع الإنسان خلال المراحل الثلاث: الجنين، الرضاعة، والأكل، كيف أن الله تعالى وضع في متناوله ما يناسب حاله في كلٍّ وحدث من هذه المراحل الحساسة بدون نقص، فيتغذى طفلة مكوثه في رحم الأم عن طريق جهاز الحبل السري المعقد والإرتباط المباشر بدم الأم، وبعده الولادة، عندما لا توجد أسنان لمصغ الطعام، ومعدته وامعاوّة غير مستعدة لاستقبال الطعام، يهيء له ثدي أمه المليء بالحليب، غذاءً مناسباً، غنياً بكافة المواد الغذائية، معتدل الحرارة، لا تغلب عليه الحلاوة أو الملوحة، ولا يحتاج إلى مضغ ونشاط لمعدته كي تهضمه.

وفي المرحلة الثالثة، يضع في متناوله أنواعاً من الأطعمة «المناسبة»، فلو لم تكن أطعمة الإنسان وبافي الحيوانات «ملائمة» ويكون مجبوراً على تناولها كالأدوية المرة، فاي مأزق سينشأ في حياته، ألا يقضى معظم الناس بسبب عدم توفر الطعام السليم لهم؟ ومن جانب آخر، فقد أودع في الإنسان للشعور بالجوع والعطش، كي يحذّب نحوهما بشكل آلي عندما يحس بالحاجة إلى هاتين العادتين للحيويتين، فتأملوا ما يحصل لولا هذا الشعور!

وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام في الحديث المعروف عن المفصل:

«فكر يا مفضل في الأفعال التي جعلت في الإنسان من الطعام والنوم والجماع وما دبر فيها فأنه جعل لكل واحد منها في الطباع نفسه محرك يقتضيه ويستحث به فالجوع يقتضي الطعام الذي به حياة البدن وقوامه والكرى تقتضي النوم الذي فيه راحة البدن وإتمام قواه والشبق يقتضي الجماع الذي فيه دوام النسل وبقاؤه، ولو كان الإنسان إنما يصير إلى أكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه إليه ولم يجد من طباعه شيئاً يضطره إلى ذلك كان خليقاً أن يتوانى عنه أحياناً بالتسلل والكسل حتى ينحل بدنه فيهلك...، فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التي بها قوام الإنسان وصلاحه محرك من نفس الطبع يحركه لذلك ويحدوه عليه»^١.

لهذا تُعتبر الرغبة في نوع من الطعام باسبة للاصحاء من الناس دليلاً على حاجة الجسم إلى ذلك الغذاء على نحو الخصوص، ويجب على مثل هؤلاء الأشخاص كذلك النزول عند هذه الرغبات الداخلية؛ يقول عالم الروسي المعروف «هاولف» : «إن الغذاء الطبيعي والمفيد، هو الغذاء الذي يؤكل بشهية وتلدد».

ولهذا أيضاً لا معنى للالتزام بنظام خاص في الامتناع عن الأطعمة التي يرغب الإنسان بتناولها لأن تلك الرغبة تعتبر بعد ذاتها أفصل دليل على حاجة الجسم لها ما هذه التركيبات المحبوكة التي تعدد بفها سوع حاجتها، ووقودها، وصنمها؟ وبمجرد أن يحصل نقص توقف شعور الإنسان وتدفعه نحو ذلك؟ هل يمكن حمل مثل هذه الأمور على سبيل الصدفة؟ وهل هناك إمكانية لوجود مثل هذا البرنامج المنظم لولا وجود عقل وتدبير واسع؟



٢- هل لئن الرزق مقسوم؟

وردت هذه البكته في بعض الآيات أعلاه وهي أن رزق كل دابة على الله، وقد تكفل الله به. «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» (هود / ٦) وورد في بعض آخر أن سعة الرزق وصيفة مشيئة لهية (الروم / ٣٧ وآيات أخرى). وأشار إلى هذا المعنى في الروايات أيضاً، فيقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقُ فَكُفِّرْهَا وَقَلِّلْهَا وَقَسِّمْهَا عَلَى الضَّيْقِ وَالسَّعَةِ»^١

وفي حديث آخر عنه عليه السلام نقرأ في حثه على طلب العلم إذ يقول: «إِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَوْجِبُهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْعَالِ، إِنَّ الْعَالِ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ قَدْ قَسَّمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ وَضَعِيته وَتَنَفَّيْ لَكُمْ وَالْعِلْمُ مَغْزُونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ قَدْ أَمَرْتُمْ بِطَلَبِهِ»^٢.

١. نهج البلاغة خطبة ٩١.

٢. معالم الدين، ص ٩.

والآن يبرز هذا التساؤل وهو: لو كان الأمر كذلك فما هو مفهوم السعي والاجتهاد لطلب الرزق والتخطيط لتحسين الوضع الاقتصادي للمجتمع؟ ولكن من خلال التمعّن في الآيات والروايات فيما إذا جُمعت مع بعضها يتضح الجواب على هذا السؤال بأن المقصود من ضمان الرزق من قبل الله تعالى وتكفله والتراحم بتقسيمه هو اعداد الأرضية اللازمة، ومتى ما تظافرت لأرضية اخارجة عن طاقة الإنسان، والاستعدادات الموجودة في ذاته، يسلم الإنسان نصيبه من الرزق. وهذا يشبه تماماً رواتب العاملين في مؤسسة ما والتي يحددها المدير إلا أنه لا يجعل تلك الرواتب التي يوتهم بل يحب عليهم أن يعملوا، ثم يذهب كل منهم لملء بطاقة راتبه ليستلمه.

ولا يجب سihan هذه الحقيقة بأن الله تعالى ومن أجل أن لا يضيع الناس في «عالم الأسباب» ويعتبروا أن حاصل الرزق يأتي عن طريق السعي والاجتهاد فقط، فهو يوصل الرزق أحياناً لأشخاص لم يبذلوا جهداً جهيداً وقد يسلب الرزق من أشخاص محنهم كي يوضح أن وراء هذا العالم قدرة أخرى (ولكن يحب أن لا ننسى أن هذا مجرد استثناء، وأما القاعدة الأساسية فهي السعي والاجتهاد).

ولعلنا لهذا الأمر ورد في حديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «واعلموا أن الرزق رزقان: رزق تطلبونه ورزق يطلبكم فاطلبوا أرزاقكم من حلال، فاتكم إن طلبتموها من وجوهها أكلتموها حلالاً وإن طلبتموها من غير وجوهها أكلتموها حراماً»^١.

هذا الفارق في الرزق يعتبر في الواقع دليلاً على الجمع بين الآيات والروايات التي تعتبر الرزق مُقسماً ومضمواً، والروايات التي تعاكسها، التي تعتبر الجهد والاجتهاد والمثابرة شرطاً للاستفادة من الرزق^٢.

١ وسائل الشريعة، ج ١٧، ص ٤٧.

٢ من أجل التعرف على هذه الروايات يراجع رسائل سبعة ج ١٢، كتاب التجارة، ص ٩ و ١٦ و ١٨ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٦.

بالإضافة إلى أن التعرف على هذا الاختلاف في الرزق يدفع الحريصين إلى التخلي عن حرصهم، ولا يتلوث المؤمنون بتحصيل الرزق من الحرام، ولا ييأس المحرومون أيضاً.

❦❦❦

٣- إذا كان الرزق مضموناً للجميع فلماذا يموت البعض جوعاً؟

في الآيات أعلاه تتجسد هذه الحقيقة جيداً بأن الله تعالى قد تكفل برزق جميع الموجودات الحية، وإيصاله إليها أينما كنت، ولكن يبرر هذا السؤال وهو: لماذا ماتت وتموت مجاميع من الناس جوعاً الآن وعلى طول التاريخ؟ ألم يؤمن رزقها؟

في الرد على هذا السؤال يجب أخذ اسقاط الآتية بظن الاعتبار، أولاً: إن تأمين الرزق لا يعني اعداده للإنسان العاقل والمكلف وإرساله إلى بيته، أو وضعه في فمه كاللقمة، بل قد أعدت الأرضية اللازمة، ومسعى الإنسان واجتهاده يعتبر شرطاً لتحقيق هذه الأرضية وإيصالها إلى مرحلة العمل، حتى مريم (عليها السلام) عندما كانت في ذلك الوصح الصعب وهي تلك الصحراء القاحلة حيث هيأ لها الله تعالى رزقها رطباً جلياً على جذع النخلة أمرها بأن تسمى وخاطبها: «وهزى اليد يجذع النخلة».

ثانياً: لو أن الناس في الماضي والمستقبل - يقومون بهضم حقوق الآخرين ويسلبون أرزاقهم ظلماً فهذا ليس دليلاً على عدم تأمين الباري تعالى للرزق، وبعبارة أخرى: إضافة إلى مسألة السعي والاجتهاد فإن وجود العدة الاجتماعية يعتبر سراً في التوزيع العادل للأرزاق، وإذا قيل: لماذا لا يصنع الله ظلماً لصلحين؟ نقول: إن أساس حياة البشر يقوم على الحرية وليس على الإجبار والاكراه كي يخضع الجميع للامتحان، وإلا فلا يحصل التكامل «فتأمل جيداً».

ثالثاً: هناك مصادر كثيرة لتأمين طعام البشر على هذه الكرة الأرضية ولكن يجب أن نكتشف ونستخدم بذكاتهم ومعرفتهم، وإذا قصر الإنسان في هذا المجال فالذنب ذنبه.

لا يجب أن ننسى أن بعض مناطق إفريقيا التي يموت شعبها جوعاً تعتبر من الحسن

مناطق العالم، إلا أن الموامل المدمرة التي أشرنا إليها أنما جعلتهم يهيمنون في ليل مظلم.
 نختم هذا البحث المختصر بحديث عن الإمام علي عليه السلام ورد في نهج البلاغة، يقول:
 «انظروا إلى النملة في صغر مجتئها ولطافة هبته لا تكاد تُنال بلحظ البصر ولا
 بمستدرك الفكر كيف دبت على أرضها، وحُثت على رزقها تنقل العبء إلى جحرها وتعلها
 في مستقرها، تجمع في حرها لبردها، وهي وردها، لصدرها»^١.

❦❦❦

٤ - سعة الرزق وقبته

ورد في الآيات أعلاه أن الله تعالى يسطر الرزق لمن يشاء ويضيعة على من يشاء، وهذا
 التعبير الذي تكرر في آيات عديدة يمكن أن يوجد هذا الخلط وهو أن نظام الرزق خارج
 عن إرادة الإنسان بشكل كامل، طبقاً لذلك فلو تنعم قوم وحرم آخرون فهذه مشيئة الله
 وليس ما كسبته أيديها وليس لنا حول ولا قوة ويمكن أن يكون هذا مكسباً جيداً لأولئك
 الذين يشكلون على أصل الدين ويعتبرونه ولهداً للمحركات والمشاريع الاستعمارية
 ولكن لو تأملنا في هذه الآيات والروايات وفكرنا في أسباب ضيق الرزق وسقته لتجلى
 لنا تفسير هذه الآيات وأسرارها وسيتم القضاء على تلك الأفكار الهدامة، وتتوصل إلى أمور
 مهمة وقيمة للغاية.

لقد قلنا مراراً أن التعبير بـ «الإرادة الإلهية» لا يعني الإرادة التي تغلو من الحساب
 والكتاب، بل الإرادة المعترجة بـ «الحكمة»

إن حكمة الله تقتضي أن من يسعى ويجهد ويخلص ويصحي أكثر، يكون رزقه أوسع؛
 «وَأَنَّ لِنَاسٍ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» (المجم / ٣٩)
 و«كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ» (المدثر / ٢٨)
 «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (الطلاق / ٢-٣)

فالتقوى تؤدي إلى سيادة العدالة الاجتماعية ومن ثم تؤدي إلى سعة الرزق، كما أن السعي والمثابرة تبعاً للأرضية اللارمة للاردهار الاقتصادي وتعتبر سبباً في سعة الرزق، وبناءً على ذلك فإنّ التعاليم أعلاه وطرّاً لحدورها وأصولها لا تعتبر سبباً في الغمول وترك السعي، بل إنها من العوامل المؤثرة في السعي والاجتهاد.

والشاهد هو هذا الحديث القيم الذي نقل عن الإمام علي عليه السلام، حيث يقول:

«إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَمَّا ارْزَدَوْجَتْ إِرْزَدَوْجَ الْكَسَلِ وَالْعَجْزِ فَتَجَا بَيْنَهُمَا الْفَقْرُ»^١.

نعم فقروا كل قوم، نتيجة مباشرة لضعفهم وغمولهم. وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يصيق الرزق على مثل هؤلاء.

إنّ التأمل في أسباب ضيق وسعة الرزق في الروايات شاهد ناطق آخر على القول السابق.

ومن جملة الأمور التي ذكرتها في الروايات كأمهات لسعة وبسط الرزق ما يلي:

صلة الرحم، نظافة الدار والأواني والجسم، مؤاسة المسلمين، السعي مبكراً لطلب الرزق، شكر النعمة، الاقلاع عن الخمر، اجتناب الميسر الكاذبة، الاستعفار والتوبة من الذنوب، حسن النية في الأعمال، الاحسان إلى الحيوان وذكر الله^٢

نقرأ في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «حُبُّ الْكَلَامِ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ»^٣.

وجاء في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فِي سَعَةِ الْإِخْلَاقِ كَنْزُ الرِّزْقِ»^٤.

وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَثْرَةُ الشُّعْبَةِ يَمَحِقُ الرِّزْقَ»^٥.



١. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٦٠.

٢. بحار الأنوار ج ٧٣، ص ٣١٤ (باب ما يورث الفقر والغم)، وسفينة البحار، ج ١، ص ٥١٩ و ٥٢٠.

٣. المصدر السابق.

٤. المصدر السابق.

٥. المصدر السابق.

١٧ - آياته في خلق الطيور

تمهيد:

لقد أحبَّ الإنسان على مرِّ التاريخ الطيورَ وتمتَّع بتربيتها ومشاهدتها تُحلِّق فوق رأسه في السماء بشكلٍ جميلٍ، وكانت هذه الظاهرة تبهت على دهشته دائماً، وهي كيفية إمكان أن يحلِّق جسم ثقيل في السماء ويتحرك بتلك السرعةِ خلافاً لقانون جاذبية الأرض ١٤.

ولمست هذه الصفة فقط بل صفات أخرى كالرَّسِّ كالجناحين، التمريد اللطيف لبعضها، طراز بناء البيت والعش، تربية الفراخ وأطعامها، الهجرة لطوله تقسيمٍ منها، وأمور أخرى من هذا القبيل كانت مصدراً لدهشته، بالرغم من أن تكرار هذه الحالات المثيرة أدنى - وبالتدرج - إلى أن يمرَّ بعض الناس عليها مرور الكرام

وقد أشار القرآن الكريم في جانب من آيات التوحيد إلى هذه المسألة، ودعا الجميع مشاهدة عالم الطيور، كي يَرَوْا آيات وِهينِ إِبَارِي تَعَالَى

بهذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات الآتية.

١ - ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُنْسِكُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(النحل / ٧٩)

٢ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ قَوَائِمٍ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُنْسِكُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ

(الملك / ١٩)

شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجَعُ لَّهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ

(المور / ٤١)

صَلَاقَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

٤ - «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ».

(الأنعام / ٣٨)

❦❦❦

شرح المفردات :

«طير» : جمع (طائر) وتُسمّى لكل حيوان ذي جناح وريش، ويخلق في الهواء، ومصدرها «الطيران»^١ و«تطير» تدلّ لطالع السوء الذي كانوا يستلهمونه في الجاهلية من حركة الطيور، ولكن أطلق فيما بعد على كل شكل الشياطين وسوء الطالع.

كما جاء لفظ «تطائر» بمعنى الحركة بسرعة أيضاً^٢

«صافات» : من مادة «صف» وتعني وضع الأشياء في حيط مستقيم، كالناس أو الأشجار حينما يكونون في خط واحد، فمصدرها يطلق هذا اللفظ وصفاً أو حالاً للطيور - «والطير صافات» - فهو إشارة إلى بسط الأجنحة في السماء أثناء الحركة، وعاكسها - «ويقهضن» - واللفظ «إصطفاف» كناية عن التسليم والطاعة المعضنة والخصوع التام، وإشارة للخدم الذين يقومون في صف واحد استعداداً لتقديم الخدمة^٣.

وبطبيعة الحال أن احتمال: «والطير صافات» إشارة إلى مجموعه من الطيور التي تتحرك بشكل جماعي في صف أو عدة صفوف حيث نلفت الانباء بتناسقها وارداً أيضاً، إلا أن عبارة «ويقهضن» تمنع هذا التفسير.

❦❦❦

١ وقد قالوا إن مصدر هذا الفعل «طير» أيضاً، وطيور جمع الجمع (جمع طير) وذكر بعضهم أن «طيور» جمع «طائر».

٢ مفردات الراغب ولسان العرب : كتاب العين : ومجمع البحرين

٣ التحقيق في كلمات القرآن الكريم : مفردات الراغب.

جمع الآيات وتفسيرها

للطيور يُسَبَّحُ ولنا صامتة!

أكدت الآية الأولى على أن تحليق الطيور في جو السماء خلافاً للحاذبية الأرضية هو آية من آيات الله: «أَلَمْ يَرْزُقْنَا إِلَى الْطَّيْرِ مَسْجِرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ»^١.

ونظراً لطبيعة الأجسام في الانجذاب نحو الأرض فإن حركة الطيور في أعالي الجو تبدو شيئاً عجيباً، ويجب أن تؤخذ مأخذ جد، فمن المسلم به أن هناك مجموعة من المزايا لدى الطيور تمكنها من الطيران يسر في السماء مستمرة مختلف القوانين الطبيعية المعقدة، إنه لشيء يبعث على الدهشة بلا شك.

إن لهذا الميدان العجيب والقوانين التي تسبب هذه لطاهرة المدهشة رباً قادراً حكيماً مطلعاً على أسرار العلوم، بل ليست العلوم إلا شيئاً من لقوانين التي وضعها، لهذا يقول في سياق الآية: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ»

ويضيف في حتام الآية: «إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

وسرى في الايضاحات التي ستأتي في نهاية هذه الآيات - إن شاء الله - ما هي القوانين التي يجب أن تتطافر كي نحصل هذه الظاهر، نبي تدعى «الطيران»، لذلك نواجه في كل خطوة آية جديدة من آيات مبدى الوجود العظيم.



والاية الثانية تتشابه مع الأولى من عدة وجوه، إلا أنه يلاحظ فيما بينهما اختلافات أيضاً، ففي هذه الآية يدعو الناس «لا سمحاً للمشركين» إلى تفحص اوضاع الطيور، هذه الموجودات التي تنطلق من الأرض خلافاً لقانون الجاذبية الأرضية، وتحرك مسرعة بكل

١ لقد اتخذ بعضهم لفظ «جَوِّ» بمعنى الفضاء الذي يحيط بالأرض، وبعضهم بمعنى «الهواء» قريباً كان أم بعيداً عن الأرض، ولكن يبدو أن ما يستعمل عادة هو المعنى الأول، وهو الذي يناسب الآية أعلاه حيث يمكن أن يكون مصدراً للعجاب.

يسير في جو السماء لساعاتٍ وأحياناً لأسابيع، وحتى أحياناً لعدة شهور بدون توقف،
حركة مرنّة وسريعة، بنحوٍ تبرهن على أنّها لا تواجه مشكلةً في عملها.

فيقول ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾^١.

فلا أحد سوى الرحمن الذي عمّت رحمته كل شيء، يستطيع أن يُمسكهن هناك، ﴿مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾

أجل.. الله الذي منحها كل أدوات الطيران، وعلمها طريقته واسلوبه، كما وضع قوانين
وانظمة تستفيد منها فتخلق بسر وسهولة، فهو العليم بحاجات كل الموجودات والبصير بكل
شيء: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِحِيرٌ﴾.

وابتداءً من الدواب حتى المظومة الشمسية، والمظومات الأخرى الحارة، ومن
النباتات والحيوانات المجهرية، حتى الموجودات الملائكة، والكل يستمر في وجوده
بتدبيره جلّ وعلا، التدبير الذي يُطعننا في كل مرحلة منه على آية جديدة من علمه وقدره
تبارك وتعالى، ويمضي كل أشكال الاحتمال بوجوه الصدق وقدرتها على الحل، ويملأ
القلب بحبه والإيمان به.

ويمكن أن يكون التعبير بـ «صافاتٍ» و «يَقْبِضْنَ» إشارة إلى وضع الطير، حيث يبسط
أجنحته تارةً، ويجمعها أخرى، ويقدرن على الطيران من خلال هذين الفعلين، ويردّ هذا
الاحتمال أيضاً بأن يكون إشارة إلى صفين من الطيور الطيور التي غالباً ما تكون أجنحتها
مبسوطة، وتركب أمواج الهواء، وفي نفس الوقت تسير في كل اتجاه بسرعة، فكانت هناك
قدرةٌ خفيةٌ تحركها لا تراها بأعيننا، والطيور التي تخفى أجنحتها باستمرار أثناء طيرانها،
ولبعض الطيور حالةٌ وسطى بين هاتين الحالتين أثناء الطيران^٢

١ يقول بعض المفسرين لو تعدت «الرؤية» بـ «إلى» فهي تعني الرؤية الحسية، وإذا تعدت بـ «في» فهي تعني
المشاهدة القلبية والمطالعة العقلية (تفسير روح البيان ج ١٠، ص ٩١)

٢ لما جاء «صافاتٍ» بصيغة الاسم الفاعل، و «يَقْبِضْنَ» بصيغة الفعل المصارع؟ وردت تفسيرات كثيرة
أفضلها: يقال إنه عند انبساط الأجنحة يأخذ وضع الطائر مسقاً واحداً، بينما يتكرر رفعه بوجهه عند خفقانها،

وفي الآية الثالثة نواجه صياغة جديدة بصدد آيات التوحيدية لحياة الطيور إذ يخاطبُ النبي ﷺ قائلاً: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» وَالطُّيُورُ صَافَاتٍ».

الطيور التي تتحرك في الجو صفوفاً، بحلّابٍ وعظمٍ وجمال ولا تتعبُ العيين من مشاهدتها أبداً، فهي ترسمُ أشكالاً هندسيةً مختلفة على صفحة السماء بحيث تدهلُ الإنسان، إذ قد تطير المئات بل الآلاف من الطيور وتغيّر طريقها باستمرار من خلال أمرٍ خفيٍّ من دون أن يحدث اصطدامٌ فيما بينها.

ويصيف في سياق الآية: «كُلُّ قَدْ عَمِ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ»^١

نعم.. فلكل منها صلاةٌ وابتهاال ومناجات ودعاء وحاجاب في عالمها الخاص. ولكل تسبيحه وتعظيمه وتناوّه، ومن المعروف أن دونه وجود أيّ منها وباء محض أعصائه وحركاته وسكناته تُعبّر عن مُبديٍ عظيمٍ يجمع كافة الكمالات ومُروّ عن جميع انتوافص، وهي دائمة التسبيح بحمده بلسان حالها

ويعتقد بعضهم أن حمدها وتسبيحها وصلاتها عن سوعي، ويعتبرون لكل موجود حتى الذي نحسبه جماداً وبلا روح، عقلاً واحساساً، بالرغم من جهلنا به، كما نقرأ في مكانٍ آخر: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ». (الاسراء / ٤٤)

وكل تفسير من ذيك التفسيرين الصحيحين يصلح أن يكون شاهداً على ادعائنا بأن جميع الموجودات في هذا العالم، لا سيما الطيور التي تطير في جو السماء، آيات وبراهين على قدرة وعلم خالق الكون.

وهذا ما يناسب الفعل المضارع ويكسبه صفة الاستمرارية وذكر تفسير آخر في «الكشاف» وأيده بعض المفسرين، بأن منشأ هذه التفاوت ينبع من أن الطيران هو الحالة الأصبية الأولى للطيور، والحالة الثانية هي عرضية غير أن الفموض يكتنف هذا التفسير

١ هنا حيث يعود الضمير في «علم» إلى «الله» أو إلى «كل» هالك حدال بين المفسرين، ولكن ما يناسب وضع الآية هو أن يعود الضمير إلى «كل» فيصير «كل واحد» أي «كل واحد من موجودات الأرض والسماء والطيور يعرف صلته وتسبيحه جيداً

وقول في نهاية الآية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

فهو يعلم كل أعمالهم ونواياهم وجميع حاجاتهم، وهنا لماذا استند في هذه الآية إلى بسط أجنحة الطيور فقط «صافات»؟ لعلّ السبب هو هذا الوضع العجيب والمدهش حيث تستطيع أن تتحرك في جو السماء بسرعة بدون تعريك أجسامها كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. والاحتمال الوارد أيضاً هو أن الطيور تتحرك في السماء بشكل جماعي بنحو يبحث على الحيرة، حركة هندسية منظمة، متساسة تماماً، وبلا قيادة ظاهرة.



وأشار في الآية الرابعة والأخيرة من البحث إلى مسألة جديدة أخرى من عجائب عالم الطيور فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنمِّئَ أَثْمَالُكُمْ﴾. والتعبير بـ «أُنمِّئَ» جمع «أُصِمَّة» يدلّ على أن لها عقلاً واحساساً في عالمها، والتعبير بـ «أثمالكم» يؤكد هذا المعنى أيضاً، لأنها تشابه الإنسان في مسألة الإدراك والفهم والشعور، وهذا تأكيد مجدّد للتفسير الذي ورد في الآية السابقة، بأن لها تسبّحاً ودعاءً عن وعي في عالمها الخاص بها^١.

إنّ القرائن المتوفرة لدى الطيور، وباقي الحيوانات، تؤيد بأنّها ذات دكاء وشعور لأنّ: أولاً: الكثير من الحيوانات تعمل بمهارة ودقّة في بناء بيوتها وجمع عدائها وتربية فراخها، ورعايتها، وسميها لسد حاجات حيائها الأخرى بدقّة ومهارة لا يُصدق معها صدور هذا العمل عن غير عقل وشعور؟.

وهي تبدي ردود فعل مناسبة أراء الاحداث التي لا تمتلك تجربة سابقة حيالها، فمثلاً نرى أنّ الحروف الذي لم يَزْ ذنباً طيلة حياته به وعي كامل عن خطر هذا العدو ويدافع عن نفسه بكلّ وسيلة يستطيعها

١ لقد أعطى المفسرون احتمالات كثيرة في تفسير تشبيههم بالإنسان حيث يبدو أن ما أوردها أعلاه أكثر تماسكاً بالرغم من عدم وجود تعارض بين هذه الاحتمالات. يراجع تفسير المسار، ج ٧، ص ٣٩٢ وتفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢١٧.

لقد قاموا بتربية الحيوانات من أجل عاياتٍ مهمّةٍ، كالطيور التي تنقل الرسائل، والحيوانات التي تُرسلُ إلى السوق للشراء، وحيوانات الصيد، وكلاب الشرطة التي تستعمل للكشف عن المخدرات، وملاحقة المجرمين وامثال ذلك، فتربّي هذه الحيوانات بنحوٍ قد تكون أفضل وأكثر ذكاءً من الإنسان في انجاز مهمتها، حتى في هذا العصر الذي تنوّهت فيه معدات كشف الجرائم لم يحدوا في انفسهم عنّي عن هذه الكلاب.

خصوصاً أنّ بعض الحيوانات كالنحل ونمل و لأرضية، وبعض الطيور كالطيور المهاجرة، وبعض حيوانات البحر كالأسماك الحرّة التي تقطع آلاف الأميال في اعماق البحر باتجاه منشئها الأصلي أثناء وضع البيوض، تعيش حياةً دقيقةً ومليئةً بالأسرار بحيث لا يمكن سببها إلى العريضة، لأنّ الفرائر تعتبر عادةً مصدراً للأعمال ذات النسق الواحد، في حين أنّ حياة هذه الحيوانات ليست كذلك، وأعمالها دبلّ على مهمتها واحساسها النسبي

يقول مؤلف تفسير «روح المعاني»

أنا لا أرى مانعاً من القول بأنّ للحيوانات نفوساً ناطقة وهي متعاونة الإدراك حسب تفاوتها في أفراد الإنسان وهي مع ذلك كلها كانت لا تصلّ في إدراكها ونصرفها إلى غاية يصلها الإنسان، والشواهد على هذا كثيرة وليس في مقابلتها دليل يجب تأويلها لأجله^١.

والظاهر أنّ مقصوده من الشواهد هذه التلميحات أو التصريحات التي جاءت في القرآن الكريم في قصة «الهدود وسليمان» وكذلك «النمل وسليمان»، وكذلك الروايات التي

نُقلت في تفسير آية البعث بأنّ الحيوانات تُحشَرُ وتُشَرُّ وتحاسبُ يوم القيامة أيضاً^٢.

ولكن على أيّة حالٍ فسواء كانت أعمالها ونصرفاتها ناتجة عن عقلٍ وإرادةٍ أو عن غريزة فلا أثر لذلك على بحثنا، فهي بأيّ نحوٍ آيةٌ من آيات الله وبرهانٌ من براهين علمه وقدرته

١. تفسير روح المعاني، ج ٧، ص ١٤٧.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٩٨.

واللطيف أنه يقول في نهاية الآية: ﴿مَا قَرُّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^١
 ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُخْشَرُونَ﴾.

والتعبير بـ «يُخْشَرُونَ» يشير أيضاً إلى أنها ذات عقل وإرادة نوعاً ما.
 يُستفاد من الآيات أعلاه أن الطيور ومن عنده جوارب تعتبر من آيات الله ولا يمكن نسبة
 هذه الظواهر الدقيقة والمعقدة والمليئة بالأسرار إلى الصدفة العمياء والصداء أو إلى الطبيعة
 التي لا عقل ولا شعور لها.



توضيحات

١ - فنُّ الطيران المعقد

مد سنوات الإنسان يُفكر ما هذه القوة المعقدة التي تساعد الطيور الثقيلة نسبياً على
 الطيران حلقاً لجاذبيه الأرض وتعملها كطير بانسيابية وسر ومهارة في أعالي السماء،
 وتسقل بسرعة؟ ونكر باحتراف الطائرة وصاعتها ثم اكتشاف هذا السريان هناك قوة تسمى
 (القوة الرافعة) تستطيع أن ترفع الأجسام الثقيلة حذاً وتعملها تطير في السماء، فضلاً عن
 الطيور. ويمكن توضيح ذلك في عبارة بسيطة وحالية من المصطلحات الفنية بما يلي:
 لو كان لجسم سطحان مائلان (كاجنحة الطيور أو اجنحة الطائرة حيث يكون سطحها
 العلوي منحنيّاً وبارداً، فلو تحرك هذا الجسم أفقياً ستولد قوة خاصة ترفعه إلى الأعلى،
 وهذا يعود إلى أن ضغط الهواء سيتصاعف على السطح السفلي أكثر من العلوي (لأن السطح
 العلوي أوسع من السفلي)

وتعد الاستفادة من هذا القانون، السبب الرئيس في تحليق الاجسام الثقيلة في الجو، ولو

١ «قَرُّطْنَا» من مادة «قَرِطَ» أي التصغير في أداء العمل وتضييعه بحرق يصعب (صحيح اللفظ، ويرد هذا الاحتمال
 أيضاً بأن المقصود من عدم التصريط في هذا الكتاب السماوي يعني أن للقرآن معهماً جامعاً حيث يشمل كافة
 حاجات الإنسان إلا أنه نظراً إلى ديل الآية فإن المعنى أعلاه يعتبر أكثر سابة

تأملنا اجنحة الطيور جيداً للمسا هذا القانون انميرياني بكل دقة
غير أن هذه مسألة واحدة فقط من عشرات لمسائل المهمة في الطيران، ومن أجل
تصور أوسع له لابد من التطرق إلى الأمور الآتية.

١ - السرعة الأولية لحصول القوة ارافعة (الطائرة تسير وقتاً طويلاً على الأرض
للحصول على هذه السرعة، أما الطيور فقد تركض قليلاً أو بفضة سريعة في الهواء
فتصل هذه العاية ١).

٢ - كيفية التحكم بهذه القوة أثناء الهبوط (وهذا الأمر يحرى في الطيور والطائرة بتقليل
السرعة وتعير هيئة الجناح ١).

٣ - كيفية تغيير الاتجاه أثناء الطيران (ويتم هذا الأمر عن طريق الاستعادة من حركات
مؤخرة الطائرة أو الريش الخاص في قوائم الطيور التي تحدث حركات في مختلف
الاتجاهات وتسوق الطائرة نحو أي اتجاه ١).

٤ - اتخاذ الشكل المناسب للطيران بالبحر الذي يجعل مقاومة الهواء على جسم الطائرة
تصل إلى الحد الأدنى (وهذا الأمر يتم تأمينه من خلال الشكل المعرلي للطيور، والرأس
البيضوي، والمقار المدبب والحاد، وهيئة الطائرة تقليد ١).

٥ - أدوات التسيق مع الطيران (وهذا المعنى متوفر من خلال الريش الذي يسمع
للطيور أن تسبح في الهواء، ووضع البيوض بدلاً من الحمل، كي لا يصبح جسمها ثقيلاً،
والعيون العادة حيث ترى الفريسة أو الصيد جيداً من مكان بعيد وأمثال ذلك ١).

٦ - لقد كان العلماء ولعبة من الرمن يلاحظون أن عجلات الطائرات علاوة على تحميمها
لسرعتها فهي لا تخلو من الأخطار أثناء طيرها، حتى شاهدوا الطيور تجمع أرجلها أثناء
الطيران وتفتحها قبل الهبوط بقليل فادركوا أنه يجب الاستعادة من العجلات المتحركة التي
تجمع بعد الارتفاع، وتفتح قبل الهبوط ١.

ولا عجب في إجراء العلماء لبحوث كثيرة وسنوات متتالية على مختلف أنواع الطيور
مهتمين بكيفية الطيران، والهبوط، وشكل الأجسحة والأذباب، وقاموا بصناعة أنواع مختلفة

من الطائرات تقليداً لمختلف الطيور.

فهل يمكن أن تكون الأسس لضرورة المذكورة في الطيران وليدة للطبيعة العمياء والضياء؟ أوليس جملة: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرُّحْمَنُ» إشارة دقيقة وجميلة إلى جميع تلك الأسس؟ لا سيما وأن المعنى يتم بعد جملة: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ».



٢- «مغائب الطيور» و«الطيور العجيبة»

للطيور أنواع مختلفة وعجيبة، وبعضها أكثر عجباً، إذ يقول بعض العلماء: شوهد ٢٨٩ نوعاً من الحمام و ٢٠٩ نوع من الحجل و ١٠٠ ألف نوع من الفراشة لحد الآن^١ ويمكن ذكر «النفثاش» مثلاً من بين لطيور العجيبة، فهو يصجر من ضوء الشمس على عكس سائر الطيور، ويظهر في ظلام الليل بكل شعاعية وحرارة وبأي اتجاه شاء، وجسمه خالي من الريش تماماً واحتنائه مشكلة من جلد رقيق، وهو ليون ولود، فيبيض، ويأكل اللحم، ويقال إن الطيور تنصب له البعدهاء، كما أنه يعاديه أيضاً لهذا فهو يقضي حياته سرّاً

وحركته السريعة والحريثة هي ظلمة شيل من دون أن يصطدم بمانع تبعث على الحيرة، فهو يمر من خلال انحناءات والتواءات كثيرة بدون أن يضل طريقه، ويوفر طعامه بدقة أيضاً كان مختفياً ومن دون خطأ، لا ممتلكه لجهاز خفي يشبه «الرادار».

فهو يرى بأذنه «أَجَلْ بِأُذُنِهِ أ» لأن الأمواج العاصفة التي يصدرها من حنجرتة ويرسلها إلى الخارج عبر أنفه ترطم بكل ما يصادفها وتعود، وهو يلتقط الأمواج المنعكسة بأذنه، ويتحسس الوضع في جميع الجهات فيتجسب العضات.

إن بناء حنجرتة وأنفه وأذنه عجيبة، دقيق لا يوجد له مثل في أي من اللبائن.

والأمواج التي يرسلها إلى الخارج هي موج ما وراء الصوت، التي لا نستطيع سماعها، وفي كل ثانية يرسل ٢٠-٦٠ مرة إلى كل الاتجاهات المحيطة به ويستلم ردّها.

١ يراجع كتاب أسرار حياة الحيوانات، ص ١٤٢ إلى ١٩٦

لقد اجروا بحوثاً كثيرة حول «الخفاش» ونقوا مقالات عديدة، تتشكل منها دروس حقة لمعرفة الله.

ولهذا يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة في خطبة معروفة باسم «خطبة الخفاش» عن هذا الحيوان، ويبين مهارته ودقته في بيان العظيم والبالغ، حيث يقول:

«من لطائف صنعته، وهجائب خلقته، ما أراها من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش...»^١ ثم يضيف بعده قائلاً:

«وقيل من الحيوانات من يحتضن صفاره، ويحمله تحت جناحه وربما قبض عليه بفيه وهو في حنوه عليه واشفاقه عليه وربما ارضعت الاثني ولداه وهي طائفة...»^٢.

ومن عجائب الخلق طائر آخر يسمى «الطاووس»، بريشه الجميل الذي تصيب الدهشة من يلمع بألوانه، فكأنما خرج لتوه من تحت يد رسام ماهر مليئاً بالألوان العلابة الزاهية الشقافة والحدانة، مصغفاً ريشه بمظلة عجيبة التي إذا رأيتها فسوف لن تعيب عن باللك، أن ذلك لا ية أخرى من آيات خلق الله

لهذا أكد معلم التوحيد ومعرفة الله، الإمام علي عليه السلام في إحدى خطب نهج البلاغة «خطبة الطاووس» على هذا الأمر قائلاً:

«ومن أعجيبها خلقاً الطاووس الذي أقامته في أحكم تعديل، ونشد ألوانه في أحسن تنضيد بهجاء أشرج قصبة وذهب أطال تشعبه إذا درج إلى الاثنى عشر من طيه وسما به مطلقاً على رأسه كأنه قلع داري عشبة نورية يغثال بالوانه...»^٣

و«الطيور المهاجرة» من أكثر أنواع الطيور إثارة للدهشة أيضاً، فهي تقطع أحياناً كل المسافة بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي، ثم تعود إلى مكانها الأول، قاطعة سقراً طويلاً يمتد قد يبلغ آلاف الأميال، والعجيب أنها تستخدم في هذه المسافة الشاسعة آلات

١ نهج البلاغة، الخطبة ١٥٥

٢ سفينة البحار، ج ١، ص ٢ ٤

٣ تراجع بقية هذا الحديث في الخطبة ١٦٥ من نهج البلاغة

خفية تستطيع بها تشخيص طريقها بين الجبال والغابات والصحاري والبحار. والأعجب من كل هذا مواصلة طيرانها لعدة أسابيع بدون توقف ليلاً ونهاراً دون الحاجة إلى غذاء. لأنها تبدأ بالأكل قبل بداية سفرها - بدفع داخلي - أكثر من الحد اللازم. وتحتزن هذه الأطعمة على هيئة دهون في جسمها. كي تكتسب الطاقة اللازمة لهذا الطيران الطويل المستمر.

فهل تستفيد من الجاذبية المعاطيسية للأرض من أجل تشخيص طريقها؟ أو من استقرار الشمس في السماء والجموم أثناء سبل؟ وفي هذه الحالة يجب أن تكون هذه الطيور من الملكيين المرموقين، أو تستفيد من طريقة حفيّة أخرى تجهلها لحد الآن؟ والأهم من ذلك أنها تنام في السماء أحباً وهي طائفة وبواصل مسيرتها نحو هدفها! كما أنها تتوقع التحولات في الجو قبل حصولها من خلال تبيؤ ذاتي، فتستعد للحركة لعلكم شاهدتم بأعينكم أن الطيور المهاجرة تتحرك بشكل جماعي وتُشكّل سقاً على هيئة رقم ٧. فهل هذا حدث صدفة؟ لقد أثبتت بحوث العلماء أن الطير عندما يحرك جناحه في الهواء فهو يخفضه منّا يسهل عملية تحريك جناح الطائر الذي يليه، لهذا فإن الطيور حينما تتحرك بالشكل أعلاه قليلاً ما تتعب، وتخترن كمية لا بأس بها من طاقتها. فأي معلم أعطاها هذا الدرس الدقيق؟



٣- الطيور في خدمة الإنسان والبيئة

يقول أحد العلماء: إن شقاء وقسوة الإنسان، وغفلته وجهله لا عد ولا حدود لها، فيجب أن يعلم أن قتل الطيور يكلفه خسارة فادحة، ويحرّمه عون وبصرة أعز وأعلى الأصدقاء والرفاق في صراعه مع الحشرات الصارة.

فلإنسان طريقتان في مكافحته للحشرات الصارة: إحداها الأسلوب البدائي وهو عبارة عن إبادة اليرقات في البساتين والمزارع وقتنها، والقضاء على الجراد وحشرة العن، عن طريق السموم، والأخرى الصراع العلمي عن طريق «البيولوجيا» بواسطة الفايروسات

والطفيليات الخاصة التي يسم تكثيرها لهذا الغرض إلا أنه يدفع ثمناً غالباً في هذين الأسلوبين من الصرع ويتحمل المتاعب والمشقة، بينما لو ترك الطيور سالمة، وقام بتكثير الطيور التي تقتل الحشرات كالهوم، وبعض الطيور التي تتغذى على الحشرات فيشكون المكافحة سهل وفضل (وارخص) يقول عالم يدعى «ميشول»: «لولا وجود لطيور ستصبح الأرض فريسة للحشرات»، ويكتب آخر يسمى «غابر» في مأيدده، «لولا وجود الطيور سيقضي القحط على البشر»! وتحدثنا الاحصاءات، بأن لو حصلنا على حسابات دقيقة نسبياً عن معدل اليرقات والحشرات التي تستهلكها الطيور الصغيرة سوياً في طعامها وطعام فراخها فستتضح هذه المسألة كثيراً.

فهناك طير صغير يدعى «روانوله» يأكل سوياً «ثلاثة ملايين» من هذه الحشرات المهاجمة، وهناك نوع من الطيور يسمى «الطائر الأزرق» يأكل سوياً «ستة ملايين ونصف الملايين» من الحشرات، ويستهلك «ربعاً وعشرين مليوناً» لا طعام فراخه التي لا تقل عادة عن اثني عشر أو ستة عشر فرخاً...

والسبونو تطوي يومياً أكثر من ستمائة كيلو متر وتاكل «الملايين» من الدباب، وهناك طير يدعى «تروغلوديت» يتغذى على «تسعة ملايين» حشرة منذ أن يخرج من البسطة وحتى طيرانه من العش! وغالباً ما يعتبر الناس أن العراب الاسود مضر، ولكن لو ذهبتم أحد العربان وتمحصم حوصلة تجدونه مليئاً بنوع من الديدان البيضاء^١.

هذا جانب من خدمات الطيور للمزارعين ولبيته، فافرضوا الآن لو أنها تأخذ نصيباً من معاصيلنا الغذائية الذي لا يساوي واحداً بالانف مما تستحقه من هدية أهل يؤذي بنا هذا إلى اعتبارها حيوانات ضارة ومؤذية؟

فمن أودع هذا التكليف لدى هذه الطيور بأن تتكفل بدور مهم بموازنة القوى في عالم الحيوانات والحشرات التي لها فوائدها أيضاً.



١. نظرة إلى الطيحه وأسرارها، ص ١٩٥ - ص ١٩٧ «مع الاختصار»

٤ - فرو من التوحيد في وجود الطيور

يقول الإمام الصادق عليه السلام معلّم التوحيد: «عظيم في الحديث المشهور به المفضل»: «تأمل يا مفضل جسم الطائر وخالقه فإنه حين قدر أن يكون طائراً في الجو خفف جسمه وادمج خلقه فأقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع، ومن منفذين للنزول والبول على واحد يجمعهما لم خلق ذا جزؤ محدود ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه كما جعل السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال مثان لينهض بها للطيران وكسي كفه بالريش ليدخله الهواء فيقله، ولما قدر أن يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب جاس يتناول به طعمه فلا ينسجج من لفظ الحب ولا يتخسف من نهش اللحم، ولما عدم الأسنان وصار يزمره الحب صعباً واللحم غريزاً أعين بمفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعام طبعاً يستغني به عن المضغ؛ واعتبر ذلك بأن عجم العنب وغيره يخرج من أجواف الانس صعباً ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر ثم جعل منا بيض بيضاً ولا يلد ولادة لكيلا يغل عن الطيران...»^١

ثم يشرح الإمام عليه السلام بعد ذلك، لأمر المهمة والدقيقة الأخرى حول الطيور حيث تعرض عنها مراعاة للاختصار.



١ بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٣ وما بعدها

١٨ - آياته في حياة النحل

تمهيد:

إنَّ حياة النحل من أكثر ظواهر الخلق دهشة، وقد اكتشفت عجائب عن حياة هذه الحشرة الصغيرة من خلال بحوث العلماء، إذ يعتقد البعض أنَّ حصارتها وحياتها الاجتماعية أكثر تطوراً من حياة الإنسان، هاتم لا تعثرون على أي مجتمع متطور عد حل مشكلة «التهالة» و«المجاعة» بشكل كامل، إلا أنَّ هذه المسألة حُلَّت تماماً في عالم النحل (خلايا النحل)، فلا يُعثر في هذه المدينة على ربور عاطل عن العمل أو زبور حائج أيضاً.

فبناء الخلية، وكيفية جمع رحيق الورود، وصناعة العسل وخزبه، وتربية الصغار واكتشاف المناطق المليئة بالأزهار، واعطاء عنوان السكن لباقي النحل، والعثور على الخلية من بين مئات أو آلاف الخلايا كل ذلك دُيِّل على الذكاء الحارق لهذه الحشرة. إلا أنَّ من المسلم به أنَّ الإنسان لم يكن يمتلك مثل هذه المعلومات عن النحل سابقاً، ولكن القرآن الكريم أشار في السورة المسماة باسم هذه الحشرة «النحل» بإشاراتٍ مليئة بالمعاني إلى الحياة المعقَّدة والمدهشة لهذه الحشرة.

بهذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات الآتية

١ - ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

(النحل / ١٨)

يَعْرِشُونَ﴾.

٢ - ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الشَّجَرِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (النحل / ٦٨-٦٩)

❦❦❦

شرح المفردات:

«النحل»: اسمُ رنبور العسل و«نحلة» (على وزن قبلة) تعني العطاء بلا عوض، ومفهومها محدود أكثر من مفهوم الهبة، لأن «الهبة» تشمل العطاء بموص وبغير عوض بينما تشمل النحلة العطاء بلا عوض فقط، و«نحول» تعني الصنف، تشبيهاً بهزال دبابير العسل، و«نواحل» تطلق على السيوف الحادة «الرفيعة».

وقد يُحتمل أن المنشأ الأصلي لـ «نحلة» يعني العطاء، وإذا أُطلق على رنبور العسل «نحل» دلالة يصطحب معه عطاء وهبة جلوة لعالم الإنسانية^١

و«أوحى»: من مادة «وحى» وبها معاني كثيرة وقد ذكرنا شرحها في الجزء الأول من «نفحات القرآن» في بحث «مصادر المعرفة»، وأصدها يعني «الإشارة السريعة» وبالنظر إلى أن أمر الله تعالى فيما يتعلق بالمشاطات المختلفة والمعقدة للنحل قريب الشبه من الإشارة السريعة أو الإلهام القلبي فهذا المعنى استخدم أيضاً فيما يخص النحل، لأن جميع هذه الأعمال المعقدة قد تُجز من خلال إشارة الهبة سريعة

❦❦❦

لتزود بلاد النحل:

لقد استمد القرآن الكريم في آيات عديدة إلى جوانب مختلفة من حياة النحل حيث كل منها اعجب من الآخر، فقد أشار أولاً إلى مسألة بناء بيوتها، قائلاً: «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ».

وقد يكون التعبير بـ «اتَّخِذِي» بصيغة الفعل المؤث إشارة إلى أن النحل عندما يهاجر

١. مفردات الراغب.

لاختيار بيت جديد فهو يسير خلف «الملكة» التي هي بمنزلة القائد في الخلية، وعليه فإن المعتنق الحقيقي هي «الملكة».

والتعبير بـ «أوحى» تعبير جميل حيث يبرهن على أن الله تعالى قد علم هذا الحيوان طراز بناء البيت الذي يُعد من أروع أعمال هذه الحشرة بواسطة الهام خفي وسيأتي شرحه في «التوضيحات» إن شاء الله، وهي تقوم بأجوار واجباتها على أفضل وجه وفقاً لهذا الوحي الإلهي، فقد تختار صخور الجبال، أو بطون الكهوف لبناء بيوتها، وتضع الحلية بين أغصان الأشجار أحياناً، وقد تستخدم العلايا الاصطناعية التي يصممها الإنسان لها على القصب، أو أنها هي التي تقوم ببناء البيت على القصب.

إن ألقاط الآية تدلُّ جيداً على أن بناء البيت هذا ليس ساء عادياً وإنما عبّر عنه القرآن بالوحي، وسنرى عاجلاً أن الأمر هكذا.



وهي الآية الثانية توجه نحو صناعة فصل النحل مصحفاً، أن الله قد أوحى لها أن تأكل من جميع الثمار: «ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ»^١ وقطعي الطرق التي يسرها وسخرها لك ربك لتكون العسل الحلو: «فَأَنْتَلِكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا».

«سُبُل»: جمع «سبل» وتعني «الطريق البسير»^٢

وهنا ما المقصود من هذه السبل في الآية علاء؟ لقد أبدى المفسرون احتمالات مختلفة -

فقال بعضهم المقصود هي الطرق التي يطويها النحل نحو الأهرار، والتعبير بـ «ذُلُل» (جمع «ذلول» وتعني التسليم والطاعة)^٣ يدل على أن هذه الطرق تُعَيَّن بدقة بحيث يكون ارتيادها سهلاً وعادياً للنحل؛ وتؤيد دراسات خبراء النحل هذا المعنى أيضاً، فهم يقولون:

١. كما أوردها الراحب في المفردات

٢. من الممكن أن تكون «ذُلُلًا» حالاً لـ «سبل»، أو «الحسن»، ويبدو أن الاحتمال الأول أكثر صحة.

تخرج مجموعة من النحل مكلمة بتشخيص مكان الأزهار صباحاً، من الخلية، وبعد اكتشاف المناطق المليئة بالأزهار ترجع، وتعطي لبقاين العنوان الكامل لذلك المكان بشكل سري ومدّش، وقد تشحّص الطريق بوضعها علامات عليه متكونة من مواد ذات رائحة خاصة، وينحوي لا تفضل أية نحلة باتباعها.

وقال بعضهم الآخر أيضاً: إن المقصود هو طريق العودة إلى الخلية، لأن النحل قد يُجبر على قطع مسافات طويلة، ولا يبتنى بالتيه عند عودته، فهو يتجه نحو الخلية بدقة، بل وأنه يمر على خليته يسيراً من بين عشرات الحلّاء المشابهة.

وقال آخرون: إن «السَّيْلَ» هالها معنى مجاري فهي تشير إلى الأساليب التي يتبعها النحل لإعداد العسل من رحيق الأزهار، فهي تحتص رحيق الأزهار بسحوي خاص ترسله حوصلتها، وهناك حيث تكون كمختر للمواد الكيميائية يتبدل إلى «عسل» من خلال التغيرات والتطورات التي تجري فيه، ثم يستخرجه الزنبور من حوصلته. أجل إنه يعرف الأسلوب اللام لا إجراء هذا العمل جيداً، من خلال أمر إلهي فيسلك هذا الطريق بدقة.

ونظراً إلى أن هذه التفسيرات الثلاثة لا تتعارض فيما بينها وكون طاهر الآية عاماً، فيمكن القول: بشمول جميع هذه المعاني، إذ يقطع النحل هذه الطرق الملتوية والمنحنية بالاستعانة من الشعور الذي منحه الله له، أو باللهام العريري، ويستخدم هذه الأساليب بكل مهارة واقتدار.

وفي المرحلة الآتية أشار إلى صفات «العسل» وفوائده وبركاته قائلًا: «يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ».

وقد حَمَلَ بعضهم التعبير بـ «بُطُونِ» (جمع بطن) على معنى مجاري وقالوا: إنها تعني الأنواء، وقالوا إن العسل الذي هو رحيق الأزهار مخزون في سم النحل ثم ينتقل إلى الخلية^١.

١. تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٧٢.

بينما يعتقد بعضهم أن العسل هو فصلات النحل ١

ويعتبره بعضهم الآخر من المسائل الخفية التي لم تُكتشف لحد الآن ٢.

ولكن بحوث العلماء برهنت على عدم صواب أي من هذه الآراء - كما أشرنا - بل إن النحل يُرسل رحيق الأزهار إلى مكان خاص في جسمه يسمى «الحوصلة» وبعد أن يجري عليه تغييرات وتطورات يفدعه خارجاً من فمه ٣.

والتعبير بـ «يُفدون» شاهد على هذا المعنى، واجلئ منه التعبير بـ «تُكلى»، لأن العرب لا يقولون لحفظ الشيء في الفم «أكل» أبداً، وحمل هذه الحملة على المحار تفسير مجازي لا ضرورة له.

وأما المقصود من «ألوان مختلفة» ها هي ذات نعاسير متباينة أيضاً، فقد اعتبرها بعضهم بمعنى هذا «اللون» الظاهري الذي يتفاوت فيه العسل فبعضه أبيض شفاف، وبعضه أصفر، والآخر أحمر اللون، وبعضه يميل إلى السواد، ويمكن أن يكون هذا التباين مرتبطاً باختلاف أعمار النحل، أو مصادر الأزهار التي يتغذى عليها، أو كليهما.

وقد أحتمل أيضاً أن يكون المقصود من هذا التفاوت (نوعية) العسل، فبعضه عليل، وبعضه خفيف، أو أن عسل الأزهار لمختلفة له آثار ومزايا مختلفة أيضاً، كما يختلف العسل العادي كثيراً عن «الشهد» (العسل الحاص الذي يُصنع لملكة الحلية)، لأن المشهور أن لـ «الشهد» قيمة من الباحية العدائية بحيث يريد كثيراً في عمر الملكة ولو تشكّن الإنسان أن يتغذى عليها فإنها تترك ثراً عميقاً في طول عمره.

وفي بعض البلدان هناك حدائق من ورود متشابهة حيث تُنصب فيها الخلايا الخاصة بالنحل، وبهذا تُستخلص أنواع مختلفة من العسل كل منها مستخرج من زهر خاص، ويمكن الراغبون من شراء العسل من الورد الذي يرغبونه، وبهذا يواجه ألواناً مختلفة من

١ وفي تفسير القرطبي ينقل عن ارسطو أنه صنع حليّة من الزجاج كي يرى كمية صناعة العسل غير أن النحل كان يُعتمد الزجاج لكلي لا ينكشف السر حينما يريد مزاولة صنعه (المصدر السابق ليرى).

٢ تربية النحل، لمحمد مشيري، ص ١١٣؛ وكتاب نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ١٢٦.

العسل تدخل في المفهوم الواسع و لعام للآية .

والتعبير بـ « شراب » جاء لأنَّ العرب لا يستخدمون لفظ « كحل » بخصوص العسل كما يقول بعض شراح لغة العرب ، ويُعبر عنه بـ شرب دائماً (ولعلَّه بسبب أنَّ العسل في تلك المناطق يكون خفيفاً)^١ .

وفي الختام أشار إلى تأثير العسل في العلاج قائلًا : « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » .

والتعبير بـ « شفاء » بصيغة الكثرة ، إشارة إلى أهميته الفائقة ، وكما سيأتي في التوضيحات إن شاء الله ، فللعسل الكثير من المزايا العلاجية الجاهزة التي تحتوي عليها الأزهار والنباتات الطبية الموجودة على لكرة الأرضية ، وقد ذكر العلماء لاسيما في هذا العصر خصائص عديدة له تشمل الجانب العلاجي وجانب الوقاية من الأمراض أيضاً .
فللعسل تأثيرات مذهلة في علاج الكثير من الأمراض وهذا يعود إلى الفيتامينات والمواد الأساسية التي يحتويها . حيث يمكن القول (إنَّ العسل يخدم الإنسان علاجياً وصحياً وجمالياً) .

وفي نهاية الآية أشار إلى الجواب الثلاثة الالفة (بقاء خلية النحل ، طريقة جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل ، وخصائصه العلاجية) فيقول « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

وعليه ففي كل مراحل حياة النحل ، واستخراج محصول هذه الحشرة الذكية والمثابرة ، تظهر للعيان آية بل آيات لعلم وقدره العائق جل وعلا الذي ابتدع مثل هذه الظواهر المذهلة .



توضيحات

١ - حفارة النحل للعجوبة !

مع اتساع علم الحيوان وعلم الاحياء و لدراسات المستفيضة للعلماء تم اكتشاف

١ تفسير روح المعاني، ج ١٤، ص ١٦٨

مسائل عجيبة وحديثة عن حياة هذه الحشرة الصغيرة أدهلت الإنسان بشدة، ولا يُصدّق أبداً بأن يسود حياة النحل مثل هذا النظام والتسيير والتخطيط بلا أي إحساس طبيعي. يقول أحد العلماء المختصين بعلم لاهياء ويدعى «مترلنغ» الذي كانت له دراسات كثيرة على مدى سنوات طويلة حول حياة النحل، والطعام المعيب الذي يحكم محالها يقول: «إن الملكة في مدينة النحل ليست هي زعيم كما نتصورها، بل هي كسائر أفراد هذه المدينة تخضع لسلسلة من القوانين والأطمة العامة أيضاً».

ثم يضيف: «نحن لا نعرف مصدر هذه القوانين وبأية طريقة توضع، ونحن ننتظر اليوم الذي نتوصل فيه إلى معرفة واضح هذه المقررات، إلا أننا نطلق عليه حالياً اسم «روح الخلية»، ولا ندري أين تكمن «روح الخلية» وفي أي من سكان الخلية حلت، إلا أننا نعرف أن الملكة كالآخرين تطيع روح الخلية أيضاً»!

«إن روح الخلية لا تشبه غريزة الطيور، ولا تعمل بآلية وإرادة صماء، فهي تشخص تكليف كل واحد من سكان هذه المدينة العملاقة حسب ما يليه وتعطي لكل منها واجباً. فقد تأمر مجموعة ببناء البيت، وأحياناً تصدر أمر الرحيل والهجرة»

«والخلاصة أننا لا نستطيع إدراك أن قوانين ملكة النحل التي توضع من قبل روح الخلية هل ستطرح في «مجلس شورى» ويصادق عليها ويتخذ القرار بتنفيذها؟ ومن الذي يصدر أمر الحركة في اليوم المحدد؟»!

إلا أن القرآن الكريم أعطى جواباً لجميع هذه التساؤلات بتعبير جميل ودقيق جداً إذ يقول: «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ»!

وهو نفس التعبير الذي ذكره بحصوص الأنبياء (عليهم السلام)، صحيح أن هذا الوحي يختلف عن ذلك الوحي كثيراً، إلا أن تناسب التعبير دليل على أهمية العلم الذي أودعه الله لدى النحل، كي يدعو مفكري العالم إلى دراسة أوضاعها.

فمن المسلم به أن بناء خلية النحل يجري بإهام الهي، لأنها تبني تشكيلات سداسية

منظمة واسعة من كمية قليلة من الشمع (حيث يمكن استغلال جميع رواياه ويكون مقاوماً أمام الضغط أيضاً) وتتكون بيوتها من طبقتين، وعندما تبني بيتاً في الجبال أو على الأشجار فهي تقتصر على هاتين الطبقتين، لا أنها تصيف طبقتين أحريين في الخللايا الاصطناعية وبما يمكن استيعابه منها.

ويتخذ قعر البيت شكلاً هرمياً حيث يتألف من ثلاثة سطوح لوزية الشكل ويغور الرأس والأجزاء البارزة بكل طبقه في قعر الطبقة لسطح.

وقد أثبتت التجارب أنه لو كان سطح الشمع مربع الشكل أو باي شكل آخر وصُب في قوالب اصطناعية ووُصِّع النحل في داخله فسوف لا يرتضي مثل تلك الجدران غير المطابقة للمواصفات، بل يرفع الجدران إلى الأعلى ويمدها إلى وضعها الصحيح.

لقد قاس أحد العلماء، قعر بيت النحل، فكانت زاويته الكبيرة تُقدر بـ ١.٩ درجة و ٢٨ دقيقة، ثم طرحت هذه المسألة على المهندسين، المسمى كبير يُدعى «كنيك» كسؤال عام بأن لو أراد إنسان بناء هرم بأقل كمية من مواد البناء وباكبر طرعية بحيث يشكّل من ثلاثة سطوح لوزية فما مقدار زواياه؟

فقام بحل هذه المسألة المعقدة بالاستعانة بحساب «ديفرانسيال» وكتب في الجواب، مائة وتسعة درجات وستة وعشرين دقيقة بدون علم منه بأن هذا يرتبط ببيت النحل ومتعاقب معه بدقيقتين فقط.

ثم تلاءم مهندس آخر يُدعى «مايخ لورد» فاجرى حسابات دقيقة وتأكد بأن تلك الدقيقتين كانتا نتيجة لإهمال المهندس الأول، والجواب الصحيح كما في عمل النحل «١» ينقل العالم البلجيكي المعروف «مترلينغ» في كتاب «النحل» عن أحد العلماء ويُدعى «رايت» ما يلي: لدينا ثلاثة طرق علمية معقدة في الهندسة لتقسيم الفواصل المنظمة وربطها وتكوين الأشكال الكبيرة والصغيرة، وهذه الطرق الثلاثة عبارة عن (المثلث القائم الزوايا) و(المربع) و(المسدس) وتستخدم الطريقة لثلاثة أي «المسدس» في بناء غرف النحل،

١ تفسير روح الجبان هامش المرحوم الشيرازي ج ٧ ص ١٢٣ «مع شيء من الاختصار»

وهذا الشكل أكثر ملاءمة لاستحكام البناء (لأن لو دققنا قليلاً نجد أن الشكل السداسي يشبه الأقواس من جميع الجهات حيث يمتلك بعد الأقصى لمقاومة الضغط، بينما تنظر المتينات والمربعات أمام الضغط كثيراً).

بالإضافة إلى أن جسم النحل اسطوحي الشكل تقريباً ويتلاءم كثيراً مع الخروج والدخول في مثل هذه البيوت.

على أية حال، كلما تحققنا بخصوص ما أشار إليه القرآن الكريم في مسألة بناء بيت النحل نحصل على مسائل عجيبة جديدة، تجعلنا نعظم خالق ومبدع ومربي هذه الحشرة العجيبة.



٢ - جمع رحيق الأزهار وصناعة للعسل

الأمر الثاني الذي استند إليه القرآن هو جمع رحيق الأزهار، وهو من المسائل المدهشة والمحيّرة جداً.

يقول بعض العلماء: يجب أن تسافر ٥٠ ألف نحلة من أجل إعداد كيلو غرام واحد من العسل^١.

وتؤكد حسابات العلماء أيضاً أنه من أجل إعداد كيلو غرام واحد من الرحيق يجب أن يمتص النحل سبعة آلاف وخمسمائة زهرة كمعدلٍ ويستخرج رحيقها (وطبقاً لهذه المعادلة يجب امتصاص ٧,٥ مليون زهرة لإعداد كيلو غرام واحد من العسل^٢) ولا بد أن نعلم أيضاً أن النحل يسافر يومياً حوالي ١٧-٢٤ مرة من أجل جمع رحيق الأزهار.

ولا عجب أن نعلم أن النحل لم يذوق طعم راحة طول عمره، وأنه لا يرى النوم أبداً، فهو يقظ طول عمره^٣.

١. تربية النحل، ص ١١٢

٢. المصدر السابق، ص ١١٥

ومن أجل أن ندرك القتل المرهق لهذه الحشرة الكادحة يجب أن نقول أنه يتعين على النحل أن يسافر ٨٠ ألف مرة ذهاباً وإياباً على الأقل من أجل كل اربعمائة غرام من العسل الذي يحصل عليه، ولو ربطنا هذا لذهاب والاياب معاً وقدرنا مسافة كل مرة (كمعدل) بكيلو متر واحد، ستكون المسافة التي يقطعها النحل من أجل الحصول على اربعمائة غرام من العسل تعادل ضعف محيط الكرة الأرضية، أي أن هذه الحشرة الكادحة تقطع مسافة ما يعادل ضعف محيط الكرة الأرضية من أجل جمع شراب يُصنع من اربعمائة غرام من العسل^١.

ومن الضروري الانتباه إلى هذه النكته وهي أن معظم الأزهار لا تمتلك الرحيق باستمرار كي يستطيع النحل امتصاصه. بل إنها تقدم رحيقها مرة واحدة في اليوم وهي ساعات معينة تتبع نوع الزهرة. فبعض الأزهار تعطي رحيقها صباحاً، وبعضها ظهراً، وبعضها الآخر بعد الظهر، والصحيح أن النحل يجمع هذه البرامج جيداً فيتوجه نحو الأزهار وفقاً لها تماماً فلا يذهب وقته هدرًا^٢.

وحرى بالإنسان أن يحعل عهدها بشاهد هذه الأرقام والاعداد في محال جمع العسل وعدد مرات الطيران وعدد الأزهار المستهكة من أجل غرام واحد من هذه المادة العذائية المهمة. ولكن لو فكر بامعان في نفس الوقت بعظمة حالي هذه الحشرة الكادحة وتحقق بعلمه وقدرته لخضع امامه مؤدياً شكر هذه النعمة، ويمكن أن يكون كل ذلك مقدمة لهذه العاية السامية

والنكته الاخيره التي يجب أن نذكرها ونفلق هذا الملف الكبير قبل أن نخرج عن مضمون البحث التفسيري، هي أن لنحل علاوة على امتصاصه للرحيق فهو مكلفٌ بجمع «الحبوب الصفراء» للأزهار المسماة «بولين» ومرجها مع العسل. ولهذه الحبوب آثار حياتية فائقة، فهي تحتوي على ٢١ نوعاً من حامض الامونيك

١. عالم الحشرات وفقاً لنقل حماد الخلق، ص ١٤٣

٢. الحواس الخفية للحيوانات تأليف فيتوس دروش، ص ١٥٧ (مع الاختصار)

وأشكال الزيوت، وهورمونات النمو، والسكر، والانزيمات، كما تستخدم عصارة الحبوب تلك في معالجة التهابات والاورام المرثية التي تعجز المصادات الحيوية عن علاجها، كما أن لها آثاراً منشطة أيضاً^١.

وللأرجل الخلفية للنحل تنوءات كأسان المشط يثير بها غبار الأزهار، ويصنع منه درات كروية، وهناك أيضاً إلى جانب تلك التنوءات ما يشبه «السلك» وآخر يشبه «المطاط» حيث يجمع ذرات غبار الورد هناك ويحفظها، وحيثما يعود إلى الحليّة يجلب معه بالاضافة إلى رحيق الأزهار كرتين صفراوين كإنتاج لعسله اليومي^٢.

XXXX

٣- العسل لهذا مفيد ودواء شاف

لقد تحدث القرآن الكريم في الجزء الثالث من الآيات المذكورة عن مسألة التأثير المهم للعسل في شفاء المرضى تعبّر محض غموض ويتم في هذا العصر كشف السقاب عن أسرارها من خلال دراسات المختصين بعلم الغذاء، إذ يذكر هؤلاء مراراً وأثراً لا تُحصن للعسل تبحث على دهشة الإنسان.

فهم يقولون، إن العسل مادة لا تفسد أبداً وتبقى صالحة لآلاف السنين فيوماً إذا كان صافياً، لأن أي ميكروب لا يمكنه أن يعيش فيه أبداً^٣.

وقد عُثر في قبور الفراعنة على ظروف من عسل تعود إلى آلاف حلت من السنين، وقد بقي هذا العسل صالحاً وطيباً بشكل كامل، وهذا بعد داته دليل على صدق الادعاء أعلاه.

العسل ونظراً لأنه يُستخرج من رحيق الأزهار المختلفة (ونحن نعلم أن كل نوع من

١. الجامعة الأولى، ج ٥، ص ٥٧ إلى ٥٩ (مع الإحصار)

٢. نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ١٢٧

٣. مجلة العلامة

الأزهار يحتوي على مواصفات علاجية خاصة) فيمكن أن يحمل معه صفات هذه الأزهار.

يقول العلماء : يعتبر العسل عادةً حبةً بسبب احتوائه على الفيتامينات و«الانزيمات» و«حامض الفورميك» فهو يحتوي على فيتامينات : أ، ب، ث، د، ك، أي، ومواد معدنية كالسيوم، والحديد، والفسفور، و«الرصاص» و«المنغنيز» و«الالمنيوم» و«النحاس» و«الكبريت» و«الصوديوم» ومواد أخرى متفرقة، وكذلك يحتوي على مختلف الحوامض^١.

ونحن نعلم أن لكل من هذه المواد الحيوية دوراً أساساً في حياة الإنسان، ولهذا فإن العسل يحتوي على المواصفات الآتية

يؤثر العسل في تركيب الدم.

للعسل أثر جيد في إزالة التعب وتقلص العضلات

يعد العسل من حدوث التهابات في المعدة والأمعاء.

ويؤدي إلى أن يتمتع الوليد بجهاز عصبي متين بما تناولته المرأة الحامل.

والعسل مفيد لمن لديهم جهاز عصبي ضعيف.

ويعتبر العسل مُرَّماً قوياً

ويؤثر في تقوية القلب

ويولد العسل طاقة لا بأس بها لدى المسنين

ينفع لعلاج قرحة المعدة والاثني عشر.

ويفيد العسل لعلاج مرض الربو «ضيق التنفس»

ويعتبر عاملاً مساعداً في علاج الأمراض الرئوية

ويعتبر دواء لعلاج مرض الروماتيزم، وضعف نمو العضلات، والمغايب العصبية

ويعد العسل مفيداً للمصابين بالاسهال نظراً لميزته في قتل الجراثيم.

١ الجامعة الأولى، ج ٥، ص ١٢٦ (مع شيء من الاختصار)

وتُصنَعُ منه أدويةٌ تؤثرُ في بعمومَةِ وجمالِ الحسدِ وإزالةِ الحروقِ والتجعداتِ

ويُصنَعُ من العسلِ دواءٌ يعالجُ ورمَ لُحمٍ ويُطهرُ التنفُسَ .

ويستثمرُ العسلُ أيضاً في معالجةِ ذبولِ الجلدِ ، والتشققاتِ ، والحروقِ ، والرُّمَدِ ،

واللدغاتِ المؤلمةِ للحيواناتِ ، وورمِ العينِ ، وسعالِ

وقد قامَ بعضُ العلماءِ بمصاعِدَةِ اقراصٍ من رحيقِ الأزهارِ تحتوي على مواصفاتٍ تشبه

مواصفاتِ العسلِ وأهمُ آثارها مصاعمةُ طاقةِ شبابٍ وشيطةِ الخلايا ومن ثمَّ يؤدي إلى

الراحةِ وطولِ العمر^١ .

ولهذا فقد عرِفَ أن «*نَيْثَا غورس*» كان يوصي تَلاَيه «كلوا العسلَ والحيزَ ما استطعتم»

وكان «*بهراط*» يقول : «لو أردتم عمراً طويلاً فعليكم بالعسل»

إن الآثارَ المنشَطةَ والخواصَ العلاجيةَ وثرَمِيَّةَ للعسل أكثرُ ممَّا تمَّ بحثه في هذا

المختصرِ ، حتَّى دوَّنَ بعضُ العلماءِ كُتُباً مستنفاةً حولَ الميراثِ العذائِيَّةِ والعلاجيةِ للعسل .

وقد جمعَ القرآنُ الكريمُ كلَّ هذهِ المطالبِ في جُمْلَةٍ «*فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ*» بشكلٍ دقيقٍ

ولا عجبَ إن كانتِ لدغةُ النحلِ والسَّمُ الموجودَ فيها علاجاً للكثيرِ من الأمراضِ أيضاً ،

كالروماتيزمِ ، والمَلارِيَا ، وتصحُّمِ العَدَةِ الدرقيةِ ، وآلَمِ الأعصابِ ، وبعضِ أمراضِ المِثُنِ ،

وغيرِها ، ويَجِبُ أن يكونَ التداوى بوخَرِ النحلِ حسبَ برنامجٍ خاصٍ وبإشرافِ الطبيبِ ،

فمثلاً في اليومِ الأولِ مرَّةً واحدةً ، وفي الثاني ثَلاثَ ، وحتَّى اليومِ العاشرِ يستعاد من عشرة

زنابيرٍ ، وتلكَ هي المرحلةُ الأولى من العلاجِ ، وأما في المراحلِ الثانيةِ فيبعدُ العلاجُ شكلاً

آخرَ ، وإذا تجاوزَ وحزُّ النحلِ الحدَّ المَعِيَّ فمن الممكنِ طبعاً أن تتمخضَ عنه أخطارٌ ، كما

أنَّ قَلِيْلَةً مضرٍ بالأشخاصِ الذين لديهم حساسية اتجاهه .

لقد كتبَ بعضُ العلماءِ مقالةً أو مقالاتٍ بهذا الخصوصِ ، واختارَ بعضهم رسالته

للدكتوراهِ تحتَ عنوانِ «مستخرجاتُ سَمِّ النحلِ وخوصها العلاجية»^٢ .

❦❦❦

١ الجامعة الأولى، ج ٥، ص ٢١٢ - ٢٩٠، بشرة الطب والدواء وكتب أخرى

٢. المصدر السابق، ص ١٧٤ .

٤- خدمات الحري للنحل أثنى من العسل!

إن حياة النحل مليئة بالعجائب والاحداث، وما تحدثنا عنه لحد الآن كان جانباً منها، فقصّة بناء الشمع - تلك المادة التي يُشيد بها بيت النحل بشكلٍ كامل - بعد ذاتها قصّة مفصّلة، والعجيب أنّها لا تستثمر هذا الشمع لبناء البيت فقط، فقد تقوم بتحنيط اجساد الحشرات المؤذية التي لا تستطيع دفعها إلى خارج كي تأمن شرّها.

يقول أحد خبراء النحل أنّه لفت انتباهه في أحد الأيام وجود كرة كبيرة سبياً داخل خلية نحل، وعندما فتحها وجد فيها جثة جرادة حطّتها النحل

وقال بعضهم عن الشمع، أنّه روح العسل و لعسل روح الزهر وهو خفيف، بحيث إنّ وزن خمسمائة بيت من مدينة النحل لا يتجاوز بصعّة غرامات، ولا شكّ في صمودية معرفتنا بكيفية ترشح هذا الشمع بالنسبة للنحل، غير أنّنا نعرف جيداً أنّ للشمع استعمالاً هاماً

وعملية تلقيح وحمل الأزهار، من أهم أعمال النحل

يقول أحد العلماء: «لولا وجود الحشرات، لخلت سلالنا من العاكه، لأنّ الحشرات التي تستفيد من الأزهار يمكن أن تلعبها أفضل من نية هوامل نقل حبوب اللقاح، فعندما تمسّ إحدى الحشرات التي تمسّق الأزهار خرطومها في الزهرة، فهي إمّا أن تدخل أعينها، أو أن تدخل جزءاً من جسمها في الزهره كما يحدث غالباً، وفي خروجها يتعطى جسمها بالغيبار ذي اللون الأحمر وهو غبار الورد، فنقله مباشرة إلى زهرة أخرى - وكما نعلم - أن غبار الأزهار عامل مؤثّر فلا تتبدل البذور إلى حبوب، ولا انمبص إلى ثمار بدونه.

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام من الناحية الفلسفية إذ إنّ الحشرات التي تمسّق الأزهار تميل إليها منذ بدء التكوين... كلّ منها بموزة الأخرى، ينمو ويتكامل، وقد وصل الحال بها اليوم إلى عدم قدرتها على الحياة منعصة عن بعضها... ومن أهم الحشرات التي تمسّق الأزهار - ولا بدّ أنكم تعرفونها - هي: الفراشة، والمحل، والزهور الذهبي و... لكن النحل أكثر استعداداً وتجهيزاً من بين هذه الحشرات لإخراج الغبار والرحيق من الأزهار»^١

ومن الضروري الانتباه إلى أنَّ الأشجار التي تحتوي على الأزهار الذكورية والانثوية صنفان: الأشجار العقيمة غير المثمرة، والأشجار المثمرة التي لها القدرة على ذلك.

ومن أجل تكون الثمار في الصنف الأول لابد من وجود واسطة للتلقيح، وهذه الوسطة عبارة عن النحل، وقد ثبت أنَّ ٨٠٪ من عملية تلقيح الأزهار يحري عن طريق النحل، ومن أجل المزيد من الاطلاع على دور النحل بحسب الانتباه إلى أنَّ جميع أسواع التفاح، والاجاص، والكرز، واللوز وأمثالها تعتبر من لأشجار العقيمة!

وقد واجهت المساعي التي بُذلت بصدد إجراء التلقيح بالطرق الكيميائية والميكانيكية والاصطناعية فشلاً ذريعاً، ومن هنا يتضح دور نحل

ويضيف العلماء: «إنَّ النحل يساعدنا بكثرة لا تقف عن مائتي ألف درهم في الزراعة مقابل كل ألف درهم من العسل والشع الذي يصنعه لنا»^١.

ويحتم هذا الحديث بجملة عجيبة عن «متر كمنع» استاذ علم الهيئة، بقوله: «لو هلك النحل (سواء الوحشي منه أو الأليف)، فسيفنى مائة ألف نوع من النباتات والأزهار والثمار وما يدريك بأن لا تزول حصارتنا أصلاً»^٢.



٥ - البناء الجسمي للنحل عجيب أيضاً!

إنَّ تركيب النحل ذاته ذو قصة طويلة ومدهشة وعيونها بالذات أكثرُ عجباً إذ يقول العلماء: تتألف عيون النحل من الفين وحسماتة طبقة صغيرة تُشكّل مع بعضها زاوية من ٢-٣ درجة، وهذه العيون قادرة على تعيين موقع شمس فيما إذا حجبتها الغيوم، عن طريق الأشعة فوق البنفسجية التي تؤثر فيها

١ تربية النحل، ص ٢٢٣ و ٢٢٤ «مع الاختصار»

٢ اقتباس عن عالم الحشرات.

٣ الجامعة الأولى، ج ٥، ص ٥٥

لغة النحل وتشاورها مع بعضها تعد من لحقائق العلمية التي تم اكتشافها في السنوات الأخيرة أيضاً^١.

إنَّ النحل لا يرى الأزهار الملونة بشكها ولونها الذي تراه، بل إنه يرى بواسطة الأشعة فوق البنفسجية، وهذا النور يصاعف في جمال الأبرار فيجذبها نحوها^٢.

وللأسف فإنَّ طبيعة البحث لا تسمح لك بمريد من الكلام في هذا المضمار، ولكن يجب القول بأنَّه كلما سمعنا عن هذه الحشرة ونشاطاتها التي أشار إليها القرآن الكريم تتكشف لنا أسرار جديدة عن قدرة الإله العظيم خالق كل هذه المعاني.

و«مسك الختام» نُبمُّ باسماعنا وقلوب صوب كلام الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول في توحيد «المفضل».

«انظر إلى النحل واحتشاده في صنعة العسل، وتهبته البيوت المسددة وما ترى في ذلك اجتماعه من دقائق الفطنة فانك إذا تأملت العمل رأيت عجباً لطيفاً وإذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الباس، وإذا رجعت إلى الفاعل القيت غيباً جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك، ففي هذا أروع الدلائل على أنَّ الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها وتخرجه فيها لمصلحة الناس...»^٣.

❦❦❦

١. العولس الفامسة للحيوانات، ص ١٣٧ و ١٤٠ و ١٤٣.

٢. سر خلق الإنسان، ص ٩٣.

٣. بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٨.

١٩ - آياته في خلق الحيوانات

تمهيد:

إنَّ الحيوانات تُمثل جانباً عظيماً من الموجودات الحيّة في العالم ، وهي تجلب اهتمام كل باظر إليها لتراكيبها المختلفة وأشكالها المتنوعة وتباينها الكثير ، وعجائبها العظيمة ، ودراسة كل منها ، تُعرّف الإنسان على اعظم والقُدرة اللامتناهية لخالقها .
وتتجلى أهمية هذه المسألة عندما نرى هذه الحيوانات في مكان واحد ، فمثلاً لو ذهبنا إلى حديقة الحيوانات ، وزرنا غرق الأسماك وأنواع الطيور ، والقرود ، والأسد والفهد والسرور والرافة والفيل ، وننظر عادات وعجائب خلق كل منها ، فلا يمكن لمن يمتلك قليلاً من العقل والفضيلة ، أن لا يفرق بتفكيره بها ، ولا يدع أمام خالق هذه الموجودات المتنوعة والعجيبة .

ومن بين هذه الحيوانات ، هنالك حيوانات أليفة تخدم الإنسان وذات مبالغ وبركات مختلفة للبشر ، جديرة بالاهتمام أكثر من غيرها ، لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية إلى جميع الدواب بشكل عام وإلى الأنعام والبهائم بشكل خاص ، وذكر جوانب من عجائبها في آيات عديدة .

بهذا التمهيد نمنع خاشعين في الآيات الآتية :

١ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَائِرَةٍ وَهُوَ عَلَى جَنبِهِمْ إِذَا

(الشورى / ٢٩)

يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ .

٢ - ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَائِرَةٍ

آيَاتِ لَكُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ (الجاثية / ٣-٤)

٣- ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٣﴾﴾ (الفاشية / ١٧)

٤- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لُنُسْقِيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٤﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٥﴾﴾ (المؤمنون / ٢١-٢٢)

٥- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لُنُسْقِيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا مِنْ يَتَذُقُ مِنْ دَمٍ لَهَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٥﴾﴾ (النحل / ٦٦)

٦- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاءًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٦﴾﴾ (النحل / ٨٠)

٧- ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَعْنِي اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٧﴾﴾ (فاطر / ٢٨)

٨- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صَبَإً مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٨﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٩﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ (يس / ٧١-٧٣)

٩- ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٩﴾ لِئَسْتَفْهَمُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ (الزخرف / ١٢-١٣)

١٠- ﴿وَاللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٠﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَيُؤْتِيكُمْ آيَاتِهِ فَآيٍ آيَاتِ اللَّهِ تُكْرَوْنَ ﴿١٢﴾﴾ (غافر / ٧٩-٨١)



١ ههناك آيات أخرى في هذا المجال أيضاً مثل: الشعراء، ٢٣ والأنعام، ١٤٢ والزمر، ٦ والزخرف، ١١.

شرح المفردات:

«دابة»: كما قلنا سابقاً من مادة «دبب» أي لسير ببطء وهدوء، إلا أنها تُطلق عادةً على جميع الحيوانات، وعلى المذكر والمؤنث والموجودات التي تذبُّ على الأرض وحتى طيور السماء، وجمعها «دواب» وتعني البهائم.

وقد تستعمل أحياناً بصدد نفوذ وحلول شيء في موجودٍ آخر، فيقال مثلاً: دبَّ الشرابُ في الجسم ودبَّ الشَّغْمُ في البدن.

وهذا المفهوم يشمل حتى الإنسان، وموارد استعماله في القرآن الكريم تشهدُ على ذلك.^١

«انعام»: جمع «نعم» (على وزن قَلَم) وهي مأخوذة من الأصل من مادة «نعمه» ثم أُطلقت على «الجمال»، لأنَّ الجمَلَ كان من أفضل النعم لدى العرب، ويُطلق هذا اللفظ على الدواب الأخرى كالبعر والماشية بشرط أن يكون الجمَلَ جزءاً منها.^٢

وصرَّح رهبط من أرباب اللغة أنَّ «النعم» ذات معنى جمعي ولا مفرد لها. و«انعام» جمع الجمع.^٣

يقول «ابن منظور» في «لسان العرب»: «النعم» تعني الحيوان المجتر، ثم ينتقل عن آخرين أنَّ «النعم» تُقال بخصوص الجمَلَ، وعن بعضهم الآخر أنها تُطلق على الجمال والماشية.

وسُميت «الانعام» بهذا الاسم لأنها تشبه «البحير» كثيراً لصخامة جسمها، ولذلك أُطلقت على طلال الجبال وغيرها، أو لعلام التي تُثبت في الصحارى لتحديد الطريق.

على أية حال.. مهما كان المعنى لأول لفظ «انعام» فهو يطلق في الاستعمالات العادية على الحيوانات المجترّة (البقر والأغنام والجمال)

١. لسان العرب، مفردات الراغب، وجمع البحرين مادة (دب) (دب)

٢. مفردات الراغب.

٣. مجمع البحرين، وأقرب الموارد

جمع الآيات وتفسيرها

ماذا يجري في عالم الحيوانات؟

بعد الإشارة في الآية الأولى والثانية إلى آيات الله في خلق السماوات والأرض، وكذلك خلق الإنسان أشار إلى خلق كافة لحيوانات الموجودة في السماوات والأرض، قائلاً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَائِبَةٍ﴾.

«دَائِبَةٍ»: تعني في الأصل تعريق لشيء كما يُعَرِّقُ الهواء التربة، وهذا التعبير في الآية يعني تكوين وخلق وإبراز الموجودات المحتتمة، ونشرها في مختلف المناطق

على أمة حال.. فإن هذا التعبير يشمل جميع الهائم والحيوانات والإنسان، ابتداءً من الموجودات المجهرية التي تتحرك حركة دقيقة وخفية وحتى الحيوانات العملاقة التي يبلغ طولها عشرات الامتار وقد تزن أكثر من مائة طن^١ ويصم كل أنواع الطيور ومئات الآلاف من أنواع الحشرات المختلفة. والآلاف والآلاف من أنواع الحيوانات الوحشية والأليفة والحيوانات المفترسة والرواحف والأسماك الصغيرة والكبيرة والموجودات الحية في البحار

ولو تأملنا قليلاً في سعة مفهوم «دائبة» وشموله بالنسبة لجميع أنواع البهائم لتجسد أمامنا عالم من العجائب والغرائب ومناظر من القدرة، حيث يكفي كل منها أن يُعرفنا على علم وقدرة الخالق العظيم لهذا الخلق

لقد دُوِّست الملايين من الكتب وبمختلف اللغات حول خصائص بناء وحياة أنواع الاحياء، واعدوا الكثير من الاشرطة المصورة في هذا المجال، واصدروا مجلات مختلفة وبلغات متباينة بخصوص هذا الموضوع، حيث تجعل مطالعتها الإنسان يعرق في بحر من

١ يصل وزن بعض السمك إلى مائة وعشرين طناً، وكما يقول صاحب كتاب «ظرة على الطبيعة وأسرارها» (البروفسور ليون برتي) فإن هذا الوزن يعادل وزن قلب وحشيتة رجل ضخم العثة أو أربعة وحشرين هبلاً ضخماً! وقد أجريت حسابات على وزن أعضاء جسمها فقلبه يزن ستمائة كيلو غرام، والدم يزن ثمانية آلاف كيلو غرام، والريتان طناً واحداً، والمصليات خمسين طناً، والجلد والعظام والاسماء والاحشاء تزن سعين طناً،

العجائب والغرائب، وقد أرادت الصاعى لتي بُدست من قبل العلماء على مدى آلاف السنين لمعرفة، الحجاب عن جانب واحد فقط من حياتها، ومن المسلم به أن المستقبل سيشهد في كل يوم انكشاف أسرار جديدة من حياتها.

فبعض العلماء قصي عشرين عاماً من عمره بدراسة حياة الممل فقط، وإذا أرادوا دراسة حياة كافة أنواع الحيوانات بهذا الأسلوب فس غير المعلوم أن يكفي عمر البشرية لمعرفة أسرارها.

والجدير بالذكر أن ما نتحدث عنه هو الكائنات الحية الموحودة في الأرض، بينما يستفاد من تعبير «فيهما» (في السماء والأرض) أن هنالك أحياء كثيرة في السماوات أيضاً ليست في متناول دراسات علمائنا، وربما يعثر لإنسان على موجودات حية عجيبة وغريبة أخرى في باقي الكواكب من خلال ارحلات انفضائية حيث يصحب عليها الآن تصور شكلها ومواصفاتها.

وقال بعض المفسرين إن المقصود من حيوانات السماوات هي الملائكة، بينما لا تطلق كلمة «ذات» على الملائكة ويعتقد بعضهم خطأ بعدم وجود أي كائن حي في السماوات غير الملائكة، وقد ذكروا تبريرات وتفسير أخرى للآية، بينما يتضح هذا المعنى لدينا اليوم إذ إن الكائنات لا تقتصر على الكرة الأرضية فقط، وكما يقول العلماء هنالك ملايين الملايين من الكواكب في هذا الفضاء الفسيح يمكن السكن فيها من قبل الدواب والاحياء.

والجدير بالذكر أيضاً أن الحيوانات لا تعتبر آية من آيات الله في خلقها وطراز حياتها وجوانبها المختلفة فحسب، بل لقوائدها العديدة وخيراتها الكثيرة التي تفيض بها على الإنسان.

وإذا قال: «آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» فهو إشارة إلى الدين لديهم الاستعداد لقبول الحق والإيمان ولم يقصد المعاندين والمتكبرين والأنايين

ويقول في الآية الثالثة من البحث بصيغة استفهام توبيخي: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

واللطيف أنه تمت الإشارة بعد ذلك إلى عظمة خلق السماء، ثم الجبال ومن بعدها الأرض، فوصح الإبل إلى جانب هذه الأشياء، يُعتبر دليلاً على أهمية خلق هذا الحيوان. إن التأمل في أوضاع هذا الحيوان، يدل على أنه ذو مواصفات متباينة تجعله يختلف عن باقي الحيوانات الأخرى، ويتصح جيداً من خلال الانسواء إلى هذه المواصفات لماذا استند القرآن الكريم إلى هذا الموضوع بشكل خاص ومن حملتها:

١ - إن مقاومة الجمل لا تطير لها، لا سيم راء الجوع والعطش، وشدة التحمل، وقد يقاوم العطش وهو أصعب من الجوع لعشرة أيام وأكثر ولهذا يعتبر أفضل وسيلة لقطع الصحراء القاحلة، لذلك فقد اطلقوا عليه «سفينة الصحراء» لأنه يتمكن من تخزين الغذاء والماء لمدة طويلة في بطنه ويقتصد في استهلاكها أيضاً.

٢ - لا يتقيد بنوع خاص من العناء في طعامه، وغالباً ما يتعدى على كل ما ينمو في الصحراء.

٣ - والأعجب من ذلك أنه يواصل طريقه شامخاً، المواصلات الترابية المليئة برمال تعمي العيون وتضم الآذان، وهو يستطيع سد مسخريه مؤقتاً، ويحافظ على أذنيه من الغبار، ولعيبه هدهان يطبق أحدهما على الآخر في هذه الظروف، وينظر من خلفهما، وما قاله بعضهم بأن الجمل يسير معص العينين فإن هذا هو المقصود.

حتى ذكر بعض المفسرين أنه يحسن تشخيص الطريق في الليالي المظلمة أيضاً.

٤ - إن الحيوانات تتباين فيما بينها، فبعضها يستفاد من لحمه ومنها ما يفيد في الركوب، وبعض يستفاد من لبنه فقط، وبعضها الآخر للحمل، إلا أن الجمل يجمع بين هذه الجوانب الأربعة جميعها، فيستفاد منه للركوب ولحمل الأمتعة ومن لبنه وجلده ووبره.

٥ - ومن العجائب المتميزة لهذا الحيوان هي أن الحمل يوضع على ظهره أو يركب أنشاء يروكه، وينهض ويحركه واحدة من مكانه ليقف على أرجله، بينما تعتمد هذه القدرة لدى باقي الحيوانات.

وقد ذكر بعضهم أنَّ هذا يعود إلى القدرة السحبية الكامنة في رقبته الطويلة التي تعمل طبقاً لقانون «الرافعة» الذي اكتشفه «ارخميدس» لأول مرة، (فهو يقول: لو وجدت نقطة للاتكاء خارج الكرة الأرضية لتمكنت براعة صخرة من تحريك هذه الكرة عن مكانها) وهذا هو الواقع، فطبقاً لقانون الرافعة أنَّ لصفط يوارد على أحد طرفي الرافعة الذي يضرب في المسافة بينه وبين نقطة الاتكاء يوجد في الطرف الآخر للرافعة الأقرب إلى نقطة الاتكاء ضغطاً عظيماً).

وانطلاقاً من هذا فإنَّ ربة البعير نكتسب صفة الرافعة استناداً إلى نقطة ارتكازها المتمثلة في الأرجل الإمامية ومن خلال حركة سريعة وقوية تعمل على تخفيف الاحمال الموجودة على ظهر البعير وتسمح له بالطلاق رحليه الحلفتين ويهض من مكانه^١ كلُّ هذا وعجائب ومواصفات أخرى أدَّت إلى أن يُسند إليه بوصفه آية من آيات الله العظيمة، وليس فقط لأنَّ البَهِيمَ كان من الأركان المهمة في حياة العرب الذين كانوا أول من خوطب بهذه الآيات.

فمن يستطيع أن يخلق كلَّ هذه العجائب والبركات هي مخلوقي واحد؟ ومن ثمَّ يجعله مطيماً للإنسان بحيث لو أخذ طفل صغير يمانٍ قذبة من لابل لكان بمقدوره أن يأخذه إلى المكان الذي يصبوا إليه، والعجيب أنَّ لأعنام نموروتة (كالهدي) تترك أثرأ في نفسه أيضاً وتدفعه إلى الحركة بحيوية ونشاط وشوق.

أوليست هذه آيات عن عظمة وقدرة الحاقق؟ أجل! فأولئك الذين لا يمرُّون على هذه الآيات مرور الكرام باستطاعتهم أن يدركوا أسرارها (لا تنسوا أنَّ جملة: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ» من مادة «نَظَرَ» إلَّا أنَّها ليست النظر العادي، بل سطر المترامن مع التفكير والتأمل).

❦❦❦

١. تشير إشارة قصيرة في كتاب الجامعة الأولى، ج ٦، ص ٣٢ إلى هذه المسافة، وكما أشير في كتب أخرى بإشارات مفصلة.

ويقول في الآية الرابعة والخامسة ضمن إشارته إلى المسافع المختلفة للحيوانات بالنسبة للإنسان: «وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً».

وذكرت «عبرة» هنا بصيغة «نكرة» حيث تعتبر دليلاً على أهميته الفائقة، وكما يقول الراحب في كتاب المفردات «عِبْرَةٌ» من مادة (عبر) وتعني العبور والانتقال من حالة إلى أخرى، وهنا حيث يرى المعتبر حالة يدلُّه من خلالها على حقيقة لا يمكن ملاحظتها فاطلقوا على ذلك «عبرة».

وعليه فإن مفهوم الآية يشير إلى أنه بمقدوركم أن تصلوا إلى معرفة الله وعظمة وعلم وقدرة مبدئ الحلق العظيم من خلال ملاحظة أسرار وعجائب الحيوانات.

ثم أشار القرآن في شرحه لهذا المعنى إلى أربعة جوانب من الفوائد المهمة للحيوانات فيقول ابتداءً: «تُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا» نعم، اللب هذه المادة السائلة الطعم التي تخرج من الحيوانات ومن بين دمها ولحمها شرباً مغذياً كاملاً. وورد هذا المعنى مع تأكيد أكثر في الآية الخامسة إذ يقول: «تُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ»^١.

فأي قدرة تلك التي تُخرج مثل هذا الغذاء الطاهر الصافي اللذيذ من بين تلك الأشياء الملوثة؟ لونه أبيض، طعمه حلو، رائحته عطرة، ومقبول من جميع الجهات

والعجيب ما يذكره العلماء.. فمن أجل إنتاج لتر واحد من الحليب في ثدي الحيوان يجب أن يمر ما يقارب خمسمائة لتر من الدم خلال هذا العضو كي يتم امتصاص المواد اللازمة من الدم لتكوين ذلك اللتر من اللبن أو من أجل إنتاج لتر واحد من الدم في الشرايين

١ «فرث» بمعنى الغذاء المهضوم، والجدير بالذكر أن «بطونها» ذكرت في سورة المؤمنون مع ضمير مؤنث حيث لها معنى يقيد الجمع في مثل هذه الموارد، وفي سورة التبل «بطونه» بصير المذكور إذ لها معنى مردى، وقال بعض المفسرين أن «لأنعام» اسم جمع ولو لوحظ ظاهر اللفظ «صير المفرد يعود إليها، ولو لوحظ معناه فأنه ضمير جمع ولو لوحظ ظاهر اللفظ فإن «صير المفرد يعود إليها، ولو لوحظ معناه فأنه ضمير جمع وقال بعضهم أن ضمير المفرد لمفهوم الجمع وضمير المؤنث لمفهوم الجماعة، (يراجع تعابير الكشاف والكبير وروح المعاني وأبو الصنوح الرازي).

لابد أن نثر الكثير من المواد الغذائية خلال الامعاء هنا حيث يتحلّى مفهوم. «مِنْ بَيْنِ قُرْبٍ وَدَمٍ».

وقد قيل الكثير حول تركيب اللبى وكيفية تكوينه في الأنداء، وأنواع المواد الأولية والفيتامينات الموجودة فيه، ومزاياه التي تمنح لطاقة، والمستحرجات المتعددة التي تُنتج منه، وفائدته لكل الأعمار، بحيث لو حُمقت لأُغت كتاباً مُعتبراً، يُخرجنا التطرق إليه من إطار البحث التفسيري.

ومكتفي هنا بذكر رواية مليئة بالمعاني عن سبي ﷺ حيث يقول «إِذَا أَكَلْتُ أَحَدَكُمْ طَعَاماً فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْراً مِنْهُ، وَإِذَا شَرِبْتُ كَيْساً فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنِّي لَا أَغْلَمُ شَيْئاً أَتَقَعُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مِنْهُ»^١

ثم يتطرق إلى الفائدة الثانية للحيوانات ذوات الأربع، فيقول في جملة قصيرة وشامضة: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ».

وهذا التعبير يُمكن أن يكون إشارة إلى الصوف والوبر والشعر في الحيوانات والتي يُصنع منها أنواع الملابس والعرش باستمرار، وكذلك إشارة إلى العُلود والامعاء والعظام والقرون التي تُصنع منها وسائل الحياة المختلفة، وحتى فصلاتها يمكن استخدامها كأسمدة في تسمية الأشجار وتنشيط الزراعة والنباتات.

وفي المرحلة الثالثة أشار إلى فائدة أخرى قد نلّا «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

مع ما ذكره خبراء الغذاء من كل أضرار اللحم، وبالرغم من المؤاخذات الواردة على آكلي اللحوم في العالم من الناحية الطبية والاخلاقية وغيرها، فإن الكثير يعتقدون أن استهلاك اللحم بكمية قليلة ليس غير مصر فحسب بل وأنه ضروري بالنسبة لجسم الإنسان، وتبرهن تجارب الدين يعيشون على نباتات بأنهم مصابون بالاضطرابات والنواقص وتزيد وجوههم الصفراء ذلك، وهذا يعود إلى أن البروتين وبعض العناصر الأساسية الموجودة في اللحم لا يمكن الحصول عليها في أي نبات أبداً، والأهمية التي

يعطيها القرآن لهذه المسألة تحكي عن هد لمن

ولكن مقالاً شك فيه أن الأفرط في أكل اللحوم شيء مذموم في نظر الإسلام ومن وجهة النظر الطبية أيضاً.

وأشار في الجزء الرابع والأخير من هذه الآية إلى الاستفادة من الحيوانات للركوب، فيقول: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

فقد كانت هذه الحيوانات على الدوام حبر وسيلة للحمل والركوب، واليوم في عصر السيارات والشاحنات لم يستعمل البشر أيضاً عن وجود هذه الحيوانات للركوب وحمل الأمتعة، لا سيما في بعض المناطق الجبلية والطرق التي لا يمكن استغلال وسائل النقل الحديثة فيها، فيستعد من الحيوانات في حمل والبمل فهالك حيوانات كالبغال تعتبر أفضل وسيلة لإرسال العتاد إلى جبهات الحرب على أعالي الجبال الوعرة، ولولاها لاصبح من الصعوبة السيطرة على الجبال. ^١ الشاهقة أواسع
وبهذا بعد أودع الباري تعالى فوائد حقة في هذه الحيوانات، وبين آثار عظمتها وفصله على الإنسان من خلالها.

واللطيف أن الحيوانات جاءت في هذه عبارة من الآية في مقابل السمع وهذا دليل على أنها بمثابة سمع في اليابسة ^١.

وهي الآية السادسة وكثير من باندات لإهية، أو ذكر النعم التي تجر الإنسان إلى معرفته. أشار إلى ما يستفده الإنسان من حدود واصواف الحيوانات، فيقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾

ثم يضيف: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾.

أجل، فالبيوت الثابتة لا تلبى حاجة لإنسان باستمرار، ففي الكثير من الحالات يحتاج الإنسان إلى بيوت متنقلة كي يستطيع حملها ونقلها بسهولة ويقاوم في نفس الوقت

١ وورد ما يشابه هذا المصنوع في الآيات ٥ إلى ٨ من سورة النحل حيث يشير إلى المساح المتعددة للحيوانات.

البرد والحر والرياح والمواصف وأمثال ذلك، ومن افضل البيوت المتنقلة هي الحيام التي تصنع من الجلود التي تمت الإشارة إليها في هذه الآية، وهي اقوى من الحيام المصنوعة من الصوف أو القطن وأكثر مقاومة وراحة.

ويتطرق في ختام الآية إلى جانب آخر من مافعها السهلة، إذ يضيف: «وَمِنْ أَصْنَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ»^١

ونحن نعلم طبعاً أن الصوف من الأغنام، ونوبر من الابل، والشعر من الماعز، وسلم أيضاً أن أنواع الملابس، والفرش، والاعطية، ولستائر، والحيام، والسفر، والحيال، وأمثالها متا يلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان، تُصنع جميعها من هذه المواد الثلاث.

وبالرغم من أنهم قاموا في هذا العصر بصناعة أنواع لملايس والمراش من المواد الصناعية والقطعة، إلا أن دراسات العلماء أثبتت أنها لا تُعتبر صالحة لحياة الإنسان، وغالباً ما تؤدي إلى مصاعبات غير ملائمة له، يسمي كُتبت الملبس الصوفية والوبرية والشعرية من أصلح الملابس

وقد اعبر بعضهم التمييز بـ «إلى حين» إشارة إلى دوام الآلات التي تُصنع من هذه المواد الثلاث، ويعتبرها بعضهم إشارة إلى أن جميع ذلك الأثاث معرض للزوال ولا يجب التعلق به، ويبدو أن هذا المعنى أكثر تناسباً.

﴿١٩﴾

وفي الآية السابعة التي وردت ضمن الآيات الموحدية في سورة طه، حيث أشارت انشاء النبي ﷺ إلى خلق الإنسان ولدواب ولأعنام، قائلاً: «وَمِنْ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ

١ «بيوت» جمع «بيت» وهي حجرة أو بيت الإنسان الذي يأوي إليه ليلاً، ولفظة «بيتوته» التي تعني «المبيت» ليلاً» مأخوذة من ذلك أيضاً، «طنس» تعني الرحيب، والتفر من مكان إلى آخر وهي تقابل «الاقامة»... «أثاث» مأخوذة من مادة «أث» وتعني الكثرة والاضطراب وتطلق على لوازم البيت طراً لكثرتها واعتبرها بعضهم بمعنى العطاء واللباس وبعضهم بمعنى البساط في حين اعتبرها بعضهم الآخر رجعة إلى «المتاع» الذي يعد وسيلة للتمتع والاستغاة وأنها بمعنى واحد.

وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ١

أي كما خلق الله تعالى أنواع اشجار وألوان متباينة ، وتباين ألوان الجبال فيما بينها ، فقد خلق ألواناً مختلفة من الأحياء سواء الإنسان أم الدواب أم الأنعام ، بالرغم من أن أغلب المفسرين اتحدوا الألوان هنا بمعنى الألوان الظاهرية المختلفة ^٢ ، ولكن يبدو أن التعبير المذكور ذو معنى واسع ، ويُعتبر إشارة إلى تفاوت أنواع واصناف الناس والدواب والأنعام ، الذي يعتبر من أهم عجائب وغرائب الخلق .

لا شك أننا نعلم أن هنالك اليوم مئات لاآلاف من أنواع الدواب والحيوانات في العالم ، بل يذكر بعض العلماء أن أنواعها يبلغ مليونا وخمسمائة ألف نوع ^٣ ، وهذا التباين العجيب وبهذه المواصفات التي تتصف بها كل منها يعتبر آية عظيمة من آيات الله ، وبراهين على علمه وقدرته .

نعم . فقد أبدع هذا الرسام الماهر بقلم واحد ولون واحد في رسم أنواع لا تُحصى من الرسوم وتمادح ملونة من الألوان كل منها آية في كسب الخلق غير أن المفكرين والعلماء هم الذين صنعوا بصائرهم ليروا روح العالم في هذه الميادين البديعة ، و« يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى » ، لذلك يقول في دبل الآية : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » .

إن ألوانها الظاهرية المختلفة تشغل أهر الظاهر ، وألوانها الباطنية وخلقها المتباين تشغل أهل الباطن والمعنى .

فالألوان الظاهرية للأرهار تجذب نحوها السحل ، كي يساعدها في التلقيح ، كما تتجاذب الإناث والذكور من الحيوانات فيما بينها « لا سيما في الطيور » ، إلا أن ألوانها الباطنية وباءها المتفاوت يدعو العلماء وأصحاب الفكر نحوها ، كي يُلْقَحَ فكره من بدر التوحيد .

١ « من الناس » خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هو « هو مختلف ألوانه » ، و« كذلك » أشار إلى الشار المختلفة وألوان الجبال المتفاوتة التي وردت في الآية السابعة

٢ تفسير الميراث ، وتفسير روح الجبال ، وتفسير في ظلال القرآن وتفسير القرطبي وغيره

و«تَحْسِيَةً» تعني «الخوف المروع بالتعظيم الناتج عن علمٍ ووعي»، وفي الحقيقة هي مزيجٌ من الرهبة والرجاء لهذا وَصَفَ الله به بعد هذا الكلام مباشرة بصفتي «صَرِيحٍ» و«مُفْهِمٍ» حيث إنَّ الأول منشأ للرعدة والثاني مصدر للرجاء، وعليه فإنَّ ذيل الآية مركبٌ في الحقيقة من العلة والمعلول.

علماً أنَّ ذكر «الانعام» بعد الذَّواب، جاء من باب ذكر الحاص بعد العام، لأهمية الانعام في حياة الناس.



وفي الآية الثامنة وجَّه اللوم من حلال استعظام توبيخى للمشركين والكافرين الذين ضلُّوا وتركوا خالق الكون وتوجهوا نحو الأصنام، فقال «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ». إنَّ التعبير بـ«لَهُمْ» ذو مفهوم واسع للغاية حيث يشمل المصانع المختلفة لجميع أجسام هذه الانعام. أجل.. فقد اقتضى لطيف الله أن يكون هو «الخالق» والآخرون هم «المالكون»!

ثم أشار إلى مكتبة أخرى فيما يخص الانعام، مضيهاً: «وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ» ولَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ».

ويقول في الحتام «فهل يشكرون هذه النعم التي وهبها الله للناس؟ ولا يشعرون لمعرفة ذاته المقدسة؟ أَفَلَا يَشْكُرُونَ».

ويمكن أن يكون التعبير بـ«مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا» إشارة إلى تعقيد مسألة الحياة التي لم يكشف لغزها للبشر لحد الآن، وهذا ما يعُ من قدرته لارئية فقط.

والتعبير بـ«المشارب» بعد ذكر «المنافع» من قبيل ذكر الحاص بعد العام حيث تم الاستناد إليه بسبب أهميته.

علماً أنَّ «مَشَارِبَ» جمع «مَشْرَبٍ» (لأنها جاءت مصدراً ميميّاً بمعنى اسم المفعول،

ويمكن أن تكون إشارة إلى أنواع حليب لآعام المختلفة ، التي لكل منها آثاره ومراياه الخاصة به ، أو إشارة إلى مستخلصات الحليب التي نحصل عليها . وبما أن أصلها هو الحليب فقد أطلق عليها لفظ « مشارب » ، ومعنى بمعنى أن الحليب ومستخرجاته يُمثل جانباً مهماً من غذاء الناس ^١ .

ولنا بحث مناسب حول « ذلكها » سيأتي في قسم التوصيات إن شاء الله .



والآية التاسعة من البحث وقعت ضمن سلسلة الآيات التي تتعلق بمعرفة الله والتوحيد لأنه قال في الآيات التي سبقتها: « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » ، ثم تطرق إلى وصف الله القدير قائلاً « وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ » ، ثم يصيغ في آية البحث « وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا » .

ويبدو أن المقصود من « أزواج » هنا هو الأزواج الذكورية والذكور من الحيوانات والاحياء ، لا سيما وأنه يصيغ بعد ذلك « وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ » (أي الفلك في البحار والأنعام في اليابسة) .

وبهذا فإن ذكر « أنعام » بعد « الأزواج » جاء من باب ذكر الخاص بعد العام .
 إلا أن بعض المفسرين يعتقدون أن « الأزواج » هنا إشارة إلى « الاصناف المتفاوتة » للموجودات ، سواء كانت حيوانات أم نباتات أم جمادات ، لأن كل ما لها جسٌّ يقابله ، ففي الحيوانات الذكور والانثى ، وفي غيرها النور والظلام ، السماء والأرض ، والشمس والقمر ، الياقوت والطوب ، وحتى دحل أفكار الإنسان هائل الخير والشر ، الكفر والإيمان ، التقوى والعجور ، وامثال ذلك ، وتوجود الوحيد الذي لا اختلاف فيه هو دأته

١ يعتبر بعض المفسرين أن « مشارب » إشارة إلى الأواني التي تُصنع من جدد الحيوانات كأنواع القرب والأواني الأخرى ، إلا أن هذا التفسير يبدو بعيداً إذ ليس هذا الأمر أهمية بالغة بحيث يُستند إليه بعد ذكر السامع .

المقدسة، وهو متفرد في كافة النواحي، إلا أن تفسير الأول يبدو أكثر صواباً من خلال ما ذكرناه من قرينة.

على أية حال، فقد ذكر خلق الأرواح من جسد وخلق الانعام للركوب من جانب آخر في هذه الآية براهين عن الوجود المقدس لله تبارك وتعالى.

إن النظام الدقيق الذي يسود مآنة التكاثر في الموجودات الحية والحيوانات نظام معتد وعحيث للغاية، فما هي العوامل التي تؤدي إلى أن يكون الجنين في رحم أمه ذكراً أو أنثى؟ وما هي العوامل التي تؤدي إلى حفظ التورن بين جنس الذكر والأنثى؟ وما هي العوامل التي تؤدي إلى أن ينعذب أحدهما نحو الآخر كي تحصل مقدمات الحمل؟ وما هي العوامل التي تعمل على تكامله في مرحلة الحياة الجنسية المعقدة؟

فإذا تأملنا جيداً، بوقع بصرنا على آيات عظيمة من آيات الله في هذا الطريق الطويل، ولربما يحصى تدليل الحيوانات لركوبها.

ثم يحدث عن سخير هذه الحيوانات القوية والضخمة للإنسان، فائلاً: ﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.

صحيح أننا ننظر إلى هذه المسألة نظرة بسيطة حراً، اعتياداً عليها يومياً، حيث نرى قوافل كبيرة من الابل والحمل، وحتى حيوانات ضخمة كالقيلة مسخرة بيد طفل صغير، وأحياناً يودع عنان قافلة منها بيد طفل فيفوقدها حيث يشاء، إلا أنها في الحقيقة ليست أمراً هيباً، فلو كان لأحدها أقل حالة من لتمرد وتمواجهة فلا يستفاد منها في الركوب أبداً بل لأصبحت تربيتها من قبل الإنسان خطيرة جداً.

فنحن لا نستطيع أن نربي بازاً مشاعراً، وحتى قطرة غاضبة وهائجة، فكيف نربي هذه الحيوانات الكبيرة القوية التي يمتلك بعضها قرواً وبعضها ذات استنان قاطعة وفك قوي، وأرجل بعضها قوية وكبيرة تستخدمها للضرب والركل، فإذا لم تكن مطيعة فكيف

نستخدمها للركوب؟ ولولا التحجير الإلهي حقاً لم يستعد منها أبداً ﴿مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^١.
والنكته الجديرة بالذكر أيضاً أن ظهور الأنعام خلق بحيث يكون مناسباً ومُعَدّاً لركوب
الإنسان.

ومما يلفت النظر أنه يذكر الركوب عليها هدفاً أولاً، وذكر نعم الحاقق بعثيرة الهدف
الثاني، وتعد معرفة الذات الإلهية المقدسة وتسبيحه وتقديسه هي الهدف النهائي، فذكر
النعم يصنع الإنسان دائماً في طريق معرفتها، ومن ثم كل مواهب الخلق دافع ومقدمة لمعرفة
الله سبحانه.

وذكر هذا المعنى في الآية العاشرة والأخيرة بالإضافة إلى منافع أخرى، وقد تحت
الإشارة في هذه الآية إلى خمس فوائد أساسية للأنعام، واعتبرها من آيات الله.
فيقول في البداية - ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ - ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.
ثم أشار إلى العوائد المختلفة، كاللبن والصوف، والجلد والمواد الطبية وامثال ذلك،
فقول إجمالاً، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾^٢.

ويقول في المرحلة الأخيرة، ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾.
إن ذكر هذا المعنى على هيئة منفعة مستتقة، مع أن مسألة الركوب قد ذكرت سابقاً،
يمكن أن يكون المقصود منه حمل ونقل الامتعة وضروريات الحياة^٣، أو لاعراض التزود
والسياحة والسباقات أو كسب القوة في ساحة الجهاد، أو الصراع مع بعض الحيوانات
الوحشية، أو عبور الأنهار عن طريق سياحة الحيوانات، لأنها جميعاً تندرج في لفظ
﴿حاجة﴾ الشامل، وهذه الضروريات لا شأن لها مع مسألة الركوب في الأسفار.

١ إن الضمير المفرد في «ظهور» و«عليه» و«له» يعود إلى «الأنعام» لأن «الأنعام» -وكما قلنا سابقاً- ذات
معنى جمعي، إلا أنها تلفظ مفردة، وظن بعضهم أن هذه خصائص تعود إلى «ما» في «ما تركبون»، وفي هذه الحالة
تشمل «الأنعام» و«السنن» علماً أن «مقرين» من مادة «أقرن» وتعني الاقتران على الشيء، وفسرهما بعضهم
بمعنى القرض والحفظ.

٢ ذكرت منافع بصيغة النكرة كي يُبرهن على أهميتها.

٣ كما تحت الإشارة إلى ذلك في الآية ٦ من سورة النحل.

ويقول في الفائدة الخامسة والأخيرة: ﴿وَعَلَيْهَا وَالْفَلْكَ تُحْمَلُونَ﴾

ولتعبير «تُحْمَلُونَ» مفهوم غير «الركوب» ويبدو أن المقصود منه هو المحامل والهادج التي توضع على ظهور الأنعام ويجلس فيها النساء ولأطفال الذين لا طاقة لهم على الركوب، كما يستفاد منها للمرضى والعجزة والصعفاء.

إن ذكر «تُحْمَلُونَ» بصيغة «الفعل المجهول»، وجعلها إلى جانب الفلك حيث يوضع تشابههما مع بعضهما (الفلك في البحر والأنعام على الأرض) يعتبر من القرائن أيضاً على التفسير أعلاه، وبهذا يتصح اختلاف هذه العبارات الثلاث: ﴿لِتَرْكَبُوا - وَلِتَلْقُوا - وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلْكَ تُحْمَلُونَ﴾، وطالما وقع بعض المفسرين في معضلات تفسيرها، وقد عسروها بمعنى واحداً

ومع أن بعضهم يعتقد أن الأنعام في هذه الآية تعني الأبل فقط، ولكن نظراً لسعة مفهوم «الأنعام» وعدم وجود قيد في الآية فلا دليل لمصرهم، لا سيما أن تكرار «منها» (علماً إن «من» في مثل هذه الموارد تفيد التبعية) يبرهن على أن بعض الأنعام يفيد في الركوب، وبعضها يفيد في الأكل، سيما لو كان المقصود هو الأبل لما أتت تفيد في جميع هذه الحوائج واللطيف أنه يقول في الآية الآتية باستساح عام ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾.

إشارة إلى أن كلاً من هذه الأمور يعتبر آية من آيات الله بالنسبة للمتفكرين والعقلاء، آية بيّنة ولا يمكن إنكارها، والمكرون يستحقون كل أشكال اللوم والتوبيخ.

وهكذا نرى أننا نواجه في كل خطوة بخطوها في هذا الجانب آية من آياته في عالم الأحياء والحيوانات خصوصاً الأنعام، ونواجه برهاناً من براهين علمه وقدرته وحكمته ولطفه ورحمته، وكل يحكي بلا لسان ويُعطينا درساً في التوحيد ومعرفته الله، ويُثير فيها دافع الشكر الذي يدعونا إلى معرفته.

توضيحات

١- عجائب عالم الحيوانات

إن كتاب الحلق العظيم كتاب تكمن في كل جملة - بل في كل كلمة وكل حرف منه - نكات، بنحو لا يشعر الإنسان بالتعب من مطالعتها، ولو طالع أحد جمل هذا الكتاب العظيم مائة مرة فسيكتشف له في كل مرة مفهوم جديد واسرار جديدة. فعالم «الحيوانات والانعام» الذي يمثل جانباً من هذا الكتاب العظيم مليء بالأسرار والعجائب، يكفي بعض منها ويجب أن موكل الامعان في التفصيل إلى الكتب المدونة في هذا المجال

٢- ترويض الحيوانات

إن استعداد الحيوانات للترويض مسألة مهمة للغاية .
ومن أجل إدراك أهمية كل نعمة **﴿لَا يَذُوقُ بِصُورٍ﴾** لحالة التي تتحول فيها الحيوانات الاليفة إلى حيوانات وحشية، **﴿فَالْجَمَلُ﴾** يشر هجمات كالفهد ويسرق الإنسان بفعليته القويتين، ويستحدم **﴿البقر﴾** قرنة، وتضرب بحبل بحوافرها من يقترب منها، حينها لا يمكن اعتبار هذا القطيع من الأغنام والابل وبقر أساسي الوجود فحسب، بل وسنستعين بأية آلة قاتلة من أجل الخلاص من شرها ونقصاء عليها، وفي الوقت الحاضر أيضاً تعذب هذه الحيوانات الاليفة أحياناً فتشكل خطورة بالغة، فمثلاً تُلْقَى العيلة اليهود دروساً، وتشر الجمال الغاصبة هجمات على أصحابها، ومن الممكن أن تنتهي بالقضاء عليهم إذا ما عفلوا، وكأن الله تعالى يريد أن يبرهن على أن لو اردت سلبها أمر الطاعة والتسليم والخضوع فسترون بأي صورة تظهر!

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بتعابير مختلفة، فيقول أحياناً: **﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾**

(يس / ٧٢)

لهم .

وحيثاً يقول: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾** . (الزخرف / ١٣)

وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه المسألة في توحيد المفصل ، فيقول بعد بيان خلق الأنعام :... «**ثُمَّ مَنَعَتِ الذُّهْنَ وَالْعَقْلَ لِنَدَارِ لِلْإِنْسَانِ فَلَا تَمْتَنِعَ عَلَيْهِ إِذَا كَتَمَهَا الْكَدُّ الشَّدِيدُ وَعَمَلُهَا الْحِجْلُ الْفُضِيلُ**»^١.

وبالطبع أن عدم امتلاكها للعقل جرة من الدليل على تألفها ، علاوة على هذا أن الله تعالى خلقها بشكلٍ تألف فيه سرعة وتبقى على هذا الحال إلى الأبد ، بينما نجد أن بعض الحيوانات التي سائلها في الدكاء والعقل (كالدب والسمور) إذا ما ألفت فبمشقة تكون مؤقتة ، ومع ذلك يحب الحذر منها ، وأحياناً تفرس أصحابها إذا ما غفلوا عنها.

٣- ذكاء الحيوانات

لن اختيار هذا العنوان بعد الذي قبل في البحث السابق يبدو عجيباً ومتناقضاً ، والحال أنه ليس كذلك ، مع أن الحيوانات تبدو بلا عقل أو قليلة العقل ، ونحن شبهة البلاء بالبهائم ، إلا أنها تبدي ذكاءً ووعياً في بعض المسائل بحيث تبهر على الدهشة .

فقد شاهدنا أغلبنا قطيع الأعمام يندبوا بقوة من الصعراء ، فهناك عدد من الصم والماعز تعود إلى عائلة ما وبمجرد اقترابها من القرية يسلك كل منها فروع وأزقة القرية ويتجه نحو بيت صاحبه بدون أي اختلاف .

كما شاهدنا أن المعجزة لا تسمح أبداً لغير وليدها أن يرتضع من ثديها ، وعندما تُطلق الصغار في ظلمة الليل وتدخل في الفطيم يذهب كل منها إلى أمه ، فتعرفه وتستعمل لإرضاعه ، وهذه المعرفة تحصل عن طريق « الشم » فقط ، وهذا يعني أن عدد روائح الأعنام تصاهي عددها ، وكل نعجة تشخص رائحة صغيرها من بين هذه الروائح .

يقول « غرسي موريسن » في كتاب « سر خلق الإنسان » ، (إن أغلب الحيوانات تشخص طريقها في الليالي المظلمة ، وتسير بيسر ، وإد كاس لا تبصر في الظلمة الحالكة فهي تعرف من تفاوت الهواء المحيط بالطريق ، ويؤثر النور الضعيف جداً بالأشعة مافوق الحمراء الذي

يشع من سطح الطريق على عيونها).

إن طراز بناء البيت، ومربية الصغار، وكيفية مقاومة العدو، وحتى معالجه نفسها أثناء المرض من الأمور العجيبة في الحيوانات، وشرح كل منها يحتاج إلى بحث مفصل.
ذكر أحد علماء البيئة ويدعى «البروفيسور هانز منرو» في كتابه في خصوص استعداد بعض الحيوانات لمعالجة أمراضها قائلاً:

«أجريت بعض الكشوفات الطبية على علاجاتها، فمثلاً هناك نوع من الطيور التي تأكل الأسماك، تنصرر أرجلها أثناء الطيران الجماعي أو الهبوط على الأرض، بسبب طولها، فوجدت أنها على اطلاع تام بالسبحر وعلاج الكسور، فتذهب إلى ساحل البحر والمناطق الموحلة التي يعترج طينها مع التورة الخاصة بالتحجير، وتعمش أرجلها بالتورة الرطبة، ثم تجلس تحت أشعة الشمس كي تجف التورة، وتبقى تراقب أرجلها بهذا الحال حتى يلتحم مكان الكسر تماماً...»

ومن الصدفة أن التورة التي يستخدمها الأطباء في المستشفيات من نفس هذا النوع الذي يستخدمه هذا الطائر الذي يأكل السمك لعلاج حسه، لأنه لزج ومتماسك جداً^١
يعتقد العلماء أن معظم الحيوانات لديها لغة خاصة بها، وتتفاهم فيما بينها عن طريقها، فالنمل يتحدث فيما بينه من خلال اللمس، ومن خلال اصطدام لوامسها، وتتبادل الرسائل، وبعضها تغاير أثناء حلول الخطر من خلال ضرب أرجلها على باب الخلية وترسل برقيات بهذه الطريقة إلى بعضها الآخر

إن أغلب الأحياء علاوة على امتلاكها لغة خاصة فهي تملك لغة عامة تستطيع من خلالها فهم لغة بعضها البعض الآخر، فهذه لغة التي يصدرها الغراب أثناء حصول الخطر حيث يحذر بقية الحيوانات بصوت خاص كي يتعد سرياً عن منطقة الخطر، ويعتبر الغراب في الواقع بمنزلة جاسوس من جواسيس الغابة

لقد توصل علماء البيئة في دراساتهم إلى هذه النتيجة وهي أن الحشرات تلي الإنسان

في امتلاك جهاز اتصالات متكامل، لا سيما لتكمم وجهاز اتصالات النحل، فهو أكثرها عجباً وندرة^١.

القي عالم أحياء سويدي محاضرة تشير الاهتمام في جامعة «لاند» حول لغة النحل وكانت نتيجة هذا التحقيق والتجربة التي أجراها عالم الأحياء هذا بمساعدة الأجهزة وعن طريق المقايسة، أنها لغة يمكن فهم معناها^٢.

إن عجائب عالم الحيوانات أكثر من أن يؤدي حقها في كتاب واحد أو عشر كتب والأفضل أن نكتفي بهذا المقدار ونغلق الملف ونقول بكل حصوع وخشوع أمام الحضرة الإلهية المقدسة: «سبحانك اللهم وبحمدك لا تحصى عجائب خلقيك وإِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

❦❦❦

()

١. مجلة الصيد والطبيعة، العدد ٧٢.

٢. تربية النحل، ص ٦٠



تجربہ سہ ماہی

٢٠ - آياته في خلق اعضاء جسم الإنسان

تمهيد:

من أجل أن يمكن الإنسان من إقامة الأوامر مع العالم الخارجي فهو يحتاج إلى ادواب مختلفة، حيث جهّزه الله بها، فقد جهّزه بحاسة بصر لرؤية هيئة ولون وكمية ونوعية الموجودات، وبحاسة السمع من أجل معرفة أنواع الأصوات كما جهّزه بحواس أخرى من أجل الاحساس بالروائح، البرد والحر، الخشونة والنعومة و ..

إن بناء هذه الآلات معقد ودقيق بالتقدير الذي يمكن أن يكون شرح كل منها موضوعاً لعلم مستقل، وقد دوّست كتب كثيرة بهذا الخصوص حيث تعتبر في الحقيقة مجموعة من أسرار التوحيد، ودروس، وبلاغات وبعثات لمعرفة الله تُردّها هذه الأعضاء في مسامع روح الإنسان، فمن غير الممكن أن يتأمل المرء في بناء هذه الأعضاء ولا يحضّر اجلاً أمام قدرة وعظمة خالقها، سواء اعترف بلسانه أم لا

بهذا التمهيد تُبسم وجوها صوب القرآن الكريم وتتأمل خاشعين في الآيات التالية
١ - ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
(النحل / ٧٨)

٢ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.
(المؤمنون / ٧٨)

٣ - ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَتُنِيبُونَ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾
(يونس / ٣١)

- ٤ - «أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ» (البقرة ٨ و ٩)
 ٥ - «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ تُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ» (الأنعام ٤٦)
 ٦ - «سَرَّيْنَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَقْدَامِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَسِيئَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (فصلت ٥٣)

﴿٥٣﴾

شرح المفردات:

«السَّمْع»: تعني في الأصل قوة السمع، وقد تطلق على الأذن أيضاً، وقد وردَ هذا اللفظ بمعنى الاسماع، واستجابة الدعوة والقبول والنجس أيضاً، وإذا ما استخدمت في ما يخص الباري تعالى فهي تعني علمه وإطلاعه على السموعات، و«السماع» جمع «سمع» إلا أن هذا اللفظ لم يُستخدم في القرآن الكريم إطلاقاً، ولعلّه يسبب أن «السمع» تستعمل في معنى الجمع أيضاً^١.

«بَصَرٌ»: وتعني (العين) وتستخدم أيضاً بمعنى «قوة النظر»، ويُستعمل هذا اللفظ في معنى قوة العقل والمهم أيضاً، فيقال لها «بصر» و«بصيرة» (جمع بصر، «ابصار» وجمع بصيرة «بصائر»).

إلا أن لفظ بصيرة لا يُطلق على العين أهدأ، بل يقال لها «بَصَرٌ» والمجيب أن لفظ البصير يُطلق أحياناً على المكفوفين، ولكن يظهر أن هذا الاستعمال ليس بسبب علاقة التضاد، بل لأن المكفوفين غالباً ما يتميزون بقوة إدراك فائقة، ويتلافون فقدانهم لقوة البصر بقوة التفكير والبصيرة^٢.

واعتبر بعض أرباب اللغة كمؤلف «المصباح» أن المعنى الأصلي لـ «بَصَرٌ» هو النور

١. لسان العرب، المفردات، مجمع البحرين، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

٢. مفردات الراغب

الذي يتمكن من خلاله من رؤية الموجودات، وفي «المقاييس» ذكر لها معنيان: الأول الاطلاق على الشيء، والثاني صفامة وسمك شيء، ويمكن يبدو أن المعنى الأول والذي أوردته الرابع في المفردات أيضاً أكثر صواباً وسأبأ مع موارد هذا اللفظ

و«آفة»: جمع «فؤاد» من مادة «فؤاد» (عنى وزن وعد) وتعني في الأصل «الشوي»، لذا يقال «فؤاد» للأفكار والعقول الصعبة، وقد يأتي هذا اللفظ بمعنى القلب، أو علاف القلب أيضاً. وقال بعضهم أيضاً أن هذا اللفظ يطلق على القلب والعقل حينما يكون متنوراً ومشرقاً، وقال بعضهم إن «فؤاد» تعني مركز القلب يُطبق على مجموعته.

و«العين»: ذات معاني كثيرة والمعروف أن لهد اللفظ سبعين معنى في لغة العرب. إلا أن المعنى الأصلي لـ «العين» هو العضو الحاص بالنظر، وقد يأتي أيضاً بمعنى قوة البصر.

ولكن لها معاني كناية ومجارية كثيرة بررت على هيئة معاني حقيصة نتيجة لكثرة الاستعمال، فمثلاً يقال للمسبوع «عين» لأنه يشبه العين، ويقال للجاسوس والمكلف بالنجس والاستطلاع «عين» أيضاً كما يطلق هذا اللفظ على ذوي المكانة وعلى الشمس والذهب أيضاً لأن الذهب من بين الفلزات كالعين بين الأعضاء، وكذلك «الشمس» بين النجوم، وكالمراقبين من بين أبناء قومهم، كما يطلق هذا اللفظ أيضاً على الثروة والمتاع الذي يمكن الاستفادة منه، ونعم الحقة، والبصيرة والاطلاع على الشيء كل في محله، وسُميت الحور العين بهذا الاسم لأنها ذات عيون جميلة وواسعة

و«اللسان»: تعني عضو التكلم، ووردت أيضاً بمعنى قوة البيان، وتطلق أيضاً ككناية على الأشخاص المتكلمين بياقة عن جماعة ما، كما يقال لـ «السينة» (جمع لسان) أيضاً، ويُستخدم هذا اللفظ بصيغة المذكر والمؤنث، لأنه جاء في القرآن الكريم بصيغة المذكر و«شفة»: على وزن (سعة) وتستخدم بصيغة التثنية «شفتان»^١

ومفهوم «مشافهة» يعني مقابلة الشخص والاستماع إلى شيء ما من شففيه، وورد هذا اللفظ بمعنى شاطيء «النهر» وساحل «البحر» لأنه شفة له.

١. لقد ذكر بعضهم أن أصلها «شفو» (ماقتة الواو) وحضر «شعة» لأن مصغرها «شبهة» وجعلها «شفاء»

جمع الآيات وتفسيرها

الدور للحساسة لألمة المعرفة:

يقول في الآية الأولى كتعريف بالذات الإلهية المقدسة وبياني لآياته في خلق الإنسان:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

إن هذا التعبير يُبين بجلاء أن صفحة انقب تحلو من جميع المعارف عند الولادة، إلا أن بعض المفسرين قالوا إن المقصود بيس النعم الحضورى للإنسان بذاته، أو بتعبير آخر إن المقصود هو العلم بالأشياء الخارجية، وذكروا ذلك كشاهد في قوله تعالى ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ (النحل / ٧٠)

والإنسان في سن الشيوحه يعلم بوجوده، لأنه يحصل جهل الوليد بوجوده في بدايه الولادة وأول ما يدركه هو وجوده.

ثم يصيغ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

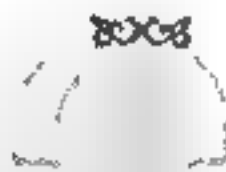
لقد جعل الله العين والاذن كى يدركا المحسوسات، والعقل لإدراك المحمولات، وتطلمعون على العالم الخارجى من خلال وسائل المعرفة الثلاث هذه، ثم تقومون بشكر هذه النعم وتتوجهون قبل كل شيء لمعرفة ذلك نحاتى الذى منحكم وسائل العلم والمعرفة.

ولإدراك أهميه العين والاذن وانقل بكفى تصور الحالة التى تتمحص عن فقدان أحدهما (فصلاً عن كليهما)، فما هو حال مكفوف البصر، أو الأخرس أو المجنون أو جميعهم؟ وكم بنأى عن مواهب هذا العالم عظيم؟ وقبل كل شيء يعقد موهبة العلم والاطلاع التى هي أفضل المواهب ومقدمه ننتعم بالمواهب الأخرى.

وقال بعضهم إن المقصود من «شيئاً» في الآية أعلاه هو حق النعم، وقال بعض آخر، إن المقصود هو مصالحه، وفشرها قسم منهم عسى أنها لسعادة والشقاء، أو الميثاق الإلهي في يوم «ألسن بر بكم»، إلا أن اطلاق الآية يعنى كل أشكال التقيد فتشمل كل شيء.

وهنا لماذا نعدم «السمع» على «الأبصار»؟ فلعن ذلك يرجع إلى استخدام الاذن قبل العين، لأن العين لم تكن لديها القابلية على رؤية في محيط رحم الأم الذى يسوده ظلام

مطبق، وتكون حساسة جداً لآراء النور إلى حين بعد الولادة، لذلك فهي غالباً ما تكون مغمضة، حتى تستعد تدريجاً لمواجهة النور، لأنّ الأذن ليست كذلك فباعتقاد بعضهم أنّها تسمع الأصوات في عالم الجنين أيضاً، وتعرف على نظام قلب الأم^١.
بالإضافة إلى أنّ الأذن تعتبر وسيلة لسماع رسالة الوحي الإلهي الذي هو أشرف المسموعات، وكذلك وسيلة عامة لنقل العلوم من جيل إلى جيل آخر، بينما ليست العين كذلك، لا شك أنّ القراءة والكتابة وسيلة لنقل علوم إلا أنّها ليست عامة وشاملة وجعل «الافتدة» وراهما واضح الدليل أيضاً، لأنّ البشر ينقلون المشاهدات والمسموعات إلى العقل، ومن ثمّ يقوم بتعليقها وتعكيكها وينتقي منها معلومات حديثة ويكتشف القوانين العامة للعالم^١.



وهي الآية الثانية يتابع الحقيقة التي وردت في الآية الابعة، وأشار إلى مسألة خلق الأذن والعين والقلب، من أجل معرفة الله، مثيراً في إنسان الشعور بالشكر الذي هو السُّلْم لمعرفة الله تعالى، مع هذا الاختلاف حيث يُعبّر عن خلق هذه الأعضاء بتعبير «إنشاء» وفي الغتام يوحى اللوم والتأنيب لأولئك الذين قليلاً ما يشكرون الله، فيقول «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ»
و«الإنشاء»: كما يقول الراغب تعني في الأصل إيجاد الشيء وإسمائه، ولهذا يقال «نشأته» للشباب.

إنّ التعبير بإنشاء غالباً ما يخص الحيوانات، بالرغم من استخدامها أحياناً في غير هذا المورد مثل: «أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ» (الواقعة / ٧٢)
ومن الممكن أن يكون هذا التعبير في الآية أعلاه إشارة إلى المسيرة التكاملية للعين

^١ إن «سمع» تطلق على المفرد والجمع، بالرغم من أنهم يسمونها بصيغة «إسماع» أيضاً.

والاذن والعقل خلال مرحلة الجنين ثم في مرحلة الطفولة ، حيث أُوْحِدَها البارئ تعالى ثم يقوم بتربيتها .



ويقول في الآية الثالثة «كاستفهام تفريري» من المشركين الذين انفصلوا عن الله وضلوا في وادي عبودية الأوثان. «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ».

من المسلم به أن الأرزاق التي يحصل عليها الإنسان إما أن تكون من السماء (كالأمطار والهواء وصوء الشمس) أو من الأرض (كسبغات والأشجار والمعادن المختلفة) وكذلك العلوم والمعارف فعلاً ما يحصل عليها الإنسان عن طريق العين والاذن. لأن هاتين الحاستين المهمتين تعتبران وسيلة اتصال الإنسان بالعالم الخارجي، وكل هذه الأرزاق المادية والمعنوية من الله تبارك وتعالى.

واللطيف أنه عبّر بها بتعبير المالكية، وبما أن المالكية هنا تكوينية فإنها لن تنصل عن مسألة «الخلق» وفي الحقيقة أصبح هذا التعبير من لوازمه، وكذلك لن يكون منفصلة عن مسألة «تدبير الأمور» لذا يقول مستفسراً في نهاية الآية: «وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ»^١.

فيضيف مباشرة «أَنَّهُمْ وَبَالِهَامٍ مِّنْ وَحْيٍ مَّطَرْتَهُمْ يَقُولُونَ بَسْرَعَةٍ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَالِكٌ وَخَالِقٌ وَمُدَبِّرُ هَذِهِ الْأُمُورِ» «فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ».

«قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ»

أي ترك عبادة الأوثان والتوجه إلى غير الله، والابتعاد عن الذنوب والظلم.



١. قال بعض أرباب اللغة إن «ملك» (بفتح الميم وكسر اللام، تعني من يتصرف بعامّة الناس من حلال أمره ونهيهِ وهذا يستلزم السلطة والاختيار والتدبير)

ويقول في الآية الرابعة ضمن إشارته إلى جانب من يعم الله على الإنسان لتحريك الاحساس بالشكر الذي هو مقدمة لمعرفة الله **﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾**.

العينان اللتان يتمكن من خلالهما أن يرى عالم الوجود، وأن يشاهد عجائب الخلق، وأن ينظر إلى الشمس والقمر والنجوم وأنواع النباتات وأنواع الموجودات الحية والحيوانات، وأن يتفرج على عجائب صنع الله، وأن يميز الخير من الشر، ويكشف الصديق من العدو، وأن ينقذ نفسه من محائب الحوادث.

ثم يضيف **﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾**.

اللسان الذي يمثل وسيلة اتصاله بالآخرين، اللسان الذي يعتبر عاملاً في نقل العلوم والمعارف من جيل إلى آخر ومن قوم إلى آخرين. اللسان الذي يردد ما يحتاجه، وبه يدعو ويتوسل إلى المعبود جل وعلا، وهو الذي يطلق عن جميع درات وعوده

وكذلك الشفاء التي تلعب دوراً مهماً في الطب، وتحمّل مسؤولية تلفظ كثير من معارج الحروف^١ بالإضافة إلى مساعدتها في شرب الماء وأكل الطعام وهضمه والحفاظ على سوائل الدم، ينحو لو جُدع جانب من الشفة لفلن تصبح هذه الأمور صعبة بالنسبة للإنسان فحسب، بل وسيكون منظره وصورته باعثاً على الحسرة.

واللطيف أن القرآن يتحدث بعد هاتين الآيتين عن هداية الإنسان إلى الخير و**﴿الشر﴾**، قائلاً: **﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾**

إن هذا التعبير البليغ يشير إلى علاقة العين واللسان والشفاه بمسألة الهداية ومعرفة الخير والشر، لأنها تعتبر آلات لهذا الهدف العظيم.



وفي الآية الخامسة يُلَفَّتُ الانتباه إلى الحدة التي تحصل لدى الإنسان بسبب فقدانه

١. وهذه أربعة حروف بالمرية (ب - م - و - هـ) وهي (حروف شعبيه) بكرة وفقدان الشفة يؤدي إلى أن يفقد المرء قدرة التكلم إلى حد ما.

للاذن والعين والعقل، فيقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَشَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ بِأَيْتِنَاكُمْ بِهِ»^١.

ثم يضيف في نهاية الآية: «وَأَنْتُمْ كَيْفَ تُصَرِّفُونَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ»^٢. وفي الحقيقة أن القرآن يريد أن يقول: إن آلات المعرفة المهمة تلك ليست ملكاً لكم لأنها لو كانت كذلك لما سُلبت منكم فليس بالتقيل أولئك الذين فقدوا نعمة السمع والبصر والعقل نتيجة لتأثير عوامل مختلفة، إذن فهي ملك لحالقي آخر، هذا من جهة ومن جهة أخرى، بما أن الأشياء تعرف بصدادها فإن القرآن يريد أن يلفت نظر الإنسان إلى عظمة الحالق وواهب هذه السمع، من خلال تذكيره بالوضع المؤلم الذي يطرأ للإنسان بسبب فقدان هذه السمع التي لا مثيل لها، ويرشده عن هذا الطريق ويحذره إلى الخضوع أمام عظمته تعالى.

ويمكن أن يكون التعبير بـ «أخذ» الاذن والعين بمعنى أخذ هذه الاعضاء، أو أحد قوة السمع والبصر أو كليهما.



وفي الآية الأخيرة من البحث التي تعتبر من آيات التوحيد ومعرفة الله يُسلط الانظار على آياته قاطبة في عالم الحلق بأسره، فيقول: «سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَسْمُنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»

«آفاق»: جمع «أفق» وتعني الأطراف، وعليه فإن «آفاق الأرض» تعني أطراف

١. لقد فسّر المفسرون جملة «أَرَأَيْتُمْ» وكذلك «أَرَأَيْتُمْ» بمعنى اخبروني أو «هل علمتم» ولكن باعتقاد بعض المحققين فإن هذه الجملة تتسامع مع المعنى الأصلي لجملة «أَرَأَيْتُمْ» بمعنى (هل شاهدتم)، ولكن حيث تكون المشاهدة في مثل هذه الموارد للعلم والأخبار فقد فُتِرت بلام المعنى وعلى أية حال فإن الغاية من ذكر هذه الجملة هو التذكير والتأكيد على دقة المخاطب، وهو ربما أن يصرّحاً بلام المعنى فيمكننا القول بأن هذا هو مفهومها.

٢. «تصرف» من مادة «تصرف» وتعني التغيير، وتعني هنا ذكر حقيقة ما بلباس وبيان مختلف، و«يصدقون» من مادة «صدق» (على وزن هذف) وتعني هنا الإعراض

الأرض، و«آفاق السماء» تعني أطراف السماء، وبما أنها ذكرت في آية البحث بشكل مطلق، فهي تشمل كل الأطراف شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً.

و«أنفس» لها هنا معنى واسع حيث تتضمن روح وانجسم أيضاً، وجميع اعضاء الجسم

التي هي موضوع بحثنا

وهنا إلى من يعود الضمير في «أنه الحق»؟ قال بعض المفسرين: المقصود هو القرآن، والمقصود من آيات الآفاق الانتصارات التي حققها المسلمون في أطراف العالم، والمقصود من آيات الانفس، انتصاراتهم في بلاد العرب أي أننا نريهم الانتصارات في أطراف العالم وفي بلاد العرب كي يعلموا أن القرآن حق.

وقال بعضهم: المقصود هو «رسول الله» ﷺ أو ديه، حيث لا يتفاوت كثيراً مع التفسير

الأول.

لكن الظاهر هو (كما فهمه عدد من المفسرين) أن المقصود هو الله، أي أننا نريهم آيات الآفاق والآنفس كي يتجلى لهم أن الله هو الحق.

يُعدّ التفسير بـ«آيات» من جانب، والتعبير بـ«الآفاق والآنفس» من جانب آخر بالإضافة إلى الآية التي تليها والتي تتحدث عن لتوحيد شواهد على هذا التفسير، علماً أن هذه الآية تتوافق مع عدة آيات في القرآن الكريم التي تعرض آيات الله في عرش الخلق ووجود الإنسان، مثل «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ • وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» (الذاريات / ٢٠ - ٢١).

وقد ذكر هذا المعنى أيضاً في تفسير علي بن إبراهيم، على الرغم من أن بعض الروايات ذكرت أن ضمير، (أنه) يقصد به الإمام لمهدي «ع» ولكن الظاهر أنه تفسير لبطلون الآيات (والجمع بين التفسير ممكن أيضاً)، على أية حال.. هي أي منها تمعنا نرى من خلاله آثار علمه وقدرته تعالى، وكل باب يثبت من الأرض ينطق بنفسه بـ«لا شريك له» و«قلب كل ذرة تفتحه - نرى شمسه في وسطه».

والتعبير بـ«شريهم» (ظراً لأن الفعل المضارع في مثل هذه الموارد يعني الاستمرارية)

يُعتبر إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهي أن كل يوم يمرُّ من عمر الإنسان تنكشف له حقائق جديدة عن هذا العالم ، وتتجلى أسرارٌ خافية ، ففي كل يوم يتوصل العلماء في مختبراتهم ومكتباتهم إلى اكتشافٍ حديث ، وتتصح آيات جديدة من آيات الله ، ومن المسلم به أن هذه المسألة ستعمر حتى لو انتقصت ملايين السنين من عمر الخليقة ، فكم هو عجيب عالم الخلق الواسع ، وكم عظيم حاله ؟

ومن ثمَّ فإننا لا نعلم شيئاً عن مليارات لسنين السابقة وما تلاها ، وليس لدينا أدنى اطلاع عن هذا الكتاب العتيق الذي قُفد فصلاه (لأول والأخير) وكل ما نعلمه هو نزر يسيرٍ يتعلق بجانب من هذا العالم الواسع وفصل من هذا الكتاب الكبير ، «العظمة لله الواحد القهار» .

نستخرج من مجموع ما مضى من الآيات أن كل عَصٍ من أعضاء جسم الإنسان ، بل كل جزء منها ، يعتبر مرآةً واضحةً للحق (عالي ، وآية مستقلة وجلية من علم وقدرة وحكمة وتديبر خالق الكون .

بسم الله الرحمن الرحيم

توضيحان

١ - عجائب أعضاء الجسم

لو لم يكن في كل الكون موجود سوى الإنسان ، ولم يكن في جميع كيان هذا الإنسان شيء سوى عين أو أذن واحدة ، لصار ذلك سبباً لمعرفة الذات الإلهية المقدسة وعلمه وقدرته ، لأن بناءها دقيق ومعقد ومحبولٌ بقدر لا يصدق أي عقل أنها من صنع الصدفة أو الطبيعة العمياء والصماء ، بل نواجه في كل مرحلة من دراستها ، آيةً جديدةً من علم وقدرة ذلك الصانع الحكيم .

فمن بين مئات الحصائص ومن خلال الدقة في حاسة البصر ، أي العين ، يكفينا ذكر المواضع الآتية كي نعرف الغرابة المدهلة في هذا العضو .

١ - العدسة المتغيرة: من المعروف أنَّ العين تُشَبَّهُ بِآلةِ التصوير، بينما لا تصل أحدث آلات التصوير في العالم أنَّ تكون كَالْعُويَّةِ أمام عين الإنسان، لأنَّها تحتوي على عدسة ثابتة، حيث يجب أن تُنظَّم وتُدار من قبل مصوِّر باستمرار من أجل النقاط الصور من عدة جهات، إلَّا أنَّ عدسة العين الواقعة خلف إنسان لعين مباشرة، تتغير دائماً بشكلٍ آلي، فقد يتقلص قطرها أحياناً فيبلغ $1/5$ ملمتر وأحياناً يتسع حيث يبلغ ٨ ملمترات فيسمح لها بالنقاط الصور من مناظر بعيدة وقريبة جداً.

٢ - طبقات العين السبع: إنَّ العين تتألف أساساً من سبعة حُجُب أو سبع طبقات وتُسمى «الصلبية» و«العينية» و«المشيمية» و«الجلدية» و«الزلازلية» و«الزجاجية» و«الشبكية»، حيث لكل منها بياؤها الخاص بها وواجبها الذي تتحمله، وشرحها بحرثنا إلى الإطالة، فيكفينا أن نعلم أنَّ لكل اختلاف فيها يؤدي إلى اختلال النظر، طبعاً تكمن خلف «الشبكية» أعصاب بصرية تنقل الصور التي تقع على شبكية إلى الدماغ.

٣ - الحساسية لآراء الضوء: إنَّ سطوع النور بالنسبة للمصورين يعتبر عملاً شاقاً، وكثيراً ما تُكَلَّف مجموعة متخصصة بهذا العمل، بينما تستطيع العين من خلال تعبير حساسيتها آراء شدة الضوء أن تلتقط الصور من مناظر مختلفة وفي نورٍ ضعيفٍ أو قويٍّ جداً.

٤ - الحركة المستمرة: إنَّ المصورين يديرون أجهزة تهم باستمرار نحو اليمين واليسار وإلى الأعلى والأسفل، ويستخدمون مختلف آلات لهذا العمل، بينما نجد أنَّ العضلات التي تحيط بكرة العين تُدير هذا الجهاز بحركةٍ خاطئةٍ إلى الجهات الأربع بشكلٍ كاملٍ، وتصاعف قدرة المناورة لديها للتصوير في جميع الجهات.

٥ - المركبات البسيطة والدقيقة: فمن أجل إعداد أجهزة التصوير يستفاد من أقوى العدسات والفلات، بينما تم صنع العين من مواد لطيفة وفي نفس الوقت قد تستمر في العمل مائة عامٍ لأنَّها جهاز حي يستطيع بناء نفسه وتجديد قواه باستمرار، بينما تعتبر الأجهزة التي يصنعها البشر أجهزةً ميتة!

٦ - إعداد شريط التصوير: يعتبر إعداد شريط التصوير بالنسبة لأجهزة التصوير عملاً

صعباً ويجب استعمال حلقات متباعدة باستمرار من أجل التصوير، بينما تصوّر شبيكة العين ذاتياً على الدوام، وبعد انتقاله وحفظه في دماغ يُمحَا وتستعد لتصوير منظر آخر، ويُجزّ هذا العمل بسرعة عجيبة ومدهشة بلعاية، عما أن مسألة احراج شريط التصوير التي تعتبر عملاً شاقاً ومستهلكاً للوقت لم تُطرح لها.

٧ - الأجهزة الجانبية. من أجل أن تقوم عين بأجاز واجباتها فقد جُهزت بالكثير من اللوازم التي يعتبر كل منها مدهشاً أيضاً.

إن وجود الغدد «الفؤارة» التي تصبّ السائل الخاص والشفاف بشكل دائم في العين، ويسمح للأجفان أن تتحرك فوق فص العين بدون أقل تماس خشن، وتسوق فضلات الماء الموجودة في أسفلها إلى الخارج، فينحدر إلى بؤبؤ العين، وللأجفان ردود فعل سريعة مقابل الحوادث المختلفة حيث تحافظ على العين من الصدمات، وهجوم التراب والقبار، أو الضوء الشديد، وبناء «الأغشية» التي تحمي بمنزلة ستائر تسمح للعين بالاستنارة قليلاً مع كون العين مفضوحة وتحفظها من دخول القبار والتراب، واستمرار العين في صدوي عظمي قوي جداً كالقلمبة المبيعة، ووضع هذا الصندوق في مكان مرتفع من الجسم حيث يسمع لها أن ترى جوانبها كالمراصد الذي يتركز في المرصد، ووجود الحواجب التي تمثل درعاً لحمايتها، وأمور جمّة أخرى حيث لكل منها قصة لطيفة ومدهشة وغنية بالمعاني.

لو جمعنا كل هذه الأمور وتمعنا فيها قليلاً فمن المسلم به أننا سندع عن أن صانع العين كان مطلعاً على جميع الأنظمة المتعلقة بالعدسات، وانعكاس الضوء، ومسائل أخرى معقدة من هذا القبيل، وخلق مثل هذا الموجود العجيب بعلمه وقدرته الأزلية.

❦❦❦

٢ - اللسان، هذا العضو المعترف؟

إن من بين الأعضاء التي تمت الإشارة إليها في الآيات المذكورة هو اللسان، الذي يعتبر بحق من عجائب خلق الله، ولو كان لهذا اللسان لسان يطق عنه، لشرح لنا ما فيه من

عجائب ، حبيبها يتضح لنا لماذا استند إليه القرآن الكريم
لو القينا نظرة قصيرة على واجبات ومسؤوليات اللسان ، لا ظهرت لنا جابياً من هذه
الحقائق ، وإجمالاً فاللسان ستة واجبات أساسية هي :

١ - دور اللسان في هضم الطعام: لولا اللسان لما تمت عملية هضم الغذاء بشكل كامل ،
ولبقي قسم من الغذاء غير مهضوم ، وسوف نضطر إلى تحريك الأكل باصابعنا لتتم عملية
مضغه بواسطة الأسنان فاللسان يُقلب الطعام باستمرار من ثلاث جهات بين الأسنان
بحركاته الربعة الماهرة ، دون أن ينفى في وسطها ، أحل قد يصيبه التعب والعمر أحياناً
فتقتصه الأسنان فيصاب بشدة ، وكأن الله يريد أن يثبت لنا بأن اللسان لو لم يمنح تلك
المهارة الفائقة لتكرر هذا المشهد يومياً وتعرض اللسان للجرح دائماً .

٢ - خلط الطعام بالحليب: الغم: اللعاب هو ذلك السائل اللزج الذي يعمل على ترقيق
وانزلاق الطعام وإعداده للبلع ، من جهة ، ومن جهة أخرى يجري عليه تفاعلات كيميائية
خاصة ، ويعدّه للبلع والهضم ، فاللسان هو الذي يتكفل بمسؤولية مزجه بهذا السائل
الحيوي .

٣ - المساعدة في ابتلاع الطعام والماء: إن اللسان يلعب دوراً أساسياً في عبور الطعام
والماء ، فبالترجيع والالتصاق بسقف الفم والصمغ على الماء والطعام يدفعه سريعاً نحو
البلعوم ، ولو أصيب بشلل ليوم واحد على سبيل المثال لتعسر ابتلاع لقمة واحدة ولعله
يصبح مستحيلاً .

٤ - السيطرة على المواد الغذائية: يستطيع لسان -وسبب قوة التدوق الشديدة فيه- أن
يشخص الكثير من المواد الصارة والسامة للجسم ، ويقذفها خارجاً ، ولولا دور اللسان في
السيطرة الماهرة على باب الدخول إلى الجسم لأصيب الإنسان بالأمراض بسرعة نتيجة
لأكله الأطعمة المصرة ، ولأصبح عرضة للأخطار ، فالطعام الثمر والمالح ، أو المتبّل ، أو
الفاسد والمتعفن يميزه اللسان أولاً ، فيمنعه من الورد إلى الجسم ، أجل - هذا الحارس
الغذائي مكلف بالسيطرة على جميع المأكولات والمشروبات ليلاً ونهاراً .

٥ - **تنظيف الفم:** لا بد أنكم قد تمحصتم يوماً أن الفم واللسان يتشعلان بالحركة بعد الانتهاء من الطعام، وهذه الحركة هي لتحريك وإزالة بقايا الطعام حيث تُجمع في فضاء الفم ثم تُرسل إلى القناة الهضمية، وهذا العمل يتحمّله اللسان بشكل أساسي وحتى أنه ينظف الأسنان إلى حد ما، وخلاصة الأمر يعتبر لسان مطعماً ماهراً للفم

٦ - **التنطق:** وأخيراً فإن أهم وادق واجب للسان الذي استند إليه القرآن لا سيما في بداية سورة الرحمن لتعريف لغة قائله «الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». ومع أن الطق يعتبر أمراً بسيطاً بسبب كثرة ممارسته، إلا أنه يعتبر في الحقيقة من أكثر الأعمال تعقيداً حيث ينجزه الإنسان بـ «لسانه» و«عقله».

فيجب أن يختار أولاً الكلمة المناسبة من بين عشرات الآلاف أو مئات الآلاف من الكلمات وأحياناً أكثر من هذا العدد. ثم يصدر الأمر إلى اللسان أن يتحرك على مقاطع الحروف بحركاته الطنوية السريعة الماهرة، وأن يركب الحروف المطلوبة بمساعدة الرثة والحصرة والأوتار الصوتية ويرطبها فيما بينها وأن يكون كلمة واحدة. ثم يختار الكلمة الثانية بنفس السرعة. ويولد أصواتاً معينة. ويستمر هكذا حتى نكتمل الجملة، ولو أخطأ الذهن قليلاً في اختيار الكلمات فإنه يقصر عن استيعاب المعنى ولو حدث أدنى خطأ في حركات اللسان السريعة في فضاء الفم لما كانت هناك جملة واحدة مفيدة.

تأملوا الآن متكلماً يتحدث باتزان وفصاحة وبلاغة ساعاً كاملة، لقد أدار لسانه في أطراف الفم آلاف المرات واستند إلى مقاطع لحروف تماماً وذلك في محيط صغير تنقلص إمكانية المساورة فيه كثيراً فأبى عمل عجيب وعجائز يوديه؟ وهذا ليس إلا عرض لقدرة الحائق العظيم.

ومن المسلم به أن الشهاء تُكثّل عمل اللسان، وتقوم بتكوين بعض الحروف، وهذا التنسيق بين هذين العضوين يمثل عملاً لطيفاً ومدروساً وأهم منه العمل العكري الذي يلزمه.

والخلاصة أن لكل عضو من الأعضاء الظهرية أو الأجهزة الداخلية للجسم كالقلب والدماغ والشرابين وشبكة الأعصاب قصة مفصلة ومشيرة، ولو أردنا أن نتطرق إلى أسرارها واحد تلو الآخر لاستلزم سبعين متناً من الورق لأن من ليسير أن تمتلئ آلاف الكتب بأسرارها، فالأفضل لنا أن نعترف بقصورنا في هذا المجال ونخضع إجلالاً على أعتاب قدرة الخالق العظيم، ونترجم بقول الشاعر بصدق لحلق ونقول فيها الإنسان: عجباً لك إذ لم يكن للعالم مجال لمشاهدتك فلماذا لا تنظر إلى نفسك متعجباً
أو نقول:

أترغم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر





٢١ - آياته في الحياة الاجتماعية للإنسان

تمهيد:

متى لا شك فيه أن الإنسان موجوداً احتما على بالطبع، ويحصل على ما يحتاج إليه في الحياة الاجتماعية، فتكامل الإنسان معوياً ومادياً، في العلوم والمعارف، الحضارات والصناعات، الآداب والتقاليد. يحصل من خلال الحياة الاجتماعية، ينحوي يمكننا من القول أنه لو هذا الإنسان هذا الطراز من الحياة يسوقه كل شيء، ويهبط إلى مستوى الحيوان. إن اهتمام الإنسان بهذا الطراز من الحياة علاوة على فطرته، فهو تابع من كثرة وتباين حاجاته، وحمته العالية لبلوغ مراحل أعظم وكمل، ولا يمكن تأمير هذه الحاجات الجسمية والروحية بدون الحياة الاجتماعية، ولا فما هو دور الإنسان مفرداً؟ ولكن يجب أن لا ننسى أن الإنسان يحتاج إلى عوامل نفسية وبدنية كثيرة من أجل التعايش اجتماعياً، حيث وضعها الخالق في متناول يديه، وإذا تم تحليل هذا الجانب من حياة الإنسان تحليلاً موضوعياً فستصح أنه من أكثر آيات الله عجباً بهذا التمهيد نتجه نحو آيات القرآن التي نستند إلى هذا الأمر ونستعين خاشعين في الآيات التالية:

١ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ﴾.
(الروم / ٢١)

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.
(الاعراف / ١٨٩)

- ٣- ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ أَمْسَجَ نُشِيرُهُ فَبَعَثْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾. (الإنسان / ٢)
- ٤- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾. (الحجرات / ١٣)
- ٥- ﴿هُوَ الَّذِي يَهْدِيكَ إِلَى صُنْعِهِ وَيَا مُؤْمِنِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا لَوْ تَوَلَّوْهُمْ لَوَافٍ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً * مَا آتَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آتَى بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (الأنفال / ٦٢-٦٣)



جمع لأبنت وتفسيرها

شرح المفردات:

«زروج»: تعني في الأصل الحيوان المذكور والمؤنث حيث يُطلق هذا اللفظ على كل منهما، ويُطلق أحياناً بمعنى أكثر شمولية - على كل شيء من متناظرين، سواء كان من ناحية الشابه أو التصاد، كروح الحذاء، أو الحورس، أو النيل والنهار والحمر والشر وأمثالها، أو الأرقام التي تقسم القسمة على اثنين متساويين، لأن كلًّا منها يناظر الآخر، إلا أنها تُقال في خصوص البشر لمن أهرم عقد الزواج بينهما.

وقال بعض أرباب اللغة إن معنى «زروج» عبارة عن الشكل الذي يكون له مثيل، كالأنواع والألوان المختلفة، أو الشيء الذي له مضاد، كالرطب والجاف، المذكر والمؤنث، الليل والنهار، الحلو والمر، كما صرحوا أن «زروج» تعني كل فرد من الزوجين، لا الاثنين معاً بل يجب أن يعال للثنين «زوجان»، وإطلاق روج على الاثنين هو من كلام الجهلة^١.

«لِتَشْكُرُوا»: من مادة «سكرو» وتعني في الأصل ثبات الشيء بعد الحركة، وجاء في «مقاييس اللغة» أن أصلها بمعنى الاطمئنان، والحالة التي تعاكس الاضطراب والحركة، وتطلق أحياناً على تخفيف ضغط العاصفة ونحر وابتد، والمطر والغضب أيضاً، ولهذا سُمِّي «سكان» السفينة بهذا الاسم حيث يعتبر أساس واطمئنان السفينة ووضعها في

١ المبررات، مصباح اللغة، التحقيق ولسان العرب

الطريق الصحيح، ومن هذا الجانب سميت «السكنية» بهذا الاسم، حيث تُكنى حركات الحيوان بقطع رأسه، كما يقال لحالة الاطمئنان والاستقرار النفسي «سكنية» أيضاً، وتُطلق «مُسكنين» على من يبدو ساكناً في محله لشدة لفر الذي يعاينه، ويقال لمكان سكن واستقرار الإنسان «مُسكن»^١.

و«شعوب»: طبقاً لقول بعضهم، جمع «شعب» (على وزن شعب)، وجمع «شعب» (على وزن مثل) طبقاً لقول بعضهم الآخر، بينما يعتقد بعض كصاحب مجمع البحرين أن جمع الأول «شعوب» وجمع الثاني «شعاب»، وعلى أية حال فإنها تعني كما يقول صاحب «لسان العرب» الجمع والتفريق، أو الإصلاح والفساد (وذلك يصور إلى أن معناها الأصلي هو الوادي الذي يتجمع في الجانب الآخر من جبل ويتسع في الجانب السفلي وكما يقول الراغب في المعجمات أن المفهومين اجتماعيه) لذلك يقال «شعب» للقبيلة التي انفصلت عن طائفة كبيرة (فلها صفة جمعية تفرقة) وقال بعض أيضاً أن «شعوب» تستخدم بخصوص المعجم و«قبائل» للعرب^٢.

ولهذا يأتي «شعب» أيضاً بمعنى التفرق وكذلك الاجتماع، والإصلاح والافساد. «ألف»: من مادة «ألف» على وزن (جلف) ومعني الاجتماع المتقارن بالانسجام والوئام، وتأليف القلوب يعني إيجاد اللفة ولأواصر وصلة بينها (وعلى هذا الأساس أطلقوا على تأليف الكتاب هذا الاسم حيث يتم إيجاد نوع من التآلف والانسجام بين الألفاظ والمعاني والموضوعات) ولهذا يقولون لعدد ألف حيث يعتقد العرب أن كافة الأعداد مجموعة فيه لأنه يتكون من عدد واحد والعشرات والمئات والآلاف، ولم تكن هناك أعداد بعده بل تتكرر نفس الأرقام، عشرة آلاف ومائة ألف و....^٣.

١ التحقيق، لسان العرب، المعجمات، مجمع البحرين، وكتاب المنى

٢ تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٣٨

٣ مجمع البحرين، لسان العرب، معجمات الرغب

تفسير وتعليل

الروح الاجتماعية للبشر واحدة من أعظم الموهب الإلهية:

في سورة «الروم» وأثناء تعداد الآيات الإلهية في سبع آيات متقاربة^١ حيث تبدأ كل منها بتعبير «ومن آياته» أوضح جانباً من برهين عظمة الله في عالم الوجود بلحن مرغوب وجذاب ونغمة لطيفة ومحبة والآية الأولى في البحث إحداها فقد أشارت إلى اللبنة الأولى في بناء المجتمع البشري، أي وحدة الأسرة ولعلاقة التي تسودها، فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا»

واللطيف أنه لم يذكر هنا أن الهدف من الحياة الزوجية هو بقاء النسل، بل يذكر نيل الاطمئنان والسكينة، الذي يحصل من خلال الحياة الزوجية، لأن هذين الجسرين يكمل أحدهما الآخر، ويكونان سبباً لتفتح وانتقال وتربية كل منهما، بحوي يبدو كل منهما ناقصاً بدون الآخر، وينال تكامله عن هذا الطريق.

إن هذا الاطمئنان والسكون لا يختصر على الجانب الجسدي بل إن جانبه الروحي أهم وأقوى.

والاضطرابات النفسية وفقدان اتزان روحي، والأمراض المختلفة المتمخضة عن الرهد في الزواج، شاهدنا طقاً على هذا المعنى، ثم يضيف: «وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً».

هذه المودة والرحمة التي تعتبر في الحقيقة الركن الأساس وحلقة الوصل والارتباط ما بين الناس، فتربط الأشخاص المتفرقين وامتبا عدين، وتخلق من ذلك مجتمعاً قوياً، تقوم المواد الأساسية في البناء بشد قطع لطابوق ولحجر ويُشيدُ بها بناءً صخماً وعظيماً.

واللطيف كذلك أنه استند مرّة ثانية في نهاية الآية إلى هذه النكتة التوحيدية: قائلاً: «إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ»

١. تبدأ هذه الآيات من الآية ٢٠ من السورة وحتى الآية ٢٥ (ست آيات متتابعة) والآية ٧ والآية ٤٦ من نفس السورة

ولو تأملنا في تشكيل الحياة الزوجية وهي أول وحدة اجتماعية، هي الرابطة القوية التي تتكون بين هذين الجنسين المختلفين، ومن ثم لو تأملنا في الوحدات الاجتماعية الأكبر: العائلة، الأقارب، الطائفة والعشيرة، ثم هي المدن والاقطار وفي كل المجتمع البشري، فإسما سنواجه في كل خطوة نخطوها آية من آيات الله العظيمة

فمن الذي خلق المحبة والمودة بين المرأة ورجل، والأب والأم وابنهما، والعشيرة والأقارب، وكل الناس بشكل عام؟

من الذي وصّغ التوازن بين جنس المرأة ورجل في المجتمع البشري؟ بشكل يتم الحفاظ على هذا التوازن رغم الحوادث المسفنة التي تطرأ في المجتمعات كالموت والولادات؟

من الذي خلق الأذواق المختلفة في العقول، والرموز المتباينة في القلوب؟ وأخذ بيد كل صبي نحو عمل وبرنامج، كي يتمكن من مجتمعه محسباً إنساني ككسلة واحدة متكاملة من جميع الحوائط.

ولعلنا لهذا السبب أشار في الآية الآتية إلى اختلاف الألوان ونباين الألوان ويعبر ذلك من آيات الله، فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ اللَّسَانِ وَالْوَلَوَانِ كُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ» (الروم / ٢٢)

ومتأ لا شك فيه أن أحد التفاسير لاختلاف الألوان، هو هذا التباين الموجود في الطق والأذواق والجذب الفكري للأشخاص، مما يؤدي إلى أن يتحلى المجتمع البشري بالانسجام التام، بحيث لا يحصل معه فرغ في أي من الحاجات المعنوية والمادية للبشر.

«مَوَدَّة» من مادة «وَدَّ» (على وزن حَبَّ) وتعني المحبة كما تطلق على «الأمل في تحقيق الشيء» (وكلا المعنيين قريبان لبعضهما) ولفظ «وَدَّ» (على وزن حَدَّ) اسم لأحد اصنام الجاهلية، وسمي بذلك الاسم لمحبتهم لشديدة له، أو لأنهم كانوا يطنون بوجود مودة بين الله وهذا الصنم، كما يُطلق هذا اللفظ على «المسار»، حتى قال بعض إن لفظ «وَدَّ»

الذي يعني في لغة العرب «المسبار» مأخوذاً من أصل «وَرَدَ» لأنَّ المسامير تلتصق بالجدار أو الأشياء الأخرى، ومن هنا فهي تتشابه مع مفهوم المحبة^١.

«الرحمة»: وتعني حالة الليونة التي تحصل في قلب الإنسان فتجعله يميل إلى الاحسان تجاه من يستحق الرحمة، ومن المسلم به أنها حينما تُستخدَم في مورد الباري تعالى فإنها تعني الإنعام والعطاء والاحسان.

وهنا ما الفرق بين الاثنين (المودة والرحمة) في هذه الآية؟ لقد أعطى المفسرون عدّة احتمالات، ويمكن القول أنَّ الجامع بينها هو أنَّ «المودة» تُقالُ لشيءٍ لهُ مقابل، كالرحمة التي بين المرأة والرجل أو الأخوين، حيث تدفع كلاً منهما إلى تقديم الخدمة إلى الآخر، إلّا أنَّ «الرحمة» من جانب واحد وتشتمل على التصحية، كعلاقة الحب بين الوالدين وابهما، أو أحد الزوجين نحو الآخر عندما يحضر عن العمل.

وهنا نكمنُ نقطةً مهمّة، وهي يجب أن نقومُ في الحياة الروحية وكذلك الحياة الاجتماعية بشكلٍ عامٍ نوعان من العلاقة المعنوية:

الأول: العلاقة التي تتحد طابع الخدمات المتقابلة، فيقوم كل فردٍ أو طبقةٍ بخدمات متقابلة تجاه الأفراد أو الطبقات الأخرى.

والثاني: «الخدمات المجانية»، لأنَّ المجتمعات البشرية أو الاسر التي هي مجتمعٌ مصفّرٌ تعجُّ بالاطفال والصمماء والعجزة باستمرار ولو شاؤوا انتطار الخدمات المتقابلة لطلّوا يمانون الحرمان، هنا حيث يعطي مفهوم «المودة» مكانه إلى «الرحمة»، وتحلُّ الخدمات التصحية محلَّ الخدمات المتقابلة، وكم لطيف هذا التعبير القرآني الذي لن ترى المجتمعات البشرية صورة الاطمئنان والراحة إلا بالعمل به.



والآية الثانية من البحث تردد هذه الحقيقة التي وردت في الآية الآتفة مع هذا الصارق

حيث تقول: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا»^١. والمقصود من «نفس واحدة» باعتقاد أعبب المفسرين هو آدم عليه السلام. ومن المسلم به أن التعابير التي جاءت في ذيل الآية وتُشَمُّ منها رائحة الشرك، لا تعني الشرك في الاعتقاد ولا في العبادة، بل يُمكن أن يكون المقصود منها هو ميل آدم إلى إبنائه، الميل الذي قد يجذب الإنسان نحوه في لحظات خاطفة ويجمعه ينهل من غيره ويُحتمل أن يكون المراد من «نفس واحدة» هو «الوحدة النوعية»، أي (خلقكم من نوع واحد).

وليس المقصود من عبارة: «جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» أن زوجة آدم «حواء» قد خلقت من حريم من جسمه، كما نُقل في الرواية الموضوعة أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر، ولهذا يقل عدد الأضلاع في العنق الأيسر عنها في الجانب الأيمن بضلع واحد، لدى الرجال، ولا شك أن عدد الأضلاع في كلا جانبي الرجل لا يتفاوت أبداً، ومن السهولة تجربة ذلك، بل إن المقصود هو:

إنه خلق زوجة آدم من جسمه، كي تكون بينهما العداوة الجنسية، وليس من حسن بعيد وغريب، كما نقرأ بخصوص النبي ﷺ في القرآن الكريم: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ»



ويشير في الآية الثالثة إلى خلق الإنسان من طفلة محتلطة، فيقول: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا»

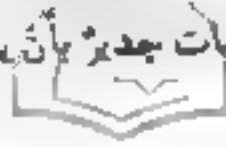
وتم التلميح في هذه الآية إلى ثلاث مزايا للإنسان: الأولى امتزاج النطفة، ويستفاد هذا الامتزاج من لفظ «أَمْشَاجٍ» جمع «مَشِيج» أو «مَشَج» (على وزن مَدَد) وتعني الشيء

١. تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٠٨؛ والتفسير الكبير، ج ١٥، ص ٨٥؛ وتفسير روح البيان، ج ٣، ص ١٢٠٩٤.
تفسير الميزان، ج ٨، ص ٣٩١. ونقل هذا المعنى في تفسير القرطبي (ج ٤، ص ٢٧٧٣) عن جمهور المفسرين.

الممزوج ، ولهذا معنى واسع حيث يشمل احتلاط النطفة من «البيضة» و«الحيمين» ، وكذلك المواد المعدنية المختلفة وغيرها من المواد التي تتظاهر لصنع النطفة ، كما يمكن أن تكون إشارة إلى القوى المختلفة والقابليات المتباينة والأذواق المتفاوتة الموجودة في نطفة الإنسان وتعدّد للحياة الاجتماعية في المجالات كافة .

والثاني عبارة «نبتليه» التي تشير إلى انتقال الإنسان من حالة إلى أخرى ، والتحولات المستمرة وأنواع الابتلاءات والاحتبارات التي تأخذ بيده في مسيرته التكاملية وتعتبر دليلاً على تكليف الإنسان ومسؤوليته ، لأنّ لاحتبار غير ممكن بدون حرية الإرادة ، والقابلية على أداء التكليف .

والثالث امتلاك الأدوات المهمة للمعرفة ومن أهمها السمع والبصر ، فالسمع للاستفادة من العلوم الثقيلة وأفكار الآخرين ، والعين للمشاهدة والاتصال المباشر بحقائق العالم فهكذا إنسان ويمثل هذه المواصفات جيداً بأن يرتقي إلى مقام خليفة الله وقادر على الحياة الجماعية .



وَقَبَائِلَ لِّتَعَارَفُوا

وفي الآية الرابعة وجّه الكلام إلى الناس فطبة ، قائلًا : «إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى» . بناءً على ذلك ليس هنالك أي تمايز بين لأجسام والقبائل والشعوب ، لأنهم يرجعون إلى أصل واحد : «أبوهم آدم وأمهم حواء» . ثم أشار إلى فلسفة تصنيف الناس إلى شعوب وطوائف مصيغاً : «وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا»

لا شك أن أول شروط الحياة الاجتماعية هي معرفة الأشخاص ببعضهم ، إذ لولاها لاختلّ نظام المجتمع البشري خلال يوم واحد ، فلم يُعرف المجرم من البري ، ولا الدائن من المدين ، ولا القائد من المقود ، ولا الأئمة من التابعين ، و... أجلّ الله الذي خلق الإنسان لمثل هذه الحياة وجعلها أجاساً وقبائل وجماعات تتباين تماماً بالمواصفات وجعل في كلّ

قبيلة أشخاصاً يمتازون بمزاجا شخصية خاصة كي تُحلَّ مسألة «التعارف» .
ويقول في نهاية الآية كاستنتاج أخلاقي من هذه المسألة الاجتماعية : إنَّ الانسحاب
للقبائل والجماعات ليس دليلاً على أيِّ تعاصرٍ أبداً بل ، «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ» .
فالتقوى لا تُعتبرُ مسألة أخلاقية فحسب ، بل مسألة اجتماعية لا تستقيم الحياة
الاجتماعية للبشر إلا من خلالها ، التقوى في جميع المجالات ، التقوى الاقتصادية ، التقوى
السياسية ، تقوى اللسان والتقوى الفكرية .

❦❦❦

وفي الآية الخامسة والاحيرة من البحث يعتبر «تأليف القلوب» أحد الأدلة المهمة على
انتصار سي الإسلام ﷺ . فيقول : «هُوَ الَّذِي أَتَاكَ بِتَقْوَىٰ رِبِّكَ وَمَا الْمُؤْمِنِينَ • وَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ» .

وبشَّ هذا التعبير بوصوح أنَّ تأليف القلوب يعتبر أمراً حتمياً من أجل التغلب على
المشكلات الاجتماعية . وقد خلق الله هذا الاستعداد لدى البشر ولولا له لم يتسن التأليف
بين القلوب ، ولو لم يحصل فستضطرب حياة البشر الاجتماعية .

ثم يُلَمِّحُ إلى مسألة لطيفة وهي أنَّ تأليف لقلوب لا يتحقق بالطرق المادية ، بل يمكن
تحقيقه من خلال الإيمان والأساليب المصونة والقيم الإنسانية السامية ، فيقول : «لَوْ أَنفَقْتَ

مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»
صحيح أنَّ هذه الآية نزلت بخصوص أصحاب رسول الله ﷺ ، إلا أنَّ من الواضح أنَّ

مفهومها عامٌ ويشعل المؤمنين قاطبةً ، كما أشير إلى هذا المعنى في تفسير الميزان^١
إنَّ المسائل المادية وبسبب ضيقها تكون مصدراً للدراعات والصراعات ، ولو فرضنا أنَّ
تكون عاملاً للوحدة يوماً ما ، فستكون وحدة غير راسخة ، فالوحدة الراسخة تتحقق في
ظل الإيمان والتقوى والقيم الروحية فقط .

وورد قرينُ هذا المعنى بتعابير أخرى في قوله تعالى حيث يقول حول أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح / ٢٩)

وما يثير اهتمامنا هنا هو التعبير بـ «هو الذي» في بداية الآية، حيث تُعرِّفُ الباري من خلال نصرة رسول الله ﷺ والتأليف بين قلوب المؤمنين، ويعدها من آيات وجود الله تعالى، التألف الذي يسمو على جميع أنواع التألف، حتى على الروابط النسبية والسببية، ولهذا فقد هيئت أواصر العصبية القلبية وبهجٍ مذهل على العلاقات التي كانت تسود المجتمع العربي أبان العصر الجاهلي لكن أواصر الإيمان والتصوي طمت على جميع أنواع الروابط، وظهرت آثار هذا التألف الروحي والمعنوي في جميع حوالب حياتهم الفردية والاجتماعية، وأدعَى العالم بأسره أمام عظمتهم.

❦❦❦



هل للمجتمع روح؟

إنَّ الأحياء على قسمين وأعلىها يعيش مفرداً ولا وجود اجتماعي فيما بينها ولو على صعيد اصفر وحدة اجتماعية أي العائلة، وبعضها قد تحظى هذه الحياة قليلاً وأخذ يعيش مع قريبه، ولكن قليلاً من الحيوانات تعيش حياة جماعية، وبعضها قد كون حضارة، كالنحل، والنمل، والأرضة وغيرها من الحيوانات.

إلا أنَّ هذا الصنف (الحيوانات الاجتماعية) لها نوعان من النقص أيضاً: الأول: هو استحالة الحياة المشتركة بين المجاميع المنبذة (كنحل حليتين أو بصع خلايا)، والثاني إنَّ حياتها الاجتماعية تتحدَّ طابعاً واحداً باستمرار، أي أنَّ النحل يعيش اليوم كما يعيش قبل مليون سنة.

فالكاثر الوحيد الذي يعيش حياة جماعية غير مقيَّدة ويسير نحو التطور والتكامل هو الإنسان، والدليل على ذلك هذا النمو والتطور وسيادة العلم والعقل على حياته الاجتماعية

وهنا بحوث كثيرة لو أردنا الولوح فيها ستخرج من إطار البحث التفسيري ولكن يبدو من الضروري التذكير ببعض الأمور:

١ - ما هو منشأ رغبة الإنسان للحياة الاجتماعية ؟ - هالك آراء مختلفة ، ويبدو أكثرها صواباً هو أنه مزيج من الحوافز «الفطرية» و«العاطفية» و«العقلية» فالعقل يقول إن التكامل ممكن في ظل الحياة الاجتماعية فقط سواء كان معنوياً أو عادياً ، لأنه من البديهي إذا أراد فرد أو أسرة أن تعيش بمعزل عن الآخرين ، فلا وجود لهذه العلوم والمعارف ولا هذه الصناعات والاختراعات والابداعات فلا شك أنها حصلت من خلال استثمار تكديس الطاقات الفكرية والجسمية ، ونقل كل جيل تجاربه إلى الأجيال الأخرى ، واثمرت هذه الظواهر الجبارة من خلال تجمعها وتطامرها.

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان يميل إلى هذه الحياة من خلال حافز ذاتي وعاطفي . فهو يصغر من العزلة ، ويشعر باللدة من خلال معيشته مع جيلومه وقيامه مع رفاقه ، وسجن الوحدة يمثل أقسى عذاب بالنسبة له ، وقد أثبتت تجارب العلماء أن العزلة لو استمرت فسؤدي إلى اضطرابات نفسية على مدى فترة قصيرة ، ويقتض النظر عن منافع التعايش الجماعي فإن هذا يؤكد على أن الإنسان يرغب بطبعه في هذا تعايش

٢ - لقد اعتبر الإسلام الحياة الاجتماعية لبشر من أهم مبادئه ، ولم يهتم بها في العلاقات السياسية والاقتصادية فقط بل حتى في مسألة العبادات التي تعتبر علاقة بين الخلق والخالق ، فاعطى للعبادات الجماعية (صلاة الجماعة) وصلاة الجمعة ومناسك الحج ، أهمية لا مثيل لها.

فما هي الصلاة ، والاذان والاقامة تحضر الجميع لصلاة الجماعة ، ويبرهن ضمير الجمع الوارد في سورة الفاتحة ، والسلام الذي في حاتمة لصلاة ، على أن الصلاة ذات صفة اجتماعية وأداؤها فرادى يعد صيغة فرعية

وقد أعطيت الحياة الاجتماعية أهمية بالغة في الإسلام بحيث أعتبر كل ما يؤدي إلى الاختلاف والتفرقة (كالحسد ، قول الزور ، وعبية ، والنفاق و...) من الذنوب الكبيرة ، وكل

ما يؤدي إلى السَّلام والوئام والإصلاح بين ساس جرمًا من أفضل العبادات .

٣ - أن تحقيق الحياة الاجتماعية للبشر ليس امرًا بسيطاً ، لأنه يحتاج إلى توزيع القابليات والقدرات العقلية والجسمية المختلفة ، وتحطيط دقيق ، وتوزيع للأعمال ، والتنسيق والتآلف بين القلوب ، وطبقاً للتعبير الذي ورد في تفسير الآيات فإن البشر كمواد البناء - الطابوق والحديد والمواد الإنشائية لأخرى - التي إذا لم تكن فيما بينها وسيلة للربط والاتحام لم يتشيد منها بناء شامخ ، وها جاءت يد القدرة الإلهية لمساعدة الإنسان ، ووضعت الخطة الدقيقة الرامية إلى تأليف القلوب ، وتوزيع القابليات العقلية والجسمية ، وأنواع الأذواق والفنون ، ورفدت الإنسان بمواهب العظيمة التي لن تدور عجلة الحياة الاجتماعية للبشر بدونها أبداً ، ويُعبر عن مجموع هذه الأمور أحياناً بـ «روح المجتمع» وإلا فلاننا نعلم أن ليس للمجتمع روح خاصة غير ما ذكر .

من يا ترى أوحد هذه الروح الاجتماعية بكل ما فيها من مواصفات من أجل دفع الإنسان نحو التكامل ؟ فهل تستطيع الطبيعة العنيفة الصماء التي لا عقل ولا احساس لها أن توجد هذا التحطيط ، وهذه المودة والرحمة ، وهذه السكينة والاطمئنان ، ونظرة المشاح ، وهذا التعارف العام ، وهذا التآلف بين القلوب ؟

لهذا تعتبر الآيات المذكورة هذه الأمور من آيات عظمة وعلم وقدرة الله تعالى وبحتم هذا الكلام بالحديث الذي ورد عن النبي ﷺ فيما يخص اهتمام الإسلام بتقوية الأواصر الاجتماعية بين أبناء البشر ، إذ يقول ﷺ :

«إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فَاخَذَ يَدَهُ تَحَاتَّ عَنْهُمَا ذَنْبُهُمَا كَمَا تَتَحَاتُّ النُّورُقُ عَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ فِي يَوْمٍ رِيحٍ عَاصِفٍ وَلَا يَفْتَرِقَانِ إِلَّا غَفِرَ لَهُمَا ذَنْبُهُمَا وَلَوْ كَانَ مِثْلَ زَيْلِ الْبَحَارَةِ^١ .

كلمة الختام :

من مجموع ما جاء في بحوث هذا الكتاب بمحتلة تنصح هذه الجمعية بجلاء وهي أن

١. الطبراني ، تقياً عن تفسير في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ٥٧

المعشوق يتجلى من كل باب وحدارٍ، وأماص بأنواره على كل موجودات الدنيا، ورسم
اسماء وصفاته على جبين كل الكائنات

فقد تجلى بمائة ألف من الأنوار، كي نراه بمائة ألف من الابصار، وهو قد اضاء شمساً في
قلب كل ذرة، واظهر آثار علمه وقدرته في السماء والأرض.

وقد وُصف في آيات القرآن بهذا الطريق وأحصى يابه في الآفاق والانس.
فتكفي عياناً، واذنان، وقلب يقظ كي يرى سر هذه الأنوار، وأن يسمع انغام التوحيد،
وان يدعو خير المحسنين إلى القلب، ويستضيئه في هذه الخلوة الانسية، وهذا العرش
العظيم، ويخاطبه في جذية روحية وترنم بما يلي من الاشعار

لَيْكَ يَا عَالِماً سَرِّي وَتَجَوَّائِي لَيْكَ لَيْكَ يَا قَسْرِي وَمُفْنَانِي
أَدْمُوْلَةٌ بَلْ أَنْتَ تَدْعُونِي فَهَلْ نَاجَيْتُ إِهَالَهُ أَوْ نَاجَيْتُ إِهَائِي
عُتِّي لِسَمَوَلَايَ أَضْنَانِي وَأَنْقَتْنِي فَكَيْفَ أَشْكُوا إِلَى مَوْلَايَ مَوْلَانِي
يَا وَنَيْحَ رُوحِي مِنْ رُوحِي وَمَا أَسْلَمِي عَلَيَّ مَتْنِي فَبَانِي أَصْلَ بَلْوَانِي

الهي! املاً قلوبنا من حزنك ومعرفتك بالإيمان بك

ربنا! أفص علينا نحن العطاش من كؤوس معرفتك واجعلنا سكارى إلى الأبد في جذية
روحية من جذباتك

يا مولاي! من الصعب طي طريق معرفة ذلك المقدسة إلا ملطفك ورعايتك وتوفيقك،
فاجعلنا مشمولين برعايتك وفضلك وتوفيقك،

آمين يا رب العالمين

ختم الجزء الثاني من تفحات القرآن

١١ / ٤ / ١٣٦٧

الموافق لـ ١٧ ذي القعدة ١٤٠٨

الفهرس

٥	البحث عن عظمة الله ومعرفته في القرآن الكريم .
٥	أسئلة مهمة ومصيرية : ..

مواقع البحث عن عظمة الله / ٧

٩	١- الدافع العقلي ..
١٠	جمع الآيات وتفسيرها [١٠]
١٠	التحقيق من مسؤوليات الإنسان الإنسانية ..
١٧	النتيجة : ..
١٧	توضيحات
١٧	١- الدوافع العقلية لهم الدين في الروايات الإسلامية
١٨	٢- المعاندون الملحدون
١٩	٢- الدافع العاطفي
٢٠	جمع الآيات وتفسيرها ..
٢٠	شكر المنعم سلّم إلى معرفة الله :
٢٤	شكر المنعم في الروايات الإسلامية :
٢٧	٣- الدافع العاطفي
٢٩	توضيحات
٢٩	التبريرات المنعقدة : ..

٢٩	١- نظرية الجهل.
٣١	٢- نظرية الخوف.
٣٢	٣- نظرية العامل الاقتصادي
٣٣	٤- النظرية الجنسية
٣٥	٥- نظرية الحاجات الأخلاقية

براهين معرفة الله / ٣٧

٣٩	١- برهان النظم
٣٩	مميزات برهان النظم
٤٠	أسس برهان النظم
٤١	العلاقة بين النظام والعلم
٤٥	١- آياته في خلق الإنسان
٤٥	شرح المفردات
٤٧	جمع الآيات وتفسيرها
٤٧	آيات الأنفس الأولى
٥١	التعقيد والدقة في نظام الخلق
٥٥	٢- آياته في نمو الجنين
٥٦	شرح المفردات
٥٧	جمع الآيات وتفسيرها
٥٧	عالم الجنين الفاضل
٦١	توضيحات
٦١	١- صورة في الماء
٦٢	٢- في ظلمات ثلاث

- ٣- مقر الأمن والامان ٦٢
- ٤- خصيمٌ مبين..... ٦٣
- ٥- تغذية الجنين ٦٣
- ٦- مصير الجنين من حيث الجنس ٦٥
- ٧- تعيرات سريعة ومبهمه ٦٥
- ٨- نظرة الرحم المستقبلية !! ٦٦
- ٩- كساء للعظام ٦٦
- ١٠- خروج الجنين ٦٧
- ١١- التغيرات المذهلة في لحظة الولادة ٦٧
- ١٢- بكاء الأطفال ٦٩
- ١٣- اليقظة التدريجية للعمل والحواس عند الأطفال ٧٠
- ١٤- غذاء الطفل مُمَدُّ قبل ولادته ٧١
- ٣- آياته في عالم الحياة ٧٣
- شرح المفردات : ٧٤
- جمع الآيات وتفسيرها ٧٦
- خَلَقَ الحياة آية الخلق:..... ٧٦
- توصيحات ٨٢
- ١- لغز الحياة الكبير ٨٢
- ٢- هل بإمكان الإنسان صناعة كائن حي؟ ٨٤
- ٤- آياته في خلق الروح ٨٧
- شرح المفردات : ٨٨
- جمع الآيات وتفسيرها ٨٩
- الروح أعجوبة عالم الخلقة : ٨٩

٩٤	توضيحات ..
٩٤	١- القوى الظاهرية والباطنية للروح ..
٩٥	٢- الروح .. الظاهرة الخفية في عالم الوجود .
٩٦	٣- نشاطات الروح المختلفة ..
٩٩	٤- مقارنة عقل الإنسان بالعقول الألكترونية
٩٩	٥- أصالة واستقلال الروح
١٠١	٦- خصوصيات الروح في القرآن الكريم
١٠٢	٧- مسك الختام حول الروح ..
١٠٣	٥- آياته في الهداية العظيمة والعزيمة للإنسان والحيوان
١٠٤	جمع الآيات وتفسيرها
١٠٤	أستاذ الأزل ..
١١١	توضيح الهداية العظيمة والعزيمة في العلم المعاصر
١١٩	٦- آياته في حالتي النوم واليقظة ..
١٢٠	شرح المفردات
١٢٠	جمع الآيات وتفسيرها ..
١٢٠	النوم من آيات الله ..
١٢٣	توضيح : طاهرة النوم الحقة :
١٢٥	٧- آياته في بسط السماوات والأرض .
١٢٧	شرح المفردات ..
١٢٩	جمع الآيات وتفسيرها
١٢٩	ارتفاع السماء آية حق ! ..
١٤٠	النتيجة : ..
١٤١	توضيحات ..

- ١- عَظُمَةُ وَوُسْعَةُ السَّمَوَاتِ..... ١٤١. ...
- ٢- الدُّقَّةُ الْعَجِيبَةُ فِي الْقَوَانِينِ الَّتِي تَحْكُمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ .. ١٤٢
- ٣- السموات السبع .. ١٤٤
- ٤- لِمَ لَا تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟..... ١٤٥
- ٨- آيَاتُهُ فِي خَلْقِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْجُجُومِ ١٤٧
- جمع الآيات وتفسيرها ١٤٨
- القَسَمُ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْجُجُومِ: ١٤٨
- توضيحات..... ١٥٨
- ١- هوية الشمس ١٥٨
- ٢- البركات العظيمة للشمس ١٦٠
- ٣- القمر وبركاته. ١٦٢
- ٤- الشمس والقمر في كلام الأئمة المعصومين عليهم السلام .. ١٦٤
- ٩- آيَاتُهُ فِي خَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ١٦٧
- جمع الآيات وتفسيرها ١٦٨
- النظام العجيب الليل والنهار: ١٦٨
- توضيحات..... ١٧٤
- ١- أهمية النور والظلام وفوائد الليل والنهار ١٧٤
- ٢- ظاهرة الليل والنهار في القرآن الكريم ١٧٥
- ١٠- آيَاتُهُ فِي خَلْقِ الْجِبَالِ ١٧٧
- شرح المفردات: ١٧٨
- جمع الآيات وتفسيرها ١٧٩
- البركات والأسرار العجيبة للجبال: ١٧٩
- توضيحات..... ١٨٥

- ١- الجبال والاعجاز العلمي للقرآن ١٨٥
- ٢- حديث للإمام الصادق عليه السلام حول الجبال ١٨٧
- ٣- كلام لعالم كبير ١٨٧
- ٤- حديث اعجازي حول تكوين الجبال ١٨٨
- ١١- آياته في تكوين الغيوم والرياح والأمطار ١٨٩
- شرح المفردات : ١٩١
- جمع الآيات وتفسيرها ١٩٣
- ظاهرة الريح والأمطار والأسرار الكامنة فيها : ١٩٣
- النتيجة : ٢٠٢
- توضيحات ٢٠٢
- ١- تكوين الرياح وفوائدها ٢٠٢
- ٢- أسرار تكوين الغيوم وهطول الأمطار ٢٠٥
- ٣- الرياح والأمطار في الروايات ٢٠٧
- ١٢- آياته في حدوث الرعد والبرق ٢١١
- شرح المفردات : ٢١١
- جمع الآيات وتفسيرها ٢١٢
- أسرار خلق الرعد والبرق : ٢١٢
- توضيحات ٢١٥
- ١- الرعد والبرق في نظر العلم المعاصر ٢١٥
- ٢- فوائد وبركات الرعد والبرق ٢١٦
- ١٣- آياته في خلق البحار والفلك ٢١٩
- شرح المفردات : ٢٢٠
- جمع الآيات وتفسيرها ٢٢١

٢٢١	عجائب البحار
٢٢٦	توضيحات
٢٢٦	١- البحرُ مركزُ لأنواع النعم
٢٣١	٢- البحرُ عالمُ العجائب
٢٣٣	٣- البحرُ في كلام المعصومين عليه السلام
٢٣٥	١٤- آياته في خلق الظلال
٢٣٦	شرح المفردات:
٢٣٦	جمع الآيات وتفسيرها
٢٣٦	هل إنَّ الظلَّ نعمةٌ عظيمةٌ؟
٢٤٠	توضيح: لو لم تكن هناك الظلال...؟
٢٤٣	١٥- آياته في عالم النباتات والثمار
٢٤٤	شرح المفردات:
٢٤٦	جمع الآيات وتفسيرها
٢٤٦	الورق الأخضر للأشجار:
٢٦٠	توضيحات
٢٦٠	١- التركيب العذهل للنباتات
٢٦٣	٢- فوائد وبركات النباتات
٢٦٥	٣- الأنواع غير المحدودة للنباتات
٢٦٦	٤- عجائبُ عالم النباتات
٢٦٩	٥- أسرار خلق النباتات في توحيد المفضل
٢٧٣	١٦- آياته في خلق الأرزاق العامة
٢٧٤	شرح المفردات:
٢٧٦	جمع الآيات وتفسيرها

- الكل يتنعم بهذه المائدة عدواً كان أم صديقاً: ٢٧٦
- توضيحات: ٢٨٧
- ١- من عجائب عالم الأرزاق: ٢٨٧
- ٢- هل أن الرزق مقسوم؟ ٢٩٠
- ٣- إذا كان الرزق مضموناً للجميع فلماذا يموت البعض جوعاً؟ ٢٩٢
- ٤- سعة الرزق وضيقه: ٢٩٣
- ١٧- آياته في خلق الطيور: ٢٩٥
- شرح المفردات: ٢٩٦
- جمع الآيات وتفسيرها: ٢٩٧
- الطير يُسَبِّحُ وأنا صامت! ٢٩٧
- توضيحات: ٣٠٢
- ١- فن الطيران المحقّد: ٣٠٢
- ٢- «عجائب الطيور» و«الطيور العجيبة»: ٣٠٤
- ٣- الطيور في خدمة الإنسان والبيئة: ٣٠٦
- ٤- دروس التوحيد في وجود الطيور: ٣٠٨
- ١٨- آياته في حياة النحل: ٣٠٩
- شرح المفردات: ٣١٠
- لتزور بلاد النحل: ٣١٠
- توضيحات: ٣١٤
- ١- حضارة النحل العجيبة! ٣١٤
- ٢- جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل: ٣١٧
- ٣- العسل غذاء مفيد ودواء شافٍ: ٣١٩
- ٤- خدمات أخرى للنحل أثنى من العسل! ٣٢٢

- ٥- البناء الجسمي للنحل عجيبٌ أيضاً! ٣٢٣
- ١٩- آياته في خلق الحيوانات ٣٢٥
- شرح المفردات: ٣٢٧
- جمع الآيات وتفسيرها ٣٢٨
- ماذا يجري في عالم الحيوانات ؟ ٣٢٨
- توضيحات ٣٤٢
- ١- عجائب عالم الحيوانات ٣٤٢
- ٢- ترويض الحيوانات ٣٤٢
- ٣- ذكاء الحيوانات ٣٤٣
- ٢٠- آياته في خلق أعضاء جسم الإنسان ٣٤٧
- شرح المفردات: ٣٤٨
- جمع الآيات وتفسيرها ٣٥٠
- الدور الحساس لآلات المعرفة: ٣٥٠
- توضيحات ٣٥٦
- ١- عجائب أعضاء الجسم ٣٥٦
- ٢- اللسان، هذا العضو المحترف! ٣٥٨
- ٢١- آياته في الحياة الاجتماعية للإنسان ٣٦٣
- جمع الآيات وتفسيرها ٣٦٤
- شرح المفردات: ٣٦٤
- تفسير وتحليل: الروح الاجتماعية للبشر واحدة من أعظم المواهب الإلهية ٣٦٦
- توضيح: هل للمجتمع روحٌ؟ ٣٧٢
- كلمة الختام: ٣٧٤